

ياكوب بوركهارت

ميراث الترجمة

حضارة عصر النهضة
في إيطاليا ٢

ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد



المجلد الثاني

826

المكتبة
القومية
بمصر



المشروع القومي للترجمة

حضارة عصر النهضة في إيطاليا

المجلد الثاني

- اكتشاف العالم والإنسان
- المجتمع والاحتفالات
- الأخلاق والدين

تأليف : ياكوب بوركهارت

ترجمة : عبد العزيز توفيق جاويد



المشروع القومي للترجمة

إشراف : جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة

المحرر : طلعت الشايب

- العدد : ٨٢٦

- حضارة عصر النهضة فى إيطاليا - المجلد الثانى

- ياكوب بوركهاردت

- عبد العزيز توفيق جاويد

- الطبعة الأولى ٢٠٠٥

هذه ترجمة كتاب :

THE CIVILIZATION OF THE RENAISSANCE IN ITALY

VOLUME II

JACOB BURCKHARDT

ملاحظة لمترجم الكتاب من الألمانية إلى الإنجليزية

هذه ترجمة للطبعة الألمانية الخامسة عشرة ، مع إضافات طفيفة للنص وإضافات كبيرة للهوامش على يد الدكتور لودفيج جايجر والبروفيسور فالتر جوتز.

وفى بعض حالات قليلة عندما اختلفت آراء الدكتور جايجر والبروفيسور جوتز عن الآراء التى قدمها الدكتور بوركهاردت فإننى قمت بالتنويه عن هذا الاختلاف بوضع قوسين مربعين [] حول آرائهما مع وضع الأحرف الأولى من أسماء كل منهما قرين المحوطة.

وتظهر الصور فى طبعتنا الحالية لأول مرة فى الترجمات الإنجليزية لهذا العمل. ولم تحتو الطبعات الإنجليزية السابقة على أى صور. ونأمل أن يجد القارئ هذه الصور إضافة مفيدة للنص.

س. ج. ش. ميدلمور

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٢٥٢٣٩٦ فاكس ٧٢٥٨٠٨٤

El Galalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 7352396 Fax : 7358084.

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

المحتويات

القسم الرابع

اكتشاف العالم والإنسان

صفحة	
7	الفصل الأول : رحلات الإيطاليين
13	الفصل الثاني : العلوم الطبيعية بإيطاليا
23	الفصل الثالث : اكتشاف الجمال الطبيعي
37	الفصل الرابع : اكتشاف الإنسان - الوصف الروحي في الشعر
67	الفصل الخامس : التراجم
81	الفصل السادس : وصف الأمم والمدن
85	الفصل السابع : وصف الإنسان الخارجي
91	الفصل الثامن : وصف الحياة أثناء الحركة

القسم الخامس

المجتمع والاحتفالات

101	الفصل الأول : المساواة بين الطبقات
111	الفصل الثاني : تهذيبات الحياة البرانية
123	الفصل الثالث : اللغة أساساً للاختلاط الاجتماعي
131	الفصل الرابع : الأشكال العليا للمجتمع

صفحة

137 الفصل الخامس : الرجل الكامل فى المجتمع
145 الفصل السادس : مركز المرأة
152 الفصل السابع : الاقتصاد المنزلى
159 الفصل الثامن : الاحتفالات

القسم السادس
الأخلاق والدين

189 الفصل الأول : الناموس الأخلاقى
215 الفصل الثانى : الدين فى الحياة اليومية
255 الفصل الثالث : الدين وروح النهضة
271 الفصل الرابع : خليط من الخرافات العتيقة والعصرية
305 الفصل الخامس : شيوع التفكك فى العقيدة
315 الهوامش

القسم الرابع

اكتشاف العالم والإنسان

الفصل الأول

رحلات الإيطاليين

إن العقل الإيطالي، وقد تحرر من القيود التي لا حصر لها والتي كانت عائقاً بمناطق أخرى من أوروبا يحول دون التقدم، ويعد أن بلغ درجة عالية من التقدم الفردي ويعد أن هذبه تعليم العصور العهيدة، أخذ (العقل الإيطالي) عند ذاك يلتفت حوله إلى اكتشاف العالم الخارجي وإلى القيام بتمثيله باللفظ وبالشكل المجسم.

فأما عن رحلات الإيطاليين إلى أصقاع العالم البعيدة فليس يسعنا هنا إلا الإلقاء بملاحظات عامة قليلة. كانت الحروب الصليبية قد فتحت أمام العقل الأوروبي آفاقاً بعيدة، وأيقظت حب الأسفار والمغامرة فيهم جميعاً. وربما كان من الصعب الدلالة بدقة على النقطة التي حالفت عندها هذه العاطفة أو أصبحت خادمة للرغبة المتعطشة إلى المعرفة؛ ولكن إيطاليا هي المكان الوحيد الذي تمت فيه هذه العملية لأول مرة وإلى أقصى درجة من التمام. وحتى الحروب الصليبية نفسها كان اهتمام الإيطاليين أوسع مجالاً من اهتمام الأمم الأخرى، وذلك لأنهم كانوا بالفعل قوة بحرية ولهم علاقات تجارية مع الشرق. ومنذ أزمان سحيقة منح البحر المتوسط الشعوب الساكنة على شواطئه بوافع عقلية تختلف عن تلك الدوافع التي كانت تتحكم في شعوب الشمال؛ ولم يستطع الإيطاليون قط، بحكم طبيعتهم الفطرية نفسها وتركيبهم التكويني،

أن يكونوا من المغامرين بالمعنى الذى تحمله الكلمة عند التيتون. فما يكادون يآلفون المقام فى جميع موانئ البحر المتوسط الشرقية كان من الطبيعى أن أشدهم مغامرة لا بد أن يدفع إلى الانضمام إلى تلك الحركة الدولية الهائلة للمسلمين التى كان هناك منتهاها ومخرجها. وإن نصفاً جديداً من العالم - إن صح هذا القول - كان واقعاً تحت أبصارهم ومكتشفاً حديثاً أمام أعينهم. أو قل إنهم - شأن ماركو بولو البندقى - قد انقطعت بهم الأسباب فى تيار الشعوب المغولية واجتروا إلى درجات عرش الخان الأعظم ، فمنذ حقبة بالغة القدم نجد الإيطاليين مشتركين فى الاكتشافات التى تمت فى المحيط الأطلنطى، فمما يذكر بالفضل للجنوبيين أنهم هم الذين اكتشفوا فى القرن الثالث عشر جزر كنارى^(١) وفى نفس السنة (١٢٩١) ضاعت مدينة بطليماس آخر بقايا الشرق المسيحى ، وللمرة الثانية كان الجنوبيون أيضاً أول من قام بأول محاولة معروفة لاكتشاف ممر بحرى إلى جزر الهند الشرقية^(٢) وما كولبس نفسه إلا أعظم أفراد قائمة طويلة من الإيطاليين الذين قاموا فى خدمة الأمم الغربية بشق عباب البحار البعيدة ، على أن المستكشف الحق مع ذلك ليس بالرجل الذى كان أول من تصادف أنه اصطدم بأى شىء وتعثرت قدماه فيه ، ولكنه الرجل الذى يجد ما قد خرج فى طلبه ، فمثل هذا الفرد وحده هو الذى يقف محكم الاتصال بفكر سابقه ومصالحهم، وهذه العلاقة سوف تحدد أيضاً البيان الذى يقدمه عن بحثه. وذلك هو السبب فى أن الإيطاليين، وإن كان ادعاؤهم إنهم أول من هبط إلى ذلك الشاطئ أو ذاك يمكن أن يثار حوله الجدل، سوف يحتفظون مع ذلك بلقبهم بأنهم فى المقام الأول هم شعب الاكتشافات أثناء الجزء الأخير من العصور الوسطى. وغنى عن البيان أن البرهان الأوفى على الدليل الكامل على هذا الادعاء يندرج تحت تاريخ الاكتشافات^(٣) ولكننا لن نتفك دائماً وأبداً ننظر بإعجاب للشخصية الباهرة للجنوبيين العظام، الذين تم على أيديهم إن قارة جديدة وراء الأوقيانوس طُلبت وتُصوِّرت واكتُشفت، والذين كانوا أول من استطاع بحق أن يقول *Il mondo e poco* أى "إن العالم ليس بالكبير الذى زعمه الناس". وفى الوقت الذى منحت فيه إسبانيا البابا اسكندر السادس للإيطاليين منحت إيطاليا كولبوس للإسبان. وقبل وفاة ذلك البابا ببضعة أسابيع وبالتحديد (٧ يوليو ١٥٠٢)، كتب كولبوس من جامايكا خطابه النبيل إلى الملوك الكاثوليك الجاحدين

لفضله، ذلك الخطاب الذي لن تستطيع العصور التالية قراءة ته بغير انفعال عميق^(٤) ففي ملحق وصيته^(٥) المؤرخ في ٤ مايو ١٥٠٦ بمدينة فالادوليد Vallodolid (بلد الوليد)، وهب كوليبوس إلى جمهورية جنوا، "وطنه الحبيب، كتاب الصلوات الذي أعطاه إياه البابا اسكندر، والذي كان له في السجن، وأثناء الكفاح وفي كل أن وحين من أحيان الخصومة، مصدر السلوى ورأس العزاء". وكأنما ألفت هذه الكلمات على اسم بورجيا القبيح المبغض إلى النفوس شعاعاً أخيراً من الفضل والرحمة.



شكل ١٢٨ خريطة لجزء من توسكانيا

رسمها ليوناردو دافنشي

وينبغي أن نتعرض للتطور في العلوم الجغرافية والعلوم المرتبطة بها بين الإيطاليين، مثل تاريخ رحلاتهم، ولكن باختصار شديد. ولا شك أن موازنة سطحية بين إنجازاتهم وبين إنجازات الأمم الأخرى توضح في جانبهم تفوقاً مبكراً وأخذاً للإيطاليين. فآين، في منتصف القرن الخامس عشر، كنت تجد إلا في إيطاليا تلك المجموعة الموحدة من المعرفة الجغرافية والإحصائية والتاريخية كالتى نجدها عند إينياس سيلفيوس Æneas Sylvius فلسنا فقط نجد في عمله الجغرافى العظيم،

بل وأيضاً في تعقيباته ورسائله أنه يصف، بأستاذية مساوية، المناظر البرية والمدن والأخلاق والصناعات والمنتجات والأحوال السياسية ونظم الحكم، حيثما استطاع استخدام ملحوظاته الخاصة أو شهادة شهود العيان. وأما ما ينقله من الكتب فهو بطبيعة الحال أقل شأناً. وحتى ذلك الوصف التخطيطي المجمل^(٦) لذلك الوادى الممتد بجبال الألب التيرولية، حيث منحه فريدريك الثالث إقطاعاً كنسياً، بل وأكثر من ذلك وصفه لاسكوتلندا، لا يدع شيئاً واحداً من العلاقات القائمة فى الحياة الإنسانية لا يمسه، ويظهر قوة ومنهاجاً فى دقة الملاحظة والمقارنة غير المتحيزة محال أن يظهرها إلا لمواطن لكولبوس، تدرب فى مدرسة القدماء. وغنى عن البيان أن ألقاً من الناس شاهدوا، كما عرفوا جزئياً، ما كان يعمل، ولكنهم لم يحسوا بأى دافع يدفعهم إلى تصوير صورة لذلك، كما لم يدر بخلدهم ولا وعيهم أن العالم كان يرغب فى مثل هذه الصور.



شكل ١٢٩ الفنان

من "نظرة على فلورنسا" - تصوير هيرسمان ، لايبزج

ومن العبث، فى الجغرافيا^(٧) وفى المواد الأخرى أيضاً، محاولة التمييز بين مقدار ما ينسب إلى دراسات القدماء ومقدار ما ينسب إلى نبوغ الإيطاليين الخصوصى. فقد كانوا يرون ويعالجون ما فى هذا العالم من أشياء من وجهة نظر موضوعية، حتى قبل

أن يصبحوا ملمين بالأداب العهيدة، وذلك لأنهم من ناحية جزئية كانوا هم أنفسهم شعباً نصف عهيد، ومن ناحية جزئية أخرى لأن الظروف السياسية أهلتهم لذلك مقدماً؛ ولكنهم ما كانوا يصلون إلى ذلك الكمال بمثل هاته السرعة لولا أن قدماء الجغرافيين دلوهم على الطريق. وكذلك أيضاً كانت تأثيرات الأدب الجغرافى الإيطالى الموجود بين أيديهم على روح وميول الرحالة والمستكشفين مما لا يقوم بثمن. وإنه حتى الهاوى المتذوق dilettante البسيط لأى علم من العلوم- لو أننا فى هذه الحالة الراهنة نسبنا إينياس سيلفيوس إلى هذه المرتبة البالغة الضعة - يمكنه أن ينشر مجرد ذلك النوع من الاهتمام العام بالموضوع الذى يمهد الطريق لظهور رواد جدد ، وذلك هو الأس الذى لا مناص منه لقيام ميل عام مواتٍ فى العقل العام. ويعرف المكتشف المخلص الحق فى أى علم جيد المعرفة كم هو مدين لمثل هذه الوساطة والوسيط.

الفصل الثاني

العلوم الطبيعية بإيطاليا

يجب علينا حين نتحدث عن موقف الإيطاليين من العلوم الطبيعية أن نُرجع القارئ إلى الأبحاث الخاصة في ذلك الموضوع، تلك الأبحاث التي نعرف منها فحسب ذلك العمل السطحي المنتقص الذي أتمه ليبري^(١) Libri على أن أسبقية اكتشافات معينة لا تهمنا إلا قليلاً، ما دمنا نتمسك بأنه، في أي وقت، وبين أكناف أي شعب متحضر، ربما ظهر رجل يبدأ جهده باستعدادات قليلة، ثم ما يلبث، كأنما يدفعه دافع لا سبيل إلى رده ومقاومته إلى طريق البحث العلمي، ويستطيع من خلال مواهبه الفطرية إنجاز أشد أنواع النجاح استرعاء للدهشة. ومن هؤلاء الرجال كان جيربير من رانس Gerbert of Reims وروجر بيكون Roger Bacon. فأما كونهما أساتذة لكافة أنواع المعرفة في عصرهما على اختلاف تخصصاتهما فقد كان نتيجة طبيعية للروح التي كانا يعملان بها. وإذا حدث أن قناع الأوهام مُزَّقَ إرباً، وأن الرهبة من الطبيعة والعبودية للكتب والمآثور تم قهرها والتغلب عليها، تبين أن ألقاً لا تحصى من المسائل كانت مطروحة أمامهما للحل. على أن الأمر يختلف تماماً عن هذا عندما يجد شعب بأسره لذة وابتهاجاً طبيعياً في دراسة وبحث الطبيعة، في وقت تبدى فيه الشعوب الأخرى قلة مبالاة - أو بعبارة أخرى عندما يكون المكتشف غير مهرد ولا منقياً مُتْجَاهِلاً تجاهلاً تاماً، ولكنه مستطيع أن يعتمد على المساندة الودودة للأرواح المجانسة له. وعندى أن ذلك هو حال إيطاليا دون أدنى مراة^(٢) فلا يبرح الدارسون الإيطاليون للطبيعة يتعقبون بالفخار في "الكوميديا الإلهية" Divine Comedy تلك الإشارات والبراهين التي تنبئ باهتمام دانتي العلمي بالطبيعة^(٣) ولا بد لنا إزاء ادعاءاته بالأسبقية إلى هذا الاكتشاف أو السند أن نترك الأمر لرجال العلوم يفصلون فيه؛ على أنه لا بد لكل رجل علماني من أن يفتن ويصعق لماله من ثراء في الملاحظة حول العالم الخارجي، التي تبدو فقط في

صوره وموازناته. فإنه وحده ، أكثر من أى شاعر حديث ، يلتقط ملحوظاته من الحقيقة نفسها، سواء أكان ذلك فى الطبيعة أو فى الحياة البشرية ، ثم لا يستخدمها قط أبداً كمجرد زينات ، ولكن بقصد أن يقدم للقارئ أدق وأوفى وأكمل مغزى لمعناه. وإنه فى علم الفلك بخاصة ليبدو متخصصاً علمياً بحثاً ، وإن وجب ألا يغيب عن أذهاننا أن كثيراً من الإشارات والتلميحات الفلكية الواردة فى قصيدته العصماء ، التى تبدو اليوم لنا من المُسلّمات العلمية المعلومة، لابد أنها كانت عندئذ مفهومة بوضوح للقارئ العام. ونحن نعلم، بغض النظر عن العلم والتبحر فيه ، أن دانتي ليرضى المعرفة الشعبية بالسماء ويحوز إعجابها، وذلك على أساس الحقيقة المجردة بأن الإيطاليين قوم بحريون (نوتية) كانوا يشتركون فى حوزتها مع القدماء. وهذه المعرفة عن شروق وغروب مجموعات الكواكب والنجوم، قد دفعت للخلف وأصبحت زائدة عن الحاجة فى العالم الحديث بفضل التقويم الزمنى والساعات. وذهب معها كل اهتمام بعلم الفلك كان يخامر الناس يوماً ما. أما الآن، فيما قيض لنا من مدارس وكتب مدرسية تخصصية، أصبح كل طفل يعرف - ما لم يكن دانتي يعرفه - أن الأرض تدور حول الشمس؛ ولكن الاهتمام الذى صبَّ ذات يوم على ذلك الموضوع نفسه قد حل مكانه، اللهم إلا عند أشد الفلكيين تخصصاً، أقصى درجات الإهمال.



شكل ١٣٠. لوكا باكيولى، رسم چاكوبو دى بابارى
المتحف القومى، نابولى

ولا يستطيع العلم الزائف، الذي كان هو الآخر يعنى بالنجوم، أن يقف دليلاً على أى شىء ينقض الروح الاستنباطية لدى الإيطاليين فى ذلك الزمان، ثم لم يلبث الإيطاليون أن جاوزوا تلك الروح، كما أنهم تغلبوا عليها فى أحيان، بفضل تلك الرغبة العارمة فى اختراق المستقبل. وستعاود الحديث فى موضوع التنجيم عندما نُصل إلى الحديث عن أخلاق الشعب وسماته الدينية.



شكل ١٣١ دراسة زهرة ، من كراسة رسم چاكوبو بيليني
متحف اللوفر، باريس

وكانت الكنيسة تعامل ذلك النوع وغيره من العلوم الزائفة فى شىء من التسامح الدينى دائماً تقريباً ، وتُبدى العداء الفعلى حتى للعلم الحق ، وذلك فقط إذا وُجِّهت تهمة الهرطقة أو السحر مضافة إلى الموضوع - وذلك بال تأكيد كان هو الوضع فى كثير من

الأحيان. وهناك نقطة يهمننا أن نبت فيها هي هل ، وفي أى الأحوال والقضايا ، كان رجال محكمة التفتيش الدومينيكان (والفرانسييسكان أيضاً) فى إيطاليا على دراية وعلم بزيف التهم الموجهة للمتهمين، ومع ذلك ظلوا على اتهامهم وإدانتهم إياهم، إما لإرضاء بعض أعداء السجن أو عن كره للعلوم الطبيعية، وبخاصة للتجارب (العلمية). وكانت الحالة الثانية تحدث دون أدنى ريب، وإن لم يكن من السهل إثبات الحقيقة من أمرها. والشئ الذى ساعد على قيام هذا النوع من الاضطهاد فى بلاد الشمال - أى المعارضة التى يوجهها نحو المجددين جماعة المساندين والمؤيدين لنظام الطبيعة المدرسانى الرسمى المتلقى عن الأقدمين - كان ضعيف الشأن ، أو قل عديم الوزن على الإطلاق فى إيطاليا. فإن بييترو من ألبانو Pietro of Albano وقع، فى بداية القرن الرابع عشر، ضحية لحسد طبيب آخر اتهمه أمام محكمة التفتيش بالمهرطقة والسحر^(٤). كما أن شيئاً من هذا القبيل ربما حدث لمعاصره الباونانى جيوفانينو سانجينايتشى Giovannino Sanguinacci ، الذى كان معروفاً بأنه مجدد فى الممارسات الطبية. ومع ذلك فإنه نجا بأن نفى من المدينة. وكذلك لا ينبغى أيضاً أن يفوتنا أن نذكر أن سلطان محاكم التفتيش الدومينيكية كان يمارس بطريقة أقل اطراداً فى إيطاليا منه فى الشمال. وكان الطغاة والمدن الحرة فى القرن الرابع عشر يعاملون رجال الدين باحتقار شديد مبالغ فيه أحياناً، إلى حد أن أموراً تختلف كثيراً عن العلوم الطبيعية كانت تذهب بلا عقاب^(٥) ولكن بحلول القرن الخامس عشر، عندما أصبح العصر العهيد هو القوة المتزعمة القائدة بإيطاليا، كان الصدع الذى أحدثه فى النظام القديم قد أصبح يوضع فى موضعه الصحيح ويحسب حسابه بواسطة كل فرع من فروع العلوم الزمنية غير الدينية. ومع ذلك فإن المذهب الإنسانى اجتذب لنفسه أقوى وأفضل القوى التى تمتلكها الأمة ، وبذلك أنزلت بدون ريب الأضرار بالأبحاث الاستنباطية فى الطبيعة^(٦) وكثيراً ما حدث هنا وهناك أن دبت الحياة فجأة فى محاكم التفتيش وأخذت تعاقب الأطباء أو تحرقهم بوصفهم كفرة مجدفون أو سحرة. ومن العسير فى مثل هاته الحالات أن نكتشف الباعث الحقيقى وراء التهمة الموجهة. كما أنه، رغم كل شئ ، حدث بعد انتهاء القرن الخامس عشر أن بلغت إيطاليا الذروة فى الرياضيات والعلوم الطبيعية بين الأمم الأوروبية على يد باولو توسكانيلى Paolo Toscanelli

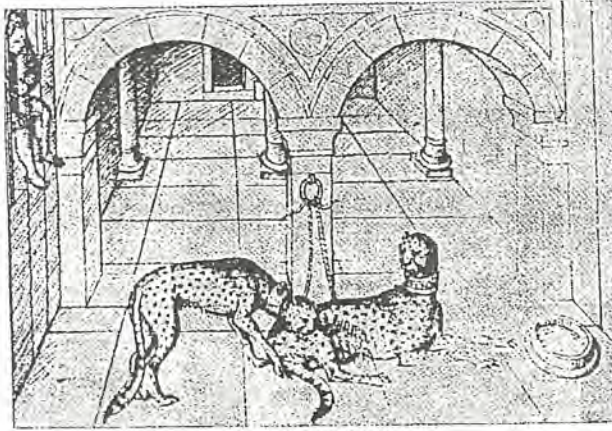
ولوكا باكيولي Luca Paccioli وليوناردو دافينشى Leonardo da Vinci ، كما أن علماء كل الأقطار، حتى ريجيومونتانوس Rigiomontanus وكوبرنيكوس Copernicus ، كانوا يعترفون بأنهم من تلاميذهم^(٧)



شكل ١٣٢ دراسة أسد، من كراسة رسم چاكويو بيليني
متحف اللوفر، باريس

وهناك دليل له أهميته على انتشار الاهتمام بالتاريخ الطبيعي، وهو يتجلى في الحمية التي تبنت منذ فترة مبكرة نحو جمع النباتات والحيوانات ودراستها دراسة مقارنة. إذ تدعى إيطاليا أنها المهد والمبدع الأول لحدائق النباتات، وإن أمكن تماماً أن يكون القصد منها خدمة أغراض عملية بحتة ، كما أن ادعاء السبق يمكن الشك فيه ومنازعتة^(٨) وأكثر من ذلك أهمية عظمى أن الأمراء والأغنياء من الرجال كانوا، في ثانيا استعراضهم لحدائق النزهة التي يملكونها، يعمدون بدافع غريزي إلى جمع أكبر عدد ممكن من مختلف النباتات بكل نوعياتها وأصريها. وهكذا، في القرن الخامس عشر، فإن الأراضي البديعة المحيطة بقبلا كاريجي الخاصة بعائلة دي ميديتشي تظهر، نقلاً عن الأوصاف التي وصلتنا عنها، وكأنها تكاد^(٩) تكون حديقة نباتات كاملة بما فيها من العينات التي لا حصر لها من مختلف أنواع الأشجار والشجيرات. ومن نفس الشاكلة كانت هناك قبلا الكاردينال تريقولتزيو Trivulzio ، عند بداية القرن السادس عشر، في الكامبانيا Campagna الرومانية تجاه تيفولي^(١٠)، فكان بها

سياجات مكونة من نوعيات متعددة من الورود، مع أشجار من جميع الأوصاف - فضلاً عن أشجار الفاكهة التي قصد بها بوجه خاص أن تبدي تنوعاً مدهشاً - وعشرون نوعاً مختلفاً من الكروم وحديقة مطبخ واسعة الأرجاء. ومن الجلى أن هذا شيء شديد الاختلاف عن تلك العشرات أو العشرينات القليلة من أنواع النباتات الطبية المألوفة التي كان يمكن العثور عليها في حديقة أى قلعة أو دير في أوروبا الغربية. وسنجد، إلى جوار عناية مبذولة في استزراع الفواكه لأغراض المائدة، اهتماماً بالنبات من أجله هو نفسه التماساً للسرور الذى يجلبه للعين. ونعلم من تاريخ الفنون كم مدة طويلة انقضت حتى فتر ذلك الولع الشديد بحدائق النباتات وأهملت جانباً وحل محله ما كان يعد أنه الطراز الخلاب لفلاحة البساتين المنصّب على تنسيق الحدائق أو البستنة المناظرية.

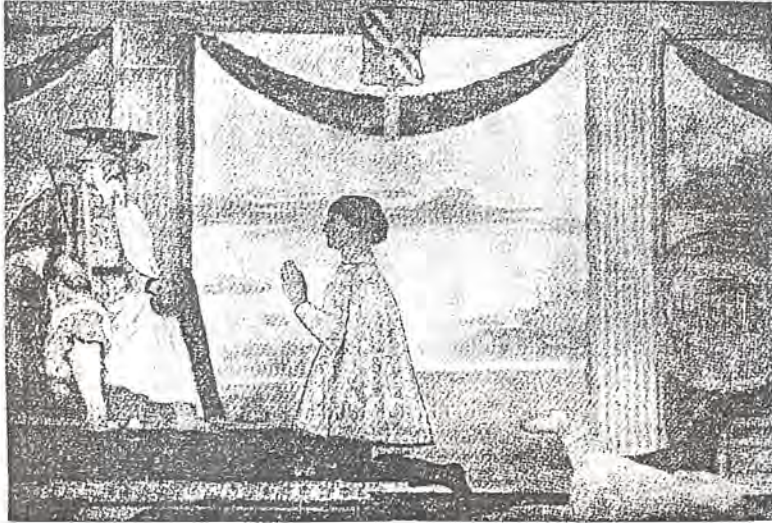


شكل ١٢٢ فهود. من كراسة رسم چاكوبو بيليني

متحف اللوفر، باريس

وكانت مجموعات الحيوانات الأجنبية أيضاً لا تثير وتشبع فضول الناس فحسب ، بل تخدم كذلك الأغراض الأسمى للملاحظة والمشاهدة. كما أدت سهولة النقل من موانئ البحر الأبيض المتوسط الجنوبية والشرقية ، فضلاً عن اعتدال المناخ الإيطالى إلى تيسير شراء أضخم حيوانات الجنوب جسماً أو تقبلها هدايا من السلاطين^(١١) وكانت المدن والأمراء شديدي الشغف باقتناء الأسود الحية، حتى ولو لم يكن الأسد،

كما هو الحال في فلورنسا، شعاراً للدولة^(١٢) ومن هنا كان عرين الأسد يوضع عموماً داخل أو قرب سراى الحكومة، كما كان هو الحال في بيروجيا وفلورنسا؛ فأما في روما فكان موقعه منحدر الكابيتول. وكانت تلك الوحوش أحياناً تقوم بعمل المنفذين للأحكام السياسية^(١٣)، كما أنها لا جدال، بمعزل عن هذا، كانت تحتفظ بضرب من الرعب العام حياً في عقل أفراد الشعب. وكان الناس يتخذون من أحوالها الفأل بالخير أو التطير بالبشر. وكانت خصوبتها بخاصة تعد علامة على الرغد العام، ولا أقل من أن رجلاً مثل جيوفاني فيلاني Giovanni Villani رأى من الجدير بالتسجيل أنه كان موجوداً عند ولادة إحدى اللبوات^(١٤) وكثيراً ما كانت الأشبال تهدي إلى الولايات الحليفة أو إلى الأمراء، أو إلى قواد المرتزقة Condottieri كآية للاعتراف بإقدامهم وبسالتهم^(١٥) وبالإضافة إلى الأسود بدأ أهل الفلورنسا منذ زمن مبكر في اقتناء الفهود، التي كان يعين لها حارس خاص^(١٦) وقد اعتاد بورسو^(١٧) من فيرارا Borso of Ferrara أن يطلق أسوده لمقاتلة الثيران والدببة والخنازير المتوحشة.



شكل ١٣٤ سيجيسموندو مالاتيسا مع كلبه
ليبيرو ديللا قرانشيسكا
ريميني، الكاتدرائية

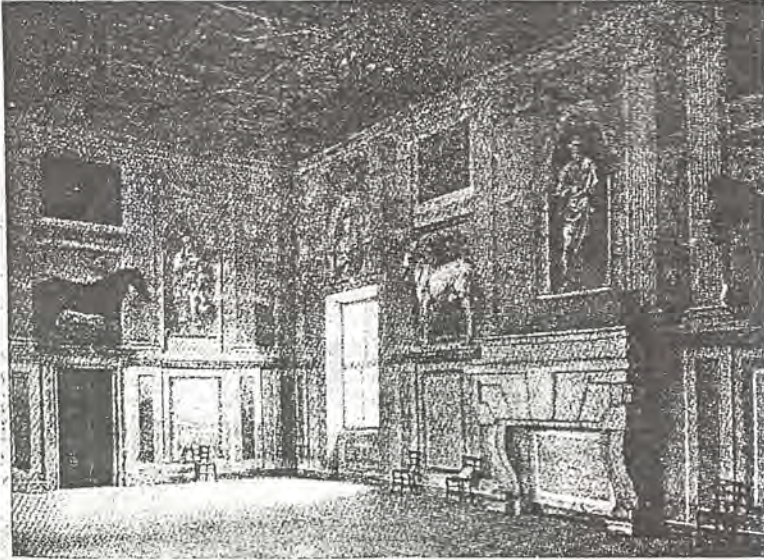
وعند قرب انتهاء القرن الخامس عشر أقام كثير من الأمراء معارض الوحوش (Serragli)، بعد أن أصبحت تعد عندئذ جزءاً من تجهيزات أى بلاط. ويقول ماتارازو^(١٨) "Matarazzo وكان الاحتفاظ بالخيول والكلاب والبغال والصقور وغيرها من الطيور ومضحكى البلاط والمغنين والحيوانات الأجنبية المستوردة، يعتبر مما يتواءم ويليق بمركز العظماء". وفى نابولي كان معرض الوحوش فى زمن فيرانتى Ferrante وغيره، يحتوى على زرافة وحماراً وحشياً، أهدهما فيما يبدو، خليفة بغداد^(١٩). ولم يكن فيليبو ماريا فيسكونتى Filippo Maria Visconte يمتلك فحسب خيولاً كان كل منها يكلفه خمسمئة أو ألف قطعة ذهبية، كما كان لديه كلاب إنجليزية قيمة القدر، بل وأيضاً عدداً من الفهود مجلوبة من كل أصقاع الشرق؛ وبلغت نفقات طيور صيده، التى جمعت من أقاليم شمال أوروبا، ثلاثة آلاف قطعة ذهبية شهرياً^(٢٠) كما نقرأ فى برونيتو لاتينى "Brunetto Latini" يقول أهل كريمونا Cremona إن الإمبراطور فريدريك الثانى اجتلب إلى مدينتهم فيلاً، أرسله بريستر چون Prester John من بلاد الهند؛ ويسجل بترارك الوفيات من الأقبال فى إيطاليا^(٢١) وكان الملك عمانويل الأكبر ملك البرتغال يعرف جيداً ما كان يفعله عندما أهدى البابا ليو العاشر فيلاً وخرتياً^(٢٢) وتحت تلك الظروف قامت الأسس العلمية لعلمى الحيوان والنبات.



شكل ١٣٥ سباق الخيل فى النصف الأول من القرن الخامس عشر
لرسام فلورنسى
متحف كنيفلاند

وكان إنشاء المزارع لتربية الخيول الأصيلة ثمرة عملية لهذه الدراسات فى علم الحيوان، وكان أول هذه المزارع تلك التى أقيمت فى مانتوا فى عهد فرانثيسكو جونزاجا^(٢٣) Francesco Gonzaga. وغنى عن البيان أن كل اهتمام بالخيل ومعرفة

بسلاطتها قديم قدم ركوبها نفسه، كما أن عبور أوروبا بالحصان الأسيوي كان شائعاً منذ أيام الحروب الصليبية. وفي إيطاليا قُدِّمَ تشجيع خاص لتحسين نوع السلالة حين رصدت الجوائز في سباقات الخيول التي كانت تعقد في كل مدينة ذات شأن بكل أرجاء شبه الجزيرة. وكانت اسطبلات مانتوا تضم ما لا يشق لها غبار من ثوات السبق المطلق في هذه المضمارات، فضلاً عن خيرة الأفراس العسكرية، وأفضل الخيول استعداداً، بفضل هيئتها الجليلة الفخمة، لأن تقدم هدايا للعظماء من الرجال. وكان جونزاجا يحتفظ بمهاري وأفراس من إسبانيا وإيرلندا وأفريقيا وتراقيا وقيليقيا، كما أنه من أجل تلك الأخيرة أخذ يخطب ود السلطان. وكانت تجرى هنا كل أنواع التجارب الممكنة بقصد إنتاج أشد الحيوانات كمالاً.



شكل ١٣٦ قاعة الفروسية في بالاتزو ديل تي، مانتوا

ولم تكن المعارض الإنسانية بنادرة الحدوث. فإن الكاردينال زائع الصيت إيوليوتو دي ميديتشي^(٢٤) Ippolito de' Medici، الابن غير الشرعي لـجوليانو دوق نيمور، كان يحتفظ في بلاطه العجيب بفرقة من البرابرة الذين كانوا يتكلمون ما لا يقل عن عشرين

لغة مختلفة، وكانوا جميعاً بلا استثناء عينات مستوفاة الكمال لأجناسهم. وكان من بينهم voltigeurs أنقى مغاربة الشمال الأفريقي دماً، والناشبة (رماة السهام) من التتار، والمصارعون الزوج، والغواصون الغطاسون الهنود، والأتراك، وهم الذين كانوا في العادة يصحبون الكاردينال في رحلات الصيد والقنص التي كان يقوم بها. وعندما فاجأته منية مباحة (١٥٣٥) فإن هذه العصابة المتنافرة حملت جثمانه على أكتافها من إيتري Itri حتى روما، مازجين خليط ألسنتهم وإيماءاتهم^(٢٥) العنيفة مع حدادهم العام على الكاردينال الكريم السخي.

وليست هذه الملحوظات المتناثرة حول علاقات الإيطاليين بالعلم الطبيعي، واهتمامهم بتراء وتنوع منتجات الطبيعة، إلا جذازات متفرقة لموضوع كبير عظيم. وليس هناك إنسان أشد وعياً من المؤلف بالنقص في معارفه في هذا المجال. فأما عن المجموعة الضخمة من الأعمال والكتب التي يعالج فيها الموضوع معالجة وافية، فإنه حتى أسماءها نفسها ليست إلا معروفة لديه معرفة ناقصة بتراء.



شكل ١٣٧ رسم خنفسة لليوناردو دافينشي

الفصل الثالث

اكتشاف الجمال الطبيعي

ومع هذا فإن هناك خارج دائرة الأبحاث العلمية طريقة أخرى للاقترب من الطبيعة. فإن الإيطاليين هم أول الشعوب العصرية الذين تم على أيديهم رؤية العالم الخارجى ومشاهدته والإحساس به بوصفه شيئاً جميلاً^(١).

والقدرة على إتيان ذلك هى على الدوام نتيجة مؤكدة لتطور طويل الأجل معقد، كما أن الأصل فيه ليس من السهل اشتماحه وإدراكه ، وذلك نظراً لأنه ربما عاش شعور غامض من هذا النوع طويلاً قبل أن يتجلى واضحاً فى الشعر والتصوير، وبذا يصبح واعياً بذاته. مثال ذلك أنه حدث عند القدامى مثلاً أن مر الفن والشعر داخل الدائرة الكاملة للاهتمام البشرى ، قبل أن تحوّل إلى تمثيل الطبيعة ، وحتى عند ذلك كان الأخير منهما ، وهو الشعر ، يشغل على الدوام مكاناً محدوداً وثانويّاً. ومع هذا، فمنذ زمن هوميروس فناًزلاً كان الأثر القوى الذى أحدثته الطبيعة فى الإنسان جلياً يوضحه ما لا حصر له من القصائد والتعبيرات العارضة المصادفة. وكانت الأجناس الجرمانية، التى أنشأت دولها على أطلال الإمبراطورية الرومانية، ملائمة تماماً وبوجه خاص لفهم روح المناظر الطبيعية؛ ومع أن المسيحية أجبرتهم إلى حين أن يروا فى الينابيع والجبال، وفى البحيرات والغابات التى كانوا يوقرون حتى ذلك الحين، أنها من أعمال شياطين السوء، إلا أن هذه الفكرة العابرة ما لبثت أن زالت من أذهانهم بما بلغوا من رشاد. فما أن واقت سنة ١٢٠٠، والعصور الوسطى فى عنقوان أوجها، حتى عاد إلى الظهور إلى عالم الوجود استمتاع أصيل من القلب بالعالم الخارجى، ووجد تعبيراً غنائياً حياً فى أغانى الشعراء عند شعوب كثيرة^(٢)، الأمر الذى يشهد

بالعطف والحب اللذين يحس بهما الناس نحو جميع الظواهر الطبيعية البسيطة - الربيع بأزهاره، والحقول الخضراء، والغابات. على أن هذه الصور جميعاً إنما هي صدرية أمامية لا منظور لها. وحتى الصليبيون، الذين سافروا طويلاً بعيداً وشاهدوا كثيراً وغريباً، لا يستبانون كثيراً تحت هذا الوصف في هذه القصائد. والشعر الملحمي، الذي يصف الزرد والدروع والثياب بغاية الوفاء بالقصد، لا يحاول إلا الإتيان بمخططة كروكية ساذجة للطبيعة الخارجية الظاهرة؛ بل إنه لا يكاد قولفرام فون إشينباخ Wolfram von Eschenbach العظيم يعطينا في أى موضع من أعماله صورة كافية عن المشهد الذي يتحرك عليه أبطاله. ولن يستطيع إنسان أن يحسد استنتاجاً من هذه القصائد أن مؤلفيها النبلاء بجميع الأقطار كانوا يسكنون أو يزورون قلاعاً شامخة تشرف على متسعاً مترامية الأطراف. ولسنا نجد حتى في القصائد اللاتينية التي دمجها القسس المتجولين (المجلد الأول، القسم الثالث، الفصل الأول) أى أثر لمنظر مترام - أى لمنظر برى طبيعي بمعنى الكلمة - على أن الشيء القريب الدانى ليوصف أحياناً في شئ من الوهج والفخامة لا يستطيع أحد المنشدین الفرسان أن يتفوق عليه. فآية صورة عن مرج الهوى يمكن أن تعادل تلك التي رسمها الشاعر الإيطالي - الذي نعهه كذلك - في القرن الثاني عشر؟

Immortalis fieret

Ibi manens homo;

Arbor ibi quælibet

Suo gaudet pomo;

Viæ myrrha, cinnamo

Fragrant, et amomo-

Conjectari poterat

Dominus ex domo^(٢), etc.

وعلى كل حال فقد أصبحت الطبيعة عند ذلك الحين في عين العقل الإيطالي وقد فقدت ما يدنسها من إثم، كما نفضت عنها كل آثار القوى الشيطانية. فإن القديس فرانسيس الأسيسى، ليعمد صراحة في ترنيمته إلى الشمس Hymn to the Sun ، إلى الثناء على الله لخلقه الأجرام السماوية والعناصر الأربعة.



شكل ١٢٨ جزء من إطار "بوابة الفردوس" لجيبيرتى فى البابتستري، بفلورنسا

غير أن البرهان القاطع على ابتداء ظهور أثر أخذ في العمق للطبيعة في الروح البشرية إنما يبدأ مع دانتي. فهو لا يقتصر على أن يوقظ فينا بواسطة أبيات قليلة قوية الإحساس بأهوية الصباح والنور المرتعش على لجة المحيط البعيد، أو عن جلال الغابة التي ضربتها العاصفة فقط، بل إنه جعل يتوقل (يصعد) القنن السامقة، مع الاقتصار على الهدف الأوحد الممكن وهو الاستمتاع بالمنظر الجميل^(٤) - وهو بذلك ربما يكون أول إنسان قام بهذا منذ أيام العصر العهيد، فأما عند بوكاشيو، فلا يسعنا إلا أن نصل بطريقة الاستنتاج إلى مقدار تأثير المناظر الطبيعية الريفية عليه^(٥)؛ وعلاوة على ذلك فإن رواياته الرعوية الرومانسية العاطفية لتشهد لخياله بالتشبع بها. على أن أهمية الطبيعة عند روح ذات قدرة على التلقى والاستقبال لتتجلى تماماً وبكل وضوح عند بترارك - وهو أحد الرجال العصريين الخُص. أما ألكسندر فون هومبولت Alexander von Humboldt ، تلك الروح الصافية - الذي بدأ أولاً بأن جمع من آداب جميع الأقطار آيات تنبئ عن أصول وتقدمات الإحساس بالجمال الطبيعي (جمال الطبيعة)، وهو نفسه، في كتابه *Ansichten der Natur* ، بلغ الغاية في أستاذية الوصف - فإنه لم يف بترارك حقه الكامل؛ كما أننا في تتبعنا لخطى الحاصد الأعظم، لا نزال نأمل في أن نجمع بضع سنابل قليلة من الاهتمام والقيمة.



شكل ١٣٩ معجزة الربيع
مدرسة جيوتو، أسيسي، كنيسة القديس فراشيسكو العليا
تصوير دويتشه فرلاجس أنشتالت، شتوتجارت

لم يكن بترارك عالماً جغرافياً متبحراً فقط - إذ يقال أن أول خريطة لإيطاليا رسمت تحت توجيهه^(٦) - كما لم يكن فقط معيداً لوجود ومنتجاً لأمثال الأقدمين^(٧) بل شعر في نفسه أيضاً بأنه القوة المؤثرة والداعية لجمال الطبيعة. والاستمتاع بالطبيعة، يعد عنده، الرفيق الحبيب للدراسات والممارسات الفكرية؛ ومن أجل الجمع بين الاثنين عاش في عزلة مكبة على العلم في فوكلوز Vaucluse ومناطق أخرى، كما

أنه في بعض الحين كان يفر من العالم ومن عصره^(٨) ونحن نظلمه حين نستنتج من قدرته الضعيفة وغير المتطورة على وصف مناظر الطبيعة أنه لم يكن يحس بها بعمق. خذ مثلاً لذلك صورته لخليج سبيتزيا Spezzia الرائع الجمال وبورتو ثينيرى Porto Ve- nere ، التي يوردها نهاية الكتاب السادس عن أفريقيا Africa ، لمجرد أن أحداً من القدماء أو المحدثين لم يتغنُّ بها^(٩)، فهي ليست إلا تعداداً بسيطاً، ولكن الأوصاف التي كتبها في خطاباته إلى أصدقائه عن روما و نابولي ومدن إيطالية أخرى والتي تلكأ فيها بإرادته إنما هي صورة رائعة وجديرة بالموضوع. وبتراكم أيضاً شديد الوعي بجمال مناظر الصخور، كما أنه ذو قدرة كاملة على التمييز بين روعة الصورة والاستمتاع بالطبيعة وبين استخدام الطبيعة للمنفعة المفيدة^(١٠) وفي أثناء إقامته بين غابات ريجيو Reggio بلغ من تأثير رؤيته فجأة لمنظر طبيعي يرى أخاذ أنه عاود إكمال قرض قسيده كان قد نحاها جانباً منذ أمد بعيد^(١١) على أن أعمق الانطباعات جميعاً عليه إنما انطبع في نفسه بفضل توقل جبل قينتو Ventoux القريب من أفينيون^(١٢) على أنه تملكه توق لا سبيل إلى وصفه إلى بانوراما بعيدة، حتى انتهى به الأمر في النهاية إلى أن مشاهدته المصادفة لممر طبيعي في ليفي Livy ، حيث صعد الملك فيليب، عدو روما، جبل هيوموس Haemus ، جعلته يحسم الأمر. إذ رأى أن ما لا يلام عليه ملك وقور بما على رأسه من شيب ربما أمكن التماس العذر له عند شاب حدث ذي مكانة خاصة. ولم يكن صعود جبل من أجل الصعود في حد ذاته شيئاً سمع به الناس آنذاك، كما أنه لم يكن يدور في الخلد قط اصطحاب الأصدقاء أو المعارف. لذا لم يأخذ بتراكم معه إلا أخاه الأصغر فقط ورجلين من الريف اختارهما من آخر مكان حل به. وعند سفح الجبل التمس منه راع عجوز أن يعود أدراجه، قائلاً إنه هو نفسه حاول أن يتسلق الجبل قبل خمسين عاماً، ولم يعد إلى منزله إلا محملاً بالندم والعظام المكسورة والثياب الممزقة، وأن أحداً لم يجرؤ قبل ذلك ولا بعده أن يفعل مثله. ومع هذا فقد كافحوا وتقدموا أماماً وصعوداً، حتى وجدوا السحب ترقد تحت أقدامهم، وأخيراً بلغوا قمة الجبل. ولا مراء أن من سيطلب وصفاً للمنظر من أعلى قمة الجبل سيبحث عنه من غير طائل، لا لأن الشاعر كان عديم الحس به، بل على العكس، لأن الانطباع كان جارفاً غلاباً. إذ نهضت أمام عيني عقله ومخيلته حياته السابقة جميعها بكل ما فيها من

حماقات وطيش؛ فتذكر أنه قبل ذلك بعشر سنين غادر وطنه بولونيا شاباً، وألقى نظرة تشوق إلى بلده ومسقط رأسه؛ وفتح كتاباً كان في ذلك الوقت هو رفيقه الدائم ، وهو كتاب اعترافات القديس أوغسطين Confessions of St Augustine ، ووقعت عيناه على الفقرة في الفصل العاشر: "ويمضى الرجال قدماً، ويبدون إعجابهم بالجبال السامقة والبحار المترامية، والسيول العارمة، والمحيط، ومجرى النجوم، وينسون أنفسهم وهم يفعلون ذلك". ولم يستطع أخوه الذى كان يقرأ عليه هذه الكلمات أن يفهم لماذا أغلق الكتاب ولم ينطق بعد ذلك ببنت شفة.



شكل ١٤٠ المادونا فى الغابة
رسم بيليبو ليبي
برلين، متحف القيصر فريدريك

وبعد ذلك ببضع عشرات من السنين، حوالى ١٣٦٠، يأتى فازيو ديللى أوبرتى Fazio degli Uberti فيصِف فى منظومته الجغرافية^(١٣) (المجلد الأول، القسم الثالث،

الفصل الثانى)، البانوراما العريضة التى يمكن رؤيتها من جبال أوفرنى *Auvergne*، مظهرًا فيها، وهذا حقيقى، اهتمام الجغرافى وعالم القديميات دون غيرهما، ولكن مع ذلك يبدى بوضوح تام أنه رآها بنفسه. ومع ذلك، فلا بد أنه سعد بنفسه قيمتًا أعلى كثيرًا، وذلك لما يظهره من دراية بحقائق لا تحدث إلا عند ارتفاع عشرة آلاف قدم أو أكثر من سطح البحر - مثل دوار الجبال وما يصحبه من أعراض مرضية - وهى التى يحاول صديقه المتخيل المخلوق سولينوس *Solinus* أن يعالجه منها بواسطة قطعة من الإسفنج مغموسة فى عطر طيار. أما تسلق جبال بارناسوس والأوليمب^(١٤) الذى يتحدث عنه، فربما يكون مجرد قصة خرافية.

وفى القرن الخامس عشر يتولى عظماء وأساتذة المدرسة الفلمنكية، هوبرت ويوهان فان آيك، رفع النقاب فجأة عن وجه الطبيعة. فإن رسومهما للمناظر الطبيعية البرية ليست مجرد ثمرة لمحاولة عكس صورة العالم الحقيقى فى الفن، بل إنها تملك، حتى ولو عبّر عنها بالطريقة التقليدية المتواضع عليها، معنى شعريًا معيّنًا - هو بؤجز عبارة، روح لا شك فيها. وإن تأثيرهما فى فن الغرب بأكمله لشيء لا ينكر، كما أنه امتد إلى فن الرسم الملون للمناظر البرية الطبيعية لدى الإيطاليين، ولكن بدون منع الاهتمام الخصيصى المميز للعين الإيطالية نحو الطبيعة من اكتشاف تعبيرها الخاص.

ولا يفوتنا فى هذه النقطة، كما فى الوصف العلمى للطبيعة، أن نشير إلى أن إينياس سيلفيوس هو بدوره من أرجح أصوات زمانه وزنًا. وحتى لو سلمنا بعدالة ما قيل ضد خلقه، يجب علينا رغم ذلك أن نسلم أنه قل بين الرجال الآخرين من كانت معه صورة العصر وثقافته موضع التفكير العميق مثله، وأنه قل من اقترب أكثر منه إلى النموذج السوى من الرجال من أبناء عصر النهضة فى بواكيره. وربما أمكن إضافة كلمة بين قوسين أنه حتى فيما يتعلق بصفاته الأخلاقية فلن يجد منا عدالة لو أننا أصغينا فحسب إلى الشكاوى الصادرة من الكنيسة الجرمانية، التى ساعدت رعونته على تشييطها حول المجلس، التى كانت لها رغبة حارة فيه^(١٥).

وإنه هنا ليطالب بالتفاتنا إليه بوصفه أول من استمتع بفخامة المناظر البرية الطبيعية الإيطالية، وليس ذلك فقط، بل أقدم كذلك على وصفها بحماسة مرهفة، حتى

أدنى تفاصيلها وأشدّها دقة. فإنه كان يعرف معرفة يقينية كلاً من الدولة الكنسية وجنوب توسكانيا - موطنه ومسقط رأسه، ويعد أن أصبح بابا كان يقضى كل أوقات فراغه أثناء الموسم المناسب في رحلات يتجه فيها إلى الريف. وأخيراً انتهى الأمر بالرجل المصاب بالنقرس في شخصه أن أصبح من يسر الحال في ماله أن يُحمل على محفة من خلال الجبال والوديان؛ وعندما نقارن بين صنوف متعه وبين منغ البابوات الذين خلفوه في منصب البابوية، فإن بيوس، الذي تركز ابتهاجه الرئيسي في الطبيعة والعصر العهيد وفن العمارة الذي يجمع بين البساطة والنبالة، يبدو كأنما هو قديس تقريباً. فإنه بلغته اللاتينية الرشيقة السيالة في "تعقيباته" Commentaries يعمد بمنتهى الطلاقة إلى إبلاغنا عن مصدر سعادته^(١٦).

ويبدو أن عينيه كانتا من الحدة والتدريب كعيني أي مشاهد عصرى. فكان يستمتع بهجة شديدة بضروب الفخامة في أية بانوراما تتجلى في المنظر البادى من القمة في تلال ألبان-Alban فوق جبل مونت كافو-Monte Cavo التي كان يستطيع أن يرى منها شواطئ سان بيتر من تيراسينا Terracina وتتوء سيرس Circe إلى جبل مونت أرجنتارو Monte Argentaro ، والامتداد الرحيب للمنطقة المحيطة، مع مدن الماضى المدرسة، ومع سلاسل الجبال الممتدة بعيداً في وسط إيطاليا؛ وبعد ذلك تستطيع عيناه أن تلتف إلى الغابات الخضراء في الأغوار السفلية والبحيرات الجبلية المنتشرة بينها. وإنه ليحس جمال موقع تودى Todi، الذى يتوج مزارع الكروم والمنحدرات المكتسية بأشجار الزيتون ، وهو ينظر تحته إلى الغابات البعيدة وإلى وادى التيبر، حيث تعلق فيها المدن والحصون فوق النهر المتلوى. فأما التلال البديعة حول سيينا Sienna بما حوت من قبيلات وأديرة تقوم على كل ارتفاع، فهى داره وموطنه، وأوصافه لها يحفها ضرب خاص من الإحساس. وإن النظرة الفردة الجميلة لتفتن ليه أيضاً، شأن البروز الصغير لكابو دي مونت Capo di Monte الذى يمتد داخل بحيرة بولسينا Bolsena. ونحن نقرأ ما يلى: "إن الدرج الحجرى الذى تظله الكروم ينزل حتى يبلغ حافة الماء، حيث تقف أشجار البلوط دائمة الخضرة بين صخور الساحل،

تملؤها ألحان تغريد الدُّجّ (*) بالحياة. وهناك على الممر المحيط ببحيرة نيمي Nemi، وتحت أشجار القسطل (أبو فروة) وأشجار الفاكهة، تراه يحس أنه هنا، وقبل كل مكان آخر، ينبغي أن تستيقظ روح الشاعر- هنا في المخبأ المخصص لديانا!. وكثيراً ما كان يعقد المجلس الكنسي أو يستقبل السفراء تحت ظلال أشجار القسطل الباسقة العجوز، أو تحت دوحات الزيتون على الأرض المعشبة بجوار أحد الينابيع المجلجة. وإن منظراً كمنظر واد خانق يضيق رويداً وعليه قنطرة لتوقظ فوراً إحساسه الفني. وإن أصغر التفاصيل لتعطيه البهجة من خلال شئ جميل أو شئ كامل الكمال أو شئ مميز فيها- مثل حقول الكتان المتموجة الزرقاء والجولق الأصفر الذي يغطي التلال، وحتى الأجام الكثيفة أو الأشجار المفردة أو الينابيع، التي تبدو لعينيه كأنما هي في نظره من عجائب الطبيعة.



شكل ١٤١ منظر طبيعي

جزء من صورة "صلب المسيح"، من رسم انتونيلودا ماسينا
متحف أنتورب

وقد بلغ الذروة في حماسته للجمال الطبيعي أثناء مقامه في مونت أمياتا في صيف ١٤٦٢، عندما جعل الطاعون والحر من المناطق المنخفضة مكاناً غير صالحاً

(*) الدُّجّ Thrush : ضرب من الطيور المفردة. (المترجم).

للسكنى. فإنه اتخذ سكناه هو وحاشيته فى منتصف مصعد الجبل، فى دير القديس سلفاتورى S. Salvatori اللومباردى القديم. فهنا، بين أشجار القسطل التى تكسو الهاوية الشديدة الانحدار، تستطيع العين أن تجول على الشطر الجنوبى من توسكانيا، بماحوى من أبراج سيينا المشاهدة على البعد. فأما الصعود إلى أعلى قمة فشىء تركه لرفاقه، الذين لحق بهم المبعوث البندقى؛ وأعلى القمة وجدوا كتل الأحجار الضخمة الواحدة فوق الأخرى- التى ربما كانت مذبحاً للقرايين لدى شعوب ما قبل التاريخ - وخيل إليهم أنهم شاهدوا على البعد القاصى كلاً من كورسيكا وسردينيا^(١٧) مرتفعتين فوق لجة البحر. وهناك فى ذلك الهواء البارد فوق التلال وبين أشجار البلوط والقسطل العتيقة النامية وفوق المروج الخضراء حيث لا أشواك تدمى الأقدام ولا أفاعى ولا حشرات تلسع أو تزعج، قضى البابا أياماً من السعادة التى لا يعكس صفوها كدر. وكان يختار فى كل مرة مُلتَحِداً ظليلاً جديداً للعبادة عند عقد القداس "Signatura" الذى يعقد فى أيام معينة من الأسبوع^(١٨)، "Novas in convallibus fontes et novas, inveniens umbras, quæ dubiam facerent electionem". وربما بدأت الكلاب فى مثل تلك الأوقات فى إثارة غزال ضخم من كناسه (بيت الظبى) ومطاردته حتى يفر أخيراً إلى أعلى الجبل بعد أن يدافع عن نفسه بحوافره وقرونه.



شكل ١٤٢ منظر طبيعى فى المطر،
رسم ليوناردو دافنشى وندسور

واعتماد البابا فى المساء أن يجلس أمام الدير فى المكان الذى يمكن أن يرى منه كل وادى باليا Paglia ، ويعقد المحادثات النشيطة مع الكاردينالات. وكان رجال الحاشية الذين يغامرون بالنزول من الأراضى المرتفعة فى رحلات صيدهم يجدون الحر فى الأراضى المنخفضة غير محتمل والوديان المتلظية بالهاجرة جهنماً حقيقياً، بينما بدا الدير، بما يحيطه من غابات باردة ظليلة ذات جو معتدل، كأنه هو مثوى ومقام للمبروكين الناعمين بالسعادة الروحية.



شكل ١٤٣ العائلة ، رسم جيورجيونى
البندقية، بالاتزو جيوفانىلى

وهذا كله متعة عصرية أصيلة، وليس صورة منعكسة عن العصور العهيدة الخوالى. وكما أحس القدماء تماماً بنفس الطريقة، فمن المؤكد تماماً أيضاً، رغم هذا، أن التعبيرات القليلة النادرة التى تصدر عن الكتّاب الذين كان بيوس يعرفهم غير كافية لإيقاظ حماسة مماثلة فيه^(١٩).

والعصر العظيم الثانى فى الشعر الإيطالى، الذى يبدأ الآن عند نهاية القرن الخامس عشر وبداية السادس عشر، فضلاً عن الشعر اللاتينى فى نفس الفترة، غنى بما حوى من آيات تدل على الأثر القوى للطبيعة فى العقل البشرى. وستكفى أول لمحة إلى الشعراء الغنائيين فى ذلك الزمان لإقناعنا. أجل إن الأوصاف المسهبة للمناظر الطبيعية نادرة جداً، وذلك لسبب، هو أنه فى هذا العصر الحافل بالنشاط كان أمام القصة (الرواية) والقصيدة الغنائية والملاحم شىء آخر تعالجه. فإن بوجاردو Bojardo وأريوستو Ariosto ليرسمان الطبيعة بقوة، ولكن بإيجاز جهد المستطاع، وبدون بذل أى جهد لكسب رضا القارئ واستحسانه^(٢٠) بما يقدمان من أوصاف، وهو الشعور الذى يحاولان بلوغه فقط عن طريق السرد الروائى وتجسيد الشخصيات. والواقع أن كتّاب الرسائل ومؤلفى الحوارات الفلسفية إنما يعدون دليلاً على الحب النامى للطبيعة أفضل من الشعراء. مثال ذلك أن المؤلف القصصى بانديللو Bandello راعى بقوة عارمة قواعد منطقة تخصصه فى الأدب؛ فإنه لا يعطينا فى رواياته نفسها كلمة واحدة تزيد عما هو ضرورى ولازم فى وصف المناظر الطبيعية التى تحدث فيها أحداث حكاياته^(٢١)، على أننا فى ثنايا الإهداءات التى تسبقها على الدوام، نلتقى بأوصاف فاتنة للطبيعة تجئ كتوطئة لحواراته وصوره الاجتماعية. ومن بين كتّاب الرسائل ينبغى لسوء الحظ أن يذكر اسم أريتينو^(٢٢) Aretino بوصفه أول من رسم بالكلمات الأثر الباهر للضوء والظل فى منظر غروب الشمس فى إيطاليا.

وإننا لنجد أحياناً إحساسات الشاعر أيضاً وهى تربط نفسها بالحنان والرقّة إلى المناظر الجميلة لحياة الريف. وفى قصيدة تأملية^(٢٣) لاتينية يصف تيتو ستروتزى Tito Strozzi، حوالى ١٤٨٠، مسكن خليلته. وفيها يعرض علينا بيتاً قديماً مكسواً بالبلابل، تكاد تخفيه الأشجار عن الأنظار، ومزين بصنوف الفريسكو التى عبثت بها عوامل

المناخ وعليها صور القديسين، وبالقرب منه كنيسة صغيرة قد دمرتها يد عنف نهر البو الذى يجرى ملاصقاً ملاصقة شديدة؛ وعن غير بعيد كان قسيس يحرق قطعة الأرض الصغيرة بماشية مستعارة قليلة. وليست هذه بمذكر لنا بالقصائد التأملية الرومانية القديمة، وإنما هى عاطفة عصرية حقة؛ كما أن الشبيهة الموازية لها - وهى وصف صادق غير مصطنع للحياة الريفية على وجه الجملة - سوف تجدونها فى نهاية هذا القسم من كتابنا.

وربما اعترض معترض بأن الرسامين المصورين الألمان فى أوائل القرن السادس عشر ينجحون فى أن ينقلوا بأستاذية كاملة الصفات هذه المناظر الخاصة بالحياة الريفية، كما فعل، على سبيل المثال، ألبريشت دورر Albrech Durer ، فى حفره " الابن الإعجازى" (٢٤) The Prodigal Son. ولكن إذا كان المصور الذى تربى فى مدرسة من الواقعية يدخل مثل هذه المناظر، فذلك أمر، أما إذا شاعر، متعود على مثل أعلى أو إطار ميشولوجى، دفعه دافع باطنى إلى الواقعية، فذلك شأن آخر. هذا إلى أن الأسبقية من الناحية الزمنية، إنما هى هنا، كما فى وصف الحياة الريفية، تعد فى صف الشاعر الإيطالى.

الفصل الرابع

اكتشاف الإنسان - الوصف الروحي في الشعر

إلى جانب اكتشاف العالم الخارجي، أضاف عصر النهضة إنجازاً أعظم منه كثيراً، بتمييزه أولاً ثم كشفه على الأنظار ثانياً، طبيعة الإنسان المتكاملة بأسرها^(١).

إن هذه الفترة، كما رأينا، بدأت أولاً بإضفاء أعلى التطورات على الفردية، ثم قامت بإرشاد الفرد إلى أشد أنواع الدراسة لنفسه حمية واكتمالاً بكل الأشكال وتحت جميع الظروف. والحق، إن تطور الشخصية يتم بصورة ضمنية وبشكل جوهري أثناء عملية تمييزها من غيرها في ذات الفرد وفي الآخرين. وقد قام تبياننا للموضوع بوضع نفوذ وتأثير الأدب القديم بين هاتين العمليتين العظيمتين، وذلك لأن أسلوب التصور الفكري والتمثيل اللفظي لكل من الفرد والطبيعة البشرية بصفة عامة كان يحدده ويلونه ذلك النفوذ والتأثير. بيد أن القدرة على التصور كانت تعتمد على العصر والناس.

والوقائع التي سوف نسوقها إثباتاً ودليلاً على نظريتنا ستكون قليلة العدد. فها هنا بالضبط أكثر من أي مكان آخر في حلبة المناقشة هذه، يعى المؤلف تمام الوعي أنه يطاءً بقدميه أرض الحدس والتخمين شديدة الخطر، وأن ما يبدو له تحولاً واضحاً، وإن كان دقيقاً لطيفاً وتدرجياً، في الحركة الفكرية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ربما لم يكن عند غيره على نفس الدرجة من الوضوح العميق. فإن التيقظ والصحوه التدريجية في روح شعب ما إنما هو ظاهرة ربما أنتجت انطباعاً آخر مختلفاً بين مشاهد وآخر. والزمن وحده هو الذي سيحكم أي الانطباعات أصدق.

ومن يمن الطالع أن دراسة الناحية الفكرية للطبيعة البشرية قد بدأت، لا بالبحث عن علم نفس نظري - وذلك لأن أرسطو يكفيننا في هذا المجال - بل بقيام جهد منبه للملاحظة وآخر للوصف. وكانت صابورة التوازن التي لا غنى عنها للنظرية مقصورة

على المذهب الشعبي المتعلق بالأمزجة الأربعة، في حدود اتحادها المؤلف القائم آنذاك بالاعتقاد في قوة تأثير الكواكب. وربما ظلت مثل هذه المعتقدات راسخة لا سبيل إلى محوها من عقول الأفراد دون أن تعود بالتعطيل على التقدم العام للعصر. ولا شك أنه يحدث فينا أثر متميز عندما نلتقي بهن في وقت كانت فيه الطبيعة البشرية، وهى فى أعمق وأصدق جوهر لها، كما أنها فى كل تعبيراتها المميزة جميعاً لا هى بالمعروفة فقط عن طريق المشاهدة والملاحظة المضبوطة، ولكنها كانت أيضاً يمثّلها شعر وقن خالدين سرمديين. وربما بدا مضحكاً أن تشير إلى مراقب كفاء يعتبر كليمنت السابع سوداوى المزاج، ولكنه يذعن إلى حكم إلى الأطباء الذين يعلنون أن البابا ذو طبيعة دموية غضوب^(٢)؛ أو عندما نقرأ أن جاستون دى فوا Gaston de Foix نفسه، المنتصر فى رافنا، الذى صوره جيورجىونى ونحت بامباجا Bambaia له تمثالاً، والذى يصفه المؤرخون جميعاً، كان ذا مزاج كثيب مرير^(٣) ولا مرء أن الذين يستخدمون هذه التعبيرات إنما يعنون بها شيئاً ما؛ ولكن المصطلحات التى يبلغوننا فيها معانيهم أصبحت قديمة ولاغية بشكل عجيب فى إيطاليا القرن السادس عشر.



شكل ١٤٤ دانتي، جزء من رسم لرافاييل
الفاتيكان، روما

وعلى سبيل التمثيل للوصف والتصوير الحر للروح البشرية سنبدأ بالحديث عن الشعراء العظماء في القرن الرابع عشر.

وإذا وجب علينا أو جاز أن ننتقى من لآلى شعر الفروسية وشعر البلاط الرفيع لجميع أقطار الغرب أثناء القرنين السالفين فلا مفر لنا من أن نمتلك بضعة ضخمة من التكهّنات المدهشة وصوراً مفردة للحياة الجوانية ، التي لا بد أن تبدو لدن أول نظرة وكأنما هي تبارى شعر الإيطاليين. ولو تركنا الشعر الغنائي خارج نطاقنا، فإن جودفرى من ستراسبورج Godfrey of Strasburg، يعطينا فى قصيدته الملحمية تريسترام وإيزولت Tristram and Isolt، وصفاً تمثيلاً للعاطفة البشرية لم تبرح بعض قسماته خالدة على مر الزمان. على أن بعض هذه اللائى ترقد متناثرة فى محيط المواضيع والتقاليد المتكفة، كما إنها تختلف بمجموعها اختلافاً بيناً عن الصور الموضوعية الكاملة للإنسان الجوانى وثروته الروحية.

وقد كان لإيطاليا أيضاً فى القرن الثالث عشر، عن طريق التروفاتورى trovatori (أى الشعراء أو المنشدون الجوالون) ، نصيبها فى شعر البلاط وشعر الفروسية. وإليه يُنسب بوجه رئيسى الأشعار الغنائية أو الكانزوني canzone، التى لا شك أن بنيتها بلغت من الصعوبة والاصطناعية (التكلف) مبلغ بنية أية أغان صدرت عن أى شاعر منشد من الشمال. وغنى عن البيان أن موضوعها وطريقة التفكير فيها لا تتجاوز نغمة البلاطات التقليدية المتواضع عليها، سواء أكان الشاعر مواطناً عادياً بسيطاً أو عالماً متبحراً.

على أنه ما لبث طريقان جديدان أن تكشفنا آخر الأمر، وفيهما تهيأ للشعر الإيطالى أن يخطو أماماً ويتقدم إلى مستقبل آخر له مميزاته وسجاياه الخاصة. على أنهما لا تقل أهميتهما إطلاقاً بسبب اهتمامهما فقط بالناحية الصورية والخارجية للفن. وإلى برونيتو لاتيني Brunetto Latini نفسه - معلم دانتي - الذى يعمد فى قصيدته الغنائية إلى تبني الطريقة المعتادة للشعراء الجوالون (التروفاتورى) trovatori ، نحن مدينون بأول قصيدة مرسلّة ، أى أقدم الأشعار المرسلّة الأولى المعروفة versi sciolti ، أو القصائد الغفل ذات المقاطع الأحد عشر فى كل بيت^(٤)، كما أننا نشهد فيما هو باد

من غياب واضح للشكل عنده عاطفة حقيقية وأصيلة تكشف عن نفسها فجأة. وإن نفس التخلي الإرادى للمؤثرات الخارجية، عن طريق الثقة بقوة الفكرة الباطنية، لشيء يمكن ملاحظته بعد ذلك بوضع سنوات فى تصاوير الفريسكو - وكذلك أيضاً يلاحظ فى جميع أنواع الرسم - التى بدأت تكف عن الاعتماد على اللون فى خلق تأثيرها، بمجرد استخدام ظلال أغمق (أقتم) أو أفتح. وهذه الأشعار التى كتبها برونيتو تعد بالنسبة لعصر مركز تركيزاً شديداً على الشكل المصطنع فى الشعر^(٥)، مؤذنة ببداية لحقبة جديدة.

وفى نفس الوقت تقريباً، أو حتى فى النصف الأول من القرن الثالث عشر، أصبح واحد من أشكال الأوزان الشعرية الدقيقة الاتزان، التى كانت أوروبا فى ذلك الوقت زاخرة بها، شكلاً سويماً معترفاً به فى إيطاليا - ألا وهو السونيتة (أى القصيدة التى تتألف من أربعة عشر بيتاً). وظل كل من ترتيب التقفيات بل حتى عدد السطور (الآبيات الشعرية) مختلفاً مدة قرن كامل من الزمان^(٦)، حتى ثبتها بتراكم إلى الأبد. وفى هذا الشكل بدأت معالجة جميع الموضوعات العليا الغنائية والتأملية، وفى زمن أواخر، موضوعات أخرى من كل وصف ممكن، وتوارت إلى مكان أدنى القصائد الغزلية (madrigals) والقصائد المؤلفة من ستة أبيات (sestines) وحتى الأشعار الغنائية-can-zone. وقد شكوا الكتاب الإيطاليون اللاحقون، وهم بين مازح وممتعض، من هذا القالب الذى لا مفر منه، ذلك الفراش البروكستيزى^(*) القسرى هذا، الذى كانوا مضطرين أن يصوغوا فيه أفكارهم وأحاسيسهم لتلائمه. وثمة آخرون كانوا ولا يزالون راضين بهذا النوع الخاص من الشعر، الذى أكثروا من استخدامه بحرية للتعبير عن أية ذكريات شخصية أو أية سجة سخيقة بون ضرورة ولا هدف جدى. وهو السبب الذى من أجله وجدت هناك سونيتات كثيرة أسوأ وأتفه من تلك الجيدة.

(*) الفراش البروكستيزى Prucrustean Bed: بروكستيز لص إغريقى خرافى يمد أرجل ضحاياه أو يقطعها لى يجعل طولهم منسجماً مع فراشه. (المترجم)

Dabriel discese e col morai suo poi
 che visto ebbe l' inferno giusto e spio
 ritorno mio a contemplare dió
 p' dar di tutto il vero lume a noi
 l' incete sulla che coraggi suoi
 fe chiaro avorta el modo che nacque
 ne farei premio tutto modo mio
 tu sol che la creasci esser pro quello poi
 Di date dico che mal conosciute
 fur lo pre suo da quel popolo ingrato
 che solo a iusti manca di salute
 fussia pur lui catal fore una nato
 p' la spro e silio suo colai mirate
 dare del modo il fin felice stato

شكل ١٤٥ سونيتة مايكل أنجلو إلى دانتي
 تصوير ج. جروتشه، برلين

ومع هذا، فإن السونيتة ينبغي أن تعد في نظرنا أنها كانت نعمة لا توصف سعد
 بها الشعر الإيطالي. ولا شك أن ما تنطوى عليه بنيتها من وضوح وجمال، والدعوة
 التي دعت بها إلى رفع مستوى الفكر أثناء النصف الثاني والأسرع حركة، واليسر
 الذي كان في الإمكان حفظها به عن ظهر قلب، كل ذلك جعلها موضع التقدير حتى عند
 أعظم الأساتذة. والواقع أنهم لم يكونوا ليحافظوا عليها عاملة حتى قرننا هذا لولا
 ما كانت تطبعه فيهم من شعور ينطوى على إدراك لقدرها المتميز. وكان بإمكان هؤلاء

الأساتذة أن يمنحونا الأفكار نفسها مجسمة فى أشكال أخرى مختلفة تماماً، حتى إذا استقروا على اتخاذ السونيتة الطراز العادى للشعر الغنائى بواسطة كثير غيرهم من الكُتَّاب الآخرين من ذوى المواهب العظيمة، إن لم يكونوا أعظمهم موهبة، ممن كانوا لو لم يسلكوا هذا السبيل ، لا بد أن يضيعوا فى خضم من الإسهاب والتهيه، فكانوا من ثم سيضطرون إلى التركيز بوجداناتهم إلى تكثيف مشاعرهم. فأصبحت السونيتة فى الأدب الإيطالى جهازاً مكثفاً للفكر والعواطف من النوع الذى كان لا يمتلكه أى شعر لأى شعب عصرى آخر.



شكل ١٤٦ دانتي وعمله
رسم دومينيكو دى ميشيلينو
فلورنسا، الكاتدرائية

وهكذا تجلى عالم الوجدانات الإيطالية أمام أعيننا فى مسلسل من الصور الواضحة الموجزة والأشد تأثيراً عميقاً بما تنطوى عليه من إيجاز. فلو أن أمماً أخرى ملكت شكلاً للتعبير من النوع نفسه فلربما كنا عرفنا المزيد أكثر عن حياتها الباطنية، ولربما كنا حصلنا على عدد من الصور لمواقف جوانية وبرانية - كانعكاس للشخصية والمزاج القومى - ولما كنا معتمدين فى الوصول إلى معرفة من هذا النوع على أولئك

الذين يسمون بالشعراء الغنائيين فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر، الذين لا يكادون أبداً يُقرءون باستمتاع جدى. ونحن فى إيطاليا نستطيع أن نترسم تقدماً لا شك فيه منذ اللحظة التى ظهرت فيها السونيتة إلى حيز الوجود. وفى النصف الثانى من القرن الثالث عشر يؤذن الشعراء الجوالون الانتقاليون *trovatori della transizione* ، كما كانوا يسمونهم^(٧)، بالانتقال من المنشدين الجوالين إلى الشعراء - أى أولئك الذين كانوا يكتبون متأثرين بالعصور العهيدة القديمة. وتؤذن البساطة والقوة فى شعورهم وصياغتهم القوية للحقائق والتعبير الدقيق وحسن التشكيل فيما كتبوا من سونيتات وغيرها من شعر، بمجئ شاعر عظيم هو دانتي. وبعض السونيتات السياسية التى أبدعها الجويلف *Guelphs* والجيبيلين *Ghibellines* (1260-1270) ليكتنفها سوار من عاطفته الجارفة، كما أن بعضها الآخر يذكرنا ببعض أحلى نغماته الغنائية.

فأما رؤيته هو النظرية البحتة فى السونيتة فشئء نجهله تماماً لسوء الحظ، وذلك نظراً لأن الأجزاء الأخيرة من عمله *De Vulgari Eloquentia* ، الذى يقترح فيها أن يعالج البالاد^(*) (*ballads*) والسونيتات، إما أن تكون ظلت مشروعاً لم يكتب له أن يسطر وإما أنها فُقدت. ولكن الواقع، الذى لا شك فيه، أنه ترك لنا فى سونيتاته وأغانيه *canzone* كنزاً ثميناً من الخبرة الجوانية. ثم يا له من إطار بديع ذلك الذى أفرغها فيه! فإن النثر فى مكتوبة "الحياة الجديدة" *La Vita Nuovo* ، الذى يقدم إلينا فيه بياناً عن الأصل فى كل قصيدة، نثر يدانى فى روعته الأشعار نفسها ويشكل معها كلاً متناسقاً، ومصدر إلهامه أعمق توهجات عاطفة الحب الدافئة. وبصراحة غير هيابة وصدق وإخلاص فإنه يكشف تماماً ويعرى كل بارقة لجزله وحرزته ويصبها بعزم أكيد فى أدق أشكال الفن. وإذا نحن قرأنا بامعان هذه السونيتات والأغاني *canzoni* والأجزاء المتناثرة البديعة لمفكراته فى إبان شبابه التى تقوم بينها، يخيل إلينا أنه فى طول العصور الوسطى وعرضها كان الشعراء يفرون قصداً من أنفسهم، وأنه كان أول من التمس نفسه. فإننا قبل زمانه نلتقى بكثير من الأشعار الفنية؛ ولكنه كان أول فنان

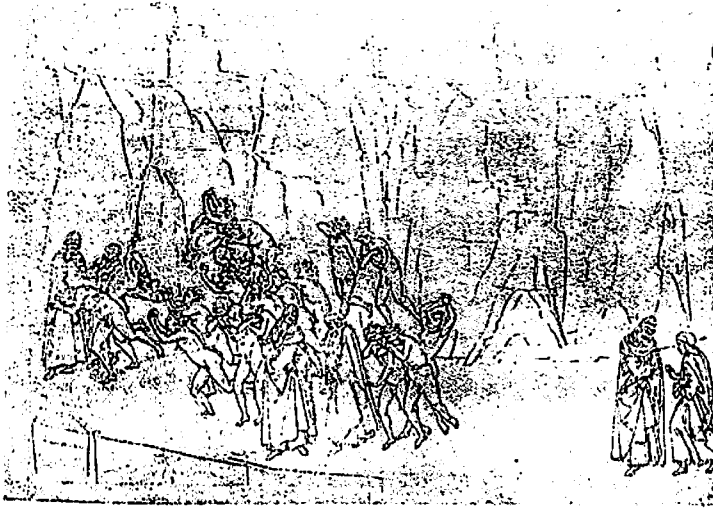
(*) البالاد: قصيدة ذات ثلاثة مقاطع، كل منها حوالى ثمانية أبيات. (الترجم)

بكل معانى الكلمة - أول من تعمد بوعى سبك المادة الخالدة فى شكل خالد .
فالإحساس الذاتى له هنا صدق موضوعى كامل وعظمة، كما أن معظمه معد ومهياً
بحيث أن العصور كلها والشعوب طراً يمكن أن تتخذة ملكاً ليمينا^(٨) وحيثما وجدته
يكتب بروح موضوعية كاملة ويدع قوة عاطفته لتصبح موضع التخمين بواسطة بعض
الحقائق الخارجية، كما حدث فى سونيتاته الرائعة *Tanto gentile*، إلخ، و *Vedi perfet- tamente*، إلخ، تراه يبدو كأنما هو بحاجة إلى التماس المعذرة لنفسه^(٩) وما من شك فى
أن أجمل هذه القصائد ينتمى حقاً إلى هذه الطبقة - *Deh Pergrini che Pensosi Andate* .

وحتى بغض النظر عن الكوميديا الإلهية *Divine Comedy* ربما كان دانتي يؤذن
فى هذه القصائد الشبابية مبشراً بتحديد الحدود بين نزعات العصور الوسطى
والعصور الحديثة. لقد خطا الروح البشرى خطوة جبارة نحو الوعى الشعورى بحياته
السرية الخاصة.

وآيات الإلهام فى هذا الشأن، تلك الآيات المحتواة فى الكوميديا الإلهية *Divine Comedy*
نفسها شيء أبسط ما يقال فيه أنه لا حد له إطلاقاً؛ وبذا يكون من
الضرورى حتماً أن يراجع المرء القصيدة بأجمعها مقطعاً بعد مقطع، لكى يتيسر له
إصدار الحكم العادل على قيمتها من وجهة النظر هذه. ومن يمن الطالع أنه لا حاجة
إلى فعل ذلك، وذلك لأنها ظلت طويلاً طعاماً يومياً لجميع أقطار الغرب. إذ تنتسب
خطتها والأفكار التى قامت عليها إلى العصور الوسطى، ولا ترضى أنواقنا واهتماماتنا
إلا من الناحية التاريخية وحسب، على أنها مع ذلك تعد بداية الشعر العصرى كله، من
خلال ما تحوى من القوة والغنى المتجليين فى وصف الطبيعة البشرية فى كل أشكالها
ومواقفها^(١٠)

ومنذ ذلك الوقت فصاعداً ربما يكون الشعر مارس وصادف حظوظاً متفاوتة،
وربما ظهر عليه مدة نصف قرن بأكمله ما يمكن تسميته بالنكسة أو الرجعى. ولكن
مبدأه الأنبل والأشد حيوية تم إنقاذه إلى الأبد؛ وكل ما حدث أن عقلاً ما ذا أصالة،
فى القرن الرابع عشر والخامس عشر وبداية السادس عشر، حبس نفسه عليه كان
يمثل مرحلة أكثر تقدماً مما كان يفعله أى صوت خارج إيطاليا، وذلك على فرض وجود
تساوٍ فى المواهب الطبيعية منذ البداية. وذلك شيء ليس من السهل بالتأكيد البت فيه
بطريقة فرضية وعادلة.



شكل ١٤٧ رسم لبوتيتشيللي عن "الكوميديا الإلهية"، "المطهر" لدانتى

برلين، مجموعة من الحفر على النحاس

وهنا، كما فى أشياء أخرى بإيطاليا، تسبق الثقافة - التى ينتمى إليها الشعر بطبيعة الحال - الفنون التشكيلية، كما أنها فى الواقع ونفس الأمر، تعطيهن دافعهن الرئيسى. وانقضى أكثر من قرن كامل قبل أن تمكن العنصر الروحى فى التصوير والنحت من بلوغ قوة تعبير تماثل بأى شكل كان قوة تعبير الكوميديا الإلهية Divine Comedy. فإلى أى مدى تصدق القاعدة نفسها على تطور الفنون لدى شعوب أخرى^(١١)، وإلى أى قدر من الأهمية ربما وصل الأمر كله، تلك أمور لا تعنينا هنا. فأما بالنسبة للحضارة الإيطالية فإنها كانت ذات وزن فاصل.



شكل ١٤٨ بتراك، رسم أندريا ديل كاستانيو
سانت أبولونيا، فلورنسا

ولا بد للمركز الذى ينبغى وضع بترارك فيه فى هذا الصدد من أن يحدده قراء الشاعر الكثيرون. فأما الذين يجيئون إليه بروح المستجوب العسير، ويشغلون أنفسهم فى الحفر عن التناقضات بين الشاعر والإنسان وعدم وفاءاته فى الحب وعن جوانب الضعف الأخرى فى أخلاقه، فربما أمكن لهم، بعد بذل الجهد الكافى، الانتهاء فى الختام إلى فقدان كل تذوق لشعره. وعندئذ يصبح الأمر أنه بدلاً من الاستمتاع الفنى، فإننا ربما حصلنا على معرفة بالرجل فى "مجموعه". فوا أسفاه من أن خطابات بترارك من أقيينون لا تحتوى إلا على أقل القليل من الهدر فى سير الناس لإثباتها وترسيخها، وأن خطابات معارفه وأصدقاء هؤلاء المعارف إما أن تكون فقدت أو لم توجد البتة! وبدلاً من تقديم الحمد لله عندما لا نضطر إلى البحث عن تلك الكفاحات التى يخوضها الشاعر لينقذ شيئاً خالداً من حياته وحظه المسكينين، خيطت إلى بعضها البعض ورقعت له ترجمة لسيرة حياته، استخلاصاً من هذه التى يسمونها "بقايا أو آثار"، تبدو كأنما هى عريضة اتهام. على أن الشاعر ربما يستطيع أن يسكن إلى الراحة. فإذا قدر لطبع وإصدار مراسلات المشاهير من الناس أن يستمر فإنه سيحصل على صحاب أفذاذ ذاتعى الصيت يجلسون معه مجلس النادمين.

ويدون إغماض أعيننا دون ما هو متكلف مصطنع فى شعره، حيث لا يفعل الشاعر إلا مجرد محاكاة نفسه و مواصلة الغناء فى النغمة القديمة، فلن يفوتنا أن نظهر إعجابنا بالوفرة العجيبة المدهشة من صور وأوصاف النفس الجوانية المتغلغلة - وصور لحظات السرور والأسى التى لا بد أنها ملك خاص به لا يشاركه فيها أحد غيره، وذلك لأن أحداً قبله لم يعطنا شيئاً من نوعها، كما أنها الشيء الذى تستقر عليه أهميته وقدره عند كل من وطنه والعالم. وشعره ليس شفافاً بنفس القدر فى كل الأماكن؛ فإلى جوار أبداع أفكاره جمالاً يقف فى بعض الأحيان بعض الغرور المجازى، أو إحدى حيل المنطق السوفسطائية وكلها تعد غريبة غرابة تامة عن ذوقنا الحاضر. ولكن الميزان يميل نحو جانب الامتياز.



شکل ۱۴۹ بوکاتشیو، لاندريا ديل کاستانيو
سانت اُبولونيا، فلورنسا

وهذا بوكاتشيو^(١٢) أيضاً، فى سونيتاته غير الشهيرة إلى حد ما، ينجح أحياناً فى إعطائنا صورة لمشاعره أشد ما تكون قوة وتأثيراً. فإن العودة إلى بقعة زكاهها وقدسها الحب (سونيتة ٢٢)، وأشجان الربيع (سونيتة ٢٣)، وحزن الشاعر الذى يحس بالشيخوخة (سونيتة ٦٥)، يُعالج على يديه علاجاً مستوجباً للإعجاب. كما أنه فى قصيدة أميتو Ameto قام بوصف قوة الحب التى تملأ الأنفس بالنبالة وتحول صورتها تحويلاً تاماً، وذلك بأسلوب لا يكاد يُتوقع من مؤلف الديكاميرون^(١٣) Decamerone. وفى قصيدة فياميتا Fiammetta نجد أمامنا صورة أخرى عظيمة ومصورة تصويراً ملوناً دقيقاً للنفس البشرية، مملوءة بأشد الملاحظات حدة، وإن نفذت مع إلغاء القوة المنسقة، كما أنها فى بعض أجزائها تفسدها العاطفة المتطلعة إلى اللغة المدوية الرنانة مع خليط مشنوم من الإشارات الأسطورية الرطازية والاقْتباسات المتعاملة. وما الفياميتا، إذا لم يجانبنا الصواب، إلا النظير الأنتوى للحياة الجديدة La Vita Nuova لاندانتى، أو هى، على كل حال، تدين بأصلها لها.

ولا مجال لأدنى شك فى أن الشعراء القدامى، وبخاصة شعراء القصيد التأملى الحزين، وفيرجيل فى الكتاب الرابع من الإنيادة^(١٤) Aeneid، لم يحرموا من التأثير فى الإيطاليين العائشين فى هذا الجيل والذى تلاه؛ ولكن ينبوع الأحاسيس لدى الجيل التالى كان مع ذلك قوياً وأصيلاً. فلذا نحن وازناً بينهم من هذه الناحية وبين معاصريهم فى أقطار أخرى وجدنا عندهم أقدم التعبير الكامل عن الإحساس الأوروبى الحديث. وينبغى ألا يغيب عنا أن المسألة ليست هل لم يكن المبرزون من رجال الأمم الأخرى يشعرون بنفس درجة عمق ودرجة نبل إحساسات الإيطاليين، وإنما من كان أول من قدم البرهان الوثائقى المؤكد الدال على أوسع معرفة انتشاراً وعلماً بحركات القلب البشرى.

ولماذا لم يفعل إيطاليو عصر النهضة شيئاً يتجاوز المرتبة الثانية فى فن المناساة (التراچيديا)؟ لقد كانت المناساة هى الميدان الذى يُكشف فيه عن الخلق والفكر والعواطف البشرية فى أشكال نموها وصراعاتها وانحطاطها التى قد تبلغ الألف عدداً. وبعبارة أخرى نتساءل لماذا لم تنتج إيطاليا شكسبيراً آخر؟ وذلك لأنه بالإضافة إلى

مسرح الأقطار الشمالية الأخرى عدا إنجلترا لم يكن لدى إيطاليى القرنين السادس عشر والسابع عشر سبب يخشون من أجله قيام أية موازنة ؛ فأما مع الإسبان فلم يكن فى مكنتهم خوض أية منافسة، وذلك لأن إيطاليا فقدت منذ أمد بعيد كل أثر للتعصب الدينى (الفتنقة)، وكانت تعامل ناموس الشرف الفرسانى بوصفه شكلاً بحثاً لا غير، وكانت أرحب عقلاً وأذكى فؤاداً من أن تجثو أمام سادته من الطغاة وغير الشرعيين^(١٥). فلم يبق أمامنا إلا أن نتأمل فقط المسرح الإنجليزى فى فترة مجده الوجيزة.

على أن الرد الواضح هو أن أوروبا بأجمعها لم تنتج إلا شيكسبيراً واحداً، وأن مثل عقله هو أندر هبات السماء. ومن الممكن ، فوق هذا ، أن المسرح الإيطالى كان على وشك الوصول إلى شىء عظيم عندما داهمته حركة الإصلاح المضاد، كما أنها وقد ساعدها الحكم الإسبانى ل نابولى وميلانو، بل وامتداد سلطان ذلك الحكم بطريق غير مباشر على شبه الجزيرة بأكملها، فافضى ذلك إلى أن نوت وذبلت أنيع زهرات الروح الإيطالية. وسيكون من العسير تصور شيكسبير نفسه تحت ظل نائب ملك إسبانى، أو تقوم إلى جواره محكمة التفتيش المقدسة فى روما، أو فى بلاده نفسها بعد بضع عشرات من السنين، أثناء الحرب الأهلية الإنجليزية. فأما المسرح، الذى يصبح فى ثنايا إتقانه وكماله ثمرة ومنتجاً متأخراً لكل حضارة، فينبغى أن ينتظر حتى يحين أوانه وحظه.

ومع ذلك، فينبغى ألا نغادر هذا الموضوع بون الإشارة إلى ظروف معينة عادت بالتعويق أو التأخير على حدوث تطور كبير للدراما فى إيطاليا، حتى فات أوانها وأقلت.

وينبغى لنا بالتاكيد أن نذكر أن السبب الوطيد فى ذلك هو أن تذوقات الحس المسرحى لدى الناس كانت منشغلة بأشياء أخرى، ولا سيما الأسرار المقدسة والمواكب الدينية. إذ يشكل العرض الدرامى للتاريخ المقدس والأسطورة فى كل أرجاء أوروبا جميعاً الأصل فى الدراما الدنيوية أعنى غير الدينية؛ على أن إيطاليا، كما سنبين ذلك بشكل أوفى فى سياق الكتاب، أنفقت على الأسرار ثروات طائلة من الفخامة الزخرفية لا يمكن إلا أن تعود بالضررة على العنصر الدرامى. إذ لم ينجم عن جميع صنوف

العرض التصويرى، التي لا حصر لها والتي استنفدت المال الجزيل، ولا حتى فرع واحد من الشعر مثل Autos Sagramentales لكالدرون وغيره من الشعراء الإسبان، وأقل من هذا وجود أية منفعة أومزية أو أسس تؤسسها تعود على الدراما بشكلها المشروع^(١٦)



شكل ١٥٠ عرض مسرحى
من نسخة البندقية لتيرينس، ١٣٩٧
بون، تصوير كورت شرويدر

حتى إذا ظهرت تلك الأخيرة آخر الأمر سلمت نفسها تسليمًا إلى فخامة مؤثرات المشاهد المسرحية، التي عودت الأسرار الخفية من قبل ذوق الجماهير عليها إلى حد بالغ المدى. فإننا نعلم والدهشة تعقد ألسنتنا كم كانت المشاهد المسرحية فى إيطاليا تبلغ من الغنى والفخامة ، فى وقت كان فيه الشمال يقتصر على أبسط الدلالات على

المكان ويعدها كافية. وهذا الأمر وحده ربما لم يحدث مثل ذلك الأثر السئ في الدراما لو أن التفات الجماهير لم يُجذب للخارج ويُصرف عن التصور الشعري للمسرحية بصورة جزئية بسبب فخامة الثياب، ويسبب آخر جزئى ورئيسى عن طريق الفواصل البيئية^(*) (intermezzi) ذات الخيال الجارف.

فأما أنه حدث في كثير من الأماكن، وخاصة في روما وفيرارا، أن أعمال بلوتوس Plautus وتيرينس Terence، فضلاً عن قطع من تأليف التراجيدين القدماء، كانت كلها تُقدم باللغة اللاتينية أو الإيطالية (المجلد الأول، القسم الثالث، الفصلين السابع والتاسع) وأن الهيئات الأكاديمية (المجلد الأول، القسم الثالث، الفصل الحادى عشر)، التى تحدثنا عنها آنفاً، جعلت ذلك أحد أهدافها الرئيسية، وأما لجوء شعراء عصر النهضة إلى اتباع هذه النماذج بمذلة واستخذاء، فكانت كلها ظروفاً سيئة معاكسة للمسرح الإيطالى أثناء هذه الفترة المطروحة للبحث. ومع هذا فإنى أعدها أموراً فى الدرجة الثانية من الأهمية. ولولا أن عصر الإصلاح الدينى المضاد وحكم الأجانب تدخلوا فى الظروف فلربما تحولت هذه المساوىء إلى وسائل تحول وانتقال نافعة. وعلى كل حال، فالذى حدث عند حلول عام ١٥٢٠ أن انتصار اللسان الأم فى التراجيديا والكوميديا حدث، مُنزلاً الكدر الشديد بأصحاب المذهب الإنسانى، بدرجة تقارب الفوز^(١٧).

وإذن فعلى هذه الناحية لم يبق أى عائق فى سبيل أشد شعوب أوروبا تطوراً يحول دون كتابتهم الدراما فى أنقى صورها وأنبها، أعنى أن تكون انعكاساً حقيقياً للحياة البشرية ومصيرها. وكان رجال محكمة التفتيش والإسبان هم الذين بثوا الجبن فى الروح الإيطالية، وجعلوا من المستحيل تمثيل أعظم وأسمى التيمات^(**)، وخاصة منها ما كان مرتبطاً بذكرىات قومية. وفى الصين نفسه، ليس ثمة شك أن الفواصل البيئية intermezzi المسلية أنزلت أفدح الضرر بالدراما. ومن ثم وجب علينا الآن أن نتأملها تأملاً فاحصاً أكثر.

(*) الفواصل البيئية: intermezzi هى فاصل مسرحى أو موسيقى خفيف بين فصلى تمثيلية أو مغناة.
(الترجم)

(**) التيمات: themes هى الموضوعات التى توضع تحت البحث وفروعها. (الترجم)



شكل ١٥١ خلفية إحدى التراجيديات

من أرتشيتيتورا سيرليو

تصوير كورت شرويدر، بون

فعندما احتفل بزواج ألفونسو من فيرارا Alfonso of Ferrara من لوكريتيا بورجيا Lucrezia Borgia ، أقبل الدوق هركيوليس بشخصه يعرض على ضيوفه الأفخمين البديل وأطعم الملابس المائة وعشرة التي أعدت للاستخدام فى العرض التمثيلى لكوميديات خمسة من تأليف بلاوتوس، لكى يرى الجميع أن واحدة منها لم تكن لتستخدم مرتين^(١٨) ولكن أين كل هذا العرض الفاخر من الحرير والخملة (أى الخفر*) (camlet) من رقصات الباليه ومشاهد البانتوميم (التمثيل الإيمائى الصامت) التى كانت تستخدم فواصل مسلية بين فصول الدرامات البلاوتونية. وليس من المدهش أن يبدو بلاوتوس نفسه بالمقارنة مملأً ومنفراً إزاء شابة ممتلئة بالحوية مثل إيزابلا

(*) الخفر: نسيج مصنوع من الحرير والصوف. (المترجم)

جونزاجا، وأن الجمهور كله يتلهف، والمسرحية فى صميم دورانها وحركتها، إلى فواصل التسلية، فذلك كله شىء مفهوم تماماً، وخاصة حين نتذكر البريق الوهاج الجميل الذى كانت تعرض فيه الفواصل على المسرح. فكانت تشاهد مظاهر القتال بين المصارعين الرومانيين الذين كانوا يلوحون بأسلحتهم على نغمات الموسيقى، وكانت ثم رقصات مشاعل يقوم بها بعض المغاربة، وهمج متوحشون يحملون أبواقاً بوفرة تنبثق منها أمواج من النار- وكلها تُعرض بينما يجرى تمثيل صامت (بانثوميم) تُلْتَقَط فيه عذراء من قبضة تنين. ثم تجئ رقصه مغفلين حمقى، تعرض فى صورة عرائس قراقوز تضرب إحداها الأخرى بمئات الخنازير (وهو ما يسمى بمشاهد البانش punches)، مع المزيد من هذا النوع نفسه. ولم يكونوا فى بلاط قصر فيرارا يقدمون بتاتاً أية كوميديا دون أن يضيفوا إليها رقصه باليه خاصة بها^(١٩). (moresca) فبأى أسلوب كانت تخرج مسرحية أمفيترو Amphitruo لبلاوتوس (١٤٩١)، لمناسبة الزواج الأول لألفونسو، من أننا سفورزا (Anna Sforza) ذلك أمر تغشاه الشكوك. فربما كانت تُقدم بوصفها بانثوميم مع الموسيقى لا فى صورة دراما^(٢٠) وعلى كل حال، فإن الوسائل الزخرفية الإضافية المسماة بالإكسسوار كانت أكثر أهمية من المسرحية نفسها. فكان هناك رقص كورالى لشبان يكتسون أوراق اللبلاب يتحركون فى صور وأشكال معقدة، تجرى على أنغام موسيقى فرقة (أوركسترا) موسيقية مرنانة؛ ثم يتجلى أبوللو، وهو يلعب على قيثارته بالريشة، ويتغنى بأغنية فى مديح آل إيستي Este؛ ثم يعقب ذلك، كفاصل من داخل فاصل، ضرب من تمثيلية هزلية ريفية، بعدها يُشغل المسرح ثانية بالأساطير (الميثولوجيا) الكلاسيكية - فينوس وباخوس وأتباعهما- ثم بتمثيل صامت (بانثوميم) يمثل ويعرض محاكمة باريس. ولم يبدأ إلا بعد كل هذا أداء النصف الثانى من خرافة أمفيترو، مع إشارات واضحة تماماً إلى المولد القريب لهيركيوليس (هرقل) من آل إيستي. وفى عرض تمثيلية سابق للتمثيلية نفسها أقيم فى فناء السراى (١٤٨٧) كانت هناك جنة فردوس بها نجوم وغيرها من العجلات وهى دائمة الاشتعال، وهى شىء ربما كان المقصود منه الإنارة بواسطة الألعاب النارية التى كانت تمتص وتستهلك، دون ريب، معظم التفات المشاهدين. ولا شك أنها كانت أفضل عندما كانت هذه المشاهد تعرض منفصلة، شأن ما كان يجرى فى بلاطات القصور الأخرى.

وسنعود إلى الحديث عن حفلات السمر التي أقامها الكاردينال بييترو رياريو -Pietro Ri-
ario ، على يد البنتيقولى Bentivogli في بولونيا ، وغيرهم ، عندما يحين أوان معالجة
الاحتفالات بوجه عام.

وكان للمناظر الفخيمة هذه ، وقد أصبحت الآن منتشرة بكل مكان، أثر مدمر على
التراجيديا الإيطالية. إذ يكتب فرانشيسكو سانسوفينو^(٢١) Francesco Sansovino:

في قديم الزمان وفي البندقية كان الناس يُخرجون الكوميديات والتراجيديات
(الملهيات والمأساوات) التي كتبها كتاب قدامى ومحدثون على المسرح في بالغ من
الفخامة. وكانت شهرة ترتيبات المناظر تجتذب المشاهدين من كل حدب وصوب.
فأما الآن فإن الأداء التمثيلي يقيمه أفراد خصوصيون بأنفسهم في داخل منازلهم
الخاصة، كما أن عادة تمرير الكرنفالات (المواكب التنكرية) في أثناء الكوميديات
وغيرها من وجوه التسالي والسمر المرحة قد ثبتت أقدامها منذ أمد بعيد.

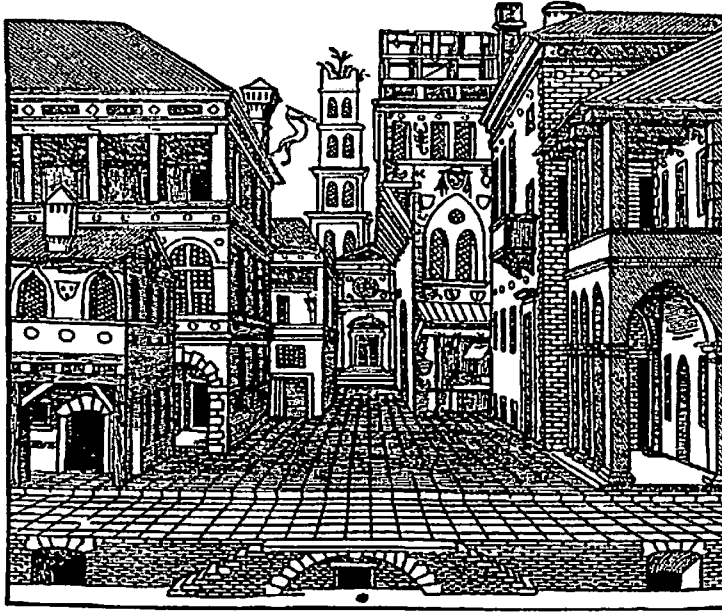
وبعبارة أخرى ساعد التفنن في مظهريات المشاهد المسرحية على قتل التراجيديا.

وغير خاف أن البدايات أو المحاولات المتنوعة لهؤلاء التراجيديين المحدثين، التي
كان أشهرها السوفونيسبا Sophonisba تأليف تريسيمو Trissimo، تنتمي إلى تاريخ
الأدب. ويمكن أن يطلق القول نفسه على الكوميديا الأرستقراطية المتكلفة المصوغة على
قالب بلاوتوس وتيرينس. والحق أن أريوستو نفسه لم يستطع أن يصنع شيئاً من المقام
الأول في هذا الطراز من التأليف. ومن ناحية أخرى، فإن كوميديا النثر الشعبي، كما
عالجها ماكيافيللي وبيبيينا Bibiena وأريتينو Aretino ، ربما كان سيصير لها
مستقبل زاهر لو أن مادتها لم تحكم عليها بالتدمير. وكانت مادتها تلك، من ناحية،
شهوانية إباحية إلى أقصى درجة ، كما أنها كانت من الناحية الأخرى موجهة إلى
طبقات معينة في المجتمع، كفت ، بعد منتصف القرن السادس عشر، أن تكون أرضاً
صالحة للتهجمات العمومية. وإن حدث في السوفونيسبا أن تصوير الشخصيات والخلق
أخلى مكانه للتقريظ الذكي اللماح، فإن النوع الثاني مع أخيه غير الشقيق فن الرسم
الكاريكاتيري، كان يستخدم بوفرة بالغة جداً في الكوميديا أيضاً. ومع ذلك ، فإن هذه
الكوميديات الإيطالية، إذا لم تكن مخطئين، كانت أول ما كتب نثراً ونسخ نقلاً عن
الحياة الحقيقية، ولهذا السبب تستحق الذكر في تاريخ الأدب الأوروبي.

واستمر بغير انقطاع كتابة التراجميات والكوميديات وممارسة تقديم كل من المسرحيات العهيدة والحديثة على المسرح ؛ على أنها كانت لا تعمل إلا كمناسبة للعرض. فإن العبقرية القومية تحولت إلى اتجاه آخر طلباً لمصالح المعاش. وعندما ظهرت الأوبرا والخرافة الرعوية أهملت هذه المحاولات إهمالاً كلياً.

وهناك شكل واحد فقط من أشكال الكوميديا كان، بل وظل أيضاً، قومياً بحتاً، ألا وهو كوميديا الفن *commedia dell' arte* المرتجلة غير المكتوبة. كان ذلك شيئاً غير نى فائدة كبيرة تعود على تحديد الشخصية التمثيلية، نظراً لأن الأقنعة المستخدمة كانت قليلة العدد ومألوفة لكل عين شاهدة. ولكن موهبة الأمة كانت من القرب الدانى من هذا الأسلوب بحيث أنه كثيراً ما كان يحدث فى وسط الكوميديات المكتوبة أن الممثلين كانوا يقذفون أنفسهم معتمدين على إلهامهم الخاص^(٢٢)، حتى ليتأتى ظهور شكل جديد مخطط من الكوميديا وتأديته أمام الناس فى بعض المواطن. ولعلها كانت من هذا النوع تلك التمثيليات التى قدمها فى البندقية بوركييلو *Burchiello* ، وقدمتها فيما بعد فرقة تمثيل أرمونيو *Armonio* وقال تزوكاتو *Val. Zuccato* ولود بولسى *Lod. Dolce* وغيرها من الفرق^(٢٣) ونحن نعلم بوجه خاص أن بوركييلو اعتاد أن يزيد من التأثير الكوميدي الضاحك بخلطة كلمات يونانية وسلافونية باللهجة البندقية. وهناك إحدى كوميديات الفن *commedia dell' arte* كاملة التكوين أو أقرب ما يكون من الكاملة ، هى التى طرحها للناس أنجيلو بيولكو *Angelo Beolco* ، المعروف باسم إيل روتزانتى *(1502-1542) Il Ruzzante* ، وهو الذى حظى بأعلى قمم الشهرة كشاعر وممثل، وكان يضاهى بوصفه شاعراً بيلاتوس، وكممثل ببروشسيوس *Roscius* ، وألف فرقة تمثيلية مع عديد من أصدقائه الذين كانوا يظهرون معه فى تمثيلياته على هيئة فلاحين من بادوا متخذين أسماء من مثل ميناتو *Menato* وقيتزو *Vezzo* وبيلورا *Billora* ،... إلخ. وكان يدرس لهجتهم القومية (أى طريقة نطقهم ببلدهم) وهو يقضى فصل الصيف فى فيللا راعيه لويجى كورنارو *Luigi Cornaro* ألويسيوس كورنيليوس *Aloysius Cornelius* بمنطقة كوديفيكو^(٢٤) *Codivico* وحدث بالتدريج أن جميع تمثيليات الأقنعة ذائعة الصيت ظهرت رويداً رويداً، وهى التى لا تزال بقاياها تبهج الجمهور الإيطالى فى يومنا هذا: بانتالونى *Pantalone* ، والدكتور، وبريجيلا *Brighella* ، وبولشينيلا *Pulcinella* ،

وأرليكينو Arlecchino ، وغيرهم. ومعظمهم شخصيات تنتسب إلى أشد العصور قدماً، وربما كانت مرتبطة تاريخياً بتمثيلات الأقنعة في الهزليات الرومانية القديمة؛ على أنه لم يحدث أن جمعت في قطعة تمثيلية واحدة حتى وافي القرن السادس عشر حين تم جمع العديد منها وتوحيده في قطعة واحدة. فأما في الزمن الحاضر فقد قل إتيان ذلك في الغالب؛ على أن كل مدينة كبيرة لا تزال تحتفظ بأقنعتها المحلية - نابولي بالبولشيينيلا Pulcinella ، وفلورنسا بالستينتوريللو Stentorello ، وميلانو بمينيغينو^(٢٥) Meneghino دائم الإبهار في كثير من الأحيان.



شكل ١٥٢ خلفية إحدى الكوميديات
من "أرتشيتيتورا" لسيرليو، ١٥٤٥
تصوير كورت شرويدر، بون

ولا جدال أن هذا، والحق يقال، تعويض ضئيل لشعب كان يمتلك، إلى حد ربما بز فيه أي شعب آخر، قدرة التفكير والتأمل والتدبر في أعلى صفاته لكي يعكسها في مرآة الدراما. على أنه كان مُقدراً لهذه القدرة أن تُشوّه لمدة قرون عدة على يد قوى معادية،

ما كان الإيطاليون مسئولين إلا جزئياً فقط عن هيمنتها وتسلطها. أجل إن الموهبة الواسعة الانتشار بين ظهراتى الشعب الإيطالى فى العرض والتمثيل الدرامى لم يكن من الممكن ، فى واقع الأمر، اقتلاعها من جذورها، كما أن إيطاليا أثبتت تبوأها للمقام الأول فى أوروبا فى الموسيقى منذ أمد بعيد وأحققتها فى ارتقاء معارج التفوق فيها. وأولئك الذين يمكنهم أن يجدوا فى عالم الأصوات هذا تعويضاً يجزيهم عن الدراما، التى اتسدت أمامها كل أبواب المستقبل، كانت الموسيقى لهم عزاء ليس ضئيلاً.

على أنه ربما يمكننا أن نعثر فى الشعر الملحمى على ما تخفق خشبة المسرح دون منحنا إياه. ومع ذلك فإن التقريع أو اللائمة الرئيسية المقامة ضد الشعر البطولى الإيطالى تنحصر بدقة فى حصيلة عدم الأهمية والتفاهة فضلاً عن العرض السقيم للشخصيات.



شكل ١٥٣ خلفية دراما سатиيرية ساخرة
من آرثشيتورا لسيرليو
تصوير كورت شرويدر، بون

بيد أن مزايا أخرى يمكن أن يُسمح بانتمائها إليه، من بين سائرهما أنه على مدى ثلاثة قرون ظل ذلك الشعر يُقرأ فعلاً وما يرح يقدم على الدوام، بينما أصبح جميع الشعر الملحمي لدى الأمم الأخرى بأكمله تقريباً مجرد قطعة من الأثر الأدبي أو التاريخي. فهل عسى يكمن ذلك في ذوق القراء، الذين يطلبون شيئاً يختلف عما يرضى أذواق جمهور شمالي؟ ومن المؤكد أنه بدون وجود القدرة على التوغل بدرجة ما في داخل العاطفة الإيطالية يكون من المستحيل تقدير الامتياز الفائق الذي اختصت به هذه القصائد، كما أن كثيراً من الممتازين المبرزين من الرجال يعلنون أنهم يعجزون عن فهمها. والحق، إننا لو وجهنا النقد إلى بولشي Pulci وبوجاردو Bojardo وبييرني Berni وقد ركزنا الأعين على فكرهم ومادتهم، فسيفوتنا أن ننصفهم. فإنهم جميعاً فنانون من نوع خاص غريب، يكتبون لشعب يتمتع بذوق فني متميز ومتفوق.

وقد واصلت الأساطير القروسطية استمرارها بعد الاندثار التدريجي لشعر الفروسية، بعضها على هيئة التقفية المسجوعة للاقتباسات المختارة والمجموعات المجمع، وبعضها على هيئة السرد القصصي والروايات النثرية. وكان الوضع الأخير هو السائد في إيطاليا أثناء القرن الرابع عشر؛ ولكن الذكريات الموقظة حديثاً عن العصر العهيد كانت تنمو باطراد وسرعة إلى حجم ضخم بالغ الضخامة، وسرعان ما ألفت إلى الظل جميع الإبداعات الرائعة التي ظهرت في القرون الوسطى. فهذا بوكاتشيو، مثلاً، يذكر في "خيالات أو صور غرامية" *Amorosa Visione* فيما يذكر من أسماء الأبطال في قصصه المسحور، *Tristram* و *Arthur* و *Galeotto* و *چاليوتو* وغيرهم، ولكن بإيجاز، كأنما كان يحس بالخجل عند التحدث عنهم، (المجلد الأول، القسم الثالث، الفصل الرابع)؛ كما أن من أعقبه من كُتّاب إما أنهم لا يذكرونهم البتة أو لا يسمونهم إلا بقصد السخرية والضحك. على أن الشعب احتفظ بهم في ذاكرته، ومن الشعب انتقلوا إلى أيدي شعراء القرن الخامس عشر. وكان هؤلاء الشعراء قادرين عندئذ على أن يتمثلوا أمامهم ويعرضوا على الأنظار موضوعاتهم بطريقة جديدة كل الجدة. بل إنهم في الواقع فعلوا أكثر من ذلك. فإنهم أدخلوا في ذلك الموضوع عدداً جماً من العناصر الجديدة، كما أنهم، في واقع الأمر، أعادوا سبكه من البداية إلى النهاية. ولا ينبغي أن نتوقع منهم أن يتناولوا هذه الموضوعات بالاحترام الذي كان يُوجه إليها ذات يوم. وواضح أن جميع الأقطار الأخرى ينبغي أن تشعر

بالحسد نحوهم على ميزتهم إذ يمتلكون اهتماماً شعبياً من ذلك النوع يلجئون إليه؛ ولكنهم ما كانوا يستطيعون دون نفاق أن يعاملوا هذه الرطازات بنى احترام^(٢٦).

وبدلاً من ذلك تحركوا بحرية منتصرة في الميدان الجديد الذى كسبه الشعر. ويبدو أن الشيء الذى كانوا يهدفون إليه بصفة رئيسية هو أن تنتج أشعارهم، عند تلاوتها على الناس، أشد الآثار تناغماً مع النفوس وإبهاجاً لها. والحق أن هذه الأعمال لتكتسب بالتأكيد طراوة عندما تعاد على السامع لا بوصفها كلاً متكاملًا بل مجزأة، ومعها لمسة خفيفة من الكوميديا فى الصوت والحركة. ولن يعود تصوير الشخصية بعمق وتفصيل أكثر إلا بالنفع القليل فى زيادة ذلك الأثر؛ ومع أن القارئ ربما رغب فى ذلك، إلا أن المستمع الذى يرى المنشد أو الملقى واقفاً أمامه، والذى لا يسمع إلا قطعة واحدة فقط فى وقت واحد لا يفكر فى الموضوع على الإطلاق. أما بالنسبة للشخصيات التى وجدها الشاعر جاهزة الصنع من أجله فإن أحاسيسه إزاءها كانت مزوجة؛ فإن ثقافته الإنسانية النزعة كانت تحتج على طابعها القروسطى المميز، كما أن صراعاتها كأطراف فى المعارك أو منازل البرجاس المنتمية لعصر الشاعر نفسه كانت تستخدم كل معرفته وقدرته الفنية، بينما هى، فى نفس الوقت، كانت تحشد جميع السجايى فى المرتل الذى يقوم بتلاوتها. وتبعاً لذلك، فإنه يحدث حتى عند بولشى^(٢٧) أننا لا نجد أية محاكاة هازئة، إذا توخينا الدقة فى القول، للفروسية، تدانى بالتقريب الفكاهة الخشنة للمتشددين له فى بعض الأحيان. وإلى جوارهم يقوم المثل الأعلى للمشاكسة الحادة - وأعنى به مورجانتى Morgante المهرج المرح الضاحك - الذى يسيطر على جيوش بأكملها بضربة جرسه، بينما هو نفسه يخفف من توتر الأعصاب فى تناقض مع الوحش البشع والشائق جداً مارجوتى Margutte ومع ذلك فإن بولشى لا يعلق أهمية خاصة على هاتين الشخصيتين الخشتين والمفعمتين بالنشاط، كما أن قصته، بعد أن طال اختفاؤهما منها، ما برحت تحتفظ بطابعها الفريد. ويتناول بوجاردو^(٢٨) شخصياته بنفس القدرة، مستخدماً إياها لأغراض جادة أو هازلة حسبما يشتهى؛ وهو يجد الفكاهة يستخرجها حتى من الكائنات الغيبية الخارقة للطبيعة، التى يصورها بقصد متعمد فى بعض الأحيان فى صورة أجلاف غلاظ. بيد أن هناك هدفاً فنياً واحداً يهدف إليه بنفس الجد الذى يتبعه بولشى - وأعنى به الوصف شديد الحيوية والدقة لكل ما يحدث بعد ذلك. وكان بولشى يقوم بتلاوة قصيدته، كلما انتهى

من سفر بعد آخر، أمام رفقة لورنزو الفاخر، وبنفس الطريقة كان يوجاردو يتلو شعره في بلاط هيركيوليس أمير فيرارا. وفي الإمكان تصور مستوى ونوع الامتياز الذي كان يتطلبه مثل هذا الجمهور، وقلة مقدار الشكر الذي كان الشاعر يحصل عليه مقابل العرض الرائع العميق للشخصيات. ولم تكن القصائد بالطبع تحت هذه الظروف تشكل كلاً كاملاً، ومن المحتمل كذلك أنها كانت نصف أو ضعف ما هي عليه الآن. وتركيبها ليس تركيب صورة تاريخية عظيمة، ولكنها بالحرى صورة تمثل فريزة (*) أو طنّف أو صورة حبل زخرفى غنى مضفور بين مجاميع من شخوص جميلة كما يحدث بالضبط في صورة عساليج الفريزة أو الطنّف. ونحن لا نبحث عن النمنمة والدقة في تنفيذ الأشكال الفردية، ولا عن أشكال المنظور البعيدة والمستويات المختلفة، وكذلك ينبغي ألا نتوقع شيئاً إلا أقل القليل من هذه القصائد.



شكل ١٥٤ لويجي بولشي

جزء من اللوحة الجصية "بعث ابن الملك"، رسم قبليبيثو لبيي
سانت ماريا ديل كارميني، فلورنسا تصوير ألييناري

(*) الفريزة: شريط من الزخارف في أعلى جدار. (المترجم)

هذا وإن التنوع فى غنى الإبداع الجذلى الذى يدهشنا على الدوام، وذلك بوجه خاص فى حال بوجاردو، ليتحول إلى السخرية والضحك من جميع تعريفاتنا المدرسية المتعلقة بجوهر الشعر الملحمى. وكان ذلك الضرب من الأدب، بالنسبة لذلك العصر، أمتع أنواع التحول عن الدراسات الأثرية الأركيولوجية، بل هو والحق يقال كان الوسيلة الوحيدة الممكنة لإعادة تأسيس طراز مستقل من الشعر السردى والقصصى. وذلك لأن نَظْم التاريخ القديم شعراً لم يكن ليقود إلا إلى الدروب الخاطئة التى جال فيها بترارك فى قصيدته "أفريقيا" Africa ، التى كتبت فى شعر سداسى التفاعيل باللاتينية، وسلكتها بعده بخمسين ومائة من السنين، ترسينيو Trissinio فى قصيدة "إنقاذ إيطاليا من القوط" Italy Delivered from the Goths ، التى صيغت فى الشعر التلقائى Versi sciolti (القصائد الغفل ذات المقاطع الأحد عشر فى كل بيت) - وهى قصيدة لا تنتهى أبداً ولا يدرك الخطأ لغتها ولا نَظْمها، وهذا أمر يدعونا دائماً للشك هل عادت صلة مشنومة بالدمار والويل والثبور على التاريخ أم على الشعر^(٢٩)



شكل ١٥٥ أريوستو، رسم تيتيان المعرض القومى، لندن

وثمة سؤال : هل خدع مثال دانتي أولئك الذين قلدوه؟ فإن قصيدة "الانتصارات" Trionfi الخيالية لبترايك كانت آخر الأعمال التي كتبت تحت هذا التأثير والتي توافقنا. وليست قصيدة "خيالات غرامية" Amorosa Visione لبوكاتشيو في حقيقتها إلا تعداداً لشخصيات تاريخية أو خرافية، مُرتبة حسب مقولات مجازية^(٢٠) ويستهل آخرون ما يريدون سرده بتقليد مزخرف لمقطع دانتي الأول ، ويزيدون أنفسهم ببعض المقارنات المجازية للطلول محل فيرجيل. مثال ذلك أن أوبيرتي Uberti اختار سولينوس Solinus لقصيدته الجغرافية - "إيل ديتاموندو" - Il Dittamondo كما اختار جيوفاني سانتي Giovanni Santi بلوتارك لقصيدته في مدح فيديريجو أورينو^(٢١) Federigo Or-bino . بلوتارك الخالص الوحيد في ذلك الوقت من الميول الزائفة يكمن في الشعر الملحمي الجديد الذي كان يمثله بولشي وبوجاردو. وما كان الإعجاب والتطلع للذان استقبل بهما والذان ربما لن يتكررا أبداً نحو الشعر الملحمي حتى آخر الزمان ، إلا برهاناً ساطعاً على مدى كون الحاجة إليه ماسة وشديدة. ويصبح التساؤل عما إذا كان المثل الأعلى الملحمي الذي كونه عصرنا من هوميروس في النيبلونجينيلى^(*) Nibelungen- lied قد تحقق أم لا، غير ذى جدوى؛ ولكن من المحقق أن مثلاً أعلى للمحمة زمانهم كان موجوداً بالفعل. ويُسْتَبان مما قدموه من أوصاف لا نهاية لها ولا حصر للصراعات والمنازلات، التي هي عندنا أشد جزء في هذه الأشعار مجلبة للتعب والملل، أنهم أرضوا، كما أوضحنا من قبل، اهتماماً واقعياً يصعب علينا أن نشكل فكرة عادلة عنه^(٢٢) مثلما يصعب علينا بالتاكيد أن نبدي التقدير الذي يبلغه تأمل صادق حى ومخلص أمين اللحظة المنصرمة العابرة.

ولا يمكن لنفس التجربة غير المناسبة أن تطبق على أريوستو أكثر من الدرجة التي يقوم فيها قصيده "أورلاندو فوريوسو"^(٢٣) Orlando Furioso بتمثيل الشخصية. والحق إنه ليحتوى على شخصيات فعلاً، كما إنها ترسم بعناية ملؤها الحب ؛ غير أن القصيدة لا تعتمد على هذه الشخصيات فيما تحدثه من أثر فى الأنفس، وقد تصاب أكثر

(*) النيبلونجينيلى: قصيدة ملحمية جرمانية قيمة تحوى قصصاً وتقاليد ترجع إلى القرن الحادى عشر. (المترجم)

مما تكسب إذا زادت الأهمية المعقودة على تلك الشخصيات. ولكن الطلب عليها جزء من رغبة أوسع وأعم يفشل أريوستو في إشباعها بالدرجة التي يتمنى زماننا إشباعها. ونحن قد نتمنى من شاعر أوتى مثل تلك الشهرة وتلك المواهب العفية أن نتلقى منه بسرور شيئاً أفضل من مغامرات أورلاندو. فمن يديه كنا نتمنى أن نتلقى عملاً يعبر عن أعماق الصراعات التي تدور في النفس البشرية، وأرفع أفكار في زمانه عن الأشياء البشرية والإلهية - وتكون باختصار، أحد تلك التكوينات السامقة مثل الكوميديا الإلهية Divine Comedy أو فاوست Faust. وبدلاً من ذلك فإنه يقبل على العمل مثل الفنانين التشكيليين في زمانه، غير عابئ بالأصالة بالمعنى الذي تحمله لدينا الكلمة، وذلك في بساطة باعتماده على مجرد إعادة إنتاج دائرة مألوفة من الأشكال والشخصيات، بل حتى مستخدماً، عندما يوافق ذلك هدفه، نفس التفاصيل التي خلفها له سابقوه. فالامتياز الذي يمكن بلوغه رغم ذلك كله، سيزداد عسر فهمه على قوم ولدوا بغير حاسة فنية، مهما كانوا أعلم وأذكى في نواحٍ أخرى. وكان الهدف الفني عند أريوستو هو الحركة الذكية الممتلئة بالحياة التي يوزعها توزيعاً متساوياً في كل أرجاء قصيدته العظيمة بأكملها. ومن أجل تلك الغاية ينبغي أن يعفى، ليس فقط من جميع التعبيرات الأعمق عن الخلق والشخصية، بل وأيضاً يعفى من مداومة الاحتفاظ بأي ارتباط دقيق في سرده القصصي. وينبغي أن يسمح له بأن يلتقط بين أصابعه الخيوط المفقودة والمنسية عندما وكيفما شاء له هواه؛ وينبغي لأبطاله أن يسمح لهم بالحركة نهائياً وجيئة لا حسبما تقتضيه الشخصية بل لأن القصة هي التي تحتاج إلى ذلك. ومع هذا فإنه رغم استخدامه هذا الأسلوب اللاعقلاني والاعتباطي يبدي جمالاً فنياً متناغماً بدون إغراق نفسه في الوصف، بل يقدم فقط تخطيطاً مبدئياً للمناظر والأشخاص لا يعوق الحركة المتدفقة للسرد والقصة^(٣٤) ومع هذا فما أقل ما يفقد نفسه في تبادل الحوار وإلقاء النجوى (المونولوج)، بل يحتفظ لنفسه بالميزة السامقة الرفيعة للشعر الملحمي الحق، بتحويله الكل إلى قص حى. ولا يكمن الأسى عنده في الكلمات^(٣٥)، ولا حتى في المقطع الثالث والعشرين الشهير وما أعقبه من مقاطع، حيث يوصف جنون رولاند. فأما أن قصص الحب في القصيد الطولى مجردة من كل رقة غنائية (ليريكية) فإن ذلك أمر يعد ميزة، وإن لم يمكن لها من وجهة النظر الأخلاقية أن تتال الرضا

والاستحسان في كل الحالات. على أنها تكون في بعض الأحيان من بالغ الصدق والحقيقة، رغم جميع ألوان السحر والعاطفة العنيفة التي تحيط بها، حتى لقد يمكن أن نظنها شئناً شخصية تخص الشاعر وحده. وبينما هو مستغرق في الشعور الكامل لعبقريته الخاصة فإنه لا يتورع عن أن ينسج أحداث يومه هو في القصيد الذي ينشده وأن يمجّد شهرة بيت إيستي في صورة بعض الروى والنبوءات. هذا وإن المجرى المدهش الذي تنطلق به ثمانياته الشعرية لتحمل القصيد إلى الأمام قدماً في حركة متعادلة ومهيبة.

ويظهر تيوفيلو فولنجو Teofilo Folengo أو، كما يسمى نفسه هنا، ليمرنو بيتوكو Limerno Pitocco ، بلغ شعر المحاكاة التهامية الساخرة (أى المهزئية أو البارودياء) لنظام الفروسية كله النهاية والغاية التي طالما رغب في بلوغها طويلاً^(٣٦) ولكن هنا كانت الكوميديا، بما حوت من واقعية، تطالب بالضرورة بتحديد أدق صرامة للشخصية. فبعد أن تعرض لكل المعاملة الخشنة من صبيان الشوارع من أنصاف المتوحشين في بلدة ريفية رومانية تدعى سوتري Sutri ، ينمو أورلاندو ويتعرع تحت أبصارنا ليصبح البطل كاره القساوسة والمجادل اللجوج. وهنا ينهار ويتحول إلى جذاذات متناثرة عالم العرف والأوضاع الذي سلّم الناس واعترفوا به منذ عهد بولشى ، والذي قام بدور الإطار للشعر الملحمي. ويتعرض كل من أصل البالاديين (أى أنصار الأمراء) ومركزهم في المجتمع للسخرية الصريحة، كما حدث في برجاس الحمير في الكتاب الثانى، حيث يظهر الفرسان بأشد أنواع التسليح إضحاً للناس. فينطق الشاعر بأشد ألوان التأسفات التهامية على انعدام الإخلاص الذى لا سبيل إلى تفسيره والذي يبدو منغرساً تماماً في بيت جانو من ماينتز Gano of Mainz ، ومن المعاناة فى الحصول على سيف دوريندانا Durindana ، وما إلى ذلك من تشنيع. والواقع أن التقاليد أو الماثورات تخدمه، إذ كانت تمثل ركيزة دنيا فى سلسلة الحوادث والخيالات المضحكة والإشارات إلى أحداث ذلك الزمان (وبعضها ممتاز جداً مثل بداية المقطوعة السادسة) والتكات البذيئة الخارجة عن الأدب. ويختلط بهذا كله نوع ما من السخرية بأريوستو وهو ظاهر لا تخطئه العين، وكان من حسن حظ أورلاندو فيوريوسو Orlando Furioso أن قصيدة أورلاندينو Orlandino ، بما حوت من هرطقات

لوثرية، سرعان ما أزيحت من الطريق وقضت عليها محاكم التفتيش. وتتضح صورة التهزيئة الباروديةء عندما (فى المقطع الخامس) يستنبط اسم بيت جونزاجا من على لسان النصير والمشجع لهم النبيل جيدونى Guidone ، وذلك نظراً لأن آل كولونا Colonna ادعوا أنهم أحفاد أورلاندو، وادعى آل أورسينى Orsini الانتساب لرينالدو Rinaldo ، وادعاء بيت إيسى- حسب قول أريوستو- إذ يجعلون من روجيرو Rogiero جدهم الأكبر. وربما كان فيرانتى جونزاجا Ferrante Gonzaga ، راعى الشاعر، ضالعاً فى هذا التهكم الموجه إلى بيت إيسى.

وأما أنه يحدث فى قصيدة "إنقاذ أورشليم" Jerusalem Delivered التى سطرها توركاتو تاسو Torquato Tasso ، أن رسم الشخصية يعد أحد الواجبات الأساسية المتوجبة على الشاعر، فذلك لا يثبت إلا نقطة ، هى إلى أى حد اختلفت حالته الفكرية عن الحالة الشائعة قبل ذلك بنصف قرن. وإن كتابه المعجب إنما هو أثر صادق عظيم باقى لحركة الإصلاح الدينى المضاد، التى تم استكمالها فى الحين نفسه، كما أنه يعبر عن روح تلك الحركة وميلها.

الفصل الخامس

التراجم

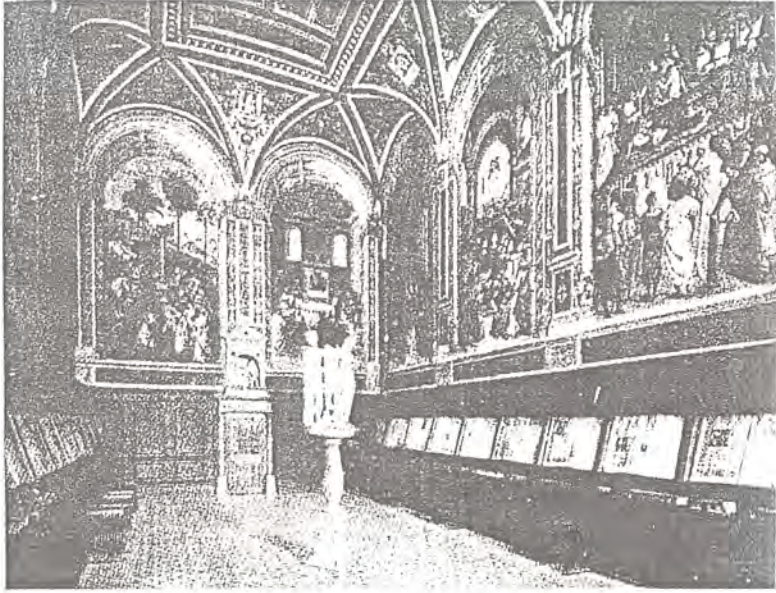
فأما خارج دائرة الشعر فكان الإيطاليون أيضاً فى الصدارة الأولى من بين جميع الأمم الأوروبية التى أظهرت أية قوة أخاذة وأى ميل واضح لإجراء مضبوط فى وصف الإنسان كما يبينه التاريخ ، حسب خصائصه المميزة الجوانية والبرانية.

حقاً إنه بذلت فى العصور الوسطى محاولات ضخمة فى هذا الاتجاه نفسه ؛ كما أن أساطير الكنيسة، بوصفها واجباً ثابتاً من ضروب السيرة، لابد أنها، إلى حد ما، احتفظت على قيد الحياة بكل من الاهتمام بهذه الأوصاف والموهبة اللازمة للقيام بها. وإنا لنجد فى حوليات الأديرة والكاتدرائيات أن كثيراً من رجال الكنيسة، مثل ماينفيرك من بادربورن *Meinwerk of Paderborn* وجوديهارد من كيلدسهام *Godehard of Kildesheim* وغيرهما، إنما تقدم شخوصهم أمام أعيننا تقديماً ناصعاً قوياً عن طريق التراجم؛ كما أنه لا تزال بين أيدينا أوصاف لعدد غفير من الأباطرة الجرمان، وقد صب نموذجها على غرار مؤلفين آخرين من القدماء - وبخاصة سويتونيوس - *Suetonius* وكلها تحوى بين دفتيها ظواهر وقسمات مستوجبة للإعجاب. والحق إن هذه وغيرها من الحيات *vitae* الدنيوية الدنسة لتظهر فى وقتها المناسب لتشكّل غراراً أو مثيلاً مستديماً للأساطير المقدسة. ومع هذا فليس من الممكن أن يقرن اسم كل من إجنهارد *Eginhard* ولا راديفيكوس^(١) *Radivicus* باسم چوينفيل *Joinville* فى الصورة التى صورها للقديس لويس، التى تقف بالتاكيد بمفردها تقريباً بوصفها أول صورة روحية كاملة الصفات ذات طبيعة أوروبية حديثة. وغنى عن البيان أن شخصيات على مثال

القديس لويس نادرة فى كل الأزمان، كما أن شخصيته هو قد أولتها الأيام بحسن
الحظ النادر الذى يجعل المشاهد المخلص الساذج يلتقط فوراً روح جميع الأحداث
والأفعال التى مرت بحياته ويتمثل تلك الروح بصورة معجبة. فما أضال المصادر التى
تُركت لنا لنحدس ونحزر منها الطبيعة الجوانية لفريديريك الثانى أو فيليب العادل!
ونشير هنا إلى أن الكثير مما ظل، حتى قرابة نهاية العصور الوسطى، يمر بسلام
بوصفه تراجم، إن هو فى واقع الأمر الصحيح إلا قص سردى معاصر، كتب بدون أى
إحساس بالشئ الشخصى فى موضوع المذكرات.

فأما بين الإيطاليين، على العكس من ذلك، فإن البحث عن الظواهر والقسمات
المميزة فى الرجال الممتازين الأفاضل كان ميلاً ذائعاً بينهم؛ وذلك هو الفارق الذى كان
يخالف بينهم وبين بقية الشعوب الغربية الأخرى، الذين لا يحدث ذلك لديهم إلا نادراً،
وفى أحوال استثنائية. وغنى عن البيان أن هذه العين الحادة الرامقة للفردية لا تنتسب
إلا إلى الأقوام الذين مرقوا من حالة شبه الوعى فى حياة الشعب وأصبحوا هم
أنفسهم أفراداً.

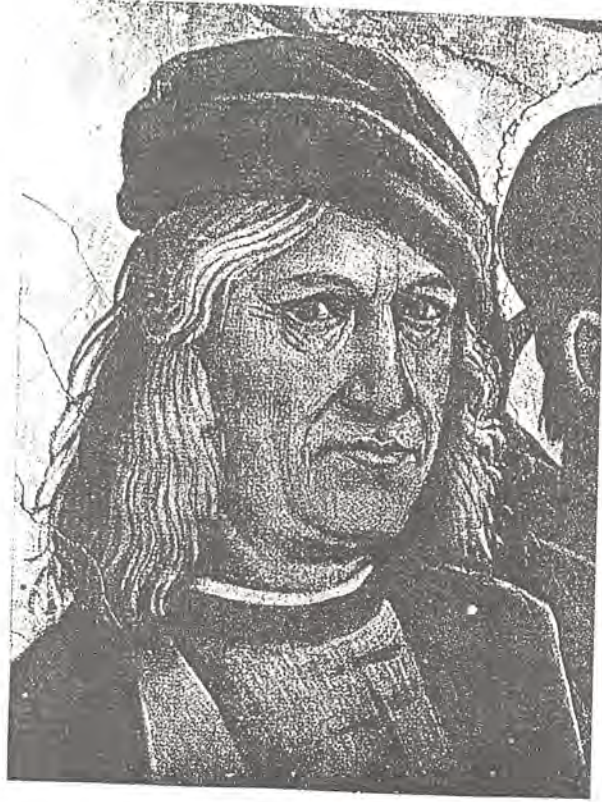
ويتأثير الفكرة الشائعة بينهم عن الشهرة (المجلد الأول، القسم الثانى، الفصل
الثالث)، نشأ فنٌ جديد للتراجم المقارنة لم يعد يرى من الضرورى، مثل
أناستاسيوس^(٢) Anastasius وأجنيلوس^(٣) Agnellus وخلفاؤهما، أو شأن كتاب
تراجم أنواع البندقية، التمسك بالتعاقب الكنسى أو الأسروى (فى وراثة العرش). كان
فنّاً يحس بنفسه الحرية التامة فى وصف رجل إذا كان مرموقاً ويسبب أنه كان مرموقاً
ممتازاً مسترعياً للألباب. فاتخذ هذا الفن نماذج له من سويتونيوس ونيبوس Nepos
(الرجال الأفاضل "Viri Illustres")، وبلوتارك، حيثما كان معروفاً ومترجماً إلى لغات
أخرى؛ أما بالنسبة لتخطيطات أو المسودات الإجمالية (الاسكتشات sketches) عن
التاريخ الأدبى، فيبدو أنه قد استخدمت حيوات النحويين وعلماء البلاغة أو البيانيين
والشعراء، المعروفة لنا باسم "الملاحق أو التذييلات" لسويتونيوس^(٤)، كنماذج، فضلاً عن
حياة فيرجيل الذائعة الانتشار بين القراء من تأليف دوناتوس Donatus .



شكل ١٥٦ مجموعة جصية عن حياة إينياس سيلفيوس (بيوس الثاني) لبينتوريكو
مكتبة الكاتدرائية، سيينا
تصوير أليباري

وقد سبق أن ذكرنا أنفاً أن مجموعات التراجم - حيوات شهيرى الرجال وشهيرات النساء - بدأت فى الظهور فى القرن الرابع عشر (المجلد الأول، القسم الثانى، الفصل الثالث). وحيثما وجدتهم يصقون غير المعاصرين لهم فإنهم كانوا يعتمدون على قصاصى رواية أسبق، وكان أول جهد عظيم أصيل هو حياة دانتي من تأليف بوكاتشيو. Boccaccio كتب هذا العمل بخفة لطيفة وبيانية وامتلاً فعلاً بالأخيلة التعسفية الاعتباطية البعيدة، ومع ذلك فإنه يضيف علينا إحساساً حيويًا ناضراً بالنواحي الرائعة فى طبيعة دانتي^(٥) ثم أعقبه فى نهاية القرن الرابع عشر حياة vite مشاهير الفلورنسيين اللامعين من تأليف فيليبو فيلانى. Filippo Villani وهم رجال من جميع المهن: شعراء ورجال قانون وأطباء وعلماء وفنانون ورجال سياسة وجنود، ومنهم من كان لا يزال على قيد الحياة، وهنا تعامل فلورنسا كأنما هى عائلة موهوبة

فيها يوضع تحت الملاحظة جميع الأعضاء الذين فيهم تعبر روح البيت عن نفسها بقوة. والأوصاف موجزة ولكنها تبدو عيناً لاحظة لكل ما هو خصيصة مميزة للشخصية، وكل ما هو جدير بالانتباه والتسجيل وجدير بأن يجمع السحنة العامة الجوانية والبرانية في نفس الرسم التخطيطي^(٦) ومنذ ذلك الحين فصاعداً^(٧) لم يكفّ التوسكانيون بتاتاً عن اعتبار وصف الإنسان شيئاً من اختصاصهم الخاص، وإليهم نحن مدينون بأثمن أنواع صور الإيطاليين من أبناء القرنين الخامس عشر والسادس عشر. ويجمع جيوفاني كافالكانتى Giovanni Cavalcanti ، فى ملاحق أو تذييلات دراسته عن تاريخ الفلورنسيين المكتوبة قبل^(٨) ١٤٥٠، أمثلة للفضيلة المهذبة الراقية ونكران الذات والفتنة السياسية والبراسة العسكرية التى يبديها جميع أهل فلورنسا. ويمنحنا البابا بيوس الثانى فى رسالته "التعقيبات" Commentaries صوراً نفيسة لمشاهير معاصريه؛ كما أن كتاباً منفصلاً^(٩) عن سنواته الأولى الأبر، يبدو أنه ظهر تمهيداً لهذه الصور، ولكنه عامر بالألوان والقسمات والملاحم الفذة تماماً فى طبيعتها، قد أعيد طبعه أخيراً. ونحن ندين لچاكوب من فولتيراً Jacob of Volterra رسوماً تخطيطية أى اسكتشات لازعة ، وهى تمثل أعضاء المجلس الكنسى^(١٠) فى عهد البابا سيكستوس الرابع . Sixtus IV وكثيراً ما أشرنا أنفاً إلى فيسبازيانو فيورينتينو Vespasiano Fiorentino ، وينبغى أن تخصص له مكانة عالية يتبوأها بوصفه ثقة تاريخية ؛ على أنه لا يجوز أن تقارن موهبته كمصور للشخصيات بموهبة ماكياثيللى ونيكولو فالورى Niccolo Valori وجيتشاردينى Guicciardini وقاركى Varchi وفرانشيسكو فيتورى Francesco Vettori ، وغيرهم، الذين من المحتمل أن التاريخ الأوروبى قد تأثر بهم مثلما تأثر بالقدماء. ولا يغربن عن بالنا أن بعض هؤلاء المؤلفين ما لبثوا أن وجدوا طريقهم سريعاً فى أعماق الأقطار الشمالية على لسان الترجمات اللاتينية. ولولا وجود چيورچيو فاسارى من أريتزو Giorgio Vasari of Arezzo فلربما ما كنا نحصل حتى يومنا هذا على تاريخ للفن الشمالى، ولا لفن أوروبا العصرية على الإطلاق^(١١) .



شكل ١٥٧ صورة ذاتية للوكا سنيوريللي
جزء من اللوحة الجصية "المسيح الدجال"
الكاتدرائية، أورفيتو
تصوير أندرسون، روما

ومن بين كُتَّاب التراجم في شمال إيطاليا في القرن الخامس عشر يتبوأ
بارتولوميو فاتشيو من سبيتزيا Bartolomeo Facio of Spezzia مكاناً في الصدارة
(المجلد الأول ، القسم الثاني، الفصل الثالث). ويعطينا بلاتينا Platina، المولود في
مقاطعة كريمونا ، في ترجمته لحياة البابا بول الثاني (Life of Paul II المجلد الأول،
القسم الثالث، الفصل السابع) ، أمثلة لشخصيات التراجم الكاريكاتورية. ومما كانت له

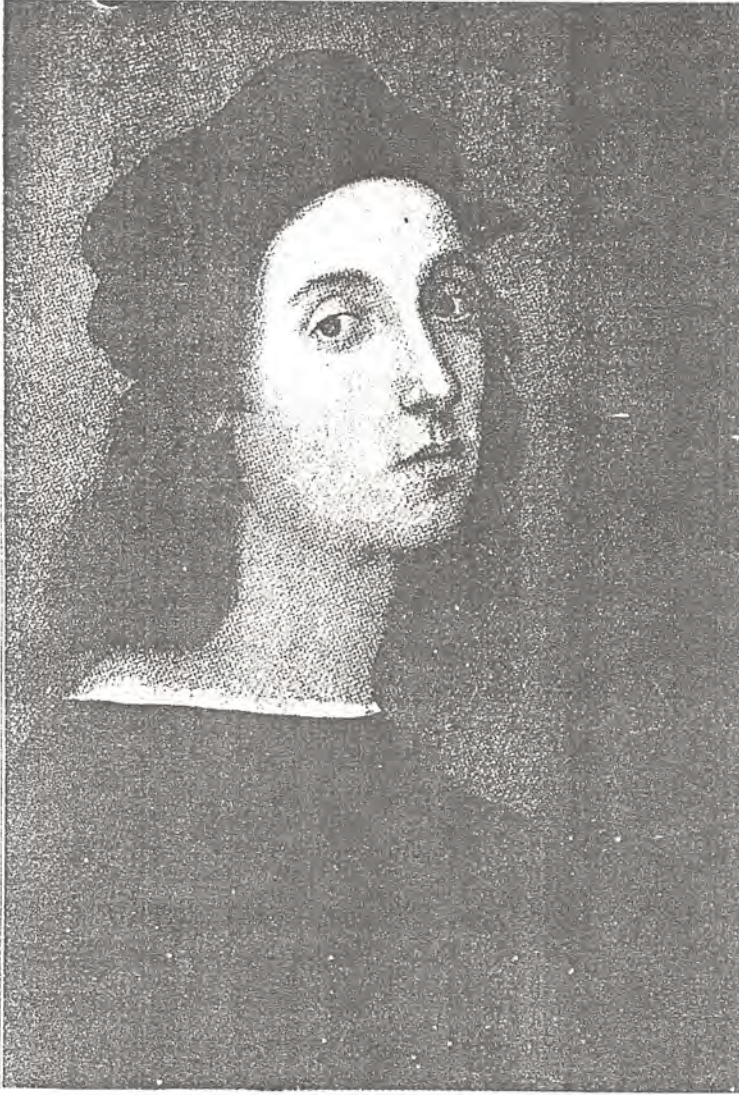
أهمية خاصة بين التراجم وصف الفيسكونتي الأخير (أى آخر أفراد آل فيسكونتي)^(١٢)، الذى كتبه ببيركاندينو ديسيمبريو - Piercandido Decembrio وهو محاكاة موسعة لسويتونيوس. ويأسف سيسموندى Sismondi من أن جهداً كبيراً جداً أنفق على غرض غير جدير بشيء، ولكن المؤلف ربما لا يكاد يكون كفوفاً لمعالجة حياة رجل أعظم، بينما هو كفاء كامل الكفاءة فى القدرة على وصف الطبيعة المخالطة لفيليبو ماريا Filippo Maria، ثم يمضى فيها ومن خلالها لينقل الأحوال والأشكال والعواقب التى تترتب على هذا النوع الخاص المعين من الاستبدادية والحكم المطلق. وما كانت لتتم صورة القرن الخامس عشر بدون هذه الترجمة الفريدة الفذة الشخصية المميزة حتى أدق تفاصيلها. وامتلكت ميلانو فى المؤرخ كوريو Corio رساماً بارعاً للشخصيات؛ ومن بعده جاء باولو جيوفيو من كومو Paolo Giovio of Como، الذى بلغت تراجمه الأكبر ومراثيه الأقصر إيلوجيا Elogia شهرة تملأ جنبات العالم، كما أصبحت نماذج يحتذىها كتاب المستقبل فى جميع الأقطار. ومن اليسير علينا أن نثبت عن طريق مئات من الفقرات التى نستشهد بها كم كان سطحياً وغير أمين؛ ولا كيف أنه من رجل مثله يمكن أن نتوقع أى هدف سام رفيع وجاد. ومع ذلك فإن أنفاس وروح العصر تتحرك فى صفحاته وأشخاص كتبه، ليو وألفونسو وبومبيو كولونا Pompeo Co- lonna، تعيش وتتحرك وتتفاعل أمامنا بصدق وواقعية كاملين بحيث نشعر أننا أدخلنا إلى أعماق أغوار طبيعتهم.

ومتى استعرضنا كتاب نابولى وجدنا تريستانو كاراتشيولو Tristano Caracciolo المجلد الأول، القسم الأول، الفصل الخامس)، وذلك بقدر ما يمكننا أن نحكم، يتبوأ بلا منازع مكان الصدارة فى هذا الصدد، وإن لم يكن يهدف بالضبط نحو إنشاء التراجم. فالصور التى يضعها تحت أبصارنا يختلط فيها الذنب بالقدر اختلاطاً مدهشاً. فإنه يعد فيها ضرباً من الكاتب التراچيدى اللواعى. فإن تلك التراچيديا ذات الأصالة التى لم تجد لها أنذاك مكاناً على خشبة المسرح كانت تغمر وتنضج وتكتسح حولهم فى القصر والشارع والميدان العام. ولو نظرت إلى كتاب كلمات وأفعال ألفونسو

الأكبر " Words and Deeds of Alfonso the Great فإنه وقد كتبه أنتونيو بانورميتا^(١٣) Antonio Panormita أثناء حياة عين الملك، فهو بالتبعية يظهر قدرًا من روح التملق أكبر مما يتناسب والصدق التاريخي، وهو جدير بالملاحظة والإعجاب بوصفه واحداً من أوائل مجموعة من مجاميع النواذر والأقوال الحكيمة والذكية.

وحذت سائر أوروبا كلها حذو إيطاليا في هذا الاتجاه ، لولا أنها سارت في ذلك على مهل^(١٤)، وإن أدت الحركات السياسية والدينية الكبيرة إلى تمزيق العدد الغفير من الأواصر كما أيقظت الآلاف الحاشدة الكثيرة إلى الحياة الروحية الجديدة. وظل الإيطاليون، سواء كانوا علماء أو دبلوماسيين، على الجملة، أفضل مصدر للمعلومات المحيطة بأخلاق الرجال الممتازين المبرزين بكل أنحاء أوروبا. ومعلوم جيداً مدى السرعة والإجماع اللذين كانت تعامل بها، في تقدير الناس في العصر الحديث ، تقارير السفارات البندقية في القرنين السادس عشر والسابع عشر حيث كانت يعترف بها مراجع ثقة من الطراز الأول في ناحية الوصف الشخصي للأفراد^(١٥). ولا عجب في أنه حتى التراجم أو كتابة السيرة الذاتية نفسها كانت هنا وهناك في إيطاليا تنطلق وتحوم حوماناً قوياً وبالغ الجرأة، وتضع أمام أبصارنا بوحاً أخاذاً عن دفائن الإنسان الجوانية فيه، بالإضافة إلى أشد أنواع الأحداث تنوعاً واختلافاً في حياته البرانية. وذلك بينما الترجمة الذاتية عند شعوب أخرى، حتى في ألمانيا في عصر الإصلاح الديني، لا تعالج إلا خبرات الحياة الخارجية للفرد وتتركنا فريسة التخمين والزكن حول الروح الداخلية من أسلوب القص وطريقة السرد^(١٦) وكأني بدانتي قد راح في كتابه "الحياة الجديدة" La Vita Nuova ، بما عهد فيه من صدق صلب لا يلين يجرى كالدّم في العروق، قد أوماً لشعبه أول الدرب.

ويمكن تعقب بدايات السير والترجمة الذاتية في تواريخ العائلات العليا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، التي يقال إنها ليست بالنادرة كمخطوطات محفوظة في المكتبات الفلورنسية - في صورة حكي غير متكلف كتب من أجل الفرد أو أسرته، مثل ترجمة بيونناكُورسو بيتّي Bionaccorso Pitti .

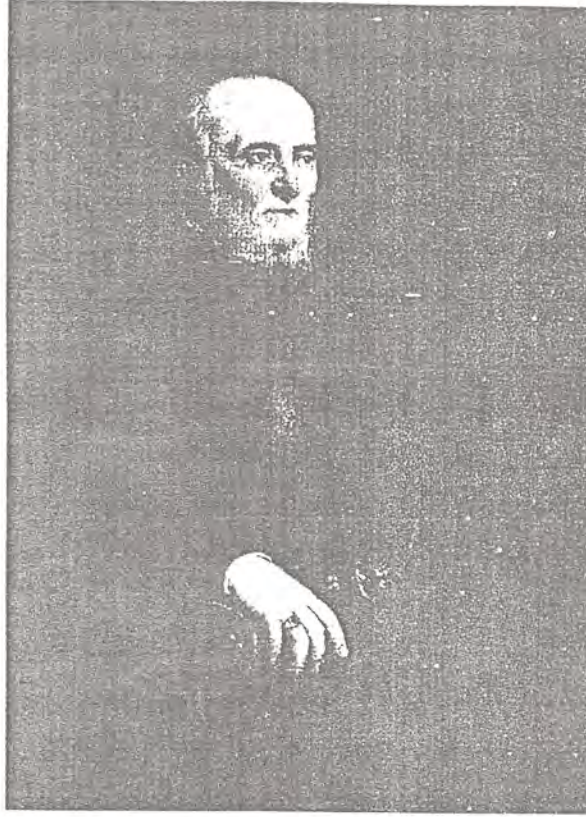


شكل ١٥٨ صورة ذاتية لرافاييل
أوفيزي، فلورنسا
تصوير دويتشه فيرلاجس أنشتالت، شتوتجارت

وغنى عن البيان أنه لا يجوز البحث عن تحليل ذاتي عميق في "تعقيبات" Com-mentaries البابا بيوس الثاني ، فإن ما ندرسه فيها عنه كرجل وإنسان يبدو للوهلة الأولى قاصراً على البيان الذى يسطره حول مختلف خطوات تاريخ حياته ، على أن المزيد من تقليب الفكر سيقتادنا إلى استنتاج مخالف يتعلق بهذا الكتاب الجدير بالتقدير ، فهناك رجال كانوا بالفطرة مرآيا تعكس كل ما يحيط بهم ، وبذلك يكون من غير المنطقي وخارجاً عن الموضوع أن نواصل السؤال بلا انقطاع عن معتقداتهم وكفاحاتهم الروحية وأعمق أعماق انتصاراتهم وإنجازاتهم ، وقد عاش إينياس سيلفيوس كلية حياته فى بحران المصلحة الذاتية القريبة منه ، نون أن يرهق نفسه فى البحث فى مشاكل الحياة ومتناقضاتها ، وخوّلَهُ صدق عقيدته الكاثوليكية جميع أشكال هذا العون الذى يحتاج إليه. وعلى كل حال، فإنه بعد أن ساهم فى كل حركة فكرية وعقلية كانت تثير اهتمام عصره، بل وأعان على تقوية بعضها بوجه خاص، فإنه ظل، حتى نهاية خط سيره الأرضى الدنيوى، يحتفظ من قوة الشخصية والخلق ما مكنه من الدعوة الدينية إلى القيام بحرب صليبية ضد الأتراك، وما جعله يموت كمدماً عندما انتهت دعوته إلى لا شىء.

وكذلك أيضاً ليست الترجمة الذاتية لبنقنوتو تشيليني Benvenuto Cellini ، أكثر من ترجمة البابا بيوس الثاني، بقائمة على التأمل الباطنى. ومع ذلك فإنها تقوم بوصف الرجل بأكمله - وإن لم يتم ذلك على الدوام برضاه وقبوله - مع صدق عجيب مدهش واكتمال رفيع. على أنه ليس من الأمور الهينة أن بنقنوتو - الذى هلكت أعماله وهى نصف مستكملة ، والذى هو ، بوصفه فناً ، لا يبلغ حد الكمال إلا فى أشد أعماله التخصصية زخرفة ، ولكنه فى نواحٍ أخرى ، لو أصدرنا عليه الحكم بناء على أعماله الفنية التى بقيت لنا، يتفوق عليه العدد الجم من معاصريه الأعظم منه - أن بنقنوتو كرجل سيظل يثير اهتمام البشرية إلى نهاية الزمان. وليس مما يفسد الانطباعة أن يشتمَّ القارئ منه فى كثير من الأحيان ربح التفاخر بما ليس فيه أو حتى الكذب ؛ إذ يتبقى على الدوام بصمة ما فيه من طبيعة قوية ناشطة الطاقة وبالغة التطور. وإلى جواره يبدو ككتاب السيرة الذاتية الشماليين، وإن كانت ميولهم وخصائصهم الخلقية أسمى وأعلى كثيراً، مخلوقات ناقصة بتراء ، فهو رجل يستطيع أن يفعل كل شىء ويجرؤ على أن يفعل كل شىء ، وهو يقدر نفسه حق قدرها^(١٧) وسواء أعجبنا به أم لا، فهو يعيش ، فى الحقيقة ، كطراز له أهميته للروح العصرية.

وثمة رجل آخر يستحق ذكراً موجزاً يرتبط بهذا الموضوع، وهو رجل، يشابه بنفوتو في أنه لم يكن مثالاً للدقة في الصدق - هو جيرولامو كاردانو من ميلانو Gero- Iamo Cardano of Milan المولود في ١٥٠٠). وكتابه الصغير^(١٨) المعنون "عن الحياة الحقة" De Propria Vita الذى سوف يتجاوز في العمر ويكشف ضياء صيته وشهرته في الفلسفة والعلوم الطبيعية ، شأن ترجمة حياة بنفوتو تماماً، وإن كانت قيمته من نوع آخر، ألقى بكتبه الأخرى إلى الظل. وكان كاردانو طبيباً يجس نبضه بنفسه ويصف طبيعته البدنية والخلقية والعقلية الخاصة ، فضلاً عن جميع الظروف والأحوال التي تطورت في ظلها، ويفعل ذلك كله باذلاً أقصى ما فى وسعه من قدرة فى حدود الأمانة والإخلاص. واستطاع، غير مكبوح بأية مبادئ رواقية، التفوق على الكتاب الذى كان يأخذه باعترافه نموذجاً له: "تأملات" ماركوس أوريليوس Meditations of Marcus Au- rilius. وهو يتغنى ألا يعفى نفسه ولا الآخرين من تبعته، ويبدأ حكي سيرة حياته بقوله بأن أمه حاولت، وفشلت، فى إجراء عملية إجهاض. ومما هو جدير بالملاحظة أنه ينسب إلى النجم الذى علا ساعة ميلاده أحداث حياته ومواهبه الفكرية دون صفاته الخلقية؛ وهو يعترف أن تنبؤات المنجمين بأنه لن يعيش إلى سن الأربعين أو الخمسين أنزلت به أبلغ الضرر أثناء شبابه. ولا حاجة بنا إلى الاقتباس من كتاب كهذا ذائع الصيت قائم فى متناول الأيدي بكل مكان؛ فما من أحد يفتحه ويستطيع تركه حتى يصل للصفحة الأخيرة فيه. ويسلم كاردانو بأنه كان يغش فى اللعب، وأنه كان حقوداً محباً للانتقام، وغير قادر على الإحساس بوخز الضمير أو الندم، وأنه كان يتعمد إبداء الغلظة والقسوة فى حديثه. وهو يعترف بذلك دون أيما وقاحة وبدون أى أسف مرعى، ولا حتى لمجرد الرغبة فى جعل نفسه موضع الاهتمام، ولكن فى حدود نفس حبه البسيط المخلص للحقيقة الذى كان رائده فى أبحاثه العلمية. على أن ما نجد منفرأً أكثر هو أن ذلك الرجل العجوز، بعد أن مرت به أشد أنواع التجارب إزعاجاً^(١٩) وفقدان ثقته بكل معاصريه ومعاشييه من الناس، يجد نفسه بالرغم من ذلك كله سعيداً ورخى البال بدرجة مقبولة. وكان ما يزال يعيش له حفيد، ويتبقى له العلم الوافر الغزير، وذيوع شهرة أعماله، ورصيد من المال، ومركز رفيع المنزلة، وسمعة حسنة، وأصدقاء من نوى الحول والنفوذ، والمعرفة بكثير من الأسرار، ويملك خيراً من ذلك كله الإيمان بالله. وأخذ بعد ذلك يحصى الأسنان فى فمه ويجد أن لديه خمسة عشر.



شكل ١٥٩ لويجي كورنارو، رسم لتينتوريتو
باتلاتزو بيتي، فلورنسا

ومع ذلك ففي الأيام التي كان كاردانو يكتب فيها كانت محاكم التفتيش والإسبان من قبل يقومون بعملهما الرهيب في إيطاليا بقضه وقضيضه ، إما في إعاقة ونشوء إنسان له مثل طبيعته ، أو يتولون حيثما وجدوا بوسيلة أو بأخرى إزاحته من الطريق على الأقل. وإن هناك لهوة عميقة تفصل بين هذا الكتاب ومذكرات ألفييري Alfieri .
ومع ذلك فليس من العدل أن نختتم هذه القائمة من كُتَّاب السير الذاتية دون الإصغاء إلى كلمة من رجل جمع بين الجدارة والسعادة في نفس الوقت، وذلك هو

الفيلسوف ذائع الصيت فى شئون الحياة العملية لويجى كورنارو، الذى كانت دار إقامته فى بادوا، بعظم قدرها بوصفها عملاً معمارياً تاريخياً من الطراز الأول ، فى نفس الحين دار جميع عرائس الشعر والموسيقى. وإنه ليصف فى أطروحته الشهيرة "عن الحياة المتزنة"^(٢٠) *On the Sober Life* الحمية أو النظام الغذائى الدقيق (الريجيم) الذى نجح به بعد فترة شباب سقيمة فى بلوغ سن متقدمة وبصحة جيدة، وكان فى ذلك الوقت فى الثالثة والثمانين. ثم يواصل حديثه للرد على أولئك الذين يحتقرون الحياة بعد سن الخامسة والستين ويصفونها بأنها موت حى، مبيئاً لهم أن حياته هو الخاصة لم يكن يشوبها الموت إطلاقاً.

فلياتوا وينظروا ويتعجبوا من صحتى الجيدة، وكيف أمتطى صهوة جوادى دون مساعدة من أحد ، وكيف أصعد السلالم وأرقى التلال ، وكم أنا مرح ومُسَلِّ وراضٍ ، وكم أنا خلى البال من الهموم والأفكار المزعجة. ولا يفارقنى السلام ولا الجذل.... وأصدقائى قوم حكماء وعلماء وممتازون من نوى المراكز العالية ؛ وعندما لا يكونون معى فإبنى أقرأ وأكتب، وأحاول بذلك ، وبكافة الوسائل الأخرى، أن أكون نافعاً للآخرين. وكل من هذه الأشياء أفلعها فى وقتها المناسب ، على راحتى، وفى منزلى الجميل الذى يقع فى أفضل أحياء بادوا، كما أنه مزود بكافة الاستعدادات من كل موارد فن العمارة ليصلح لكل من الصيف والشتاء، وتحيط به حديقة بجانب الماء الجارى. فأنما فى الربيع والخريف فإبنى أذهب لقضاء حين من الوقت إلى تل أملكه فى أجمل بقاع جبال اليوجان، حيث أمتلك الينابيع والحدائق فضلاً عن مسكن مريح؛ وهناك أسلى نفسى ببعض الصيد السهل والطراد السار الذى يتناسب مع سنى. وفى أوقات أخرى أذهب إلى قبلى القائمة فى السهل المترامى^(٢١)؛ وهناك تؤدي كل الدروب إلى مكان فسيح تقف فى وسطه كنيسة جميلة ؛ ويجرى رافد من نهر البرنتا Brenta خلال المتسعات النباتية - وهى حقول مثمرة جيدة الأزدرع، التى أصبحت الآن مكتظة بالسكان بعد أن جعلت منها المستنقعات والهواء الوبئ سابقاً صالحة للثعابين أكثر منها للإنسان. وكنت أنا الذى توليت تجفيف المستنقعات ؛ وعندئذ تحسن الجو وأصبح صحياً واستقر الناس هناك وتكاثروا، ثم أصبحت الأرض مثمرة كما هو شأنها اليوم ، بحيث أننى أستطيع بحق أن أقول : "فى هذه البقعة قدمت إلى الله هيكلاً ومعبدًا

وأناساً ليعبده". وذلك مصدر عزائى وسعادتى كلما جئت هنا. وفى الربيع والخريف أزور أيضاً المدن المجاورة لأرى أصدقائى وأتحدث وإياهم ، وعن طريقهم أتعرف ورجالاً آخرين ممتازين، منهم المعماريون والمصورون والنحاتون والموسيقيون وُزَّاعُ الأراضى. وأرى الجديد الذى يبدعون ، وأراجع من جديد ما كنت أعرفه من قبل ، وأتعلم الكثير مما يعود على بالنفع. وإنى لأشهد القصور والجنان والآثار القديمة والحدائق العامة والكنائس والقلاع والتحصينات. ولكن الذى يبهجنى فوق كل شئ عندما أخرج للرحلة والسفر هو جمال الريف والمدن التى تقع حيناً فى السهل وتقوم حيناً فى منحدرات التلال أو على ضفاف الأنهار والمجارى المائية محاطة بالحدائق والقبيلات. وما تقل شأن هذه المتع نتيجة ضعف العين أو وقرٍ فى الأذن؛ وأحمد الله كثيراً لأن حواسى جميعاً على خير حال من السلامة، بما فى ذلك حاسة التذوق؛ وذلك لأنى ألتذذ وأمتع بالطعام البسيط الذى أتناوله الآن باعتدال أكثر من كل الاكلات الشهية التى كنت أتناولها فى أيام الفوضى التى عشتها.

وبعد أن سرد الأعمال التى تولاها فى خدمة الجمهورية لتجفيف المستنقعات، والمشروعات التى دام طويلاً يدافع عنها للحفاظ بالغدرا (أى البحيرات غير العميقة ، الجميلة)، تراه يختتم القول هكذا:

هذه هى التسلية والترويحات التى يتخذها مسن شيخ أذن الله أن يمتعته بالصحة وحياة خالية من الآلام العقلية والجسدية التى تنهار تحتها الكثرة الغفيرة من صغار الشبان ، والعدد الجم من المكتهلين الأكبر سناً. ولو جاز لنا أن نجتمع بين الضنيل والعظيم وأن نضيف الهزل إلى الجد ، ربما أمكن القول أنه نتيجة للالتزام جادة الاعتدال فى حياتى فإننى استطعت أن أكتب فى سنتى الثالثة والثمانين مسرحية كوميدية مسلية جداً مليئة بالنكت اللطيفة الذكية. ومعلوم أن مثل هذه الأعمال تترك دائماً للشباب يقوم به، شأن التراجيديا التى هى من شأن الشيوخ. فلئن عد فضلاً جزيلاً للإغريقى الشهير كتابة إحدى التراجيديا وقد بلغ سنته الثالثة والسبعين ، أفلا يحق لى، بتلك السنين العشر الإضافية ، أن أكون أكثر مرحاً وصحة مما بلغه هو فى أى يوم من أيام حياته؟ وإنى لأرى أمام ناظرى نوعاً من الخلود الجسدى فى

شخص خلفائى وأحفادى ، وبذلك لا ينقصنى العزاء فى كأس حياتى الغامرة. وعندما أعود لمنزلى أرى أمامى لا واحداً أو اثنين بل أحد عشر حفيداً، بين الثانية والثامنة عشرة من العمر وقد انحدروا جميعاً من نفس الأم ونفس الأب، وجميعهم صحيح البدن، وكلهم، قدر ما يمكن الحكم عليهم، موهوبون بالموهب والاستعداد للعلم والتعلم والتطلع إلى قضاء حياة رغدة هانئة. وإنى لأتخذ واحداً من أصغرهم منازلًا وزميل لعب (buffoncello) ، وذلك نظراً لأن الأطفال بين سن الثالثة والخامسة يحبون اللعب بالفطرة ومملوون بالحيل والأحاييل؛ فأما الأحفاد الأكبر سناً فإنى أعاملهم معاملة الند، ونظراً لأنهم يتمتعون بأصوات رخيمة، فإننى أجد بهجة عظيمة فى الاستماع إليهم يغنون ويعزفون على آلاتهم الموسيقية المختلفة. كما إنى أغنى أنا أيضاً، وأجد صوتى أرخم وأوضح وأعلى من أى وقت مضى. فتلك هى مسرات سنوات عمري الأخيرة. فحياتى من ثم مفعمة بالحيوية، حية وليست بالميتة؛ ولن أرضى بأن أتبدل بسنى ميعة الشباب، شباب أولئك الذين يعيشون فى خدمة شهواتهم.

وهو فى التذييل لكتابه "العظة" Exhortation الذى أضافه كورنارو فى وقت متأخر جداً، فى سنته الخامسة والتسعين، يعد من بين عناصر سعادته أن أطروحته تلك هدت إلى السبيل القويم كثيراً من الأتباع. ثم قضى نحبه فى بادوا فى ١٥٦٥ بعد أن تجاوز المائة من العمر.

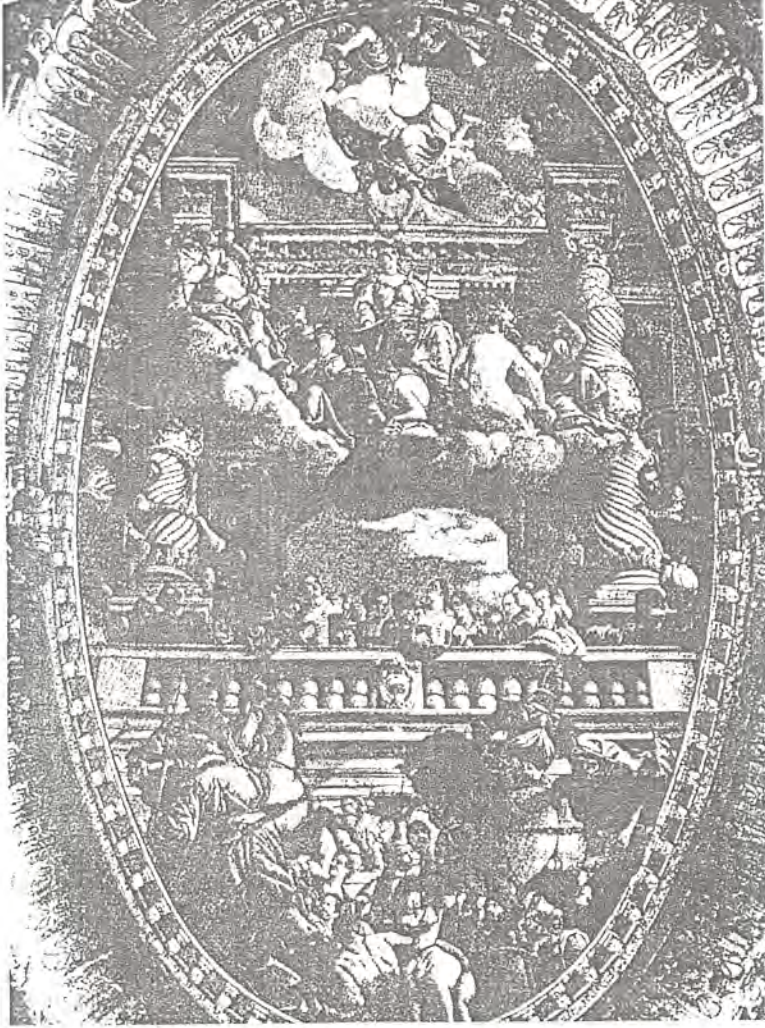
الفصل السادس

وصف الأمم والمدن

ومع ذلك، فإن هذه الموهبة القومية لم تقصر نفسها على نقد الأفراد ووصفهم، بل أحست في نفسها القدرة والكفاية على معالجة صفات شعوب بإكملها وخصائصها وسماتها المميزة. وطوال العصور الوسطى كانت مدن أوروبا كلها وأسرها وأممها جميعاً قد اعتادت على تبادل العبارات المليئة بالإهانة والاحتقار إحداهما على الأخرى، وهى عبارات كانت تحتوى فى الأغلب الشائع على بذرة من الحقيقة علاوة على التنازلات الكاريكاتورية المبالغ فيها. ولكن كان الإيطاليون يفوقون منذ البداية الجميع طراً فى إدراكهم الذكى السريع للفروق العقلية بين المدن ومختلف السكان. وسريعاً ما تمكنت وطنيتهم المحلية، وهى فى الراجح أقوى عندهم منها عند أى شعب قروسطى آخر، من أن تجد لنفسها لساناً معبراً هو الأدب وأن تربط نفسها حليفاً لفكرة الشهرة الشائعة بين الناس. وأصبح علم الطوبوغرافيا قسيماً وصنواً لكتابة التراجم (المجلد الأول، القسم الثانى، الفصل الثالث)؛ وبينما بدأت جميع المدن الأكثر أهمية فى الإعلان المتفاخر عن نفسها بكل ما لها من مدائح وصفات حميدة نثراً وشعراً⁽¹⁾، ظهر الكتّاب الذين جعلوا المدن والمناطق الرئيسية موضوعاً كان من ناحية جزئية مختصاً بوصف مقارن جدى، وكان من ناحية أخرى أهجوة أو هجاء ساتيرى ساخر، كما كان أيضاً حاوياً لملاحظات لم يكن من السهل التمييز فيها بين الدعابة والجد. ولا بد لنا هنا من أن نورد ذكر برونيّتو لاتيني Brunetto Latini أولاً. فإلى جانب موطنه الذى فيه ولد، كان يعرف فرنسا من إقامته فيها لمدة سبع سنوات، وهو يعطينا قائمة تحوى الصفات المميزة للفوارق بين أنواع الثياب وطرائق الحياة بين الرجال

الفرنسيين والإيطاليين، ولم يفته أن يلحظ الفارق الواضح بين الحكومة الملكية فى فرنسا والدستور الجمهورى فى المدن الإيطالية^(٢) ثم ينتقل بعد إيراد بعض الفقرات الشهيرة فى الكوميديا الإلهية Divine Comedy ، إلى الديتأمونو Dittamondo من تأليف أوبرتى (Oberti) حوالى عام ١٢٦٠). والعادة المرعية هى أنه لا يذكر هنا إلا بعض الحقائق والسمات المميزة المفردة الجديرة بالملاحظة: وليمة الغريبان فى سانت أبولينارى St. Apollinare فى راقنا Ravenna ، والينابيع فى تريفيسو Triviso، والقبو العظيم قرب فيشيينتزا Vicenza، والضرائب والرسوم المرتفعة فى مانتوا Mantua ، وغابة الأبراج فى لوكا Lucca ومع ذلك نجد كل هذا ممتزجاً فى نسيج متشابك مع نقد مادح أو هجائى ساتيرى من جميع الأضرب. وتترأى وجاهنا أريتزو Arezo بالميل الحرفية الماهرة لمادنيها، كما تبدو جنوا بعيون نساها المكحلة وأسنانهن(؟) المسودة بطريقة صناعية، وبولونيا بخصبها ووفرة نماها، وبرجامو بلهجتها الخشنة الجافة وسكانها العنيدين^(٣) وكانت العادة فى القرن الخامس عشر إغداق المرء الثناء على مدينته ولو كان على حساب المدن الأخرى. وقد أقر ميشيل ساقونارولا Michele Savonarola ، بالمقارنة بوطنه بادوا، بأن روما والبندقية فقط كانتا أكثر روعة، وأن فلورنسا أكثر مرحاً^(٤) - وهى أقوال بطبيعة الحال لم تضاف كثيراً إلى معلوماتنا. وفى نهاية القرن يكتب چوفيانوس بونتانوس Jovianus Pontanus فى كتابه أنتونيوس An-tonius ، قصة رحلة خيالية فى أرجاء إيطاليا، لمجرد أن يتخذ منها أداة للمحوظاته الشريرة الحقودة. على أننا نلتقى فى القرن السادس عشر بسلسلة من الدراسات الدقيقة والعميقة عن السمات المميزة القومية على نحو لا يستطيع أن يقارعه أى شعب آخر ينتسب لذلك العهد^(٥) وينطلق مكيافيللى، فى بعض مقالاته النفيسة، مقررراً شخصية الجرمان والفرنسيين وأحوالهم السياسية بطريقة متقنة تجعل ابن الشمال الأصيل والعليم بتاريخ موطنه يشعر بالشكر للمفكر الفلورنسى على لمحاته ذات البصيرة النفاذة. ويبدأ أهالى فلورنسا (المجلد الأول، القسم الأول، الفصل السابع) فى الإحساس بالتلذذ والمتعة فى وصف أنفسهم^(٦)؛ وإذ يصطلون بدفء ضياء شمس مجدهم الفكرى المكتسب بحق، فإن خيلاء هم يبدو كأنما هو بالغ ذروته عندما يرجعون التفوق الفنى لتوسكانيا على بقية الإيطاليين ليس إلى مواهبهم الطبيعية الخاصة بل إلى العمل الشاق الصبور^(٧) وإن التوقير الذى يوجه إليهم من الرجال المشهورين فى

أصقاع أخرى من إيطاليا - والذي يمثل الكابيتولو capitolu السادس عشر لأريوستو
أحد أمثلته الرائعة - ليلقى منهم القبول بوصفه مستحقاً لهم على امتيازهم الفائق.



شكل ١٦٠ تمجيد البندقية

رسم سقفى فى قصر القضاة الأوائل لباولو فيرونسى البندقية

وهناك وصف جدير حقًا بالإعجاب بما لهم من اتجاهات عملية متنوعة وسمات موجزة سطره أورتينسيو لاندى *Ortensio Landi* ، وإن جاء موجزًا فى كلمات قليلة حوى تشديدًا خاصًا على لوكيزى *Luchese* ، الذى أهدى إليه الكتاب. وقد كان أورتينسيو لاندى شديد الولع باللعب مع اسمه كما يلعب الغمضية (أى الاستغماية)، كما أنه هين ولين مع الحقائق التاريخية، بحيث أنه حتى وهو يبدو فى أقصى درجات الجدية، ينبغى أن يعامل بحذر ولا يقبل منه أى شىء إلا بعد الفحص الشديد^(٨) وأقدم لاندى نفسه على إصدار تعقيب *Commentario* غفل من التوقيع بعد ذلك بحوالى عشر سنوات^(٩)، يحتوى، بين كثير من الحماقات، على إشارات نفيسة غير قليلة عن الحالة التعسة المدمرة لإيطاليا فى منتصف القرن^(١٠) ولم يكن لياندرى ألبرتى *Leandro Al-berti* على مثل تلك الدرجة من الخصب مثلما كان متوقعًا فى وصفه لسمات مختلف المدن الإيطالية.

ولسنا بمستطيعين القول بدقة إلى أى حد تمكنت تلك الدراسة المقارنة للسمات القومية والمحلية، على يد المذهب الإنسانى الإيطالى، من التأثير على بقية أوروبا. وعلى كل حال، يمكن القول بأن إيطاليا هى التى ينسب إليها قصب السبق فى هذا المجال مثلما ينسب إليها فضل السبق فى وصف العالم بعامة.

الفصل السابع

وصف الإنسان الخارجى

غير أن الاكتشافات التى تمت فيما يتعلق بالإنسان لم تكن مقصورة على السمات الروحية للأفراد والأمم، فإن شكله الخارجى كان فى إيطاليا موضوع اهتمام مختلف تماماً عما أظهرته نحوه الشعوب الشمالية^(١)

ولن نستطيع أن نجرؤ عن أن نتكلم عن المكانة والمركز الذى احتله الأطباء الإيطاليون من ناحية تقدم علم وظائف الأعضاء؛ كما أن الدراسة الفنية للجسم الإنسانى لا تنتسب إلى عمل مثل العمل الحالى وإنما تنتسب إلى تاريخ الفن. ولكن لا بد من كلمة تقال هنا عن التعليم العام الشامل للعين الذى جعل حكم الإيطاليين فيما يتعلق بالجمال أو القبح الجسدى حكماً نهائياً وكاملاً.

فإذا نحن طالعنا المؤلفين الإيطاليين لتلك المدة مطالعة تدبر وانتباه تذهلنا حدة النظر والدقة التى يمسك بهما الإيطالى بتلابيب القسمات والملامح الخارجية كما يأخذ بألبابنا تمام الاكتمال الذى يوصف به المظهر الشخصى بصفة عامة^(٢) فالإيطاليين حتى فى أيامنا هذه، وبخاصة أبناء روما، قد أوتوا فن تخطيط صورة لرجل فى حدود كلمتين اثنتين. وهذا الإدراك والفهم السريع لكل ما هو مميز من السمات هو شرط جوهرى لالتقاط الجميل وتمثيل الجمال بالصورة. وحقاً إنه فى مجال الشعر قد يحدث أن الوصف العارض ربما كان عيباً وليس مزية، وذلك لأن قسمة مفردة وحيدة من القسمات، تثيرها وتقترحها العاطفة العميقة، كثيراً ما توقظ فى القارئ انطباعاً عن الشخص الموصوف أقوى بكثير من جسمه الذى يوصف. ودانتى لا يعطينا فى أى موقع من عمله الأدبى فكرة أكثر روعة وفخامة عن بياتريس Beatrice منه عندما يقتصر فقط على وصف التأثير الذى ينطلق منها ويغمر كل من حولها. ولكننا هنا لسنا بمقتصرين على أن نعالج الشعر بوجه خاص، الذى كما هو معلوم يتبع قوانينه

الخاصة به ويمضى وراء غاياته الخاصة، بل سنعالج بالأحرى القدرة العامة على الرسم بالكلمات أشكالاً حقيقية أو خيالية.



شكل ١٦١ فينوس

جزء من لوحة "مارس و فينوس" لـ بوتيتشيلي المعرض القومي، لندن

ويعد بوكاتشيو في هذا المضمون أستاذاً ضليعاً - ليس في ديكاميرون (الليالي العشر) Decamerone ، حيث تأبى سمة الحكايات الوصف المطول ، وإنما في قصص الرومانس (الحب) التي هو فيها مطلق السراح في أخذ ما يلزمه من وقت، وإنه ليصف في كتابه "أميتو" (٣) Ameto كلاً من الشقراء والسمرء بنفس الشاكلة التي يرسمهن بها فنان بعد ذلك بمئة عام - إذ هنا أيضاً تسبق الثقافة الفن سبباً طويلاً. وإن في روايته حديث السمرء - أو بعبارة أدق، السيدة الأقل شقرة بين الاثنتين - للمسات تستحق بأن تسمى بالكلاسيكية. وإن كلماته " la spaziosa testa e detesta" ليكن فيها الشعور بالتطلع إلى أشكال أفخم وأعظم، تتجاوز حد الحسن الرشيق؛ فلم يعد

الحاجبان يشبهان القوسين، كما هو الحال في المثل الأعلى البيزنطي في التعبير، وإنما هما خط مفرد متموج، ويبدو أن الأنف تبدو كأن المقصود منه أن يكون معقوفاً^(٤)؛ والصدر العريض الممتلئ، والذراعان ثوات الطول المعتدل، وأثر اليد الجميلة وهي تستقر على المفروش الأرجواني- كل هذا يتنبأ بالإحساس بالجمال في زمن قادم ويقترب من نظرة الزمن الكلاسيكي العهيد، وهناك أوصاف أخرى يعمد فيها بوكاشيو إلى ذكر جبين مسطح (وليس مدوراً على الطراز القروسطي)، وعين نجلاء عسلية (بنية) جادة، وعنق مستدير غير مجوف، كما يذكر- في نغمة حديثة جداً- "القدمين الصغيرتين" و"العينين شبه العجريتتين" لهورية^(٥) (نمفة) سوداء الشعر.



شكل ١٦٢ لودوفيكاً تورنابونى

جزء من لوحة جصية "ولادة ماري" لجيرلاندايو سانت ماريا نوفيلا، فلورنسا تصوير أندرسون، بون

وسواء ترك لنا القرن الخامس عشر أى بيان مكتوب عن المثل الأعلى فى الجمال فى ذلك الوقت أم لم يترك، فذلك شأن لا أستطيع أن أبت فيه بقول. فإن أعمال المصورين والنحاتين لا تجعل مثل هذا البيان لا داعى له ولا ضرورة كما قد يبدو لأول وهلة، وذلك لأنه من الممكن أنه بوصفه نقيضاً ومضاداً لما هم عليه من واقعية، ربما لقى طراز ونموذج آخر مثالى أكثر قبولاً أشد فاحتفظ به الكتاب تبعاً لذلك^(٦) وفى القرن السادس عشر طلع علينا فيرنزولا *Firenzuola* بعمله الجدير بالإعجاب حول موضوع الجمال الأثوى^(٧) وينبغى لنا أن نميز فيه بوضوح ما تعلمه من المؤلفين القدماء أو من الفنانين، مثل تثبيت النسب حسب طول الرأس، فضلاً عن بعض أفكار تجريدية معينة. فأمّا ما يتبقى بعد ذلك فهو ملاحظاته الأصيلة الخاصة به، التى مثل لها بأمثلة من النساء والفتيات من براتو. *Prato* ولما كان عمله الصغير ذاك هو نوع من المحاضرة، التى ألقىت على سيدات تلك المدينة - أعنى أنها ألقىت على نقاد قساة جداً - فلا بد أنه التزم بالحقيقة بدرجة شديدة. ومن الواضح أن مبدأه المعلن هو نفس مبدأ زيوكسيس *Zeuxis* ولوسيان *Lucian* - بمعنى أنه يسعى إلى تكوين جمال مثالى من عدد من الأجزاء الجميلة مجمعة معاً. وهو يحدد درجات وظلال اللون التى تقع فى الشعر وفى الجلد، ويعطى الأفضلية للشقرة *Biondo*، بوصفها أجمل لون للشعر^(٨)، مع فهمه فيها أنها صفرة ناعمة تميل للبنى. وهو يتطلب أن يكون الشعر ثقیلاً وطويلاً ومفرقاً خصلات؛ والجبهة صافية ومتزنة جليلة، وعرضها ضعف ارتفاعها؛ والبشرة لامعة وصافية *candida*، ولكن ليست ذات بياض ناصع عميق (*bianchezza*)؛ والحاجبين داكنين وحريرين، ومميزين بارزين بقوة فى الوسط، التى تقل ناحية الأذنين والأنف؛ ويكون بياض العينين لمسة من اللون الأزرق، ولا يكون يؤبؤ العين أسود تماماً، وإن كان الشعراء جميعاً يمتدحون العيون السوداء *occhi neri* كمنحة تهبها فينوس، على الرغم من أنه حتى الرباط كمن معروفات بما لهن من أعين سماوية الزرقة، وأن العين الناعمة المرحة العسلية البنية كانت تلقى الإعجاب من جميع الناس. وينبغى للعين نفسها أن تكون واسعة وكبيرة ممتلئة، وظاهرة بجمال للأمام؛ وتكون الجفون بيضاء وتسرى فيها عروق حمراء، لا تكاد تُرى تقريباً؛ وتكون الأهداب لا شديدة الطول ولا شديدة الكثافة ولا شديدة القتامة. والتجويف حول العين ينبغى أن يكون له

نفس لون الخد^(٩) والأذن تكون لا بالغة الكبر ولا بالغة الصغر، وتكون متصلة بدقة وأناقة، وينبغي أن يبدو فيها لون أقوى في الأجزاء المنحنية منه في الأجزاء المستوية، مع حافة تحوى الحمرة الشفافة للزمان. ويجب أن يكون الصدغ أبيض مستوياً، ومن أجل أشد أنواع الجمال كمالاً، ينبغي ألا يكون بالغ الضيق^(١٠) وينبغي للحمرة أن تغدو أعمق كلما زاد الخد استدارة. وللأنف، الذى يحدد بوجه رئيسى قيمة الرسم الجانبى (البروفيل)، أن يتراجع بلطف وباتساق فى اتجاه العينين ؛ وحيث ينتهى العينين ربما أمكن وجود ارتفاع لطيف، ولكنه ليس ملحوظاً بحيث يجعل الأنف أقنى، وهو شىء لا يسر الناظر فى حال النساء؛ والجزء الأسفل ينبغي أن يكون لونه أقل قوة من الأذنين، ولكنه ليس ذا بياض شامق، والفواصل الأوسط فوق الشفتين يكون ملوناً بالحمرة تلويناً خفيفاً. فأما الفم فإن مؤلفنا يتمنى لو كان أميل للصغر وأن يكون لا ممتداً بارزاً مدبباً ولا مسطحاً تماماً، مع شفتين غير شديديتى الرقة ومنطبقتين إحداهما على الأخرى بأناقة؛ وإذا فتحتا عارضة - أعنى عندما لا تكون المرأة فى تكلم ولا فى ضحك - لا ينبغي أن تُبدى أكثر من ست أسنان عليا. وعلى سبيل دقائق التفاصيل المليحة، يذكر غمازة فى الشفة العليا، ويذكر امتلاء معيئاً فى الشفة السفلى ، وابتسامة مغرية فى الركن الأيسر للفم - وهكذا. وينبغي ألا تكون الأسنان بالغة الصغر ؛ وأن تكون منتظمة منضدة مميزة إحداهما عن الأخرى تميزاً واضحاً أى حسنة المخلخل، وفى لون العاج ؛ واللثة غير بالغة القتامة ولا حتى مثل القطيفة الحمراء. وينبغي للذقن من أن يكون مستديراً، ولا يكون مدبباً ولا محنياً للامام ، وأن يكون له حمرة بسيطة تتدرج فى الاحمرار كلما ارتفع؛ ويتمثل مجدها فى طابع الحسن أى النونة. وينبغي للعنق أن تكون بيضاء ومستديرة وأميل للطول لا للقصر، مع خفة نقرة العنق وتفاحة آدم بحيث لا يكادان يلحظان ؛ كما أن الجلد عند كل حركة لا بد أن يبدي خطوطاً سارة. وهو يريد الكتفين عريضين، كما يرى فى عرض الصدر أول شرط فى جماله. ولا يجوز أن تبدو عليه أية عظام مرئية بالعين، وينبغي لانهداره وانتفاخه أن يكونا لطيفين وتدرجيين ويكون لونه صافياً candidissimo. وينبغي للساق أن تكون طويلة ولا تكون بالغة الصلابة فى الجزء الأسفل، ولكن ليست بغير لحم على مقدم الساق (القصبه)، الذى يجب أن يكون مزوداً بسمانات بيضاء مكتنزة. وهو يحب القدم

صغيرة ولكن عظيمة، ويكون مشط القدم (فيما يبدو) عالياً، واللون أبيض كالمرمر. ولا مفر للأذرع من أن تكون بيضاء، مشربة في أجزائها الأعلى بحمرة؛ وتكون في تكوينها لحمية عضلية ولكنها لينة ناعمة، كأذرع بالاس Pallas، ربة الحكمة، عندما وقفت أمام الراعى على جبل إيدا - Mount Ida أى بعبارة أخرى، ناضجة وناضرة وמתماسكة. وينبغي لليد أن تكون بيضاء، وبخاصة قرب الرسغ، ولكنها كبيرة ورخصة مكنتزة، وملمسها ناعم كالحرير، والراحة (الكف) الوردية مُعلّمة بخطوط مميزة واضحة وليست معقدة؛ ولا تكون النشوزات التي بها عظيمة البروز، وتكون المسافة بين الإبهام والسبابة زاهية اللون خالية من الغضون، والأصابع طويلة ورقيقة وليست أرفع عند الأطراف، مع أظافر واضحة ومستوية وليست شديدة الطول ولا التريبع ومقصوصة بحيث تظهر حافة بيضاء تقارب سُمك ظهر سكين خارج الإصبع.

وتحتل المبادئ الجمالية ذات السمة العامة حيزاً ثانوياً جداً بالنسبة لهذه التفصيلات. وإن المبادئ الجوهرية القصوى للجمال التي بمقتضاها تصدر العين حكمها *senza appello*، إنما هي عند فيرنزولا سرُّ لا يباح به، كما يعترف هو صراحة، كما أن تعريفاته *leggiadria, grazia, vaghezza, venustà, aria, maestà* فلسفية وفقه - لغوية (فيلولوجية) من ناحية، كما لاحظنا أنفاً، ومحاولات غير مجدية للنطق بما لا يمكن النطق به من ناحية أخرى. وإنه يُعرف الضحك على نحو جميل بأنه إشعاع للنفس، ولعله في ذلك يحذو حذو بعض المؤلفين القدامى.

ويستطيع أدب جميع الأقطار، في أخريات العصور الوسطى، أن يكشف عن محاولات مفردة لوضع المبادئ النظرية للجمال^(١١)؛ ولكن عملاً آخر لا يمكن مقارنته بعمل فيرنزولا. وليس برانتومي Brantome، الذي ظهر بعده بنصف قرن كامل، إلا ناقداً غير مجيد بالنسبة له، لأنه كان داعراً تقوده الشهوات ولا بقاد بشعور جمالي.

الفصل الثامن

وصف الحياة أثناء الحركة

ينبغي لنا عند النظر فى الاكتشافات الجديدة التى تُمّت متعلقة بالإنسان أن نحسب فى الختام حساب الاهتمام الموجه إلى المسار اليومى للحياة البشرية.

فلم يكن فى إماكن الأدب الفكاهى الساخر (الساتيرى) فى العصور الوسطى الاستغناء عن صور الأحداث اليومية. ولكن الأمر يختلف عندما أمعن إيطاليو عصر النهضة النظر فى تلك الصورة من أجلها هى فى حد ذاتها - أى من أجل أهميتها المتأصلة - ولأنها تُشكّل جزءاً من تلك الحياة العظيمة الشاملة ، حياة العالم الذى يحسون أنفاسه السحرية فى كل مكان حولهم. وبدلاً من، ومجتمعاً مع ، الكوميديا الساخرة التى تتجول داخل وبين البيوت ومن خلال القرى والشوارع بحثاً عن الغذاء لسخريتها فى شخص القس والفلاح وساكن المدينة، فإننا نرى الآن فى صفحات الأدب بدايات ضرب genre أدبى حقيقى نجده مبكراً جداً وقبل أن يجد لنفسه طريقاً تعبيراً عن ذاته فى فن التصوير والرسم. وكوننا كثيراً ما نلتقى بهذا الضرب genre والسخرية (الساتير) متحدين مؤتلفين، لا يمنع مطلقاً كونهما شيئين مختلفين تماماً.

فما أعظم الأشغال والأعمال الدنيوية التى لا بد أن دانتي قد شهدا باهتمام يقظ قبل أن يتمكّن من أن يجعلنا نرى بأعيننا نحن كل ما حدث فى عالمه الروحى^(١) وإن الصور الشهيرة للحركة الدائبة فى دار الترسانة بالبندقية، والرجال مكفوفى البصر المقنوفين جنباً إلى جنب عند باب الكنيسة^(٢)، وما مائلها، ليست على الإطلاق الأمثلة الوحيدة من هذا النوع؛ وذلك لأن الفن، الذى هو فيه أستاذ، فن التعبير عن أغوار النفس الجوانية بواسطة الحركة البرائنية، لا يمكن أن يعيش بغير دراسة وثيقة لا حد ولا نهاية لها للحياة البشرية.

وقلماً أمكن للشعراء الذين جاءوا من بعده أن يقتربوا منه في هذا الاتجاه. كما أن الروائيين منعتهم القوانين الأولى لأسلوبهم الأدبي من التمهّل والتريث في التفاصيل. ولذا فإن مقدماتهم وسردياتهم القصصية يمكن أن تطول قدر ما يسرهم. ولكن ما نفهمه من كلمة ضرب genre كان شيئاً يتجاوز دائرة فكرهم. ولم يكن الذوق القادر على تذوق مثل هذا الصنف من الوصف قد أوقف بعد إيقاظاً تاماً حتى جاء وقت إحياء العلوم والعودة إلى العهد العهيد القديم.

وهنا أيضاً نلتقى بالرجل الذي كان له قلب يتسع لكل شيء - وهو إينياس سيلقيوس. وليس الجمال الطبيعي وحده، وليس الذي له قيمة عهيدة أو جغرافية فقط. هو الذي يجد مكاناً له بين أوصافه (المجلد الأول، القسم الأول، الفصل الثاني؛ والقسم الثالث، الفصل الثامن)، ولكن كل مشهد حي للحياة اليومية^(٣) وسنقتصر من الفقرات الكثيرة من مذكراته، التي يتم فيها وصف المشاهد التي لم يكده أحد بين معاصريه يراها تستحق ولو سطرًا واحدًا من الاهتمام، على ذكر سباق القوارب في بحيرة بولسينا^(٤) Bolsena ولسنا بقادرين على أن نشتتمّ مما كتبه قدماء كتّاب الرسائل أو حكاة القصص ذلك الدافع الذي نحن مديونون له بتلك الصور الشديدة القرب والشبه بالحياة. والواقع، إن الرابطة الروحية بأكملها بين العهد العهيد وعصر التهضة مليئة بالرقّة والعدوية حافلة بالأسرار.



شكل ١٦٦ رحلة السحرة، لبيوتزو جوتزولي

وإلى هذا الصنف تنتمي تلك الأشعار اللاتينية الوصفية التي تحدثنا عنها آنفاً (المجلد الأول ، القسم الثالث، الفصل العاشر) - مشاهد القنص والصيد والرحلات والمراسم والاحتفالات، وما إلى ذلك. ونجد في بالإيطالية شيئاً من نفس القبيل، وذلك مثل وصف مباراة البرجاس الميديتشيية الشهيرة التي كتب عنها بوليتيان ولوكا بولشي^(٥) وصار شعراء الملاحم الأقباح، وهم لويجي بولشي وبوجاردو وأريوستو يدفَعون دفعاً سريعاً أكثر على يد تيار سردهم القصصي؛ على أننا ينبغي لنا أن نميز فيهم جميعاً بلا استثناء ما عليه لمستهم الوصفية من خفة وإحكام بوصفها أحد العناصر الرئيسية لعظمتهم. ويسلى فرانكو ساكيتي Franco Sacchetti نفسه بتكراره الأحاديث القصيرة لفرقة من النساء الحسنات انقطعت بهم السبل في الغابة بسبب وابل من المطر^(٦)

وعلينا أن نبحث عن مشاهد أخرى للحياة المتحركة عند المؤرخين العسكريين (المجلد الأول، القسم الأول، الفصل التاسع). فهناك في قصيدة مطولة^(٧) ترجع إلى فترة أسبق في الزمن نجد صورة أمينة لنزال جرى بين جنود مرتزقة في القرن الرابع عشر، وذلك بصفة رئيسية في شكل الأوامر وصيحات القتال والحوارات التي تصحب العراك.



شكل ١٦٤ سفر إينياس سيقليوس لمؤتمر بازل
رسم بيتوريكو مكتبة الكاتدرائية، سينا

على أن أشد إنتاجات هذا النوع جدارة بالإعجاب إنما هي الأوصاف الواقعية لحياة الريف، التي توجد بوفرة شديدة عند لورنزو الفاخر وشعراء دائرته.

ومنذ عهد بترارك^(٨) ظهر أسلوب جديد غير واقعي وعرفى تقليدى (أى متواضع عليه) من الشعر الرعوى وأصبح موضة جديدة ، وكان ، سواء مكتوباً باللاتينية أو الإيطالية، فى جوهره نسخة من فيرجيل. Virgil. وبهذا نجد القصص الرعوى العشبية لبوكاتشيو (المجلد الأول ، القسم الثالث، الفصل العاشر) وأعمالاً أخرى من نفس النوع تمتد زمنياً حتى قصة أركاديا Arcadia لسانازارو Sannazaro ، وثم نجد بعد ذلك أيضاً الكوميديا الرعوية العشبية لتاسو Tasso وجوارينو Guarino. وهى أعمال أسلوبها، سواء أكانت شعراً أم نثراً، مُعجِبٌ حسن الصقل ويبلغ الكمال، وإن كانت الحياة الريفية فيها ما هى إلا ثوب مثالى وضع لأجل العواطف التى تنتمى إلى دائرة ثقافية مختلفة اختلافاً كلياً^(٩) على أنه ظهر إلى جوار ذلك كله فى الشعر الإيطالى، زهاء نهاية القرن الخامس عشر، علامات تنبئ عن معالجة أكثر واقعية للحياة الريفية. ولم يكن ذلك شيئاً ممكناً فى خارج إيطاليا، إذ هنا فحسب أصبح الفلاح، سواء أكان عاملاً زراعياً يعمل بيديه أو مالكاً يملك الأرض، يمتلك الكرامة الإنسانية والحرية الشخصية وحق السكنى والاستقرار وهى أمور كان من الصعب على أمثاله الحصول عليها فى نواح أخرى^(١٠) وغنى عن البيان أن الفارق بين المدينة والريف أبعد ما يكون ملحوظاً ها هنا كما هو ملحوظ فى الأقطار الشمالية. فإن كثيراً من المدن الأصغر يسكنها سكنى كاملة تقريباً فلاحون، كانوا إذا عادوا إلى بيوتهم من عملهم عند حلول الليل، يتحولون إلى ممانين أى سكان مدن. وكان البناء ون من أبناء مدينة كومو يتجولون فى جميع أرجاء إيطاليا تقريباً؛ وكان الطفل جيوتو Gulotto حراً فى أن يترك غنمه وينضم إلى نقابة فى فلورنسا؛ وفى كل مكان كان هناك نهر بشرى من الناس يفيض من الريف إلى المدن، كما أن بعض سكان الجبال بدا عليه أنه مولود ليمد ذلك التيار^(١١) أجل إن الكبرياء والغرور المحلى كانا يمدان الشعراء والقصاصيين الروائيين بوفرة هائلة من الموتيقات والموضوعات لاتخاذ لعبة مسلية من الريفى الفلاح^(١٢) villano ، على حين أن ما كانوا يتركونه أو ينسونه كان يتناوله المضحكون المرتجلون (المجلد الثانى، القسم الرابع، الفصل الرابع). على أننا لا نعثر بأى مكان

على أثر لذلك الحقد الطبقي القاسى والمحتقر ضد الأجلاف والأوغاد vilano الذى ألهم الشعراء الأرسقراطيين فى مقاطعة بروقانس Provence ، بل وأحياناً كثيرة ، أيضاً ، ألهم مؤرخى الأحداث الفرنسيين. وعلى العكس^(١٣) من ذلك نجد المؤلفين الإيطاليين من كل نوع وصنف يعمدون بسرور للاعتراف والتركيز على كل ما هو عظيم أو جدير بالملاحظة فى حياة الفلاح. فيذكر جيوفيانو بونتانو Gioviano Pontano بإعجاب أمثلة للصلاية والجلد عند المتوحشين سكان منطقة أبروتزى^(١٤) Abruzzi ؛ وإنا لتلتقى فى مجموعات التراجم وعند القصص الروائيين بشخص العذراء الريفية^(١٥) البطولية الرائعة، التى تجازف بحياتها للدفاع عن عائلتها وشرفها^(١٦)

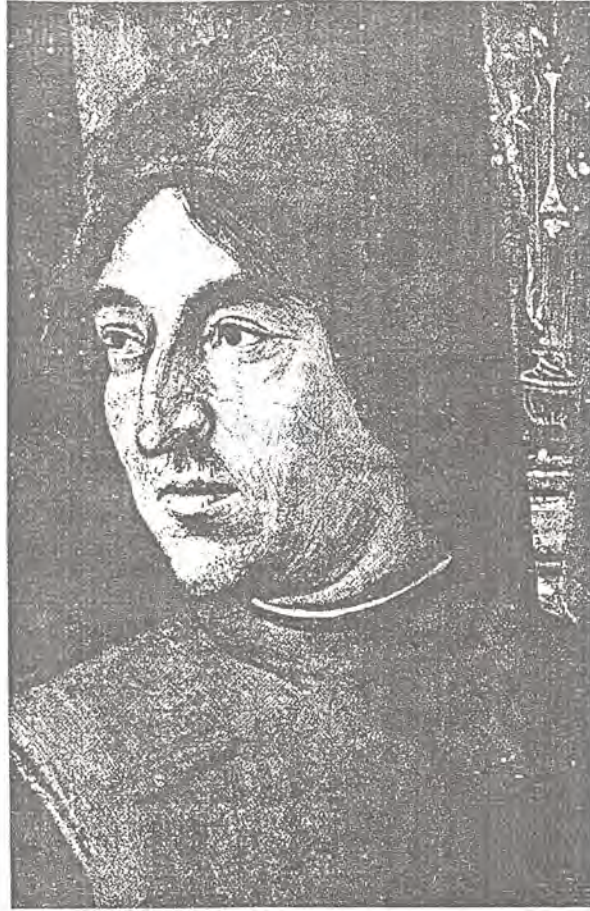


شكل ١٦٥ مشهد ريفى مصوراً فيرجيل يكتب قصيدة صورة صغيرة من مخطوط فيرجيل أمبروسيانا ، ميلانو

وكانت هذه الظروف أحسن وضع جعل فى الإمكان معالجة حياة الريف معالجة شعرية. والمثال الأول الذى سنذكره لهذا هو باتيستانتو مانتوفانو *Batista Mantovano* ، الذى كانت إكولوجاته (أناشيده الرعوية)، وهى التى أقبل الناس على قراءتها ذات يوم بكثرة ولا تزال تستحق القراءة، كانت من أوائل ما أصدر من أعمال حوالى عام ١٤٨٠ وهذه الأناشيد خليط من الريفية الحقيقية والتقليدية الأوضاعى (أى القائمة على العرف المتواضع عليه) ، وإن كان النوع الأول وهو الريفى الحقيقى أعم وأغلب فيما يبدو. وهى تمثل طريقة التفكير لقسيس قرية حسن السريرة والنية، ولكنه لا يخلو من ميل معين إلى الأفكار التحررية الليبرالية. والكاتب بوصفه راهباً ينتسب إلى الطائفة الكرملية ربما سنحت له الفرصة للاختلاط بملء الحرية مع الفلاحين^(١٧)

ولكن الواقع أنه بقوة بالغة ومن نوع مختلف تماماً تمكن لورنزو الفاخر أن يحول نفسه إلى عالم الفلاحين. ويبدو لمن يقرأ كتاب^(١٨) *Nencia da Barberino* أنه مجموعة متزاحمة من المقتطفات والمقتبسات الأصلية من الأغانى الشعبية الدارجة فى ريف فلورنسا وقد صهرت فى رافد عظيم من المقاطع الشعرية ذات ثمانية أبيات. وموضوعية الكاتب من القوة بحيث أننا أصبحنا فى شك حول ما إذا كان المتحدث - وهو الفلاح الشاب فأليرا *Vallera* ، الذى يعلن حبه لـ *Nencia* - يوقظ عطفه عليه أم سخريته منها. وإن التناقض المتعمد لنشيد الرعاة التقليدى العرفى (أعنى المتمسك بالمرعيات) لا يخطئه البصر. وإن لورنزو يسلم نفسه متعمداً لواقعية الحياة الريفية البسيطة الخشنة، ومع ذلك فإن عمله يترك فينا انطباع الشعر الحق.

وعندى أن قصيدة *Beca da Diccomano* للويجى بولشى^(١٩) هى نظير وصنو مُسلّم ومعترف به لـ *Nencia*. ولكن الهدف الأعمق غير موجود. فإن بيكا *Beca* مكتوبة بسبب الحاجة الداخلية لإعطاء صورة عن الحياة الشعبية أساساً بل تلبية لرغبة فى كسب استحسان العالم الفلورنسى المثقف بواسطة قصيدة ناجحة. من هنا تأتى الخشونة والغلظة المتعمدة فى المشاهد والنكات الخارجة أعظم وأكثر. ومع ذلك، فإن وجهة نظر العاشق الريفى يستمر إيضاحها بطريقة مستوجبة للإعجاب.



شكل ١٦٦ أنجلو بوليزيانو
جزء من اللوحة الجصية "نبيحة زكريا"، لـجيرلاندايو
سانت ماريا نوفيلا، فلورنسا تصوير أندرسون، روما

والثالث فى هذه المجموعة من الشعراء هو أنجلو بوليزيانو Angelo Poliziano بقصيدته^(٢٠) "الريفى" Rusticus المنظومة باللاتينية فى الوزن سداسى التفاعيل. وإن ظل يحافظ على البعد عن أى محاكاة لقصيدة فيرجيل Georgics ، راح يصف

عام الفلاح التوسكاني، بادئاً بأخريات الخريف، يوم يُعد الرجل الريفى محراثه الجديد ويجهز البذور للشتاء. والصورة الشعرية للمروج فى الربيع خصبة وجميلة، كما أن للصيف فقرات جميلة رائعة؛ على أن عيد حصاد الكروم فى الخريف يُعد من أزهى جواهر الشعر اللاتينى الحديث. وقد كتب بوليتيان قصائد الشعر بالإيطالية مثلما كتب باللاتينية، ومنها قد نستنتج أنه فى دائرة لورنزو كان من الممكن إعطاء صورة واقعية عن الحياة العاطفية للطبقات الدنيا. وهناك أغنية الفجر^(٢١) الغرامية من نظمه، وهى واحدة من أقدم وأبكر إنتاجات ذلك الميل الكامل الحدائث تماماً لوضع المرء نفسه بوعى شاعرى فى موضع طبقة أخرى. والراجح أنه سبق محاولة ذلك أمد عصور طويلة باتجاه هجائى ساتيرى^(٢٢)، كما أن فرصته كانت تسنح فى فلورنسا فى كل احتفال كرنفالى فى صورة أغانى نوى الأتنة المتكرين. ولكن الفهم الملى بالعطف لمشاعر طبقة أخرى كان شيئاً جديداً؛ ومعه كانت قصيدتنا ننشيا Nencia وهذه الأغنية Can-zone zingressa تؤذن بنقطة بداية جديدة فى تاريخ الشعر.

وهنا، أيضاً، ينبغى لنا أن نشير بإيجاز كيف أن الثقافة مهدت الطريق للتطور الفنى. ومنذ زمن ظهور قصيدة ننشيا Nencia انقضت ثمانون عاماً على ظهور الضرب التصويرى للرسم genre-painting الذى قدمه جاكوبو باسانو Jacopo Bas-sano ومدرسته.

وسنوضح فى القسم التالى من عملنا هذا كيف أن فروق المولد فقدت أهميتها فى إيطاليا. ولا شك أن قدراً كبيراً من ذلك كان راجعاً إلى حقيقة أن الرجال والإنسان هنا أولاً كانوا مفهومين بدقة وعمق. وحسبنا هذه النتيجة المفردة لعصر النهضة لكى تملأ قلوبنا بالسرمدى الدائم من الامتتان والشكر. لقد كان الفكر المنطقى للإنسانية قديماً بدرجة كافية - ولكن هنا أصبح الفكر حقيقة واقعة.

وجرت أرفع التصورات فى هذا الموضوع على لسان بيكو ديلا ميراندولا Pico della Mirandola فى حديثه عن جلال وكرامة الإنسان^(٢٣)، الذى يمكن بحق وعدل أن يسمى واحداً من أنبل عطايا وميراث ذلك العصر العظيم. وهو يقول لنا إن الله خلق الإنسان فى ختام الخليقة، لكى يعرف قوانين الكون، ولكى يحب ما حوى من جمال

ولكى يعجب بعظمته. ولم يربطه بأى مكان ثابت ولا بأى مقدر مقرر من أشكال العمل، ولا بأية ضرورة حديدية جامدة، ولكنه أعطاه حرّيته فى الإرادة والحركة. ويقول الخالق لأدم: "لقد جعلتك فى وسط العالم حتى لتستطيع بسهولة أكثر أن تشهد وتبصر كل ما هو هناك. وخلقتك كائنًا لا هو بالربانى ولا هو بالأرضى، ولا هو بالفانى ولا الخالد، فقط لكى تستطيع أن تكون حرًا فى تشكيل نفسك والتغلب عليها. وقد تنحط فتكون بهيمًا، ثم تولد من جديد إلى الغرار الربانى المقدس. فالبهائم تأخذ من أجسام أمهاتها ما سوف تحمله معها فى حياتها ما دامت حية؛ فأما الأرواح الأعلى درجة فهى منذ البداية، أو ما بعدها بقليل^(٢٤)، نفس ما ستكون عليه للأبد. وإليك وحدك يُعطى نمو وتطور يعتمد على إرادتك الخاصة الحرة. فأنت تحمل فى نفسك جراثيم حياة شاملة".

القسم الخامس

المجتمع والاحتفالات

الفصل الأول

المساواة بين الطبقات

لا شك أن كل فترة من فترات الحضارة، التي تشكل كلاً كاملاً ومتماسكاً، تتكشف عن نفسها ، ليس فقط في الحياة السياسية ولا في الدين ولا الفن ولا العلوم، ولكنها أيضاً تلقى ظلال طابعها المميز على الحياة الاجتماعية. وهكذا كانت للعصور الوسطى طرائقها وأداب سلوكها الخاصة بالقصور والأرستقراطية ولها آداب لياقة ، لا تختلف إلا قليلاً عنها في مختلف الأقطار الأوروبية، فضلاً عن الأشكال الخاصة التي اختلفت بها حياة الطبقة الوسطى.

وتعرض علينا العادات والعرف الإيطالية أثناء عصر النهضة في هذا الصدد أشد أنواع التباين مع عرف العصر الوسيط ، ذلك أن الأساس الذي قامت عليه آداب ذلك العرف مخالفة ، تمام المخالفة. وكان للاختلاط الاجتماعي في أعلى صورته وأبلغها للكمال يتجاهل الآن كل فارق وتميز للطبقة أو الطائفة، وكان قائماً ببساطة تامة على وجود طبقة متعلمة بالمعنى الذي نفهمه الآن من هذه الكلمة. وما عاد هناك أى نفوذ للموالد النبيل أو المحتد العريق، إلا إذا اجتمعا إلى سعة الفراغ والثراء الموروث. ومع ذلك فإن هذا الادعاء ينبغى ألا يؤخذ على عواهنه بمعنى مطلق وغير محدد، وذلك لأن

التمايز القروسطى كان فى بعض الأحيان محسوساً بدرجة أعلى أو أقل، لو أنه على الأقل وسيلة للحفاظ على المساواة مع المدعيات الأرستقراطية عند الأقطار الأقل تقدماً فى أوروبا. غير أن التيار الرئيسى لذلك الزمن ظل ماضياً فى طريقه نحو إذابة وانصهار الطبقات بالمعنى العصرى للعبارة.

وكانت الحقيقة من الأهمية الحيوية أنه من المؤكد منذ القرن الثانى عشر فصاعداً، كان النبلاء والمواطنون العاديون يقطنون سوياً بداخل أسوار المدن^(١). وبذلك تكون اهتمامات ومسرات الطبقتين كليهما معروفة ومحددة، وتعلم السيد (اللورد) الإقطاعى أن ينظر إلى الهيئة الاجتماعية حوله من وجهة نظر أخرى تخالف تلك الموجودة حول قلعته الجبلية. ولم يحدث للكنيسة أيضاً فى إيطاليا أنها ورطت نفسها، كما حدث فى الأقطار الشمالية، فى أن تُستخدم وسيلة لتزويد الأبناء الصغار فى الأسر النبيلة بمصادر الرزق. وغالباً ما كانت الأسقفيات ورئاسات الأديرة وكهان الكاتدرائيات تُمنح من أجل أحسن الدوافع وأشدها حقارة، ولكن مع ذلك ليس طبقاً لدرجة نبالة محتد طالبى الوظيفة؛ وإذا كان الأساقفة أكثر عدداً وأفقر، وكما جرت العادة، محرومين من كل حقوق السيادة، فإنهم مع ذلك ظلوا يسكنون فى المدن التى تقوم فيها كاتدرائياتهم، كما أنهم كانوا يشكلون، مجتمعين مع مجلس قساوستهم بالكاتدرائية، عنصراً هاماً فى المجتمع المثقف المصقول للمنطقة. وفى عصر الطغاة والأمراء نوى الحكم المطلق الذى أعقب النبلاء فى معظم المدن، كان لديهم الفراغ والدوافع المهيئة للاستسلام لحياة داخلية خاصة (المجلد الأول، القسم الثانى، الفصل الأول) خالية من المخاطر السياسية ومزدانة بكل ما هو أنيق ورائع وممتع، ولكنهم لا يمكن فى الوقت نفسه تمييزهم عن حياة المواطنين العاديين الأثرياء. ثم حدثت أحداث بعد عصر دانتى، يوم أصبح الشعر والأدب الجديان فى متناول كل إيطاليا^(٢)، ويوم أضيف إلى ذلك إحياء الثقافة القديمة والاهتمام الجديد بالإنسان بوصفه إنساناً، ويوم أصبح قائد المرتزقة *condottiere* الناجح أميراً، ولم يعد كرم المحتد وحده فقط، بل الميلاد الشرعى شيئاً لا يستغنى عنه للوصول إلى العرش (المجلد الأول، القسم الأول، الفصل الثالث)، فلربما بدا صحيحاً أن يقال إن عصر المساواة قد بزغ فجره وأشرقت شمسُه وأن الإيمان بنبالة الأصل قد ولى إلى الأبد.



شكل ١٦٧ نبلاء

جزء من صورة من سلسلة البرناردين، رسم بارتولوميو كابورالي (٤)
بيناكوتيك، بروجيا

ومن وجهة نظر نظرية بحتة، فإنه يوم وجهت الدعوة والطلب إلى العهود العتيقة، كان في الإمكان أن تلقى فكرة النبالة تبريراً وإدانة في نفس الوقت على لسان أرسطو وحده. مثال ذلك أن دانتي^(٣) يقتبس من تعريف أرسطو "النبالة تقوم على الامتياز والثروة الموروثة" تعريفه هو نفسه قائلاً: "تستقر النبالة على الامتياز الشخصي أو امتياز الأسلاف"، ولكنه في مكان آخر لا يقنع ولا يرضى بهذه النتيجة. فتراه يلوم نفسه^(٤)، لأنه حتى في الفردوس، عندما كان يتكلم مع جده السلف كاشياجيديا - Caccia guida ورد على لسانه ذكر أصله النبيل، الذي لا يكاد يزيد عن بردة لا يزال الزمن يقطع منها جزءاً بعد جزء، ما لم نضف إليها نحن بأنفسنا قيمة جديدة كل يوم. كما أنه في "كونثيقيو"^(٥) Convivio لا يزال يقطع الصلة بين النبيل nobile والنبالة nobili- ta وأبين كل ظروف الميلاد، كما أنه يطبق ويحدد الفكرة بالقدرة على الرفعة والسمو الأخلاقي والعقلي، مركزاً بصفة خاصة على الثقافة العالية، معتبراً النبالة nobilita أنه أخت شقيقة للفلسفة وحب الحكمة filosofia .

ويمضى الزمن فإنه كلما عظم نفوذ وتأثير المذهب الإنساني على العقل الإيطالي، زادت ثباتاً واتساعاً قبضة وأفاق الاقتناع الجازم بأن المولد لا يحسم شيئاً فيما يتعلق بجودة عنصر الرجل أو رداءه. وفي القرن الخامس عشر كان هذا هو الرأي السائد. فإن بوجيو Poggio ، فى محاورته "عن النبالة"^(٦) On Nobility يتفق مع محاوريه - نيكولو نيكولى ولورنزو دي مديتشي، وهو شقيق كوسيمو الأعظم - على أنه ليس هناك نبل ولا نبالة سوى ما يتجسد فى الجدارة الشخصية. وإن أشد نصال ضحكه وسخريته شحداً موجهة على الكثير مما يعتقد الهوى السوقي شيئاً لازماً لا يستغنى عنه فى الحياة الأرستقراطية.

«فالرجل يُستبعد من سُدَّة النبالة الحقَّة كلما زادت مدة ممارسة أجداده الأول لمهنة قطع الطريق. فإن تنوق الصيد والقنص لا يعطى للإنسان أى شذى من النبالة أكثر مما لا تفوح رائحة الناردين (الطيب) من عشوش ووجارات المخلوقات المصيدة حادة الطبع. وستكون زراعة الأرض ، على ما كان يمارسها القدماء ، عملاً أكثر نبلاً من ذلك التجوال عديم المعنى فى أرجاء التلال والغابات، الذى يجعل الإنسان به نفسه أشبه بالبهائم منه بالمخلوقات العاقلة. إن ذلك قد يؤدى جيداً عمل الاستجمام والتسلية ولكنه ليس مشغلة يقضى فيها المرء عمره».

وإن حياة الفروسية الإنجليزية والفرنسية فى الريف أو فى الحصون المحوطة بالغابات خسيصة مهينة إلى أقصى حد ، وأسوأ من كل أفعال الفرسان - اللصوص robber-knights فى ألمانيا. وهنا يبدأ لورنزو فى اتخاذ نور النبلاء ، لا التماساً - وتلك سجيته - لأية عاطفة طبيعية لصالحه ، بل لأن أرسطو فى الكتاب الخامس من "كتاب السياسة" Politics يعترف للنبالة بأنها متواجدة ، ويصفها بأنها تتأسس على الامتياز والثراء الموروث. ويجيب نيكولى عن ذلك بأن أرسطو لا يقدم هذا القول باعتباره اقتناعه الخاص، بل بوصفه الانطباع الشعبى الشائع ؛ وهو فى "كتاب الأخلاق" Ethics ، حيث يتكلم كما يفكر، تراه يدعو بالنبيل من يجاهد وراء كل ما هو صالح جيد خيّر حقاً. ويجادله لورنزو عبثاً وبلا جدوى أن الكلمة اليونانية الدالة على النبل والنبالة تعنى المولد الكريم ؛ ويرى نيكولى أن اللفظ الرومانى - nobilis أى الجدير بالإكبار - تسمية أفضل ، نظراً لأنها تجعل النبل معتمداً على أعمال المرء^(٧) وإنما لنجد بالإضافة إلى هذه المناقشات صورة تخطيطية لأحوال النبلاء فى أجزاء مختلفة من إيطاليا. فهم فى نابولى يأبون أن يعملوا، ولا يشغلون أنفسهم لا بمزارعهم

ولا أراضيهم ولا بالحرف والتجارة ، التي يعتبرونها مشينة ومخزية؛ فهم بين متسكع بالمنزل أو جائل هنا وهناك على ظهر جواده^(٨) ويحتقر النبلاء في روما أيضاً التجارة والحرف، ولكنهم يقومون على ازدراع ما يملكون من أرض؛ بل إن زراعة الأرض كثيراً ما كانت تفتح الأبواب أمام الوصول إلى الألقاب^(٩)؛ "إنها نبالة محترمة ولكنها ريفية جلقة". ويعيش النبلاء في لومبارديا على إيجار عزيبهم المورثة؛ وكان كرم المولد والامتناع عن احتراف أية حرفة معتادة يشكلان النبالة^(١٠) فأما في البندقية فإن النبلاء وهم الفئة الحاكمة nobili كانوا جميعاً من التجار، وبالمثل فإن من بجنوا من النبلاء وغير النبلاء كانوا مثل بعضهم تجاراً وبحارة ، لا يختلف فرد منهم عن الآخر إلا بمولده ونسبه ؛ ومن الحقيقي أن قلة قليلة من النبلاء ظلت تعمل باللصوصية وقطع الطرق متوارية عن الأنظار في قلاعها الجبلية. وحدث في فلورنسا أن شطراً من النبلاء القدماء قد اختص نفسه بصناعة التجارة ؛ وهناك جماعة أخرى، لا شك أنها الشطر الأصغر كثيراً، قنعوا بالاستمتاع بألقابهم وقضوا أوقاتهم إما لا يعملون شيئاً على الإطلاق أو في القنص والصيد^(١١)



شكل ١٦٨ شباب من نبلاء البندقية جزء من رسم
في سلسلة سانت أوسولا لكارباتشييو الاكاديمية،
البندقية تصوير أندرسون، روما

والحقيقة القاطعة هي أنه في كل مكان من إيطاليا تقريباً كان حتى الذين يجنحون منهم إلى التعالي والتفاخر بأنسابهم لا يقدرّون على إقامة شأن مدعياتهم ضد قوة الثقافة والثروة، وأن امتيازاتهم في السياسة وفي البلاط لم تكن كافية لتشجيع أى شعور بالطائفة أو الطبقة فيهم. ولا مرأ أن البندقية هي الاستثناء الظاهر الوحيد لهذه القاعدة، إذ هناك كان النبلاء nobili يعيشون نفس حياة زملائهم من أبناء المدينة العاديين، وكانوا يتمتعون بامتيازات شرفية قليلة. ومن المؤكد أن الحالة كانت تختلف في نابولي، حيث كان العزل والفصل الدقيق والغرور المتظاهر الشديد من نبلائها، فوق جميع الأسباب الأخرى، يستبعدها عن الحركة الروحية لعصر النهضة. وكانت تقاليد العصور الوسطى في لومبارديا ونورماندى والتأثيرات الأرستقراطية الفرنسية التي أعقبتها تنزع جميعاً في هذا الاتجاه؛ كما أن الحكومة الأراجونية Aragonese، التي تأسست قرب منتصف القرن الخامس عشر، تتم العمل وتنجز في نابولي ما تتابع إبان مائة سنة بعد ذلك في سائر أنحاء إيطاليا - ألا وهو التحول الاجتماعي طبقاً للآراء الإسبانية، التي كان من أهم مظاهرها احتقار العمل والتعلق الشديد بالألقاب. وكان تأثير هذا النفوذ واضحاً جلياً، حتى داخل المدن الصغيرة نفسها، قبل عام ١٥٠٠ وأنا لنسمع شكاوى من لا كافي La Cava أن المنطقة كانت مضرب الأمثال في اليسار والثراء ما دامت ممتلئة بالبنائين والنساجين، بينما هي الآن عمت فيها مفكرة لا تطاق، نظراً لأنه لم يرى بها، بدلاً من الأنوال والمسطرينات، سوى المهاميز والركابات والأحزمة المذهبة، بسبب أن كل إنسان كان يحاول الآن أن يصبح دكتوراً في القانون أو الطب، أو موثقاً عاماً، أو ضابطاً، أو فارساً^(١٣) ويبدو أنه ظهر في فلورنسا أيضاً تغير مماثل قرب عهد كوسيمو، الدوق الأعظم الأول، إذ يُشكر له أنه ضم الشبان الذين أصبحوا عندئذ يحتقرون الحرف والتجارة، إلى فرسان طبقة أو سيامة القديس ستيفان^(١٤) وكان ذلك تحدياً صارخاً للتقليد الفلورنسى^(١٤) القديم الطيب، الذي بمقتضاه كان الآباء يتركون الأملك لأبنائهم شريطة أن يكون لهم وظيفة أو حرفة (المجلد الأول، القسم الأول، الفصل السابع). على أن ضرباً من الجنون في طلب لقب قد يكون أحياناً لقباً عجبياً ومضحكاً كثيراً ما كان يظهر ويقف في الطريق بعناد مفسد معوق، وبخاصة بين الفلورنسيين، لتأثير عملية المساواة بين الناس التي يقوم بها

الفن والثقافة مجتمعين. وكانت تلك هي حب الفروسية الحار، الذي أصبح من أشد الحماقات في تلك الأيام استرعاء للنظر، وذلك في وقت فقدت فيه الكرامة نفسها كل ظل للأهمية والمعنى.

وقرابة نهاية القرن الرابع عشر يكتب فرانكو ساكيتي^(١٥):

«كان الناس منذ بضع سنوات قليلة يرون كيف أن العمال جميعاً حتى الخبازين، وكيف أن جميع نساجى الصوف، والمرابن والصيارفة والأوغاد من جميع الأنواع والأصناف، أصبحوا فرساناً. فلماذا يحتاج الموظفون إلى لقب فارس عندما يذهب أحدهم ليرأس إحدى المدن الإقليمية الصغيرة؟ وأين العلاقة التي تربط بين هذا اللقب وبين أى عمل يتكسب فيه خبز وقوت اليوم؟ فيا للكرامة التعسة، كم أنت هابطة متدنية شقية! ومن بين قائمة جميع واجبات الفارس، أى واجب واحد فرد فقط يعمله فرساننا هؤلاء وينفونونه؟ كنت أتمنى أن أتحدث عن هذه الأشياء حتى يرى القارئ أن الفروسية ميتة تماماً^(١٦)، ولما كنا قد ذهبنا إلى درجة أن أنعمنا باللقب وشرفه على الموتى، فماذا لا نطلقه على تماثيل من الخشب والحجر، ولماذا لا نطلقه على أحد الثيران؟»

والقصص التي يذكرها ساكيتي على سبيل المثال و التوضيح تتحدث عن نفسها بأوضح عبارة. ففيها نقرأ كيف أن برنابو فيسكونتي Bernabo Visconti أنعم برتبة الفارس على المنتصر الغالب في شجار بين السكارى ، ثم أقبل بسخرية يفعل نفس الشيء مع المهزوم؛ وكيف أن فرساناً ألمان بخوذاتهم وشاراتهم المزينة وغيرها كانوا يلقون التهزئة الساخرة - إلى غير ذلك من قصص. وفي فترة تالية ضحك بوجيو^(١٧) من كثير من الفرسان في زمنه الذين لا يملكون حصاناً ولم يتلقوا تدريباً عسكرياً. فمن شاء منهم تأكيد امتياز النظام الفروسى وخرج على الناس بحريته وراياته كان يجد في فلورنسا أنه ربما اضطر أن يواجه السلطات ، فضلاً عن الضاحكين^(١٨) عليه بنكاتهم.

ولو تأملنا الأمر تأملاً أعمق وجدنا أن هذه الفروسية المتأخرة في زمانها، المستقلة عن كل نبالة في الأصل والمحتد، وإن كانت جزئياً نتيجة لشهوة جنونية إلى الألقاب، كانت لها بالرغم من ذلك ناحية مختلفة وأفضل. إذ لم تكف دورات البرجاس عن أن تمارس حتى آنذاك، ولم يكن يجوز لأى إنسان أن يشترك فيها ما لم يكن فارساً. ولكن

النزال في الحومات، وبخاصة الصدام والمخطر بالرمح، كان يقدم فرصة عظيمة لإظهار القوة البدنية والمهارة والشجاعة، التي لم يكن أحد، مهما كان أصله ومنبته، ليقبل راضياً بإهمالها، في عصر كان يركز تركيزاً شديداً على الجدارة أو الميزة الشخصية^(١٩)



شكل ١٦٩ نبيل بندقي
جزء من رسم من سلسلة سانت أورسولا لكارباتشيو
الأكاديمية، البندقية تصوير أندرسون، روما

وكان عبثاً ما وجده البرجاس من نعي وتحقير منذ عهد بترارك فنازلاً بوصفه حماقة منطوية على الخطر. ولم يتحول أحد عن هذا الاعتقاد تلبية للالتماس المستعطف الحزين للشاعر: «بأى كتاب نقرأ أن سكيبيو Scipio وقيصر بلغا المهارة في المنازلة؟»^(٢٠) لقد أصبحت تلك الممارسة تنتشر بين الناس أكثر وأكثر في فلورنسا. وأصبح كل مواطن أمين يعتبر أن كل منزلتة برجاس - التي أصبحت الآن بدون شك أقل انطواء على الخطر مما كانت سابقاً - رياضة على آخر طراز. وقد خلف لنا فرانكو ساكيي^(٢١) صورة تبعث على السخرية والضحك لواحد من فرسان العطلات هؤلاء - وهو موثق قانوني يبلغ السبعين من عمره، فهو يخرج ممتطياً سهوة جواده إلى بيريتولا Peretola، حيث كانت مباراة البرجاس قليلة النفقة، على فرس غير

أصيلة منهوكة القوى استأجرها من أحد الصباغين. وقد وضع أحد المضحكين شوكة تحت ذيل الفرس التي أصابها الخوف فتنتطلق جارية وتحمل معها الراكب وخوذته وقد تزلزل وارتعد وامتلاً بالكدمات، عائدة إلى المدينة. وكانت الخاتمة الحتمية التي لا مفر منها هي محاضرة شديدة اللهجة من الزوجة التي لم تكن إلا حانقة على حماقات زوجها الخطيرة^(٢٢)



شكل ١٧٠. مباراة في الميدان
سان كروشى، فلورنسا
مجموعة جارفس، نيوهافن

وربما جاز لنا أن نذكر في الختام أن أسرة دى ميديتشى أظهرت اهتماماً حاراً بهذه الرياضة، وكانما كانوا يرغبون في إظهار - وهم المواطنون العاديون الذين لا تجرى أية دماء نبيلة في عروقهم - أن المجتمع الذى يحيط بهم ليس بأية حال أدنى مرتبة من أى بلاط ملكى^(٢٣) وحدث حتى فى عهد كوسيمو (١٤٥٩)، وفيما بعد فى أيام بييترو الأسن، أن أقيمت منازل برجاس رائعة فى فلورنسا. وأهمل بييترو الأصغر واجبات الحكم والحكومة لاشتغاله بمسراته وتسلياته، ولم يقبل أن يصور إلا مرتدياً دروعه وعدة القتال. وانتشرت هذه العادة نفسها فى بلاط اسكندر الرابع، وعندما سأل الكاردينال أسكانيو سفوروزا Ascanio Sforza ضيفه الأمير التركى "جم" Djem المجلد الأول، القسم الأول، الفصل العاشر) عن مدى سروره وإعجابه بالعرض، أجابته الأمير الهمجى فى كثير من الحنكة أن مثل هذه المنازل فى بلاده إنما كانت تحدث فقط بين العبيد، حتى لا يصاب أحد إلا العبيد فى حالة حدوث أية حادثة. فكان الشرقى كان عن غير وعى منه متفقاً مع الرومان القدماء فى إدانة طرائق القرون الوسطى.

ومع هذا، فبصرف النظر عن هذه العروض الخاصة للفروسية، فإننا نجد هنا وهناك في إيطاليا- مثلاً في فيرارا (المجلد الأول، القسم الأول، الفصل الخامس)- أن أعضاء هيئات خدمة البلاط كان لهم الحق في اللقب.

ولكن مهما تعظم الطموحات الفردية، كما هو شأنها المعروف، ومهما يشتد غرور النبلاء والفرسان، يظل صادقاً وحقيقياً أن النبالة الإيطالية احتلت موقعها في بؤرة الحياة الاجتماعية وليس على أطرافها. فإننا نجد في العادة المرعية مختلطة بطبقات أخرى على أساس من المساواة الكاملة، وملتزمة حلفاءها الطبيعيين في كل من حقل الثقافة والذكاء. ومن الحقائق المعروفة أن رجل البلاط كان مُستلزماً فيه درجة معينة من النبيل^(٢٤)، ولكن كان من المعلوم للجميع صراحاً أن هذا الشرط سببه الهوى والغرض والتحيز المتأصل جنوره في عقل العامة - "per l'oppenion universale" ولم يؤخذ أبداً على أنه يعنى الاعتقاد بأن الجدارة والقيمة الشخصية لمن لا ينتسب إلى الدم النبيل كانت تقلل لهذا السبب بأية درجة ويبخسها مولده، كما لم يكن يترتب على هذه القاعدة أن الأمير كان يُقصر مجتمعه على طبقة النبلاء. ولكن كان المقصود من ذلك ببساطة أن الرجل الكامل - رجل البلاط الحقيقي - ينبغي أن لا تعوزه أية ميزة يمكن تصورها، وعلى ذلك لا تعوزه في هذا الصدد. فإن وجد في جميع علاقات الحياة أنه مرتبط ارتباطاً خاصاً باتجاه إلى المحافظة على مسلك كريم متحفظ، لم يُلمس السبب في الدماء التي تجرى في عروقه، بل في احتفاظه بكمال الخلق والسلوك الكامل الذي كان مطلوباً منه. ونحن هنا تلقاء امتياز عصرى، مؤسس على الثقافة وعلى الثروة، ولكن على الأخيرة (الثروة) فقط لأنها تُمكن الرجال من تكريس حيواتهم للأولى (الثقافة) والوصول بفعالية إلى الرفع من شأن مصالحها وتقديمها.

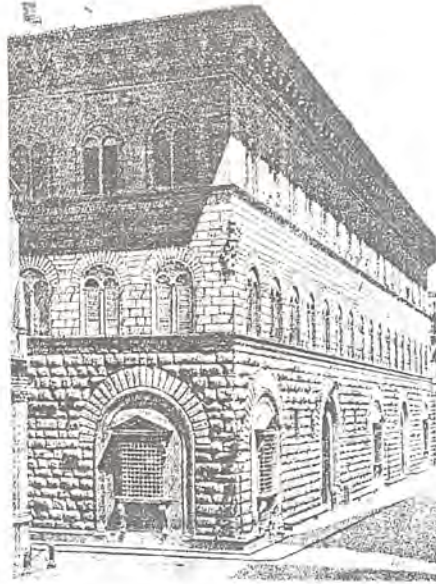
الفصل الثانى

تهذيبات الحياة البرانية

ولكن حدث بطريقة تناسبية أنه بينما كف التميز بالمولد عن أن يضىء أى امتيازات خاصة كان الفرد نفسه مضطراً أن يستغل سجايه الشخصية إلى أقصى درجة، وكان حتماً على المجتمع أن يجد قيمة وفتنته فى ذاته. وأصبح مسلك الأفراد وجميع الأشكال العليا للاختلاط الاجتماعى غايات تُبتغى ويُسعى وراءها بقصد متعمد وفنى.

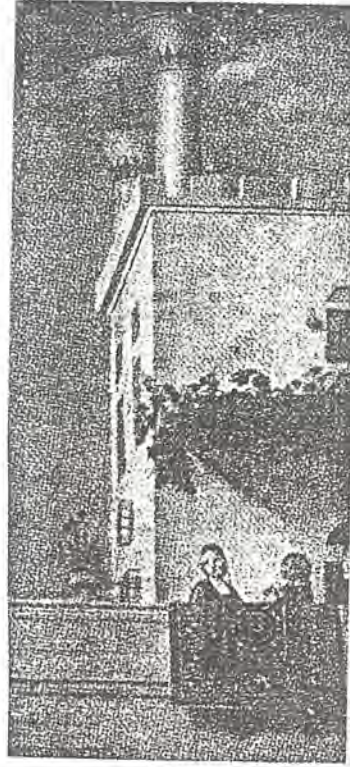
ولقد أصبحت حتى المظاهر البرانية للرجال والنساء وعادات الحياة اليومية أكثر اكتمالاً وجمالاً وصقلاً مما هى عليه بين أمم أوروبا الأخرى. ولا شك أن مساكن الطبقات العليا تكاد تقع أكثر فى فلك تاريخ الفنون؛ على أنه فى إمكاننا أن نلاحظ إلى أى حد كانت القلعة وسراى المدينة فى المدينة فى إيطاليا تفوق منازل النبلاء فى دول الشمال فى وسائل الراحة والنظام والتجانس. وكان طراز الملابس يتغير باستمرار حتى بات من المستحيل أن نعقد مقارنة كاملة مع أزياء وموضات الثياب فى أقاليم أخرى، وبخاصة بسبب أنه منذ نهاية القرن الخامس عشر كان تقليد الأزياء الإيطالية متكرر الحدوث. وكانت أزياء هذا الوقت، كما يصورها الفنانون الإيطاليون، أكثر ما كان يوجد فى أوروبا آنذاك راحة ومناسبة ومسعدة للعين إلى أقصى حد؛ ولكن أنى لنا التأكد من أنها تمثل الموضة الشائعة، كما أننا لا ندرى أيضاً مدى أمانة الفنانين فى نقلها. ومع ذلك، فمما يتجاوز كل شك أنه لم يوجه الاهتمام فى أى قطر فى أوروبا إلى الملابس أكثر منه فى إيطاليا. فإن الشعب كان، ولا يزال، مدللاً مختالاً؛ بل إنه حتى الجادون من الرجال بينهم كانوا ينظرون بتقدير إلى الثوب الرشيق والمناسب شكلاً

ولوناً ويعدونه عنصراً من عناصر الكمال فى الفرد. أجل إنه مرت على فلورنسا فترة زمنية موجزة كانت فيها الثياب مسألة شخصية بحتة، وكان كل رجل يحدد لنفسه الموضة الخاصة التى تعجبه، وظل الأمر إلى زمن متوغل طويلاً فى القرن السادس عشر حيث كان هناك قوم استثنائيون ظلوا محتفظين بالجرأة على فعل ذلك^(١)؛ وعلى كل الأحوال، فإن الغالبية العظمى بينت أن لديها القدرة لتغيير الموضة حسب ذوقهم الشخصى. وكان من الدلائل الدالة على الانحطاط أن جيوفانى ديلا كاسا Giovanni della Casa يحذر قراءه ألا يكونوا متفردين فى ثيابهم وألا يتعدوا عن الموضات السائدة^(٢) وعصرنا هذا، الذى يعد التوحيد أو التماثل قاتوناً أعلى، فيما يخص ملابس الرجال على أية حال، إنما يتخلى بتدقيقه ذاك عن قدر أكبر كثيراً مما يحس هو نفسه به. ولكن الواقع أنه بذلك يوفر على نفسه قدراً كبيراً من الوقت، وذلك طبقاً لأفكارنا عن الأعمال التجارية، يرجح جميع العيوب الأخرى.



شكل ١٧١ قصر مديتشي ريكاردى فى فلورنسا ليكولوتزى

وكانت هناك في البندقية^(٣) وفلورنسا في عصر النهضة قواعد وتعليمات تحدد ملابس الرجال وتحد من الإسراف والترف في ملابس النساء. وحيثما كانت الأزياء أقل تحراً، كما هو الحال في نابولي، يعترف الأخلاقيون في أسف أنه لا يمكن ملاحظة أى فارق بين النبيل والمواطن العادي^(٤) وإنهم فوق هذا يستهجنون التغيرات السريعة في الموضة، كما أنهم - إن كنا نفهم كلماتهم على وجهها الصحيح - يذمون الافتتان الشديد والأحمق الذى يوجه نحو أى شىء فارغ لا معنى له يأتى من فرنسا، بالرغم من أنه فى كثير من الحالات فإن الموضات التى وصلت مرة أخرى من فرنسا كانت فى الأصل إيطالية. وليس مما يعنينا كثيراً أيضاً إلى أى مدى أسهمت هذه التغييرات المتكررة الحدوث واختيار الطرائق الفرنسية والإسبانية^(٥) فى تكوين الولع القومى العارم بالمظاهر وحب الظهور؛ ولكننا نجد فيها براهين إضافية على الحركة السريعة للحياة فى إيطاليا أثناء العقود السابقة والتالية لعام ١٥٠٠ وكان احتلال الأجانب لأجزاء مختلفة من إيطاليا سبباً فى دفع الأهالى ليس فقط إلى اقتباس موضات الأزياء الأجنبية، ولكن أيضاً فى بعض الأحيان إلى نبذ كل ترف وإسراف فى شئون الملابس. ويسجل لنا لاندى Landi مثل هذا النوع من التغير فى الشعور العام فى ميلانو. على أنه يخبرنا أن الفروق فى زى الملابس استمرت فى التواجد، وذلك بينما كانت نابولي تميز نفسها بالفخامة والبذخ، كما تميز فلورنسا نفسها، فى نظر الكاتب، بالسخف والعبث^(٦).



شكل ١٧٢ الشرفة
جزء من رسم سان سباستيان لانتونيلو دا ميسينا
معرض الفن، درسدن

ويمكننا أن نلاحظ بوجه خاص جهود النساء لتغيير مظهرهن مستخدمات جميع الوسائل التي يستطيع فن التزيين والتواليت تقديمها. ولم يحدث في أى قطر من أقطار أوروبا منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية أن بذل جهد يعادل ما بذل في سبيل تعديل صورة الوجه ولون البشرة ونمو الشعر كما حدث في إيطاليا في ذلك الوقت^(٧) وكان كل شيء يتجه إلى تكوين طراز تقليدى متواضع عليه على حساب أشد أنواع الخداع وضوحاً ولفناً للانتظار، ولو أخرجنا من حسابنا زى الملابس بوجه عام، وهو أمر كان في القرن الرابع عشر^(٨) يختلف إلى أقصى درجة في الألوان ويمتلئ بالزخارف والحليات، كما أنه في فترة تالية اتخذ نوعاً من الثراء المتجاسس أكثر، فسنقتصر هنا بوجه أخص على التزيين (التواليت) بالمعنى الأضيق للكلمة.



شكل ١٧٢ فناء ذى عواميد فى قصر جوندى جوليانو باولو
فلورنسا

ولم تكن هناك وسيلة للزينة أشيع استخداماً من الشعر المستعار (الباروكية)، وكان يصنع فى أحيان كثيرة من الحرير الأبيض أو الأصفر^(٩) وعبئاً ما كان القانون يحرم الباروكات ويحظر استخدامها، حتى مس النزعة الدنيوية لعقول لابسيتها واعظ يدعو للتوبة. وعندئذ شوهدت المحرقة الشامخة (talamo) فى وسط الميدان العام وعليها كتل من الشعر المستعار^(١٠)، بجانب الأعواد الموسيقية وزهر الطاولة (النرد) والأقنعة والرقى

والتمايم والتعاويد السحرية، وكتب الأغاني، وغيرها من دواعي الغرور والأشياء عديمة القيمة. وسرعان ما تأتي النيران المطهرة على الشعر المستعار وتحوله إلى كومة من الرماد. وكان اللون المثالي المنشود في الشعر الطبيعي أو المستعار هو الأشقر. ولا كان المعتقد أن الشمس لها القوة لتجعل الشعر في هذا اللون^(١١)، فإن الكثيرات من السيدات كن يقضين أوقاتهن كلها في الهواء الطلق في الأيام المشمسة^(١٢) وشاع كذلك استخدام الصبغات وغيرها من الخلطات لنفس الغرض. وفضلاً عن هذا كله نلتقى بقائمة لا آخر لها من سوائل التجميل والمبيضات واللزقات والدهانات الملونة لكل جزء مفرد من أجزاء الوجه - وحتى للأسنان والجفون - وكلها أشياء لا نستطيع أن نكون عنها أى تصور فى أيامنا هذه. ولم يفلح هزء وسخرية الشعراء^(١٣) ولا قدح وذم الوعاظ ولا التجارب الاليمة للأثار السامة والضارة لتلك المستحضرات التجميلية على بشرة المرأة وجلدها فى أن تمنع النساء من إعطاء وجوههن شكلاً ولوناً غير طبيعيين. ومن الممكن أن الإكثار من عروض وتمثيل الأسرار الدينية^(١٤)، وتمثيلها المقترن بالفخامة، والتي كان مئات من الأشخاص يظهرون فيها مصبغين بالألوان ومقنعين بالأقنعة، قد ساعد على زيادة حجم هذه العادة فى الحياة اليومية. ومن المؤكد أنها كانت منتشرة على نطاق واسع، وأن نساء الريف ناقسن فى هذا الصدد أخواتهن من بنات المدينة^(١٥) وعبئاً حاول الوعاظ أن ينبهوا إلى أن مثل هذه الزينات والتبرجات إنما هى من علامات البغايا والعاشرات ؛ فلم يفت السيدات الوقورات أشدهن شرقاً، اللائى كن العام كله لا يمسن الصباغ قط، أن يستعملنه مع ذلك فى أيام العطلات عندما يخرجن على الملأ إلى النزهة ويتبدن للناس فى الأماكن العامة^(١٦) ولكن سواء علينا أن نظرنا إلى هذه العادة السيئة على أنها بقية من بقايا الهمجية والبربرية يشابهها ويوازئها ما نراه من صباغ المتوحشين لأنفسهم، أو بوصفها ثمرة للرغبة فى الجمال الكامل الغض فى كل من قسماى الوجه واللون، كما يقودنا إلى اعتقاده والأخذ به فن التزين (التواليى) وتعقيده، فى كلى الحالين لم يبدُ من الرجال أى تقصير فى إسداء النصح.



شكل ١٧٤، غرفة داخلية (ولادة ماري) لكارباتشيو

أكاديمية كارارا، برجامو تصوير أندرسون، روما

أما استخدام العطور فإنه أيضاً مضي بعيداً وتجاوز كل حد معقول. فكانت العطور توضع على أى شيء للكائن الإنسانى به اتصال. ففي الاحتفالات والمواكب كان كل شيء حتى البغال يضمخ بالعطور والمراهم العطرية^(١٧) وإن بييترو أريتينو Pietro Aretino ليشكر كوسيمو الأول على بكرة معطرة من النقود^(١٨)



شكل ١٧٥ غرفة نوم (حلم أورسولا) لكارباتشيو
الأكاديمية، البندقية

وكان الإيطاليون في ذلك الوقت يعيشون بظل الاعتقاد بأنهم أنظف من الأمم الأخرى. وهناك بالفعل من الأسباب العامة ما تنطق مؤيدة هذا الادعاء أكثر منه ضده. وغنى عن البيان أن النظافة شيء لا تستغنى عنه فكرتنا الحديثة المعاصرة عن الكمال الاجتماعي، الذي تطور بإيطاليا في وقت أبكر منه بمناطق مكان أخرى. وهناك افتراض آخر يُعد في صالح الإيطاليين هو أنهم كانوا من أغنى الشعوب الموجودة.

وبدیهی أن الأدلة على إثبات هذه المدعیات أو دحضها لا يمكن أبداً أن تكون شيئاً فی المتناول، وإذا كان الموضوع الوارد شيئاً يدخل فی الأسبقیة فی تأسيس قواعد النظافة فإن الشعر القروسی فی العصور الوسطی قد يكون سابقاً على كل شيء تستطيع إيطاليا إنتاجه. ومع ذلك فمن المؤكد أن الأناقة والنظافة الفريدة لبعض المتمیزین من الأشخاص الذين يمثلون عصر النهضة حقاً، وذلك بخاصة فی سلوكهم أثناء تناول الطعام، كانت شيئاً ملحوظاً بوجه خاص^(١٩)، وأن لفظة "ألمانی" German كانت مرادفاً فی إيطاليا لكل شيء قذر^(٢٠) فإن العادات القذرة التي التقطها ماسيميليانو سفورزا Massimiliano Sforza أثناء إقامته بألمانيا للدراسة والتعلم، والملاحظة الشديدة التي استتارتها طباعه عند عودته إلى إيطاليا، سجلها جيوفيو^(٢١) Gioivo. ومن العجيب جداً فی الوقت نفسه، وذلك على الأقل فی القرن الخامس عشر، أن الخانات والفنادق كانت متروكة بصفة رئيسية للألمان^(٢٢)، الذين ربما كانوا يكسبون أرزاقهم مع ذلك وفي الأغلب من الحجاج المسافرين إلى روما. ومع هذا فإن الأحاديث والبيانات الدائرة حول هذه النقطة ربما تشير بالأحرى إلى المناطق الريفية، إذ كان من شائعة السوء أنه فی المدن الكبرى كانت الفنادق الإيطالية تحتل المركز الأول^(٢٣) والحاجة إلى الخانات والفنادق الصغيرة اللائقة فی الريف يمكن تفسيرها أيضاً بما عم الحياة والممتلكات من عدم الأمن.



شكل ١٧٦ حجرة عمل لعالم (سانت جيروم) لكارباتشيو
سانت جيورجيو ديلي سكيافوني، البندقية

والى النصف الأول من القرن السادس عشر ينتمى منهج التأديب، الذى نشره جيوفانى ديلا كاسا، وهو فلورتسى المولد، تحت عنوان Il Galateo. فيها هنا لا توصف فقط النظافة بالمعنى الدقيق للكلمة، بل أيضاً يوصى بإسقاط جميع الحيل والعادات التى نعتبرها غير لائقة، بنفس اللباقة التى لا تكل ولا تفتقر، والتى يميز بها رجل الأخلاق المتخصص أشد أنواع الصدق أخلاقية. هذا وإن آداب الأقاليم الأخرى لتعلم فيها نفس الدروس، وإن كانت بطريقة منتظمة بدرجة أقل، عن طريق الأثر غير المباشر للأوصاف المنفرة^(٢٤).



شكل ١٧٧ أزياء بندقية
جزء من اللوحة من سلسلة سانت أورسولا، لكارباتشيو
الأكاديمية، البندقية

ويُعد كتاب Il Galateo، من نواحٍ أخرى أيضاً، مرشداً رشيقاً ونكياً فى شئون المسلك الكريم والأخلاق المثلى - إذ هو مدرسة للباقة والرقّة. فهو حتى فى عصرنا هذا يمكن قراءته والاستفادة منه كثيراً على يدى الناس جميعاً مهما اختلفت طبقاتهم، كما

أن أصول الأدب فى الأمم الأوروبية لا يحتمل أن تتجاوز سنته. وما دامت اللبابة والكياسة شأنًا من شئون القلب، فإنها كانت شيئاً فطرياً فطر عليه بعض الرجال منذ فجر الحضارة ، كما أنها شىء مكتسب عن طريق قوة الإرادة عند بعضهم الآخر؛ ولكن الإيطالى ميزها منذ البداية بأنها واجب اجتماعى شائع ذائع وأية تدل على الثقافة والتعليم والتربية. كما أن إيطاليا نفسها تغيرت كثيراً فى مدى قرنين من الزمان. فنحن نشعر عند قرب نهايتهما بأنه قد ولى زمن المقالب أى الممازحات العملية فى المجتمع المحترم^(٢٥) بين الأصدقاء والمعارف - (burle and beffe المجلد الأول، القسم الثانى، الفصل الرابع)، وأن القوم قد خرجوا من أسوار المدن وتعلموا مراعاة لمشاعر الآخرين وسلوكاً مؤدباً عالمين. وسنتحدث فيما بعد عن اختلاط المجتمع بعضه ببعض بالمعنى الأضيق للكلمة.

أجل إن الحياة الخارجية أثناء القرن الخامس عشر والجزء الأكبر من السادس عشر أصبحت مصقولة مهذبة وترقرق فيها سمو النبل بصورة لم تحدث من قبل لأى شعب آخر فى العالم. فنحن نعرف أن عدداً لا يحصى من تلك الأشياء الصغيرة والأشياء الكبيرة التى تتجمع لتشكّل ما نعنيه بكلمة الراحة، قد ظهر لأول مرة فى إيطاليا. ففى شوارع المدن الإيطالية جيدة الصرف^(٢٦) كانت قيادة العربات شيئاً شائعاً، بينما فى أى مكان آخر فى أوروبا كان السير على الأقدام أو ركوب الخيل هو العادة المرعية ، وعلى أية حال لم يكن أحد يقود العربات لمجرد اللهو والتسلية. ونحن نقرأ فى الروايات عن الفرش الوثيرة المرنة ، وعن بسط نفيسة الثمن ، وعن أثاث لغرف النوم لا نسمع بمثّلها فى أقطار أخرى^(٢٧) وكثيراً ما نسمع بخاصة عن وفرة ملاءات التيل والبياضات وجمالها، وإن الكثير من هذا كله لىوجد مصوراً فى دارة فلك الفن. وإنما نلاحظ بالإعجاب الوسائل الآلاف التى سما بها الفن بالترف، ليس فحسب فى زينة الدواليب الضخمة أو الرفوف الخفيفة ذات المزهريات (الفايزات) الرائعة وكسوة الجدران بالسائتر المتحركة الفاخرة ، أو تغطية طاولة الزينة بالأشياء الصغيرة العديدة الرقيقة، ولكنها تستنفد جميع الأشغال الميكانيكية وبخاصة النجارة ، وتدخلها فى خدمتها. وشرعت أوروبا الغربية بأكملها فى العمل فى نفس الاتجاه عند نهاية القرون الوسطى حالما سمحت لها ثروتها بذلك. ولكن جهودها إما قد أنتجت لعباً مثل ألعاب الأطفال

الخرافية، أو كانت مكبلة بقيود الفن القوطى البحت الضيق، بينما تحرك عصر النهضة بحرية، موغلاً فى روح كل مهمة يأخذها على عاتقه ، ويعمل من أجل الوصول إلى دائرة أوسع أفقاً من رعاة الفنون والمعجبين أكثر عدداً مما تهيأ لفنانى الشمال، وإن الانتصار السريع للفن الزخرفى الإيطالى على مثيله الشمالى على مدار القرن السادس عشر يرجع جزئياً إلى هذه الحقيقة ، وإن جاء بصورة جزئية نتيجة لأسباب أوسع وأكثر عمومية.

الفصل الثالث

اللغة أساساً للاختلاط الاجتماعي

لا مرأى أن الأشكال الأعلى للاختلاط الاجتماعي، التي نلقاها هنا في صورة عمل فني- بوصفها نتاجاً شعورياً بل واحداً من أعلى النتاجات للحياة القومية - ليس لها من أساس هام وشرط ذي شأن أكثر وأهم من اللغة.

وحدث في أشد فترات العصور الوسطى ازدهاراً أن النبالة في أوروبا الغربية سعت إلى إنشاء لغة وحديث مهذب يليق بالبلاط ويصلح للاختلاط الاجتماعي ، فضلاً عن الشعر. وفي إيطاليا أيضاً، حيث اختلفت اللهجات اختلافاً بعيداً إحداها عن الأخرى، نجد في القرن الثالث عشر ما يسمى لغة البلاط Curiale التي كانت شائعة الاستعمال في بلاطات القصور وعند الشعراء. ومما كان له أهمية قاطعة لدى إيطاليا أن المحاولة تمت هناك بجدية وتعهد تام لتحويل هذه اللغة البلاطية (الكوريلالية) إلى لغة الأدب والمجتمع الراقى. وإن مقدمة Cento Novelle Antiche ، التي وُضعت في شكلها الحالي قبل عام ١٢٠٠، جاهرت بالإقرار بهذا الهدف. فاللغة هنا توضع تحت التأمل بمعزل عن استعمالاتها في الشعر؛ وأعلى وظيفة لها هي النطق الواضح البسيط الذكي في الخطب القصيرة والإبيجرامات (أي المقطعات الشعرية أو الحكم البارعة) والإجابات. وكانت هذه الملمكة أو القدرة تلقى في إيطاليا ما لا تلقاه بأى مكان آخر ، إلا لدى الإغريق والعرب : فكَم عدد الذين أنتجوا، إلا بشق الأنفس، حديثاً عذياً ولغة جميلة bel parlare مفردة في مسيرة حياتهم الطويلة !.

ولكن الأمر تعسر أكثر بسبب تنوع واختلاف المظاهر والأشكال التي كان يُبحث في ظلها. وتحملنا كتابات دانتي إلى وسط وصميم الصراع. وعمله في اللغة

الإيطالية^(١) ليس فقط في الدرجة القصوى من الأهمية من أجل الموضوع في حد ذاته، ولكنه أيضاً أول دراسة بحث كاملة دارت حول أية لغة عصرية. وينتمي منهجه ونتائجه إلى تاريخ العلم اللغوي، الذي يتبوءون فيه دوماً مكاناً عالياً. وينبغي لنا هنا أن نقنع بالملاحظة القائلة بأنه قبل ظهور هذا الكتاب بزمان طويل لا بد أن موضوعه كان ذا أهمية ملحة تتبدى كل يوم بلا انقطاع، وأن لهجات إيطاليا المختلفة المتنوعة ظلت طويلاً موضوع الدراسة المتعطشة والمنازعات الشديدة، كما أن ميلاد اللغة الموحدة الكلاسيكية لم يُنجز إلا بعد مخاض أليم عظيم^(٢).

ولم يسهم أى شيء بشدة في سبيل هذه الغاية قدر قصيدة دانتي العظيمة. فأصبحت بها اللهجة التوسكانية أساساً للسان القومى الجديد^(٣) فإن بدا هذا الزعم لدى بعض الناس مبالغة تمضى بعيداً، فنحن كأجانب قد يُلتمس لنا العذر، في مسألة تثور فيها أوجه خلاف كثيرة في الرأي، من حيث التمشى مع الاعتقاد العام.



شكل ١٧٨ صورة صبي، من الرسم في سلسلة البرناردين، ليروجيو^(٤)
بيناكوتكا، بيروجيا

والراجع أن الأدب والشعر قد خسرا أكثر مما كسبا بسبب هذه النقائبة (أي الحرص على نقاء اللغة والأسلوب) المثيرة للنزاع التي كانت غالبية على إيطاليا طويلاً، والتي أفسدت نضارة ونشاط الكثيرين من الكتاب المقتدرين وقوتهم. وهناك أيضاً آخرون ممن أحسوا بأنفسهم الأستاذية فى هذه اللغة الرائعة الفاخرة، أغرامهم ذلك بالاتكال على تناغمها وتدققها، بمعزل عن الفكر الذى كانت تعبر عنه. بيد أن لحناً غير مهم على الإطلاق يعزف على مثل تلك الآلة ، لكفيل بإنتاج أثر عظيم جداً. ولكن مهما يكن شأن ذلك، فإنه من المحقق أن اللغة كانت لها قيمة عظيمة من الناحية الاجتماعية. إذ كانت، فى واقع الأمر، تُعد تاجاً لسلوك نبيل كريم ، كما كانت تجبر الرجل نبيل المحتد (الچنتلمان)، فى كل من مسلكه العادى فى الحياة وفى اللحظات الاستثنائية، أن يراعى اللياقة الخارجية. ولا شك أن هذا الثوب الكلاسيكى توصل، شأن لغة المجتمع الأتيكى Attic ، إلى إلقاء الستار على الشيء الكثير مما اتصف بالبذاء والشر؛ ولكن تلك اللغة كانت أيضاً التعبير الكافى الوافى عن كل ما هو بالغ غاية النبل وبالع غاية التهذيب. على أنها من الناحية السياسية والقومية كانت ذات أهمية قصوى، حيث شكلت المثوى المثالى للطبقات المتعلمة فى كل ولايات شبه الجزيرة الممرقة^(٤) كما أنها لم تكن الملك الخاص للنبلاء وحدهم ولا لأية طبقة واحدة بمفردها، وإنما كان فى إمكان أفقر الناس وأكثرهم ضعة تعلمها متى شاء. فحتى تلك اللحظة - وربما أكثر من أى وقت آخر - كان يحدث فى تلك الأجزاء من إيطاليا، التى يجرى فيها الحديث عادة بأشد اللهجات غموضاً وغير المفهومة ، أن الغريب الأجنبى كثيراً ما كانت تأخذه الدهشة لدى سماعه اللغة الإيطالية النقية الجيدة النطق من أفواه الفلاحين أو الصناع الحرفيين، وعندها يبحث عبثاً عن أى شىء يماثل هذا فى فرنسا أو ألمانيا، حيث كانت حتى الطبقات المتعلمة نفسها تحتفظ ببقايا وأثار من لسان إقليمى لاصقة بألسنتهم. وهناك دون ريب عدد أكبر من الناس القادرين على القراءة بإيطاليا يزيد كثيراً عما قد نتوقع بأنهم موجودون استنتاجاً من حال كثير من أجزاء تلك البلاد - كما هو الحال، مثلاً، ببولة الكنيسة وولاياتها - فى مناح أخرى؛ ولكن الأمر الأكثر أهمية هو ما يظهره الناس من احترام عام لا يقبل جدلاً ولا منازعة للغة النقية والنطق السليم بوصفهما أشياء ثمينة نفيسة يُعترز بها ومقدساً يُكرم. وأخذت أجزاء البلاد الواحد بعد الآخر تستخدم اللهجة الكلاسيكية استخداماً رسمياً. وحذت البندقية وميلانو و نابولى نفس الحذو فى وقت الأوج الواضح للأدب الإيطالى، وجزئياً

نتيجة لتأثيرات ذلك الأدب. ولم يحدث حتى استدار وجه القرن التاسع عشر أن تحولت منطقة بييدمونت Piedmont بمحض اختيارها إلى ولاية إيطالية أصيلة إلا عندما شاركت في هذا الكنز الرئيسي للشعب - وهو الحديث النقي^(٤) واستخدمت اللهجات فقط قصداً منذ أوائل القرن السادس عشر لتناول طبقة معينة من الموضوعات سواء أكانت جادة أم كوميدية^(٥) كما أن الأسلوب اللغوي الذي تطور بهذه الطريقة أظهر أنه الند الكفاء القادر على الإتيان بكل ما نيط بذلك الأسلوب من أغراض. ولو راجعنا أحوال الأمم الأخرى لوجدنا أنه لم يحدث فصل واعٍ مماثل إلا بعد ذلك بفترة طويلة جداً.



شكل ١٧٩ أزياء فلورنسية

جزء من لوحة ولادة ماري لجيرلاندايو سانت ماريا نوفيللا، فلورنسا

وإن رأى المتعلمين حول القيمة الاجتماعية للغة يعرض علينا عرضاً وافياً في كتاب "رجل البلاط"^(٧) Cortigiano وكان هناك في ذلك الوقت أشخاص، في أوائل القرن

السادس عشر، تعمدوا التمسك بالتعبيرات العتيقة التي عفا عليها الزمان لدانتي وغيره من كُتّاب زمانه التوسكانيين وذلك لمجرد أنها كانت قديمة. ومؤلفنا يحظر استعمال تلك العبارات حظراً تاماً في الحديث ، كما أنه غير راغب في أن يسمح بها حتى في الكتابة، التي يعدها شكلاً للحديث. ويتبع ذلك التسليم بأن خير أسلوب للحديث هو الذي يماثل الكتابة الجيدة. ويمكننا أن ندرك بوضوح شعور ذلك المؤلف بأن الناس الذين لديهم أى شىء نى أهمية يريدون أن يقولوه ينبغى أن يصوغوا حديثهم، وأن اللغة شىء مرن لدن متغير لأنها شىء حى. ومن المسموح به استخدام أى تعبير، مهما كان مزخرفاً، ما دام موضع استخدام الشعب ؛ كما أنه لا يحرم كذلك استعمال الكلمات غير التوسكانية، أو حتى الكلمات الفرنسية أو الإسبانية، إن كان العرف قد طبقها ذات مرة لأغراض محددة^(٨) وهكذا سوف يستطيع الحرص والرعاية والذكاء إنتاج لغة، إن لم تكن التوسكانية القديمة النقية، فإنها لا تزال إيطالية بحتة، ثرية بأزهارها وثمارها كأنها حديقة تلقى العناية والرعاية. ومما ينتسب إلى اكتمال رجل البلاط Cortigiano، أن ذكاؤه وأخلاقه المهذبة المصقولة وشعره ينبغى أن ترتدى هذا الثوب الكامل.

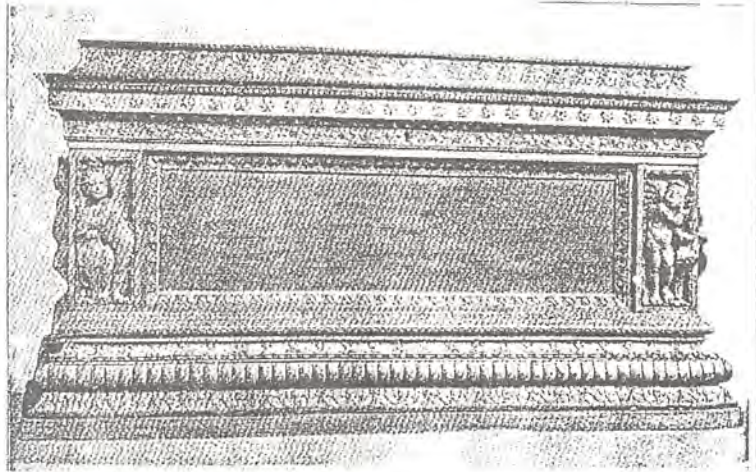


شكل ١٨٠ صورة سيدة لبرتاردينو دى كوتنى
ألفريد موريسون، لندن

حتى إذا أصبح الأسلوب واللغة يوماً ما ملكاً خالصاً لمجتمع ملئ بالحياة، فشلت كل جهود دعاة النقاء وأصحاب الأساليب المهجورة في الوصول إلى غاياتهم. فإن توسكانيا نفسها كانت غنية بكتّابها ومتحدثيها نوى الطراز الأول، الذين تجاهلوا وسخروا من هذه المحاولات. وكانت السخرية الموفورة تنتظر العلماء الأجانب الذين كانوا يشرحون للتوسكانيين مبلغ ضالة فهمهم للغتهم الخاصة^(٩) وحسبك من حياة وتأثير كاتب مثل مكيا فيللي دليلاً كافياً ومالياً يجترف أمامه كل بيوت العنكبوت هذه من أنواع الكتابات. فقد أخذت أفكاره النشطة وطريقته الواضحة البسيطة في التعبير، شكلاً كان له ميزات لم تشمل تلك القديمة الخاصة بالثلاثمائة عام السابقة. *trecentisti*. ومن ناحية أخرى، كانت هناك كثرة لا تحصى من أبناء شمال إيطاليا ومن أبناء روما و نابولي الذين كانوا يشعرون بالشكران العميق لو كان طلب نقاء الأسلوب في كل من حقل الأدب والحوار لم يطبق بمثل تلك المبالغة. لقد كانوا في الواقع ينبذون صور وعبارات مصطلحات اللغة في لهجاتهم، كما أن بانديللو *Bandello*، متشخاً بما قد يزعمه الأجنبي أنه تواضع زائف، لا يمل لحظة أن يعلن: " لا أملك أسلوباً؛ ولا أكتب كما يكتب الفلورنسي، بل كما يكتب الهمجي البربري؛ ولست أطمح أن أضفي رشاقات جديدة على لغتي؛ وإنما أنا لومباردي، وعلاوة على ذلك من التخوم الليجورية^(١٠) *Ligo- rian*. على أن مدعيات دعاة النقاء اللغوي كان يجابهها بنجاح شديد التخلي الواضح عن الصفات الأعلى للأسلوب، وتطبيق اللغة النشطة الشعبية مكانها. وقل منهم من كان يرجو أن يناظر بييترو بيمبو *Pietro Bembo* وينافسه، وهو الذي، وإن ولد في البندقية، كان يكتب مع ذلك أنقى لغة توسكانية التي كانت بالنسبة له لغة أجنبية، كما فعل ذلك ابن نابولي سانازارو *Sannazaro*. ولكن النقطة الجوهرية كانت أن اللغة، سواء أكانت منطوقة أم مكتوبة، كانت توضع موضع الاحترام. فما دام هذا الشعور غالباً كانت تعصبات النقيانيين - بمؤتمراتهم اللغوية وما شاكل ذلك^(١١) - شيئاً قليل الضرر. فلم يحس أحد بآثرهم السيئ إلا بعد ذلك بكثير، عندما تراخت القوة الأصلية الأولى للأدب الإيطالي، وخضعت لمؤثرات أخرى أسوأ. وأخيراً أصبح من الممكن لأكاديمية كروسكا *Academia della Crusca* أن تعامل اللغة الإيطالية بوصفها لغة ميتة. ولكن هذه الجمعية ظهر أنها من الضعف بحيث لم تستطع حتى أن تحول دون الغزو الغالي الفرنسي (*Gallicism*) إبان القرن الثامن عشر.



شكل ١٨١ صورة سيده شابة لباسيانو ميناردى
برلين، متحف القيصر فريدريش



شكل ١٨٢ صندوق من ممتلكات عائلة ستروتزى متحف برلين

وأصبحت هذه اللغة الآن - وقد لقيت العناية ودربت لأداء كل أنواع الاستخدام - تقوم بوظيفة الأساس الداعم للاختلاط الاجتماعى. وفى الأقطار الشمالية كان النبلاء والأمراء يمضون وقت فراغهم إما فى العزلة أو فى الصيد أو القتال أو الشراب وما مائل ذلك ؛ بينما يقضيه المواطنون قاطنو المدن فى الألعاب الرياضية والتدريبات البدنية، مع خليط مخلط من التسلية الأدبية أو الاحتفالية المرحية. وقامت فى إيطاليا أرض حيادية ، كان فيها الناس من جميع الأصول ، إذا ملكوا القدر اللازم من الموهبة والثقافة، يقضون أوقاتهم فى الحوار والتبادل المصقول للجد والهزل. ولما كان الأكل والشرب لا يشكلان سوى جزء يسير من هذه التسالى^(١٢)، فلم يكن من الصعب إبقاء أولئك الذين كانوا ينشدون المجتمعات لهذه الأغراض بعيداً. وإذا نحن أخذنا كتاب المحاورات حرفياً، لم نجد أسمى مشاكل الوجود البشرى مطرودة مستبعدة من حوارات رجال الفكر، كما أن إنتاج الأفكار النبيلة لم يكن، كما جرت العادة فى الشمال، ثمرة العزلة والانقطاع ، وإنما هو ثمرة المجتمع. غير أنه ينبغى أن نقصر أنفسنا ها هنا على الناحية الأقل جدية للاختلاط الاجتماعى - أى إلى الجانب الذى لا يعيش إلا من أجل التسلية.

الفصل الرابع

الأشكال العليا للمجتمع

ومهما يكن الأمر، فإن هذا المجتمع عند بداية القرن السادس عشر، كان مجتمع فن، وكان يملك، كما كان يتأسس على، قواعد ضمنية أو صريحة من العقل السليم والصفات المميزة المعروفة، التي هي العكس بالضبط لكل آداب اللياقة المحضة أى الإتيكيت الصرف. وفى الدوائر الأقل صقلاً، حيث يتخذ المجتمع شكل الهيئة الدائمة، نلتقى وطائفة من القواعد الشكلية وطريقة مرسومة للدخول، كما كان الشأن مع تلك الجماعات الجامحة من الفنانين الفلورنسيين الذين يخبرنا قاسارى Vassari عنهم أنهم كانوا قادرين على القيام بتمثيل أجود كوميديات الزمان^(١)

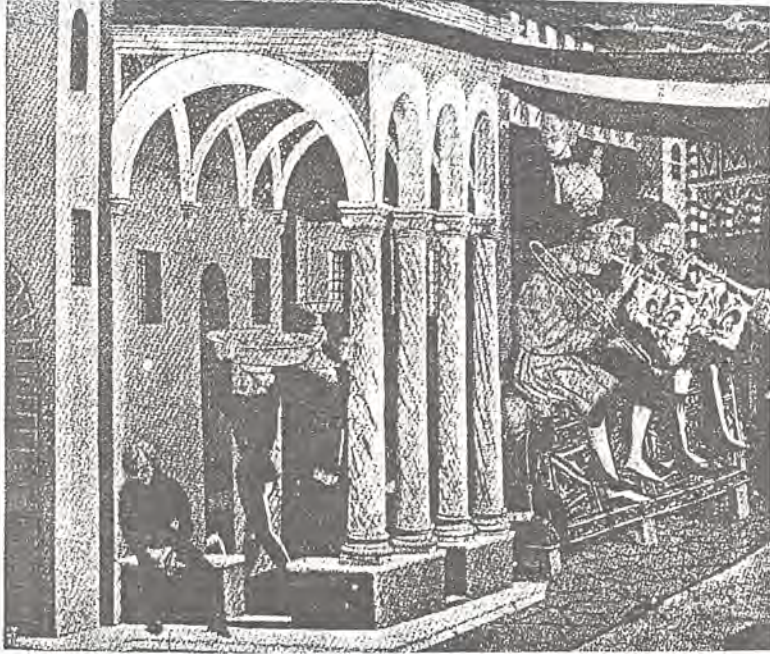


شكل ١٨٢ صحبة مبرزة فى الهواء الطلق (منتصف القرن الرابع عشر)
جزء من اللوحة الجصية "انتصار الموت" كاميو سانتو، بيزا

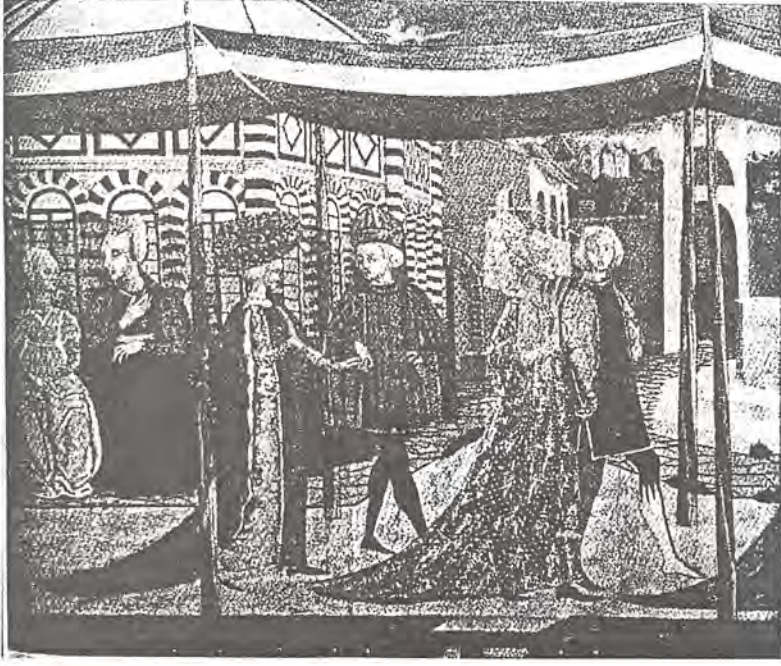
ولم يكن غير مألوف، في الاختلاط الأكثر سهولة ويسراً للمجتمع، أن تُختار سيدة ممتازة رئيسة، تكون كلماتها قانوناً نافذاً سحابة ليلة واحدة. ويعرف الناس جميعاً مقدمة كتاب بوكاتشيو، ديكاميرون Decamerone ، وينظرون إلى رئاسة بامبينا Pam-pina نظرهم إلى حادثة قصصية خيالية رشيقة. وكان ذلك شيئاً طبيعياً في تلك الحالة الخاصة؛ على أن الصورة القصصية كانت رغم هذا قائمة على عادة مرعية كثيراً ما كانت تجرى في خضم الحقيقة. ألا ترى إلى فيرننتزولا Firenzoula ، الذي قام بعد ذلك بما يقارب القرنين من الزمان (عام ١٥٢٢)، بكتابة مقدمة رائعة لمجموعة حكاياته بطريقة مشابهة مع تأكيد الإحالة إلى بوكاتشيو، كيف يقترب بكل تأكيد من الصدق عندما يضع على لسان ملكة المجتمع حديثاً رسمياً عن طرق قضاء الساعات أثناء فترة الإقامة التي اقترحت الجماعة قضاءها بالأرياف. كان اليوم على أن يبدأ بمسيرة خلوية هادئة بين التلال تقضى في حديث فلسفي؛ ثم يعقب ذلك تناول طعام الإفطار^(٢)، بمصاحبة الموسيقى والغناء، اللذين يجي بعدهما إلقاء قصيدة جديدة في مكان ظليل معتدل الهواء، والقصيدة تكون عن موضوع سبق اقتراحه في الليلة السابقة؛ وفي المساء يسير الرهط كله إلى نبع ماء حيث يجلسون جميعاً إلى جواره ويقوم كل فرد بقص حكاية عليهم؛ ويأتي أخيراً تقديم العشاء وتبادل الحوار الممتع المفعم بالحياة الذي كان من ذلك النوع الذي تستمع إليه النساء بدون خجل ولا يبدو الرجال فيه متحدثين وهم تحت تأثير الشراب. ولا يعطينا بانديلو، في الحقيقة، في مقدمات وإهداءات روايات صدرت عنه منفردة، أحاديث افتتاحية مثل هذه، وذلك نظراً لأن الدوائر التي تقص عليها هذه الحكايات سبق تشكيلها فعلاً وقائمة من قبل؛ ولكنه يجعلنا نفهم بطرائق أخرى كم هي غنية وكم هي كثيرة الجوانب وكم هي فاتنة أحوال المجتمع في زمانه. وربما ارتأى بعض القراء أنه لا جدوى ترجى من عالم يريد أن يتسلى على مثل هذا الأدب اللاأخلاقى. ويكون الأكثر عدلاً أن يتعجب المرء من أسس مجتمع كان، رغم كل تلك الحكايات، لا يبرح يرمى قواعد النظام والاحتشام، وكان يعرف كيف ينوع مثل تلك التسلية بما يستخدمه من مناقشات جادة وحصيفة. وكان الناس يحسون الحاجة إلى أشكال نبيلة للاختلاط الاجتماعى أشد وأمس من كل الحاجات الأخرى. ولسنا ملزمين لنقنع أنفسنا بذلك أن نتخذ نموذجاً لنا المجتمع المثالى

الذى يرسمه كاستيليونى Castiglione على أنه يناقش أرفع وأنبل عواطف وأهداف الحياة البشرية فى بلاط جيدوبالدو من أوربينو Guidobaldo of Urbino وبييترو بيمبو Pietro Bembo فى قلعة أسولو Asolo. ويمكننا المجتمع الذى وصفه بانديلو، بكل ما حوى من سقطات لعوية يمكن إضافتها إلى عاتقه، من أن نكون أوضح فكرة حول الهيبة والكرامة اللينة والمهذبة، وعن الرقة اللطيفة الدمثة، وعن الحرية الفكرية وعن الذكاء البارع والمعرفة الرشيقة المتذوقة للفنون التى تميزت بها تلكم الدوائر. وهناك برهان له دلالاته القوية على قيمة تلك الدوائر يكمن فى حقيقة أن النساء اللاتى كن مركز هذه الدوائر كن يستطعن أن يبلغن قمة الشهرة وذيوع الصيت لئن أن تُس سمعتهن بأية شائبة. مثال ذلك أنه كان بين راعيات بانديلو السيدة إيزابيللا جونزاجا Isabella Gonzaga وهى أصلاً من عائلة إيستى، المجلد الأول، القسم الأول، الفصل الرابع)، التى أساء الناس الغوص فى سيرتها، ليس بسبب أى خطأ وقعت فيه، وإنما بسبب الشابات بالغات التحرر اللاتى ملأن بلاطها^(٢) فأما كل من جوليا جونزاجا كولونّا Giu- lia Gonzaga Colonna، وإيبوليتا سفورزا Ippolita Sforza المتزوجة من أحد أفراد أسرة بنتيقوليو Bentivoglio، وبيانكا رانجونى Bianca Rangoni، وسيسيليا جاليرينا Cecilia Gallerina، وكاميللا سكارامبى Camilla Scarampi، وغيرهن، فكن إما ناصعات السير لا غبار عليهن، أو كانت شهرتهن الاجتماعية تقذف إلى الظل بكل ما ارتكبن من أخطاء. وكانت أكثر نساء إيطاليا شهرة، وهى فيثوريا كولونّا^(٤) Vittoria Colonna المولودة فى ١٤٩٠، والمتوفاة فى ١٥٤٧، صديقة كاستيليونى ومايكل أنجلو، تتمتع بسمعة القديسات. ومن العسير تقديم صورة لذلك الاختلاط غير المقيد بقيد لهذه الدوائر فى كل من المدينة وفى الحمامات أو فى الريف، بحيث تزودنا ببرهان أكيد على تفوق إيطاليا فى هذا الصدد على سائر أوروبا. ولكن علينا أولاً هنا أن نبدأ بقراءة بانديلو^(٥)، ثم نسال أنفسنا ما إذا كان أى شىء من هذا القبيل ممكناً، مثلاً، فى فرنسا، قبل أن يدخل مثل ذلك النوع من المجتمع على يد أناس من أمثاله. ولا شك أن إنجازات العقل البشرى بالغة الذروة قد تم إنتاجها آنذاك فى استقلال تام عن مساعدات حجرة الصالون الكبير. غير أنه ليس من العدل تقدير أثر ذلك الصالون فى الفن والشعر تقديراً مبخساً، ولو لجرد أن المجتمع ساعد فى تشكيل

ما لم يكن موجوداً في أي قطر آخر - وهو وجود اهتمام واسع الانتشار بالإنتاج الفني وقيام رأى عام ذكى ناقد. وبالإضافة إلى ذلك، فإن ذلك النوع من المجتمع الذى وصفناه كان فى حد ذاته زهرة طبيعية توجت تلك الحياة وتلك الثقافة التى كانت عندئذ إيطالية بحتة والتي امتدت منذ ذلك الحين إلى بقية أوروبا.



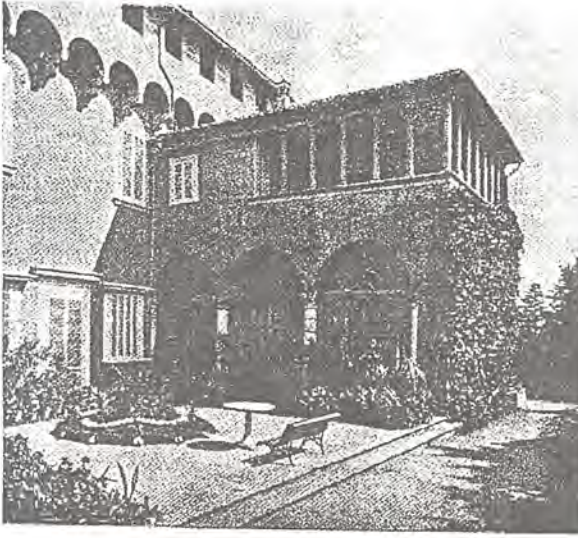
شكل ١٨٤ زواج أديمارى الأول (النصف الأول من القرن الخامس عشر)
فلورنسا، الأكاديمية
تصوير أندرسون، روما



شكل ١٨٥ زواج أديمارى الثانى
الاكاديمية، فلورنسا تصوير أندرسون، روما

وكان المجتمع فى فلورنسا متأثراً بقوة بالأدب والسياسة. وكان لورنزو الفاخر سيداً أعلى لداثرته لا، كما نعتقد، عن طريق منصب الأمير الذى يتولاه، بل بالأحرى بسبب عجب اللباقة والكياسة التى أظهرها حين كان يعطى الحرية الكاملة الموفورة فى التصرف والعمل للطبائع الكثيرة والمتنوعة لمن يحيط به من الرجال^(٦) وأنا لثرى مدى الرقة واللفظ الكبير الذى عامل به معلمه ومربيه العظيم بوليتيان، وكيف أن سيادة الشاعر والعالم تم استرضائها، وإن لم يتم ذلك بدون صعوبة، مع بزوع ذلك التحفظ الذى لا مفر منه الذى اقتضته التغيرات القريبة فى مركز بيت مديتشى، والرعاية لحساسية الزوجة. وفى مقابل المعاملة التى تلقاها، أصبح بوليتيان اللسان الناطق والرمز الحى لمجد عائلة مديتشى. وكان لورنزو، جرياً على عادة ابن خالص

من آل ميديتشى، يبتهج بإضفاء تعبير ظاهر خارجى وفنى على كل تسلياته الاجتماعية. وإنه ليقدم لنا فى قصيدته اللامعة المرتجلة - "جماعة التصقر (أى القنص بالصقور)" - Hawking Party وصفاً هزلياً ظريفاً لرفاقه، وفى قصيدة "المأدبة" - Symposium يقدم صورة فكاهية لهم، ولكنه فى كلتا الحالتين يبدى ذلك بطريقة تجعلنا نشعر بجلاء بقدرته على الحصول على رفقة أكثر جدية^(٧) وعن هذا الاختلاط تبرز لنا مراسلاته وتسجيلات محاوراته الأدبية والفلسفية بأوفى بيان برهاناً وأقياً مسهباً على ما أوتى. وإن بعض الاتحادات الاجتماعية التى تشكلت بعد ذلك فى فلورنسا، كانت من ناحية جزئية أندية سياسية، وإن لم تحرم من سمة شعرية وفلسفية كذلك. ومن هذا القبيل ما يسمونه بالأكاديمية الأفلاطونية التى كانت تجتمع بعد وفاة لورنزو فى حدائق روتشيللاي^(٨). Rucellai.



شكل ١٨٦ قبلا مديتشى فى كاريجي، قرب فلورنسا
كثيراً ما اجتمعت الاكاديمية الأفلاطونية هنا

وفى بلاطات الأمراء كانت الهيئة الاجتماعية تعتمد بطبيعة الحال على شخصية الحاكم وأخلاقه. وبعد بداية القرن السادس عشر أصبحت قليلة العدد، ثم ما لبثت تلك القلة أن فقدت سريعاً أهميتها. ومع هذا، فإن روما كانت تمتلك فى البلاط الفريد الذى كان للبابا ليو العاشر، مجتمعاً لا يملك تاريخ العالم بأجمعه نظيراً له.

الفصل الخامس

الرجل الكامل فى المجتمع

من أجل هذا المجتمع - أو بالأحرى من أجل شخصه هو - كان رجل البلاط (tigiano) يُعَلِّم نفسه، على ما وصفه لنا كاستيليونى. كان يعد المثل الأعلى لرجل المجتمع، كما كان يعتبر فى نظر حضارة ذلك العصر أبهى زهراته وأجلها قدراً؛ وكان البلاط يعيش من أجله أكثر مما يعيش هو من أجل البلاط. والحق، أن رجلاً مثله لا بد أن يكون غريباً على الدوام عن أى بلاط، نظراً لأنه هو نفسه كان ينطوى على جميع المواهب والمناقب والسمات اللازمة لأى حاكم كامل الصقل، ولأن سيادته الهادئة فى جميع الأشياء والأحوال، البرانى منها الظاهر للناس والروحانى، كانت تتطوى وتبدل على طبيعة بالغة الاستقلال. وكان الدافع الجوانى الذى يلهمه موجهاً، وإن لم يعترف مؤلفنا بتلك الحقيقة، ليس إلى خدمة الأمير، وإنما إلى تنمية كماله هو. وسنضرب حالة واحدة مثلاً لكى توضح ذلك⁽¹⁾ ففى زمن الحرب يرفض رجل البلاط أداء جميع الأعمال المنوطة به حتى النافعة منها والمخطرة، إذا لم تكن جميلة ومحفوفة بالكرامة فى حد ذاتها، مثل، مثلاً، إمساك قطيع من الماشية؛ والذى يحفره على الاشتراك فى الحرب ليس الواجب، بل "الشرف". l'onore فالعلاقة المعنوية بالأمير، على ما وصفت فى الكتاب الرابع، علاقة حرة ومستقلة تماماً وبشكل فريد. وتمتلى نظرية الغزل المهدب التى عرضت فى الكتاب الثالث بالملاحظات السيكولوجية الرقيقة، وهى ملاحظات لعلها تكون فى مكانها الحقيقى فى ثنايا بحث يُدار حول الطبيعة البشرية بوجه عام؛ كما أن المديح والثناء الفاخر المستطاب على الحب المثالى الذى يجىء فى نهاية الكتاب الرابع،

والذى يسمو إلى مستوى غنائى رفيع فى المشاعر ، لا علاقة له أصالة بالهدف الخاص لذلك الكتاب. ومع هذا فما هنا، كما فى كتاب "أسالونى" Asalone الذى وضعه بيمبو، تتجلى ثقافة الزمان فى الرقة التى تتمثل فيها هذه العاطفة وتُحَل. حقا إن الكتاب فى جميع الحالات ينبغى ألا يؤخذ كلامهم أخذاً حرفياً؛ ولكن لا سبيل إلى الشك فى أن الأحاديث التى يدلون بها كانت كثيرة الحدوث فى المجتمع الكريم، وأن الأمر لا ينطوى على أى ادعاء مفترى بل هو عاطفة أصيلة خالصة ، ظهرت فى ذلك الثوب، وهذا ما سنراه فيما بعد.

ومن بين المزايا الظاهرية المأخوذ بها عند رجل البلاط، أن ما يسمى بتدريبات الفروسية كان المتوقع منه أن يقيمها على حد الكمال البالغ، يضاف إلى ذلك كثير مما لا يمكن أن يوجد إلا فى بلاط عالى التنظيم ومؤسس على المنافسة الشخصية، ذلك النوع الذى لم يكن ليوجد إلا فى إيطاليا. وهناك نقاط أخرى من الواضح أنها تستقر على فكرة تجريدية من الكمال الشخصى. إذ ينبغى لكل رجل بلاط أن يلم تماماً بكل الرياضات النبيلة، التى يجى بينها الجرى والقفز والسباحة والمصارعة ؛ وينبغى فوق ذلك أن يكون راقصاً مُجيداً، ويكون بطبيعة الحال راكباً ماهراً. وينبغى أن يكون متمكناً من عدة لغات ؛ منها على كل حال، اللاتينية والإيطالية ؛ وينبغى أن يكون على دراية تامة بالأدب ويملك بعض المعرفة بالفنون الجميلة. وفى الموسيقى كان المتوقع منه قدر من المهارة العملية كان ملزماً مع هذا أن يحتفظ بها سراً فى نفسه جهد طاقته. وكل هذا لا يجوز أن يؤخذ مأخذ الجد البالغ، اللهم إلا ما يتعلق باستخدام الأسلحة. ولا شك أن التفاعل التبادلى لهذه المواهب والمهارات ينتج الرجل الكامل ، الذى لا تغتصب فيه سجية واحدة مكان أخواتها.



شكل ١٨٧ كاستيليوني، لرفايل
متحف اللوفر، باريس

وبلغ من رسوخ كل هذا أن الواقع فى القرن السادس عشر أن الأوروبيين جميعاً كانوا تلامذةً للإيطاليين ، نظرياً وعملياً، فى كل تدريب بدنى نبيل وفى عادات وأداب المجتمع الكريم الحسن. وكانت تعليماتهم وكتبهم ذات الرسوم التوضيحية عن ركوب الخيل والمسابقة والرقص تعد نموذجاً يحتذى لكل الأقطار الأخرى. وربما كانت ألعاب الجمباز كفن، منفصلة عن التدريب العسكرى أو مجرد التسلية، تُدرس فيما يحتمل على يد (فيتورينو دا فيلتري) *Vittorino da Feltre* المجلد الأول، القسم الثالث، الفصل الخامس) ، ثم أصبحت بعد زمانه أمراً ضرورياً لا بد منه لكل تربية كاملة^(٢) وأهم ما فى الأمر من حقيقة هى أنها كانت تدرّس بطريقة نظامية، وإن كنا لا نستطيع القطع فى نوع التدريبات التى كانت تنال الرضا والاستحسان ، وما إذا كانت تماثل تلك التى تستخدم الآن أم لا. ولكننا قد نستنتج، ليس فقط من الخصائص العامة للناس، بل ومن براهين إيجابية خلفوها لنا، أن أحد الأغراض الرئيسية من التدريب البدنى لم يكن فحسب القوة والمهارة، بل رشاقة الحركة. وحسبنا أن نذكر القارئ بفيديريجو العظيم من أوربينو (*Federigo of Urbino* المجلد الأول، القسم الأول، الفصل الخامس) الذى كان يدير ألعاب المساء للشباب المودعين تحت رعايته.



شكل ١٨٨ ملانكة تعزف الموسيقى، لوكا ديللا روبيا

متحف الكاندرائية، فلورنسا

ولم تكن ألعاب ولا منازل الطبقات الشعبية لتختلف اختلافاً جوهرياً عن تلك المنتشرة بكل مكان آخر في أرجاء أوروبا. وكان من ضمنها سباق القوارب في المدن الساحلية، ولا تنس أن سباقات الزوارق في البندقية كانت زائفة الصيت منذ عصور طويلة^(٣) وكانت اللعبة الكلاسيكية الماثورة في إيطاليا وما زالت هي الكرة؛ ولعل هذه الكرة كانت من المحتمل تلعب في عصر النهضة، وتلعب بمهارة وذكاء أكثر من أي مكان آخر، ولكن لم يبد أي دليل واضح مميز على هذه النقطة.

وإن سَوَّق بضع كلمات عن الموسيقى لن يكون استطراباً في غير محله في هذا القسم من كتابنا^(٤) فإن التأليف الموسيقي كان حتى عام ١٥٠٠ في يد المدرسة الفلمنكية بصفة رئيسية، التي كانت أصالتها ومهارتها الفنية موضع الإعجاب الشديد. وجنباً إلى جنب مع هذه الموسيقى وجدت هناك، مع ذلك، مدرسة إيطالية، وقفت فيما يحتمل بموضع أقرب إلى ذوقنا الحالي، ثم جاء بالسترينا Palesrina بعد ذلك

بـنصف قرن، وهو الذى ما زالت عبقريته تعمل عملها بيننا بقوة. ونعلم عنه فيما نعلم من حقائق متعددة أخرى أنه كان مبدعاً عظيماً؛ ولكن الحكم فيما إذا كان هو أو غيره قد لعبوا دوراً قاطعاً فى تشكيل اللغة الموسيقية للعالم الحديث أمر يخرج عن دائرة عمل أى ناقد غير محترف. وستنقصر جهدنا على المركز الذى احتلته الموسيقى فى الحياة الاجتماعية لذلك الوقت، مع ترك تاريخ التأليف الموسيقى جانباً.

وهناك حقيقة تعد خصيصة مميزة إلى أقصى حد لعصر النهضة وإيطاليا عامة ، وهى التخصص فى الأوركسترا، والبحث عن آلات جديدة وصيفاً جديدة للصوت، وكذلك ، باتصال وثيق بهذا الميل، تكوين طبقة من الموسيقيين البارعين *vitruosi* الذين كرسوا كل التفاتهم واهتمامهم بأكمله إلى آلات معينة أو فروع معينة من الموسيقى.

فأما عن الآلات الأكثر تعقيداً، والتي حسنت وجودت حتى بلغت حد الكمال وشاع استخدامها من فترة باللغة القدم، فإننا لا نجد الأرغن (الأورج) وحده، بل نجد أيضاً آلة وترية مناظرة، هى آلة البيان *gravicembola or clavicembola*. وهناك بقايا وشظايا لتلك الآلات، ترجع إلى القرن الرابع عشر، لا تزال موجودة لدينا إلى زمننا هذا، وهى مزينة بالنقوش الجميلة التى أبدعتها أيدى أعظم أساتذة الفن. ومن هذه الآلات ومن بين غيرها احتلت المركز الأول آلة الكمان، التى حتى فى ذلك الوقت كانت تسمى صيغاً ذاتناً وشهرة كبيرة على الناجحين من العازفين عليها. وحدث فى بلاط ليو العاشر، الذى ملأ بيته وهو بعد كاردينال بالمغنيين والموسيقيين، والذى اشتهر بأنه ناقد وعازف، أن جيوفان ماريا *Giovan Maria* اليهودى ، وچاكوبو سانسيكونو *Jacopo Sansone* كانا من أشهر العازفين. فأنعم البابا ليو العاشر على الأول لقب كونت ، ورئاسة مدينة صغيرة^(٥)، وذهب الناس إلى أن الثانى هو أبولو *Apollo* الذى صورته رافاييل فى البارناسوس *Parnasus*. وطوال القرن السادس عشر ظهر البارعون المشاهير فى كل فرع من فروع الموسيقى بوفرة غامرة ، ويذكر لوماتزو (*Lomazzo* حوالى عام ١٥٨٠) أسماء أبرز من عايشوه من أساتذة فن الغناء والعزف على الأرغن والعود والقيثارة (آلة شبيهة بالهارب الصغير) والكمان والفيولا *Viola da gamba*

والكنارة (آلة الهارب) والقيثار (الجيتار) والبوق والنفير، ويتمنى لو أن صورهم الزيتية رُسِمَت على الآلات نفسها^(٦) ولا مرأ أن مثل هذا التقد المقارن المتعدد الجوانب يكاد يكون مستحيلاً بأى بلاد أخرى عدا إيطاليا، بالرغم من أن الآلات نفسها وُجِدَت ببلاد أخرى.



شكل ١٨٩ عزف موسيقى، لإركولى دي روبرتى
مجموعة ساتينج، لندن

ويتجلى العدد الوفير والتنوع الكثير لتلك الآلات من أن مجاميع منها كانت تصنع آنذاك بدافع الفضول والرغبة في الاستطلاع. وكانت هناك في البندقية، التي كانت واحدة من أشهر المدن الموسيقية في إيطاليا^(٧)، عدة مجموعات من هذا القبيل، وعندما كان يتصادف أن يوجد بمكان ما عددٌ كافٍ من العازقين كان يتم على الفور ارتجال كونسيرت (أى عزف موسيقى). وكان هناك في إحدى دور الآثار هذه عدد كبير من الآلات التي صنعت على غرار الصور والأوصاف المكتوبة القديمة، ولكن أحداً لم يخبرنا هل كان هناك من الناس من يستطيع العزف عليها أو نوعية الأصوات التي تصدرها. وينبغي ألا يفوتنا أن مثل تلك الآلات كانت كثيراً ما تزين تزييناً جميلاً وكان في الإمكان ترتيبها ترتيباً يسر العين. وهكذا نلتقى بها في مجموعات من الأشياء الأخرى النادرة وأعمال الفن البديع.



شكل ١٩٠ عزف موسيقى، لفنان بندقى
المعرض القومى، لندن

وكان العازفون، بصرف النظر عن العازفين المحترفين ، إما هواة منفردين، أو جوقات أوركسترا كامل من الهواة، ينتظمون فى أكاديمية أو مجمع فنى مشترك^(٨) وكان عديد من الفنانين فى مجالات أخرى من الفن على دراية بالموسيقى ، وغالباً ما كانوا من أساتذة فنها المتقنين. وكان أصحاب المكانة الكبيرة من الناس ينفرون من آلات النفخ لنفس السبب^(٩) الذى جعلها ممقوتة عند ألسيبيادس Acibiades ، وبلاس أثينى Pallas Athene. وكان الغناء شيئاً مألوفاً فى المجتمعات الراقية، سواء أكان المنفرد منه بدون آلات ، أم بمصاحبة الكمان؛ ولكن رباعيات الآلات الوترية كانت أيضاً شائعة الانتشار^(١٠)، وكانت آلة البيان Clavicembola محبوبة من الجميع بسبب تنوع أثرها الحسن. أما فى مضممار الغناء فلم يكن مسموحاً إلا بالغناء المنفرد، وذلك لأن الصوت المنفرد يسمع ويستمتع به ويحكم عليه بشكل أفضل كثيراً". وبعبارة أخرى، نظراً لأن الغناء، رغم كل الاحتشام التقليدى الذى يتخيله الناس، إنما هو معرض يعرض فيه رجل المجتمع الفرد نفسه، فمن الأفضل أن يُسمع كل إنسان ويُرى على

انفراد. هذا وإن المشاعر الرقيقة التي تستثار في المستمعين ذوى العدل تُعد من الأمور المسلم بها، وعلى ذلك فإن المسنين من الناس يستحسن منهم الامتناع عن إتيان مثل هذه الأشكال من الفن، وإن برعوا فيها وتفوقوا. وكان يعد من الأهمية بمكان أن تأثير الأغنية يجب أن يزداد بفضل الانطباع الذي يحدثه النظر. على أننا مع ذلك لا نسمع شيئاً عن معالجة تلك الدوائر للتأليف الموسيقى بوصفه فرعاً مستقلاً من الفن. ومن ناحية أخرى، كان يتصادف في بعض الأحيان أن موضوع الأغنية كان يدور حول حادث رهيب جرى للمغنى نفسه^(١١)

وهذه الهواية للفنون وتذوقها، التي شاعت بين الطبقات الوسطى والعليا جميعاً، كانت بإيطاليا أشد انتشاراً وأعمق في أصالتها الفنية منها في أى قطر آخر في أوروبا. وحيثما وقعنا على وصف للاختلاط الاجتماعى هناك يجىء دوماً وقصدًا متعمدًا ذكر موسيقاهم وغنائهم. وترينا مئات الصور رجالاً ونساءً، غالباً ما يكونون كثرة مجتمعين، وهم يعزفون أو يمسون بالآت موسيقية، وصور حفلات الموسيقى (الكونسيرتات) الملائكية التي تمثلها الصور الكنسية تظهر بأجلى بيان كيف كان المصورون على دراية تامة بالمؤثرات الحية للموسيقى. وإنا لنقرأ عن عازف العود انتونيو روتا Antonio Rota بمدينة بادوا (المتوفى فى ١٥٤٩)، وكيف أنه أصبح ثرياً عن طريق تدريس العزف، ونشر كتاباً مدرسياً فى التدريب على العود^(١٢)

وفى الوقت الذى لم تكن فيه ثمة أوبرا لتركز على المواهب الموسيقية وتحتكرها لا بد أن الازدراع والتثقيف العام للفن كان شيئاً مدهش التنوع والذكاء والأصالة. فأما مدى ومقدار ما سنجدّه يرضينا من هذه الأشكال من الموسيقى، لو أمكن إعادة إنتاجها وإدارتها على مسامعنا، فتلك مسألة أخرى.

الفصل السادس

مركز المرأة

لكى يتيسر لنا فهم الأشكال العليا من الاختلاط الاجتماعى فى تلك الفترة ينبغى لنا أن نضع نصب أذهاننا حقيقة أن النساء كن يقفن على قدم المساواة مع الرجال^(١) وينبغى لنا ألا نسمح لأنفسنا أن يضللنا الحديث السفسطائى والشرير فى غالب الأحوال حول منزلة النقص أو قلة الشأن والدونية المدعاة للأنثى، الذى نلتقى به بين حين وآخر فى حوارات زماننا هذا^(٢)، ولا نصغى لمثل تلك المقطوعات الهجائية مثل المقطوعة الثالثة لأريوستو^(٣)، الذى يعامل المرأة بوصفها طفلاً نامياً خطراً، ينبغى أن يتعلم الرجل كيف يتصرف معها ويعاملها بالرغم من تلك الهوة السحيقة الفاصلة بينهما. أجل إن هناك قدراً معيناً من الصدق فيما يقول. وذلك لأن العلاقة الزوجية فى ذلك الوقت لم تتطور بدرجة تجعل العلاقة بين المرأة المتعلمة والرجل تصل إلى درجة المشاركة فى العقل والقلب التى تنتج من الإحساس بالاعتماد والتكامل المتبادل، على نحو ما تطورت فيما بعد فى المجتمع المهذب المصقول فى الشمال.

وكان قدر التربية والتعليم الذى تحصل عليه النساء فى الطبقات العليا فى جوهره مماثلاً لذلك المتاح للرجل. ولم يكن الإيطالى فى عصر النهضة ليحس بأى مانع أو حرج يمنعه من وضع أبنائه وبناته على السواء فى نفس الفصل الدراسى والمناهج الأدبية، بل حتى فقه اللغوية الفيلولوجية^(٤) (المجلد الأول، القسم الثالث، الفصل السادس). وكان ذلك الرجل والحق يقال، وهو ينظر إلى تلك الثقافة العتيقة ويعدها كنز الحياة الرئيسى، يحس بسعادة غامرة لأن بناته يقتسمن منها نصيباً. وقد رأينا مبلغ الكمال الذى بلغته بنات بيوت الإمارة فى كتابتهن باللاتينية وتحديثهن بها (المجلد الأول، القسم الثالث، الفصل السابع)^(٥) ولا بد أن أخريات كثيرات غيرهن كن على الأقل قدرات

على قراءتها، لكى يتمكّن من متابعة أحاديث ذلك الزمن، التي كانت تدور إلى حد كبير حول موضوعات كلاسيكية. وكثيراً ما كان عدد من يهتمون بقراءة الشعر الإيطالي كبيراً، وهو مجال برز فيه واشتهر، إما عن إعداد أو ارتجال، عدد ضخم من النساء الإيطاليات^(٦)، منذ عهد بنت البندقية كاساندرافيديلي Cassandra Fedele فصاعداً (قرب نهاية القرن الخامس عشر). والحق إن واحدة منهن هي فيتوريا كولونا Vittoria Colonna يمكن أن يقال عنها إنها وصلت درجة الخلود. فلو احتجنا إلى برهان لتوكيد الادعاء المقدم أعلاه لوجدناه في النبذة الرجولية الجادة لهذا الشعر. وذلك أنه حتى أغنيات الحب والقصائد الدينية بالغة من الضبط والتحديد في تركيبها الطبيعي، كما أنها من بالغ البعد عن شفق الوجدان الرقيق، والنأى عن كل عملية من نوع تذوق الهواة التي نجدها عادة في أشعار النساء، بحيث لا يجوز لنا أن نتردد في نسبتها إلى مؤلفين من الذكور، إذا لم يكن بين أيدينا برهان خارجي واضح يثبت العكس.



شكل ١٩١ فيتوريا كولونا، لجيرلامو موزيانو. جاليريا كولونا، روما تصوير أليباري

وكان أن تطورت فردية النساء فى الطبقات العليا بسبب التعليم بنفس الطريقة التى تطورت بها فى الرجال. فأما خارج إيطاليا فإن شخصية المرأة مهما علت منزلتها ظلت حتى عصر الإصلاح الدينى لا تتقدم إلا فى أضيق الحدود. نعم إن هناك استثناءات فردية، مثل إيزابيللا من بافاريا ومارجريت من أنجو Anjou وإيزابيللا من كاستيل Castile، ولكنهن جنن نتيجة قسرية لظروف خاصة إلى أقصى حد. والذى حدث بإيطاليا طوال القرن الخامس عشر بأكمله هو أن زوجات الحكام، بل وأكثر من ذلك زوجات قواد الجند المرتزقة condottieri كانت لهن جميعاً شخصية متميزة واضحة الصورة، كما كان لهن نصيبهن من سوء السمعة والمجد. وانضم إلى هؤلاء بالتدرج لفيف من النساء الشهيرات من أشد الأنواع تبايناً؛ ومن بينهن تلك اللاتى كان تميزهن يكمن فى حقيقة أن جمالهن وميولهن وتعليمهن وفضيلتهن وتقواهن تجمعت لتجعلهن كائنات إنسانية متناغمة^(٧) ولم يدر بحث حول مسائل مثل "حقوق المرأة" أو تحرير النساء، وكان السبب ببساطة أن ذلك الشئ نفسه كان أمراً مسلماً به. وكانت المرأة المتعلمة لا تقل عن الرجل فى سعيها بطبيعة الحال وراء فردية كاملة مميزة الخصائص. وكان نفس التطور الفكرى والعاطفى الذى يجعل الرجل مكتملاً مطلوباً لكمال المرأة. ومع ذلك فلم يكن متوقعاً منها أن يصدر عنها عمل أدبى ناشط، وإن كانت شاعرة فإنه كان من المتوقع منها تعبير قوى عن الوجدان والمشاعر بدلاً من الإفضاء بها سرّاً فى رواية أو يوميات. ولم يخطر الجمهور على بال هؤلاء النساء^(٨)؛ بل كانت وظيفتهن هى التأثير على الرجال المتميزين وبث الاعتدال فى دوافع الذكورة وأهوانها.



شكل ١٩٢ كاترينا سفورزا، للورانزو
دى كرىدى (٩) بيناكوتيكا، فورلى تصوير أليبارى

وكان أعظم ثناء وإطراء يمكن أن يمنح آنذاك إلى السيدات الإيطاليات العظيمات هو نعتهن بأنهن يمتلكن عقل الرجال وشجاعتهم. وليس يسعنا إلا أن نلاحظ ذلك المسلك الرجالي التام المتجلى من معظم النساء فى الأشعار البطولية، وبخاصة أشعار بوجاردو Bojardo وأريوستو Ariosto ، لنقتع أنفسنا بأننا نشهد بأعيننا المثل الأعلى لذلك الزمان. ولو نظرنا إلى لقب "مسترجلة" virago ، الذى يعد فى عصرنا الحالى تحية مشتبهة المعنى، لم نجده آنذاك بتضمن معنى إلا الثناء والمديح. وقد حملته كاترينا سفورزا Caterina Sforza بكل ما يحوى من مجد، وكانت زوجة لجيرولامو رياريو Gir-olamo Riario وأرملته فيما بعد، ودافعت عن ملكه الموروث فورلى ببسالة أولاً ضد قتلته ثم ضد سيزار بورجيا بعد ذلك. وهى وإن هُزمت آخر الأمر، فإنها احتفظت بإعجاب مواطنيها وبلقب "سيدة إيطاليا الأولى" (٩) Prima donna d'Italia ويمكن تتبع هذا العرق البطولى فى كثير من نساء عصر النهضة، وإن لم تجد أية واحدة منهن نفس القرصة لإظهار بطولتها للعالم. وكان هذا الطراز ظاهر الوضوح يسير تبينه فى

إيزابيلا جونزاجا، كما كان واضحاً بدرجة لا تقل عن ذلك في كلاريس Clarice من أسرة مديتشي زوجة فيليبو ستروتزي^(١٠) Filippo Strozzi.



شكل ١٩٣ سيدات بلاط بندقي، لكارباتشيو
متحف كورير، البندقية

والنساء اللاتي من هذا الطابع كن يستطعن الإصغاء إلى القصص مثل قصص بانديلو دون أن تصاب العلاقات الاجتماعية من جراء ذلك بأى ضير^(١١) ولم تكن العبقورية الحاكمة للمجتمع في ذلك الزمان، كما هو الحال في يومنا هذا، هي النساء، أو الاحترام من أجل بعض فروض سوية أو أحاسيس تنسب إليهن، وإنما كانت هي الشعور الواعي بطاقة الجمال وبحالة اجتماعية مليئة بالأخطار والفرص السانحة. ومن أجل ذلك السبب فإننا نجد، جنباً إلى جنب مع الأشكال الاجتماعية المحسوبة والمصقولة إلى أقصى حد، شيئاً قد يسميه عصرنا بالبذاءة وعدم الاحتشام^(١٢)، ناسين أنه بواسطتها كان يتم إصلاحها وإعادة توازنها - وهي الشخصيات القوية للنساء اللاتي كن يتعرضن لها.



شكل ١٩٤ تودد، لباريس بوردونى
معرض بريرا، ميلانو تصوير أليبارى

فأما أننا فى جميع الحوارات وكراسات الأبحاث والدراسات مجتمعة لا نجد أى دليل مطلق قاطع على هذه النقطة فذلك شىء طبيعى جداً، مهما تكن درجة الحرية المستخدمة فى بحث طبيعة الحب ومركز النساء وقدراتها.

أما الشىء الذى يبدو أنه كان مفتقداً فى ذلك المجتمع فهو الفتيات الصغيرات^(١٣)، اللاتى كن، وإن لم يُنشأن فى الأديرة، يستبعدن مع ذلك من الهيئة الاجتماعية بحرص شديد. وليس من اليسير القول ما إذا كانت غيبتهن عنها هى السبب فى الحرية الأضخم حجماً السائدة فى الحوار، أم إنهن استبعدن بسبب تلك الحرية.

وحتى الاختلاط بالمحظيات يبدو أنه كان يتخذ سمة أكثر رفعة، تذكرنا بمركز السريات أو الجوارى *hetairae* فى أثينا الكلاسيكية. وكانت المحظية الرومانية الشهيرة إمبريا *Imperia* سيدة ذات فطنة وثقافة، وتعلمت من شخص اسمه دومينيكو كامبانا *Domenico Campana* فن قرض الأغانى (السونيتات)، كما أنها لم تحرم من نعمة المواهب والمهارة الموسيقية^(١٤) ويبدو أن الجميلة إيزابيلا دا لونا *Isabella da Luna* الجميلة ذات الأرومة الإسبانية، التى كانت تعد نديماً ممتعاً مسلياً، كانت خليطاً

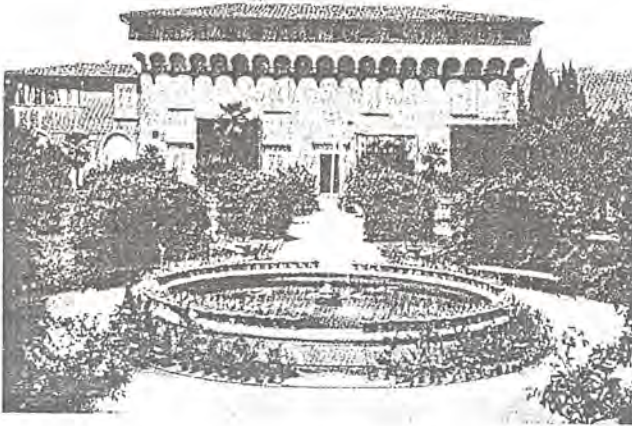
عجيباً من قلب رقيق مع لسان بذى يبعث الرهبة وكثيراً ما كان يجلب عليها المتاعب^(١٥) وهناك فى مدينة ميلانو عرف بانديلو كاترينا دى سان سلسو^(١٦) Caterina di S. Celso ذات الهيئة المهيبه، التى كانت تبدع فى العزف والغناء واللقاء الشعر. ومن الواضح فى كل ما قرأناه فى هذا الموضوع أن الأشخاص نوى المكانة الذين كانوا يتردبون على هؤلاء النساء، ويعايشونهن بين حين وآخر، كانوا يطالبونهن بدرجة عالية من الفطنة والتعليم، وأن المحظيات الشهيرات كن يعاملن بقدر غير قليل من الاحترام والرعاية. وحتى يوم تنقطع العلاقة معهن كان رأيهن الحسن لا يبرح مرغوباً^(١٧)، وهو أمر يظهر أن الحب المفارق قد ترك وراءه فى القلوب آثاراً مستديمة. ولكن هذا التخالط الفكرى ليس على الجملة بمستحق أن يُذكر إلى جوار ذلك الذى تبيحه الأشكال المعترف بها للحياة الاجتماعية، كما أن الآثار المتبقية عنه فى الشعر والأدب إنما هى فى معظم الحالات ذات طابع من الفضيحة. وربما أخذتنا الدهشة لأنه من بين الستة آلاف وثمانمائة شخصية (٦٨٠٠) من هذه النوعية اللائى كنا نجدهن فى روما^(١٨) فى ١٤٩٠- أى قبل ظهور مرض الزهري - لا تكاد امرأة واحدة منهن تبو مبرزة فى اتصافها بأى مواهب عليا. فأما جميع اللائى ذكرناهن أنفاً ، فإنهن ينتمين إلى الفترة التى أعقبت ذلك مباشرة. ذلك لأن نظام الحياة وطرقها وأخلاقيات وفلسفة النساء الشهيرات اللائى، بكل ما حملن من فجور وطمع، لم تكن يوماً عديمات القدرة على إظهار شهوات أعمق، فضلاً عن النفاق والشر الشيطانى الذى تبديه بعضهن فى سنواتهن التالية، وكل ذلك يعرضه علينا على خير وجه قلم جيرالدى Giraldi فى رواياته التى تشكل المقدمة إلى كتاب Hecatomithi. ويعطينا بييترو أريتينو فى كتاب راجيونامنتى Ragonamenti صورة ما بالأحرى لأخلاقه هو المنحطة ، لا لهذه الطبقة التعسة من النساء كما كن فى حقيقة الأمر.

وقد سبقت الإشارة إلى خليات الأمراء (المجلد الأول، القسم الأول، الفصل الخامس)، ويتغنى الشعراء بذكرهن ويرسمهن المصورون، ونتيجة لذلك كن معروفات شخصياً ومألوفات بين معاصريهن وبين الأجيال التالية لهن. ولا تكاد نعرف شيئاً يتجاوز مجرد أسم أليس بيررز Alice Perrers وكلارا ديتين Clara Dettin ، محظية فريديريك المنتصر، ولا نعرف عن أجنس سوريل Agnes Sorel إلا قصة نصف أسطورية. ولكن الأمر يختلف فى حال ملوك عصر النهضة، فرانسيس الأول وهنرى الثانى.

الفصل السابع

الاقتصاد المنزلي

آن لنا الآن بعد معالجة شؤون الاختلاط الاجتماعي، أن نلقى نظرة خاطفة على الحياة المنزلية لتلك الفترة. إذ جرت عادتنا بوجه عام أن ننظر إلى الحياة العائلية لإيطاليين في ذلك الزمن بأنها مُخَرَّبَةٌ تخريباً لا أمل فيه ، بحكم ما شاع بين الناس من انعدام الأخلاق القومية، وسنعاود بحث هذا الجانب من المسألة بطريقة أوفى في سياق الكتاب. وينبغي لنا الآن أن نقنع مؤقتاً بتوضيح أن الخيانة الزوجية لم يكن لها أى أثر بالغ القوة على الحياة العائلية في إيطاليا مثلما كان لها في الشمال، ما دامت هناك، على الأقل، حدود معينة لم يتم تجاوزها.



شكل ١٩٥ قبلا مديتشي في كاريجي، قرب فلورنسا، لميشيلوتزو تصوير ألبنارى

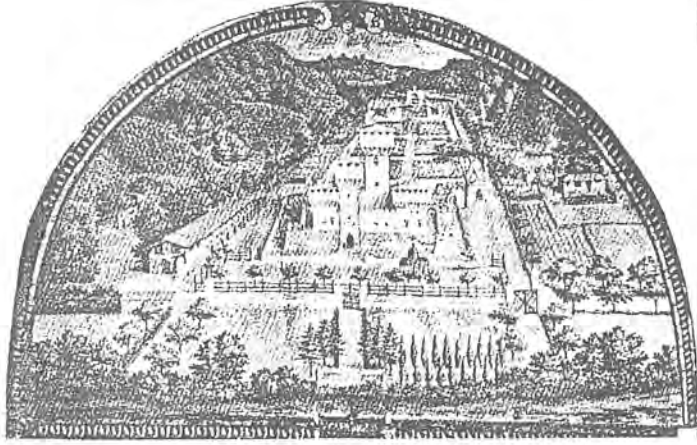
وكانت الحياة المنزلية في القرون الوسطى ثمرة للأخلاقيات الشعبية ، أو قل ، لو شئت، بعبارة أخرى، إنها نتيجة للميول المطبوعة الفطرية للحياة القومية، بعد أن عدلتها الظروف المختلفة التي أثرت فيها. ولم تنتزل الفروسية إبان مجدها بالاقتصاد المنزلي أدنى مساس. فإن الفارس كان يتجول من بلاط إلى بلاط، ومن ساحة قتال لأخرى. وكان ولاؤه يقدم بطريقة منتظمة لامرأة أخرى غير زوجته، على أن تدار الأمور كيفما اتفق في أرض الوطن داخل القلعة^(١) وجلب روح عصر النهضة النظام أولاً للحياة المنزلية، معتبراً إياها عملاً متعمداً أو وسيلة مستنبطة. وأدت وجهات النظر الاقتصادية الذكية (المجلد الأول، القسم الأول، الفصل الثامن) والأساليب العقلانية للعمارة المنزلية إلى رفع شأن وتنمية هذه الغاية المبتغاة. على أن السبب الرئيسي في التغيير كان الدراسة المتمعنة الفاحصة لجميع المسائل المرتبطة بالاختلاط الاجتماعي والتعليم وبالخدمة والتنظيم المنزليين.



شكل ١٩٦ فيللا مديتشي، قرب فيسبولي

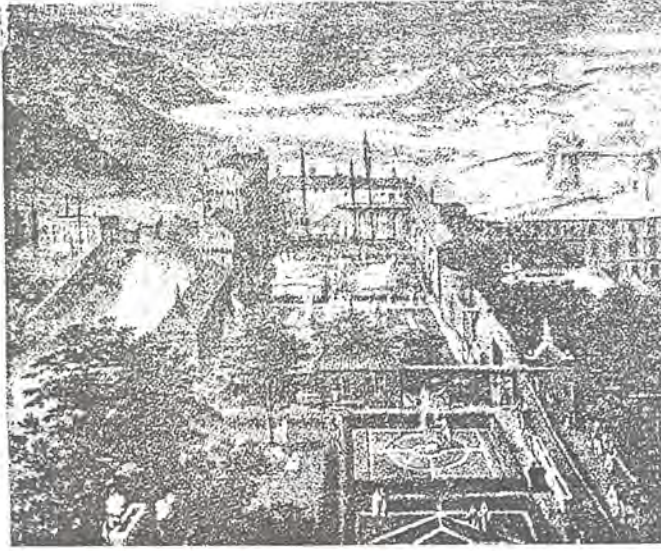
تصوير أليثارى

وكانت أئمن وأعلى الوثائق قدراً فى مضمار هذا الموضوع هى البحث الدائر حول إدارة المنزل لأنثولوجيا باندولفينى Agnolo Pandolfini (ل.ب.ألبرتى L. B. Alberti) (٢) فهو يتمثل لنا والدأ يتحدث إلى أولاده وقد يفغوا، ويطلعهم على منهجه فى الإدارة. وتراه يدخلنا داراً فسيحة واسعة الثراء، يديرها ويتحكم فيها الاعتدال والاقتصاد المتزن، الذى يبشر بالسعادة والرخاء والرغد لعدة أجيال مقبلة. وهناك أرض زراعية ضخمة تمون محاصيلها مائدة الدار، وتعد أساساً لثراء العائلة، وتجتمع إليها بعض أعمال صناعية، كنسج الصوف مثلاً أو الحرير. والدار وطيدة راسخة والطعام جيد. وكل ما يتصل بخطة إدارة المنزل وتنظيمه عظيم ومتين ونفيس، ولكن الحياة اليومية بين جدرانها أبسط ما يمكن أن تكون. وجميع النفقات الأخرى، من أجلها قدراً الذى يتعرض فيه شرف الأسرة لأى مساس، نزولاً إلى مصروف الجيب لصغار الأبناء، تقف كلها جنباً إلى جنب فى علاقة عقلانية وليست تقليدية. وليس هناك شىء يعد فى الدرجة العالية من الأهمية مثل التعليم، الذى لا يقتصر رب الدار على إعطائه للأطفال فقط، بل ولجميع أهل الدار قاطبة. فهو يبدأ أولاً بتطوير زوجته من فتاة خجولة، نُشئت فى عزلة تامة دقيقة، حتى تصبح السيدة الحقة للدار، القادرة على إصدار الأوامر وتوجيه الخدم. ويربى الأبناء بغير شدة لا لزوم لها (٣)، وفى ظل مراقبة حريصة، ويتلقون النصيحة والضبط والتحكم فيهم بطريق السلطان الأبوى لا القوة القاهرة. وأخيراً كان الخدم يُختارون بعناية، ويُعاملون بمبادئ رحيمة، حتى إنهم ليتمسكون بالعائلة بسرور وإخلاص.



شكل ١٩٧ فيللا مدينتشى والحدائق فى كافاجيلو
كوة حائطية فى معرض أوقيزى، فلورنسا

وهناك ظاهرة فى هذا الكتاب لا بد من الإشارة إليها ، وليست بأية حال خاصة به دون غيره ، ولكنها تُعامل بحرارة خاصة - وهى حب الإيطالى المتعلم لحياة الريف^(٤) فى البلاد الشمالية كان النبلاء يعيشون فى الريف داخل قلاعهم، كما كان الرهبان نوى الرتب العالية يعيشون فى أديرتهم القوية الحراسة، وذلك بينما أشد قطان المدن ثراء كانوا يعيشون داخل مدينتهم من سنة تنتهى إلى أخرى تبدأ. ولكن الذى كان يجرى بإيطاليا أن شروط الطمأنينة على الحياة والممتلكات كانت مضمونة وكبيرة ، طالما توافرت للجيرة ببعض مدن معينة^(٥) شروط الأمن، كما أن حب امتلاك مسكن ريفى كان من بالغ القوة بحيث كان الرجال يرغبون فى أن يخاطروا بشئ من الخسارة فى زمن الحرب. وهكذا نشأت الفيلا أو المنزل الريفى للمماد (قاطن المدينة) الميسور الحال. وهكذا أعيد إحياء هذا الإرث الثمين عن العالم الرومانى القديم بمجرد أن بلغت ثروة الناس وثقافتهم درجة كافية من التقدم.



شكل ١٩٨ حدائق وتماثيل في البلّدير (حوالي ١٥٠٠)، لهندريك فان كليف
معرض الفن، فيينا

وهناك آخر، يجد في قبيلته الريفية سلاماً وسعادة، نرى أن القارئ ينبغي له أن يسمعه وهو يتكلم بنفسه ببيان يوضح ذلك، فيقول:

«بينما تُورثُ أي ممتلكات أخرى نمتلكها النَّصَبَ والخطر والخوف وخيبة الأمل، فإن الفيللا تجلب منفعة عظيمة وشريفة؛ فالفيللا تجدها دائماً مخلصاً ومشفقة؛ فإن أنت سكنتها في الوقت المناسب ومع الحب فإنها سوف لا ترضيك وحسب، بل تضيف جزاء إلى جزاء، ففي الربيع تجيء الأشجار الخضراء وتغريد الطيور فتملاً قلبك بالحبور والأمل؛ وفي الخريف يكفي جهد معتدل لكي يفيض عليك من الفواكه ما يوازي التعب مائة مرة؛ وطوال السنة يزول الاكتئاب من صدرك، والفيللا هي البقعة التي يحب أن يجتمع فيها الرجال الطيبون والشرفاء، فهنا لا يؤتى شيء سرى ولا يُقترف شيء خئون؛ فالكل يرى بعينه الكل؛ وهنا لا حاجة إلى قضاة ولا إلى شهود، وذلك لأن الجميع مشفقون بعضهم على بعض

مسالمون بعضهم لبعض ، فسارع إليها، وفر بعيداً عن كبرياء الثرى
وانعدام شرف الشرير. وأها لك يا أيتها الحياة المباركة فى القبلا، وأها
لك يا أيها المستقبل المجهول؛»

والناحية الاقتصادية فى الأمر تعتبر أن نفس الأرض المملوكة الواحدة يجب أن
تكون شيئاً متكاملأ يحتوى - إذا أمكن - على كل شىء - الذرة والنبىذ والزيت وأرض
المرعى والغابات - وأنه فى مثل هذه الحالات يجب أن تجلب الممتلكات ريعاً جيداً،
إذ لا يحتاج الأمر عندئذ أن يحصل على شىء من السوق. على أن المتعة الكبرى
المستفادة من القبلا تتجلى فى بعض الكلمات الواردة فى المقدمة:

«تقع حول فلورنسا قبيلات عديدة تقوم فى جو شفاف صاف وبين مناظر
طبيعية مرحة وتطل على مشاهد رائعة أخاذة ؛ والضباب هنا قليل،
ولا توجد أية ريح عاتية ضارة ؛ فكل شىء طيب، والماء نقى وصحى. ومن
بين المباني العديدة هناك الكثير الأقرب شبةأ إلى القصور والكثير
المشابه للقلاع، وكلها عظيمة النفقة والتكاليف ، وتسرى الناظرين
بجمالها.»

وهو يتحدث عن القبيلات التى لا تُضارع، التى ضحى الفلورنسيون أنفسهم
بالعدد الأكبر منها، من أجل الدفاع عن مدينتهم فى عام ١٥٢٩، ولكن بدون طائل^(٦)

وفى تلك القبيلات، كما فى تلك الواقعة على نهر برنتا Brenta ، وعلى التلال
اللومباردية، فى بوسيليبو Posilippo ، وعلى نهر قوميرو Vomero، اتخذت الحياة
الاجتماعية سمة أكثر حرية وأكثر ريفية مما كان يجرى فى القصور داخل المدينة. فإننا
تلتقى وأوصافاً فاتنة ساحرة لاختلاط الضيوف، وحفلات رحلات الصيد والقنص،
وجميع مطاردات وتسليات الهواء الطلق^(٧) على أن أشد إنجازات الشعر والفكر نبلاً
يرجع تاريخها فى بعض الأحيان أيضاً إلى هذه المشاهد من السلام الريفى.

الفصل الثامن

الاحتفالات

لا مرء أنه يبحث الحياة الاجتماعية لتلك الفترة يقودنا اختيار ، ليس اعتباطياً إلى معالجة المواكب والاستعراضات التي شكّلت جزءاً من الاحتفالات الشعبية^(١) فلم يصل إيطاليو عصر النهضة إلى تلك الدرجة من القدرة الفنية ، التي كان الدليل عليها ظاهراً في مثل تلك المناسبات^(٢)، إلا عن طريق الاختلاط الحر الطليق بين جميع الطبقات التي شكّلت أساس المجتمع الإيطالي. وكان لكل من الأديرة والبلطات وقاطني المدينة في أوروبا الشمالية أعيادهم واستعراضاتهم الخاصة كما في إيطاليا ؛ ولكن في حالة الأولى كان شكل ومادة هذه العروض يختلف باختلاف الطبقة التي تشترك فيها، وفي حالة الثانية كان الفن والثقافة المشتركة لكل الأمة تطبع تلك العروض بطابع أعلى وأكثر شعبية. ولا شك أن فن العمارة الزخرفية، الذي كان يستخدم كأداة مساعدة في هذه الاحتفالات، يستحق وحده فصلاً كاملاً يفرد له في تاريخ الفن، وإن كان خيالنا لا يستطيع أن يشكل إلا صورة عنه عن طريق الأوصاف التي بقيت لنا. ويعيننا هنا بصفة خاصة الاحتفال بوصفه مرحلة عليا في حياة الشعب، اتخذت أفكاره الدينية والأخلاقية والشعرية شكلاً مرئياً. وتؤذن الاحتفالات الإيطالية في أحسن صورها بنقطة التحول من الحياة الحقيقية الواقعية إلى عالم الفن.

وكان الشكلاّن الرئيسيّان للعروض الاحتفاليّ موجودين أصلاً هنا، مثلما كانا موجودين في أي مكان آخر في الغرب، وهما اللغز أو السر الخفي: أي تدريم^(*)

(*) التدريم : هو المسرحة وإعداد قصة للتمثيل . (المترجم) .

التاريخ والأسطورة المقدسة، والموكب أو الركب الذى كان الدافع إليه والسمة الغالبة فيه أيضاً كنسياً بحثاً.

وكان الأداء التمثيلى لتمثيلية الأسرار الخفية الدينية فى إيطاليا منذ البداية أشيع وأكثر فخامة منه بأى مكان آخر، كما أنه كان أكثر تأثيراً بتقدم الشعر والفنون الأخرى. ويمضى الوقت لم يقتصر الفارص (أى التمثيلية الهزلية) والدراما الدنيوية على مجرد التفرع عن تمثيلية السر الخفى الدينية، شأنه فى بلاد أخرى من أوروبا، بل انفصل أيضاً منها البانتوميم (أى فن الإيماء الحركى)، بكل ما يصحبه من غناء ورقص، اللذان كان تأثيرهما يعتمد على ثراء المشهد وجماله.

وما لبث الموكب، الذى يقام فى الشوارع العريضة والمستوية والجيدة الرصف بالمدن الإيطالية^(٣)، أن تطور سريعاً إلى موكب نصر *trionfo*، أو قطار الأشخاص المقنعين إما سيراً على الأقدام أو فى عربات، وما لبث الطابع الكنسى فيه أن حل محله الدنيوى بالتدريج. وكان موكبا الكرنفال وعيد الجسد المسيحى (القربان)^(٤) متشابهين فى الفخامة والروعة التى يستظلان بها، كما أنهما اتَّخذاً نمطاً يحاكيه فيما بعد الموكب الملكية أو الأميرية. وثمة أمم أخرى كانت راغبة أن تنفق أموالاً طائلة على هذه الاستعراضات، ولكن إيطاليا وحدها هى التى انفردت بإضفاء طريقة فنية لمعالجتها، وهى طريقة كانت تنظم المسيرة وتجعل منها كلاً متجانساً له معناه الخاص.

وكل ما تبقى من هذه الاحتفالات إن هو إلا بقية حقيرة هزيلة لما كان موجوداً ذات يوم. وتمكن كل من العروض الدينية والدنيوية من هذا النوع من التخلص من العنصر الدرامى - وهو الملابس - خوفاً من السخرية من ناحية، ومن ناحية أخرى بسبب أن الطبقات المثقفة، التى كانت فيما سلف تصب كل جهدها لهذه الأشياء، قد فقدت الاهتمام بها لعدة أسباب. وحتى فى الكرنفال، فإن الموكب الكبرى للأقنعة لم تعد هى الموضة. وما تبقى، مثل الأزياء التى كانت مقلدة لأزياء جماعات دينية معينة، أو حتى المهرجان اللامع لسانت روزاليا فى باليرمو، يُظهر بوضوح كيف أن الثقافة العالية للقطر قد انسحبت من هذه الاهتمامات.

ولم تبلغ الاحتفالات أقصى غاية تطورها إلا بعد أن أحرزت الروح العصرية نصرها الفاصل في القرن الخامس عشر^(٥)، اللهم إلا أن تكون فلورنسا هنا، شأنها في المواطن الأخرى، سابقة بذلك باقى أجزاء إيطاليا. ففي فلورنسا كانت أحياء المدينة العديدة منظمة منذ الأزمنة القديمة تنظيماً ينظر من بعيد إلى إقامة مثل هذه المعارض، التي كانت تتطلب إنفاق المقادير غير القليلة من الجهود الفنية المضنية. ومن هذه الجهود تمثيل جهنم، بمشئقة وقوارب في نهر أرنو في اليوم الأول من مايو ١٣٠٤، يوم انهار جسر ألالا كارأجا Ponte Alla Carraja تحت وطء ثقل جمهور المشاهدين^(٦)، ومما يدل على إتقان الفلورنسيين لفن تنظيم المواكب ببلدهم أنهم اعتادوا في وقت نال الترحال خلال إيطاليا للعمل مخرجين ومديرين لتلك الاحتفالات^(٧) (festaiuoli).

وسنورد هنا النقاط الأساسية للسبق والأفضلية في تفوق الاحتفالات الإيطالية على تلك الخاصة بالدول الأخرى. وأول ما يجب علينا أن نلاحظه منها هو الإحساس المتطور بالخصائص الفردية - أو بعبارة أخرى - القدرة على اختراع قناع معين وتمثيل الدور بملاحة درامية سليمة. ولم يكن المصورون والنحاتون بمقتصرين على أداء أدوارهم إزاء زخرفة المكان الذي يقام فيه الاحتفال، وإنما كانوا أيضاً يساعدون على ابتكار الشخصيات نفسها ويصفون الملابس والدهانات (القسم الرابع، الفصل الثاني)، والزينات الأخرى الواجبة الاستخدام. والحقيقة الثانية التي يجب إبرازها هي الألفة الشاملة للناس مع الأساس الشعري للاستعراض. وكانت تمثيلات الأسرار الخفية الدينية في الواقع مفهومة جيداً بدرجة متساوية في جميع أنحاء أوروبا، منذ كانت حكايات الكتاب المقدس وأساطير القديسين الميراث المشترك الملوك لعالم المسيحية كله؛ أما في جميع المجالات الأخرى فإن المزية التامة كانت كلها في جانب إيطاليا. فإنها كانت تمتلك فيما يتعلق بالأشعار، سواء الدينية أو الدنيوية، شعراً غنائياً بلغ من درجة الثراء والتناغم ما لا طاقة لأحد أن يقاوم فنتته الساحرة^(٨) وكذلك أيضاً كانت غالبية المشاهدين - على الأقل، في المدن - تفهم معانى الشخصيات الرطازية، وكانوا يستطيعون أن يحدسوا ويخمنوا دون صعوبة كبيرة المغزى الرمزي للشخصيات المجازية والتاريخية المستخلصة من مصادر مألوفة ومعروفة لدى الكتلة الضخمة من الإيطاليين.



شكل ١٩٩ انتصار الحب، على نهج بتراارك، عمل بروينزى

اللوقر باريس

ولابد لنا من مناقشة هذه النقطة مناقشة أوفى. فالعصور الوسطى كانت فى جوهرها عصور المجازيات أى الكتابيات الرمزية، فقد عالج اللاهوت والفلسفة قضاياهما معالجة الكائنات المستقلة^(٩)، ولم يملك الشعر ولا الفن إلا القليل الذى يضيفانه ليضيفا عليها هوية شخصية. وفى هذا كانت كل دول الغرب على نفس المستوى. فعالم فكراتهم كان شديد الغنى بالأنماط والشخوص، ولكن متى وضعت هذه كلها فى أشكال محسوسة ملموسة كان يحتمل أن يصبح الملابس والصفات المميزة شيئاً غير مفهوم ولا مناسب للذوق الشعبى. وهذا الوضع، حتى فى إيطاليا، كثيراً ما كان هو السائد الجارى، وليس ذلك فحسب أثناء كل فترة عصر النهضة أجمع، بل

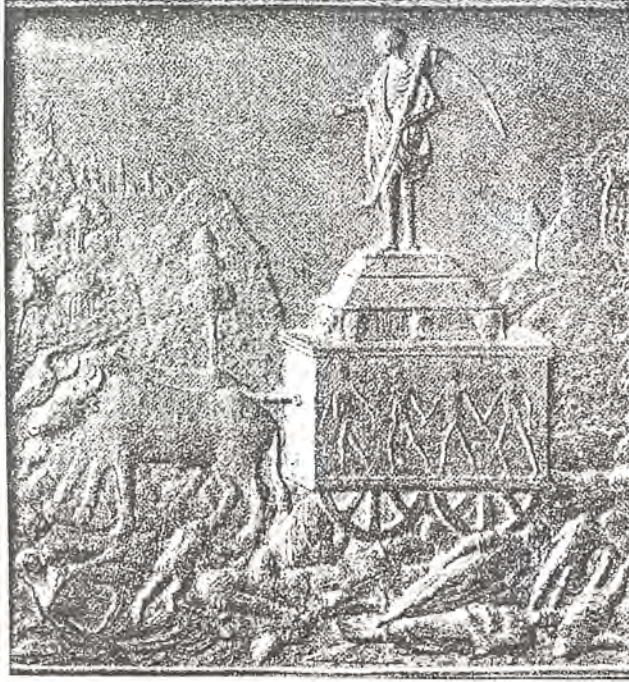
ظل قائماً حتى وقت أواخر منها. وكان يكفي لإحداث الارتباك والخلط أن يُقدم مضمون للخيال المجازي الرمزي، ويُترجم ترجمة خاطئة على أنه صفة مميزة. ولم يبرأ دانتى نفسه تماماً من الوقوع فى هذا الخطأ^(١٠)، والحق، إنه ليفاخر بالغموض السائد فى مجازياته الرمزية على وجه العموم^(١١) فأما بتزارك فى كتابه "النصر" trionfi فإنه يحاول أن يعطى أوصافاً واضحة، وإن تكن قصيرة، على كل حال، لأخيلة الحب والعفة والموت والشهرة. وهناك من المؤلفين كذلك من يحمل مجازياته الرمزية بمضامين غير مناسبة من الصفات. وفى هجائيات (ساتيرات) فينشيغويرا^(١٢) Vinceguirra، مثلاً، يُرسم الحسد بأسنان حديدية خشنة، ويصور النهم أو الشره كأنما يعض شفتيه هو، وبخصلة (شوشة) من الشعر المتشابك المنكوش، ولعل الهدف من الصورة الأخيرة ربما كان إظهاره فى صورة غير الآبه ولا المهتم بكل ما ليس لحمًا ولا شراباً. ولسنا نستطيع ها هنا مناقشة الأثر السئ لهذه الصنوف من عدم الفهم على الفنون التشكيلية. فإنها، شأن الشعر، ربما تظن أنفسها من السعداء إذا أمكن التعبير عن المجاز الرمزي بصورة أسطورية رطازية - أى صورة أنقذتها العصور القديمة من العبثية والسخف - إذا جاز أن يمثل مارس الحرب، وديانا^(١٣) تمثل حب القنص.

ومع هذا فقد كانت للفن والشعر مجازيات رمزية أفضل من هذه يستطيعان تقديمها، ولذا يمكننا أن نفترض، فيما يتعلق بمثل هذه الصور المتمثلة (أى الشخص) من ذلك النوع الذى كان يظهر فى الاحتفالات الإيطالية، أن الجمهور كان يتطلب منها أن تكون لها خصائص مميزة بطريقة واضحة وحية، نظراً لأن تدريبه السابق قد أهله وشكله حتى صار ناقداً. وفى مواطن أخرى، وبخاصة فى البلاط البرجاندى، كان يسمح لأشد الصور عدم قدرة على التعبير، بل حتى مجرد الرموز البحتة، أن تمر مر الكرام، وذلك لأن فهمها، أو الظهور بمظهر فهمها، كان جزءاً من التنشئة والتربية الأرستقراطية^(*). ولناسبة يمين أو قسَم طائر التدرج (الديك البرى) Oath of the Pheasant فى ١٤٥٢^(١٤) فإن الخيالة الجميلة الشابة التى تظهر ممثلة "ملكة المتعة"

(*) عن الحضارة فى برجنديا انظر للمترجم كتاب هويرينجا "اضمحلال العصور الوسطى" الذى نال به جائزة الدولة التشجيعية فى الترجمة عام ١٩٨١ (المترجم)

كانت هي الرمزية الوحيدة السارة. والجفان (الصحون) الضخمة التي تحمل شخصاً آلية (أوتوماتيكية) بل حتى حية بداخلها، كانت إما مجرد تحف غريبة أو قصد بها أن تحمل إلى الناس درساً أخلاقياً سمجاً. فكان مفروضاً أن تمثالاً عارياً لأنثى تحرس أسداً حياً إنما تمثل القسطنطينية ومخلصها في المستقبل دوق برجنديا. فأما الجزء الباقي، باستثناء عرض إيماني بانتوميم- هو چاسون في كولشيز- Jason in Colchis فيبدو إما غامضاً شديد الإبهام عويص الفهم وإما خالياً من كل معنى على الإطلاق. فأما أوليفيير Olivier نفسه، الذي نحن مدينون له بوصف المشهد، يظهر مرتدياً زياً يمثل "الكنيسة"، داخل برج ممتطياً ظهر فيل، وهو يغنى قصيدة رثاء طويلة عن انتصار الكفار غير المؤمنين^(١٥)

ولكن رغم أن عنصر المجازيات الرمزية في الشعر والفن والاحتفالات في إيطاليا كان متفوقاً في كل من الذوق الجميل ووحدة الفكرة وأعلى مما نجده في البلاد الأخرى، فمع هذا لم يكن متميزاً ومتفرداً في هذه السجایا. وكأني بنقطة التفوق الفاصلة^(١٦) إنما تكمن بالحرى، فضلاً عن تشخيصاتها للصفات المجردة التي كان القائلون على تمثيلها التاريخي كانوا يدفعون بأعداد ضخمة - في أن كلا من الشعر والفن التشكيلي اعتادا أن يمثلوا المشاهير من الرجال والسيدات. وذلك بأن "الكوميديا الإلهية" Divine Comedy لدانتى، و"النصر" trionfi لبترارك، و"الرؤى الغرامية" Amorosa Visione لبوكاتشيو - وكلها أعمال أنشئت وأسست على هذا المبدأ - فضلاً عن الانتشار الواسع العظيم للثقافة الذي حدث بتأثير العصور العهيدة القديمة كل هذه جعلت الأمة ملمة بهذا العنصر التاريخي تماماً. وكانت هذه الشخصيات تظهر الآن في الاحتفالات، إما مفردة مخصصة بوصفها أقنعة محددة، أو في جماعات، بوصفها أتباعاً مميزين يحيطون بشخصية زعيمة مجازية. وهكذا أصبح فن التجميع والتوليف يتعلم في إيطاليا في وقت كانت فيه أشد المعارض فخامة بالأقطار الأخرى تتكون من رمزية لا تفهم أو صيغيات لا معنى لها.



شكل ٢٠٠ انتصار الموت، على نهج بترارك، عمل برونزي
متحف اللوفر، باريس

ولتبدأ بذلك النوع من الاحتفالات الذي ربما كان أقدمها جميعاً - وهو احتفالات الأسرار الدينية^(١٧) وكانت هذه تشبه في أهم ملامحها تلك التي كانت تؤدي في سائر أرجاء أوروبا. فكانت المنصات الواسعة تنصب في الميادين العامة وفي الكنائس وفي أروقة الأعمدة المشادة، كانت الطبقة العليا منها تستخدم فردوساً يفتح رتاجه ويفلق حسب الرغبة، والطابق الأرضي يستخدم غالباً للجحيم، وبين الاثنين يقف المسرح بكل معانيه الصحيحة ممثلاً لمشهد الأحداث الدنيوية الأرضية للدراما. وفي إيطاليا، شأنها شأن بقية المواطن الأخرى، غالباً ما كانت الرواية التمثيلية الأسطورية أو المنخوذة عن الكتاب المقدس تبدأ بمحاورة استهلاكية بين الرسل والأنبياء والمنتبئات والفضائل وآباء الكنيسة، وفي بعض الأحيان تنتهي برقصة. وكان من طبيعة الأشياء أن "الفواصل"

intermezzi نصف الكوميدية بين الفصول ، والمنوطة بالشخصيات الثانوية ، لم تكن شيئاً نادر الحدوث فى إيطاليا، ومع هذا فإن هذه الظاهرة لم تكد تكون واسعة الانتشار بدرجة ملحوظة كمشأنها فى الأقطار الشمالية^(١٨) ومن المحتمل أن الوسائل الصناعية التى كانت بها الشخوص تُرْفَع وتَسْبِح فى الهواء - وهى إحدى وسائل البهجة الرئيسية فى مثل هذه التمثيليات - كانت موضع فهم الجمهور بطريقة أفضل فى إيطاليا أكثر منها بمناطق أخرى؛ وفى فلورنسا فى القرن الرابع عشر كانت العُقْد فى هذه العروض تُعد من وسائل الإضحاك^(١٩) وسرعان ما اخترع برونييلسكو Bru-nellesco ، من أجل عيد البشارة بميدان القديس فيليس S. Felice ، جهازاً عجيباً يتكون من كرة سماوية تحيط بها دائرتان من الملائكة، يخرج منها جبريل ويطير إلى أسفل فى ماكينة مصنوعة على هيئة لوزة. وقام تشيكا Cecca كذلك باختراع آليات تخدم هذا اللون من العروض^(٢٠) ولم تكن الجمعيات الروحية أو أحياء المدينة، التى كانت تتولى أمر هذه المسرحيات وتقوم جزئياً ببعض أدائها تمثيلاً، وذلك على كل حال فى المدن الكبيرة، لتدخر جهداً ولا مالا فى سبيل جعلها أكثر انقائاً وفنية ما أمكن. وكانت نفس الحال تجرى بون مرآء فى احتفالات البلاط العظيمة ، حيث كانت مسرحيات الأسرار الدينية المقدسة تمثل فضلاً عن التمثيل الحركى الإيمانى (البانتوميم) والمسرحيات الدرامية الدنيوية. ولم يكن بلاط بيترو رياريو (المجلد الأول، القسم الأول، الفصل العاشر) ولا بلاط فيرارا ليعوزهما بون أدنى مرآء أى شىء يمكن أن يستحدثه الإبداع والابتكار البشرى^(٢١) وعندما تصور لأنفسنا الموهبة المسرحية والملابس الفاخرة للممثلين، والمشاهد المشيدة وفق فن عمارة الحقبة التاريخية الممتلة، والمكحلة بباقات الزهور والأستار النفيسة، وفى الخلفية المبانى العظيمة القائمة حول أحد الميادين الإيطالية piazza أو الأعمدة الرشيقة بقناء أو رواق كبير، كان تأثير ذلك كله بالغ الروعة. ولكن كما أن الدراما الدنيوية غير الدينية قاست كثيراً بسبب هذا الولوج الشديد للاستعراض، فكذلك تماماً توقف التطور الشعري الأعلى لمسرحية الأسرار الدينية المقدسة بفعل السبب نفسه. ونحن نجد فى النصوص التى خلفت لنا فى الأغلب الأعم أكثر أرضيات العمل الدرامى فقراً، وإن خففت بين حين وآخر عن طريق فقرة غنائية أو بلاغية، ولكن لا نجد أثراً للحماس الرمزي الفخم الذى يميز ويتجلى فى "أوتوس ساجرامنتاليس" Autos Sacramentales لكالدرون.

فأما في المدن الأصغر، حيث العرض التمثيلي المشهدى أقل حجماً، فلربما كان أثر هذه المسرحيات الروحية في أخلاق المشاهدين أعمق وأكبر. فنحن نقرأ^(٢٢) أن أحد كبار الوعاظ بالتوبة والندم ممن سنزيدكم عنه حديثاً فيما بعد، وهو روبرتو دا ليتشى Roberto da Lecce ، قد ختم موعظته بعد الصوم الكبير أثناء طاعون عام ١٤٤٨ بمدينة بيروجيا بتمثيل آلام صلب المسيح. وقد تابعت التمثيلية نص العهد الجديد بدقة. وكان عدد الممثلين قليلاً، ولكن جميع الحضور أعولوا بالبكاء المرتفع الصوت. حقاً إنه في مثل تلك المناسبات كانت المثيرات العاطفية يُلْتَجأ إليها وكلها مستعارة من الواقع الجاف الخشن، وهنا نُذَكَّرُ بصور ماتيو دا سيينا Mateo da Siena ، أو مجموعات التماثيل الفخارية لجيدو ماتزوني Guido Mazzone ، عندما نقرأ أن الممثل الذي قام بدور المسيح ظهر على المسرح مقطع الجلد من أثر ضرب السياط كما يبدو واضحاً في أنه يسح عرقاً من دم، بل حتى يدمى من جرح في جنبه^(٢٣)



شكل ٢٠١ فورتونا، لچيوڤانى بيليني

الاكاديمية، البندقية

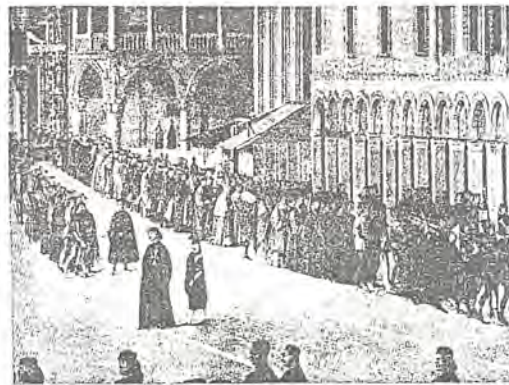
وتنوعت المناسبات الخاصة التي تمثل فيها تمثيلات الأسرار الخفية المقدسة هذه، بغض النظر عن الاحتفالات الكبرى للكنيسة وحفلات زواج الأمراء وما شابه ذلك. فعندما، مثلاً، رَسَم البابا القديس برناردينو من سينا قديساً (١٤٥٠) حدث ضرب من المحاكاة الدرامية لذلك الاحتفال *rappresentazione* ، والراجح أنها تمت في الميدان الكبير بمسقط رأسه، ودامت الاحتفالات لمدة يومين ، وأقيمت مآدب اللحم ، وقدم الشراب لجميع الحضور^(٢٤) وهم يخبروننا أن راهباً عَلَّامة احتفل بترقيته إلى درجة الدكتوراه في اللاهوت بتقديمه تمثيلاً درامياً لأسطورة قديس المدينة الراعى لها^(٢٥) ولم يكد شارل الثامن يدخل حدود إيطاليا حتى رحبت به في تورينو الدوقة الأرملة بيانكا من ساقوى بنوع من التمثيل الحركي الصامت (البانتوميم)^(٢٦) نصف الدينى، الذى رَمَزَ فيه أولاً مشهد ريفى إلى "قانون الطبيعة" *Law of Nature* ، ثم جاء موكب البطاركة يمثلون "قانون الفضل العميم أو الرحمة" *Law of Grace*. وتلى ذلك قصة لانسولوت البحيرة *Lancelot of the Lake* ، ثم قصة عن "أثينا" *Of Athens* ولم يكد العامل يصل إلى كييري *Chieri* حتى استقبله بانتوميم آخر، ظهرت فيه امرأة فى حالة ولادة يحيط بها ثلة من كبراء الضيوف.

وإذا كان أى احتفال كنسى يعد بإجماع الناس الشامل أنه يدعو إلى جهود استثنائية فذلك هو الاحتفال بعيد الجسد المسيحى (عيد القربان، انظر أول هذا الفصل)، ذلك العيد الذى أدى فى إسبانيا إلى قيام نوع خاص من الشعر. وبين أيدينا وصف رائع للطريقة التى كان يحتفل بها البابا بيوس الثانى بهذا العيد فى قْتيربو *Viterbo* فى عام ١٤٨٢^(٢٧) فأما الركب نفسه، الذى تقدم سيراً من خيمة وصيوان ضخم رائع أقيم أمام كنيسة القديس فرانتشيسكو على امتداد الشارع الرئيسى إلى الكاتدرائية، فكان الجزء الأهم فى مراسم الاحتفال. وقد قسم الكرادلة وأغنياء المطارنة المسافة بأكملها إلى أجزاء يرأسونها فيما بينهم، ويزينونها بالستائر والسجف وياقات الزهور^(٢٨) وقد أقام كل منهم كذلك مسرحاً خاصاً به كانت تمثل عليه، عندما يمر الموكب، مشاهد تاريخية ومجازية مرمازية قصيرة. ولم يتضح من البيانات المكتوبة ما إذا كانت جميع الشخصيات كائنات حية أم مجرد تماثيل مكسوة^(٢٩)؛ ومن المؤكد أن نفقات ذلك كله كانت باهظة جداً. وكان هناك مسيح على الصليب يتألم بين الملائكة

الصغيرة المنشدة، وهناك العشاء الأخير مع تمثال للقديس توماس الأكويني، والقتال بين كبير الملائكة ميكائيل والشياطين، وهناك ينابيع النبيذ وأوركسترات من الملائكة، وقبر المسيح مع مشهد قيامته، وهناك، أخيراً، ضريح العذراء فى الميدان المواجه للكاتدرائية. وكان يفتح بعد أداء القداس الأكبر ومنح البركة، ثم تصعد أم الإله، وهى تغنى، إلى الفردوس حيث توجهت على يدي ولدها واقتيدت إلى حضرة الأب السرمدى.

ومن هذه الاستعراضات التمثيلية فى الشارع العام كان ذلك الذى أقامه الكاردينال ونائب المستشار روبريجو بورجيا Roderigo Borgia ، الذى أصبح فيما بعد البابا اسكندر السادس، وكان استعراضاً مسترعياً للأنظار لما بدا فيه من آيات الفخامة والرمزية الغامضة^(٣٠) وهو يقدم مثلاً مبكراً للولع الشديد بإطلاق المدفعية^(٣١) الذى كانت تتسم به أسرة بورجيا.

ولكن هناك بيان أوجز هو ذلك الذى قدمه إلينا البابا بيوس الثانى عن الموكب المقام فى نفس العام فى روما عند وصول جمجمة القديس أندرو من بلاد اليونان. وهنا أيضاً ميز روبريجو بورجيا نفسه برائع الفخامة؛ بيد أن هذا الاحتفال كانت له سمة دنيوية أكثر من الآخر، إذ أنه، فضلاً عن جوقات كورال الملائكة المعتادة، عرضت فيه أقنعة أخرى، بالإضافة إلى "رجال أشداء" الذين يبدو أنهم قاموا بأداء مختلف المآثر الباهرة من ألوان القوة العضلية.



شكل ٢٠٢ موكب الآثار المقدسة
فى البندقية الأكاديمية، البندقية
تصوير أندرسون، روما

ومثل هذه العروض، التي كانت، جميعها أو بصفة رئيسية، دنيوية تماماً في طابعها وسماتها، كانت تُنظَّم، وبوجه خاص في بلاطات الأمراء الأكثر أهمية، وذلك بقصد متعمد إلى إحداث أثر قوى للروعة والفخامة في النفوس. وكانت الموضوعات رطازية أو مجازية مرمازية، كما أن التّأويل غالباً ما يقع على السطح. ولم يفتقر الأمر حقاً إلى المغالاة والمبالغة - فإن الحيوانات المهولة كان تنطلق من باطنها فجأة جمهور من الأشخاص المُقنَّعين، كما حدث في سبينا^(٣٢) في عام ١٤٦٥، عندما حدث في حفل استقبال عامة أن برزت ثلة من راقصي الباليه تتكون من اثني عشر شخصاً من باطن ذئب ذهبي؛ وهناك الزينات الحية للموائد (ليس دائماً مع ذلك) تظهر المبالغات والتزييدات عديمة الذوق التي أبقاها البلاط البرجندي (انظر أوائل هذا الفصل) - وما شابه ذلك. وقد أبدى معظمها شيئاً من الشعور الفني أو الشعري. وقد سبقت الإشارة إلى المزج بين البانتوميم (التمثيل الإيمائي الصامت) والدراما في بلاط فيرارا أثناء معالجة الشعر (القسم الرابع، الفصل الرابع). وأما حفلات الإمتاع والتسلية التي قدمها الكاردينال بييترو رياريو في عام ١٤٧٣ في روما عندما كانت ليونورا الأراجونية، Leonora of Aragon، العروس المرتقبة للأمير هيركيوليس الفيراري، تمر خلال المدينة، فكانت احتفالات دوت شهرتها وراء حدود إيطاليا^(٣٣) وكانت المسرحيات التي مثلت يومئذ أسراراً خفية دينية تدور حول موضوعات كنسية، بينما كانت البانتوميمات على العكس من ذلك رطازية (ميثولوجية). وفيها يمثل أمامهم أورفيوس Orpheus مع الوحوش، وبيرسیوس Perseus وأندروميذا Andromeda، وسيرس Ceres تجرها التنانين^(*)، وباخوس وأريادنى تجرهما الفهود، ويحى أخيراً تعليم أخيل. ثم أعقب ذلك حفلة رقص باليه عن مشاهير العشاق في الأزمنة القديمة، مع سرب رشيق من الحوريات (النمفيات) التي قوطعت بواسطة هجوم القناطير^(**) المفترسة، التي يهاجمها بدورها هرقل ويشتمتها بدءاً. ويجوز لنا هنا أن نذكر حقيقة، وإن كانت تافهة في حد ذاتها، ولكنها تذكر بوصفها سمة لذوق الزمان، وهي أن الكائنات البشرية التي ظهرت

(*) التنانين: جمع تنين، وهو ضرب من العطاء الضخمة. (المترجم)

(**) القناطير: جمع قنطور، وهو حيوان خرافي يجمع بين نصف إنسان ونصف حصان. (المترجم)

في جميع الاحتفالات على هيئة تماثيل في فجوات أو على الأعمدة وأقواس النصر، ثم ظهر أنها حية عند قيامها بالغناء أو التحدث، كانوا يظهرون للناس ببشرة وجوههم الطبيعية ومُرْتَدِّين زياً عادياً طبيعياً، وبذلك كان يزال عن الناس الإحساس بالتعارض والتناقض؛ بينما كان يعرض في دار رياريو طفل حى مطلى بالذهب من قمة رأسه حتى أخمص قدميه كان يرش الماء حوله من تبع (٣٤).



شكل ٢٠٣ مركبة مهرجانية من "انتصار فينوس"
بالاتزو شيفانوجا، فيرارا تصوير أندرسون، روما

وهناك بانتوميما رائعة من نفس هذا النوع قدمت بمدينة بولونيا، في حفل زواج أنيبالي بنتيقوليو Anibale Bentivoglio من لوكرتزيا ديستي (٣٥). Lucrezia d'Este. وبدلاً من الأوركسترا، غنيت أغاني الكورال، بينما طارت أجمل حوريات ديانا إلى جونو برونوبا Juno Prunuba، وبينما سارت فينوس يصحبها أسد - كان في تلك الحالة رجلاً منتكراً- بين مجموعة من المتوحشين. وكانت الديكورات صورة صادقة في تمثيلها

إحدى الغابات. وحدث في البندقية في عام ١٤٩١ أن استقبل قارب الأمراء الرسمي أميرات عائلة أيستي^(٣٦) Este ورحب بهن، واحتفلت بهن سباقات القوارب فضلاً عن بانتوميم فاخر يدعى يسمى "ملياجر" Meleager في بلاط قصر الدوق. أما في ميلانو فكان ليوناردو دافنشي^(٣٧) يتولى تنظيم احتفالات الدوق فضلاً عن غيره من ذوى المكانة. وكانت إحدى ماكيناته، التي نافست ماكينات برونيلسكو (انظر هذا الفصل)، تمثل الأجرام السماوية بكل حركاتها مكبرة على مقياس هائل. وكلما اقترب كوكب من الكواكب من إيزابيللا، عروس الدوق الشاب، تقدمت الربة التي يحمل الكوكب اسمها نحو الأمام من داخل الكرة الأرضية^(٣٨) وأنشدت بضعة أشعار نظمها شاعر البلاط بللينشيوني Bellencioni عام ١٤٨٩^(٣٩)، وفي مناسبة احتفال آخر (عام ١٤٩٣) ظهر نموذج لتمثال فرانثيسكو سفورزا ممتطياً سهوة جواده ومعه أشياء أخرى تحت قوس نصر منصوب في الميدان الواقع أمام القلعة. وتحن نقراً في كتاب فاسارى Vasari عن الآليات الأوتوماتيكية المبدعة التي اخترعها ليوناردو ترحيباً بالملوك الفرنسيين بوصفهم أسياد ميلانو.



شكل ٢٠٤ انتصار ماركوس أوريليوس
متحف الكونسيقاتوري، روما

وحتى في المدن الأصغر كانت جهود جبارة تبذل في بعض الأحيان في هذه المناسبات. فعندما جاء الدوق بورسو Borso في ١٤٥٣ إلى مدينة ريجيو^(٤٠) Reggio ليتلقى ولاء المدينة استقبل عند بوابتها بماكينة ضخمة ظهر فوقها القديس بروسبيو S. Prospero ، قديس المدينة وراعيها، وكأنما يطير، تظله "مظلة" Baldachino من القماش المطرز تحملها الملائكة ، بينما من تحته قرص دوار مع ثمانية من الملائكة الصغيرة الصادحة بالغناء، اثنان منهما يتسلمان صولجان المدينة ومفاتيحها، التي قدماها عندئذ للدوق، بينما القديسون والملائكة يترنمون بنشيد في مدحه. وعندئذ تتقدم عربية تجرها خيول مخبأة، تحمل عرشاً شاغراً، يقف خلفه تمثال للعدل يخدمه جنى حارس. أما في أركان العربية فيجلس أربعة من المشرعين نوى شعر أشيب، يحيط بهم الملائكة يحملون الرايات؛ وإلى جوارها يركب حملة الأعلام والألوية الخيل في كامل دروعهم، ولا تكاد تكون بنا حاجة أن نضيف أن الربة والجنى الحارس لم يتيحا للدوق أن يمر بغير خطاب يلقي بين يديه، وجاءت عربية ثانية، يجرها عفر وحيد القرن، وهي تحمل شخص كاريتاس Caritas له مشعل متقد؛ وجاءت بين الاثنتين المشهدة الكلاسيكية لعربة في صورة سفينة، يحركها رجال قد اختفوا بداخلها. والآن أخذ الموكب بأجمعه يتقدم أمام عيني الدوق. وهناك أمام كنيسة القديس بييترو توقف الموكب مرة أخرى. وفي هالة من نور، هبط القديس يصحبه اثنان من الملائكة، من واجهة الكنيسة، ووضع إكليلاً من الغار على رأس الدوق، ثم طار عائداً مرة أخرى إلى موقعه الأسبق^(٤١)



شكل ٢٠٥ انتصار الإيمان نحت خشبي من جزء من عمل لتيتيان

ثم قدم رجال الكنيسة تمثيلية مجازية مرمازية أخرى من نوع ديني بحت. فوقفت "الوثنية" و"الإيمان" على عمودين باسقين، وبعد أن قدم "الإيمان"، ممثلاً في صورة فتاة حسناء، كلمة ترحيبه تكسر العمود الثانى إرباً ومعه التمثال المائل فوقه، وبعد ذلك قوبل بورسو بقيصر ومعه سبع نساء حسناوات، قُدِّمْنَ إليه بوصفهن الفضائل السبع، التي نصح باتباعها. وأخيراً بلغ الموكب الكاتدرائية، بيد أنه بعد إقامة الصلوات اتخذ الدوق مقعده على عرش ذهبي مرتفع، وتلقى للمرة الثانية ولاء بعض الأشخاص المقنعة السابق ذكرها. وختاماً لكل شيء، إذا بملائكة ثلاث تطير هابطة من مبنى مجاور، وقدمن إليه بين تهاليل أغاني الفرح فروعاً من سعف النخيل رمزاً للسلام.

ولنلق الآن لمحة إلى تلك الاحتفالات التي كانت الظاهرة الرئيسية فيها هي الموكب

نفسه.



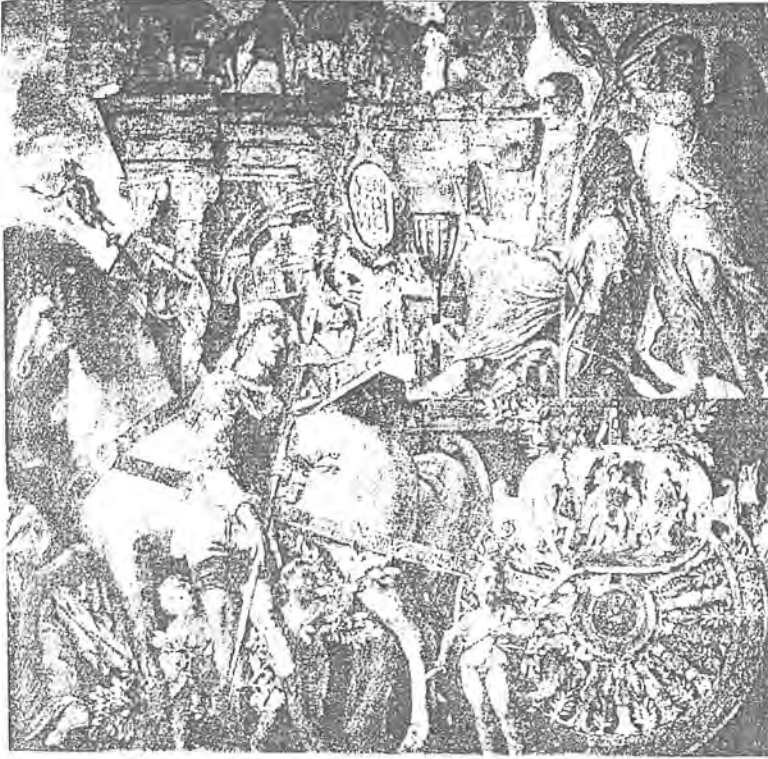
شكل ٢٠٦ انتصار الإيمان
تحت خشبي من جزء من عمل لتيبيان



شكل ٢٠٧ موكب انتصارى لقيصر (الصورة الأولى)

لمانتينيا هامبتون كورت

ولا مراء أنه منذ زمن مبكر جداً في العصور الوسطى تولدَ عن المواكب الدينية استخدام الألقنة. فكانت هناك ملائكة صغار ترافق القربان المقدس أو الصور والآثار المقدسة أثناء تطوافها في الشوارع؛ أو الشخوص في "آلام الصليب" - مثل المسيح الصليب، واللصوص والجند، أو النساء الأمينات - وكلها كانت تُمثل بقصد التهذيب العام للشعب. ولكن الأعياد الكبرى لدى الكنيسة كانت منذ أيام سحيقة التبكير يصحبها موكب مدنى، علماً بأن سذاجة naive العصور الوسطى لم تكن لتجد أى شىء غير مناسب فى العناصر الدنيوية الكثيرة التى تدخل ضمنها.



شكل ٢٠٨ موكب انتصارى لقيصر (اللوحة الأخيرة) لمانتينيا
هامبتون كورت

وقد يجوز لنا أن نذكر بوجه خاص تلك العربة الملاحية (carrus navalis) ، التي ورثوها منذ أيام الوثنية^(٤٢)، والتي، كما ظهر من المثال الذي سبق أن ذكرناه، كان في الإمكان إدخالها في احتفالات ذات أنواع متعددة كثيرة الاختلاف، كما إنها خلفت اسمها تخليفاً خالداً على أحدها بوجه خاص - وهو "الكارنقال". وكانت هذه السفن المزخرفة والمزينة بكل ما في الإمكان من فخامة ، تبهج أعين المشاهدين لمدة طويلة بعد أن طوى النسيان معناها الأصلي، فعندما التقت إيزابيلا من إنجلترا بعريسها، الإمبراطور فريديريك الثاني، بمدينة كولونيا قوبلت بعدد من هذه العربات تجرها خيول

مستورة غير مكشوفة للعيان ، ومملوءة بجمهرة من القساوسة الذين رحبوا بها بالموسيقى والغناء.

ولكن المواكب الدينية لم تُمزج فحسب بوسائل الزينة الدنيوية من جميع الأنواع، بل غالباً ما كانت تحل محلها مواكب من الأقنعة الإكليريكية. ولعل الأصل فيها يمكن العثور عليه في تلك المجموعات من الممثلين الذين كانوا يلون ويعرجون طريقهم خلال شوارع المدينة إلى المكان الذي كلفوا بتمثيل قصص الأسرار الخفية المقدسة فيه؛ على أنه من الممكن أنه حدث في فترة مبكرة أن الموكب الإكليريكي قد شكل نفسه كنوع متميز واضح المعالم. وإن دانتى^(٤٢) ليصف موكب نصر بياتريس، مع آباء الكنيسة الأربع والعشرين في سفر الرؤيا، والوحوش الروحية الغامضة الأربع، ومع الفضائل المسيحية الثلاثة والأساسية الأربع، ومع القديس لوقا والقديس بولس وغيرهما من الرسل، بطريقة تكاد تضطرنا إلى استنتاج أن هذه المواكب إنما حدثت فعلاً قبل زمانه. ونحن يقودنا بصفة رئيسية إلى هذا الاستنتاج وجود تلك العربة التي تقودها بياتريس، والتي هي شئ، كان يمكن في الغابة الإعجازية للرؤيا أن تكون غير ضرورية أو بالأحرى غير مناسبة للمقام. ومن الممكن، من جهة أخرى، أن دانتى كان ينظر إلى العربة بوصفها رمزاً للنصر والانتصار، وأن قصيدته تلك أو شكت أن تكون هي السبب في نشأة هذه المواكب، التي استعير شكلها من مواكب النصر لأباطرة الرومان. وعلى كل حال، فإن الشعر واللاهوت استمرا في استخدام الرمز استخداماً حراً. وإن سافونارولا^(٤٤) في قصيدته "انتصار الصليب" Triumph of the Cross ليمثل المسيح راكباً فوق "مركبة نصر"، وفوق رأسه كرة التالوث اللامعة، والصليب في يده اليسرى، وفي يمينه العهدان القديم والجديد؛ وقد جلست بين يديه العذراء مريم؛ وعلى جانبيه الشهداء وحكماء الكنيسة بأيديهم كتبهم مفتوحة، وخلفه جميع حشود المنقذين الغفيرة؛ وقد وقف على البعد الحشد الذي لا يعد ولا يحصى من أعدائه - ما بين أباطرة وأمراء وفلاسفة وكفرة هراطقة - وكلهم منهزم مدحور وأوثانهم محطمة وكتبهم محروقة. وثم صورة ضخمة لتيتيان، وهي معروفة فقط على هيئة نحت خشبي، لا شك أن لها مواطن شَبَّه كثيرة بهذا الوصف. وإن المدحتين التاسعة والعاشر من مدائح سابيليكو (المجلد الأول، القسم الأول، الفصل الثامن) الثلاث عشرة في أم الإله لتنتوى على بيان

دقيق لانتصارها وقد زخرفتا زخارف جزلة غنية بالرمزيات أوالمجازيات وفيهما من الأشياء المهمة المثيرة للإعجاب بوجه خاص نتيجة لذلك الجو الواقعي الذي يمتاز به أيضاً الرسم أو التصوير الواقعي في القرن الخامس عشر.



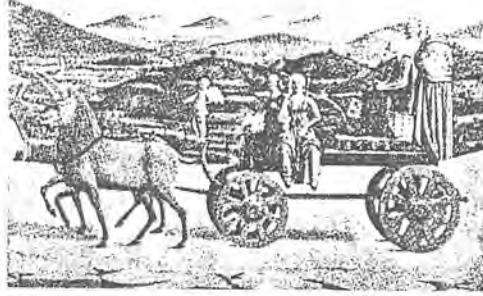
شكل ٢٠٩ موكب انتصارى لآلفونسو الأول

جزء من قوس النصر في كاسيل نوفو، في نابولي

ومع هذا فإن مواكب النصر tionfi الدينية كانت أكثر بكثير من الدينية. وكانت تحتذى في نموذجها موكب الإمبراطور الروماني (Roman Emperor) كما هو مثبت ومعروف من النقوش القديمة ونقلًا عن كتابات المؤلفين القدماء^(٤٥) وقد سبق لنا بحث تلکم الأفكار التاريخية الواسعة الانتشار آنذاك بإيطاليا، والتي كانت هذه العروض وثيقة الارتباط بها (المجلد الأول، القسم الأول، الفصل التاسع).

ونحن نقرأ من وقت لآخر عن مشهد الدخول الانتصارى الحقيقى لقائد منتصر، وهو دخول كان ينظم جهد الطاقة وفق النسق القديم، وإن تم ذلك ضد رغبة البطل نفسه. على أن فرانشيسكو سفورزا أوتى الشجاعة (فى ١٤٥٠) فرفض عربة الانتصار التي أعدت احتفالاً بعودته إلى ميلانو، على أساس أن مثل تلك الأشياء من مقتضيات الخرافات الملكية^(٤٦) كما أن ألفونسو الأكبر عند دخوله نابولى (١٤٢٣)، رفض إكليل الغار^(٤٧)، الذى لم يستتفك نابليون أن يرتديه أثناء تتويجه بكنيسة نوتردام. ونعود فنقول إن موكب ألفونسو، الذى مر من خلال فجوة فى سور المدينة ثم داخل المدينة حتى الكاتدرائية، كان خليطاً عجيباً من عناصر عتيقة مجازية رمزية وأخرى فكاهية

بحثة. فإن العربة التي كانت تجرها أربعة جياذ بيض، والتي جلس فيها متربعاً على عرش كانت عربة مرتفعة شامخة ومطلية بالذهب؛ وكان عشرون من أرسقراطية النبلاء يحملون أعمدة المظلة المصنوعة من نسيج الذهب التي تظلل رأسه. وكان جزء الموكب الذى تكفل به الفلورنسيون المقيمون يومئذ بنابولى مكوناً من ثلثة من الخيالة المرد الرشاق الفتيان، الذين كانوا يلوحون برماحهم بمهارة فائقة، وعربة عليها شكل يمثّل "الحظّ وسبع فضائل تمتطى الخيول. فأما الرية نفسها^(٤٨)، فإنها، وفق المنطق الصّلب الذى لا يرحم ولا يلين منطق الرمزيات المجازية، وهو المنطق الذى كان يتطابق عليه كل إنسان حتى مصورى ذلك الزمان، كانت تعكس شعرها فوق القسم الأمامى من رأسها فقط، بينما الجزء الخلفى أصلع، كما أن الجنى الحارس الذى كان يجلس على درجات العربة السفلى والذى رمز إلى الخلّة والسمة المتقلبة التي تتصف بها رية الحظ كانت قدماء مغموستين فى حوض (؟) من الماء. ثم أعقب ذلك فرقة أو كوكبة، جهزها نفس الفلورنسيين، من السوارى (الخيالة) يرتدون الملابس القومية لأمم متعددة، ويلبسون ثياب أمراء ونبلاء أجانب، ثم جاء بعد ذلك، مكللاً بالغار وواقفاً فوق كرة أرضية نواراة، شخص يوليوس قيصر^(٤٩)، الذى كان يوضح للملك فى شعر باللغة الإيطالية معنى المجازيات الرمزية، ثم اتخذ مكانه فى الموكب. وختم هذا المشهد الاستعراضى الفخم المعبر عما كان وطن القوم (فلورنسا) يستطيع إنجازها، بستين من الفلورنسيين، يرتدون جميعهم الأرجوان والقرمزي من الثياب. ثم تقدمت فرقة من القطالونيين سيراً على الأقدام، مع أشكال خشبية على هيئة خيول مربوطين بها من أمام ومن خلف مشتغلين بصراع مازح هازل مع جماعة من الأتراك، وكأنما يظهر السخرية بالروح العاطفية الناعمة للفلورنسيين. ثم جاء فى خاتمة المطاف برج هولة، يحرس بابه ملاك قد شهر سيفه؛ ووقف من فوقه أربع "فضائل"، كانت كل منها تخاطب الملك بأنشودة. فأما ما بقى بعد ذلك فليس فيه شىء يستحق ذكر خصيصته المميزة.



شكل ٢١٠ انتصار فيديريجو من أوربينو، لبييرو ديللا فرانثيسكا أوفيزي، فلورنسا

وعند دخول لويس الثامن عشر مدينة ميلانو في ١٥٠٧ (٤٠٠) نجد، بالإضافة إلى العربة التي لا مندوحة منها وتحمل "الفضائل"، مجموعة حية تمثل كبير الآلهة جوبيتر ومارس إله الحرب، وشكلاً يمثل إيطاليا واقعة في حبال شبكة. وبعدها جاءت عربة محملة بالغنائم، وما إلى ذلك.



شكل ٢١١ انتصار زوجة فيديريجو من أوربينو، لبييترو ديللا فرانثيسكا أوفيزي، فلورنسا

وعندما لم يكن هناك فى الواقع أية انتصارات يحتفلون بها كان الشعراء يجدون الجزء الأوفى لأنفسهم ولرعاتهم من السادة. فإن بترارك وبوكاتشيو عمدا إلى وصف أداة لتمثيل كل نوع من أنواع الشهرة بوصفها أتباعاً وأشياء، كل منها لكيان أو شخص مجازى رمزى (انظر أوائل هذا الفصل)؛ وبذا أصبح مشاهير العصور الخوالى يحولون الآن إلى أتباع وحاشية للأمير. فمن ذلك أن الشاعرة كليوف جابريلى Cleofe Gabrielli من جوييو Gubbio قدمت هذا الشرف الكريم إلى بورسو من فيرارا^(٥١)، فأعطته سبع ملكات - هن الفنون الحرة السبع - ليتخذ منهن وصيفات، وقد ركب معهن عربية؛ وبعد ذلك جماعة من الأبطال ميز كل منهم بالاسم المسطور على جبهته؛ ثم جئى عقب ذلك جميع الشعراء المشهورين؛ ومن ورائهم الآلهة يركبون عرباتهم. والواقع أنه ليس هناك حد ينتهى عنده استخدام العربات المحملة بالمواد الأسطورية الرطازية والمجازية الرمزية، فضلاً عن أن أهم وأشهر الأعمال الفنية التى أنجزت لعهد بورسو - وهى الصور الجدارية الجصية (الفريسكو) فى بالاتزو شيفانوجا Palazzo Schifanoja - تُرينا طنفاً زخرفياً علوياً (إفريزاً) مليئاً بهذه الموتىقات^(٥٢) وعندما وجب على رافاييل أن يصور كاميرا ديلا سينيأتورا Camera della Segnatura، وجد هذه الطريقة من الفكر الفنى مبتذلة سوقية وبائرة تماماً. ولذا فإن التقديس الجديد والنهائى الذى أضافه إليها سيظل عند جميع العصور أعجوبة من الأعاجيب.



شكل ٢١٢ رسم الانتصار،
مع منظر لمدينة فلورنسا لسلفياتى
المعرض القومى، روما تصوير
جروتشه، برلين

ومواكب النصر، بالتحديد، للقواد المنتصرين كانت هي الاستثناء من ذلك. على أن جميع المواكب الاحتفالية، سواء احتفلت بحادثة خاصة أو أقيمت أساساً من أجل الاحتفال في حد ذاته، كانت تتخذ بشكل ما خلة النصر وصفته المميزة، وتسمى في جميع الأحوال تقريباً باسم "موكب النصر". *trionfo*. ومن عجب أن الجنازات لم تعامل هي الأخرى بنفس الطريقة^(٥٣)

وكان من الممارسات المتبعة، سواء في الكرنفالات و المناسبات الأخرى، أن تمثل مسيرات النصر للقواد الرومان القدماء، مثل مسيرة باولوس إيميلْيوس *Paulus Aemilius* تحت توجيه لورنزو الفاخر في فلورنسا، ومسييرة كاميلْيوس *Camillus* يوم زيارة ليو العاشر. فكلتاهما كان يقودهما المصور فرانشسكو جرانانشي^(٥٤) *Francesco Grannacci*. وفي روما كان أول عرض كامل من هذا النوع هو انتصار أغسطس *Augustus* بعد النصر على كليوباترا^(٥٥)، بتوجيه بول الثاني، حيث وُجدت، بالإضافة إلى الأقنعة الهزلية والرطازية، التي لم تكن في الواقع الحق ليعوزها شيء من سمات الانتصارات القديمة، جميع المستلزمات المطلوبة - فهناك الملوك المصفدون في السلاسل، واللوحات التي تحمل مراسيم مجلس الشيوخ والشعب، ومجلس شيوخ كامل بأزيائهم وملابسهم العهيدة القديمة، وقضاة *praetors* ومحاسبون *aediles* ومدبرون ماليون أو قساطرة *quaestors* ، وأربع مركبات محملة بالمُغنين المُقنَّعين، كما توجد بدون ريب، عربات محملة بالغنائم والأسلاب. وثمة مواكب أخرى كانت تهدف بالأحرى إلى نشر وتوضيح، بطريقة عامة، شكل الإمبراطورية العالمية لروما القديمة؛ كما ظهر أمام الشعب، رداً على الخطر الحقيقي فعلاً الذي كان يهدد أوروبا من جانب الترك، كوكبة من الجمال تحمل الأقنعة تمثل أسرى من العثمانيين. وحدث فيما بعد في كرنفال عام ١٥٠٠، أن سيزار بورجيا في إشارة جريئة إلى نفسه، أقام احتفالاً بنصر يوليوس قيصر، بموكب مكون من إحدى عشرة عربة فاخرة^(٥٦)، مما جلب المعرة والتقزز دون شك إلى نفوس الحُجَّاج الذين جاءوا لحضور اليوبييل. وهناك اثنان من مواكب الاحتفالات بالنصر *trionfi* ، ذاع صيت نوقهما الجميل وجمالهما، قُدا في فلورنسا على يد فريقيين متنافسين يوم انتخاب ليو العاشر لمنصب البابوية^(٥٧) وكان أحدهما يمثل العهود الثلاثة للإنسان، والثاني مثل عصور العالم الأربعة، وقد قُدم العرضان

ببراعة فائقة في خمسة مشاهد من تاريخ الرومان وفي مشهدين مجازيين للعصر الذهبي لرحل وعودته النهائية. وغنى عن البيان أن الخيال الرائع المتجلى في زخرفة وتزيين العربات عندما كان الفنانون الفلورنسيون العظماء يتولون العمل كان يجعل المشهد رائعاً قوى الأثر في الأنفس بحيث أصبحت تلك العروض بمضى الوقت عنصراً مستديماً في الحياة الشعبية. وقد ظلت المدن التابعة حتى ذلك الحين قانعة بمجرد تقديم هباتها الرمزية - مثل الأقمشة الثمينة والشموع الشمعية - في اليوم الذي كانوا يقدمون فيه ولاهم سنوياً. والآن أصبحت نقابة التجار وإذا بها قد بنت عشر مركبات، جرت إضافة أخرى غيرها فيما بعد إليها، ولم يكن ذلك يقصد حمل الهبات، بل للرمز إلى التقدير والإعجاب، كما أن أندريا ديل سارتو Andrea del Sarto الذي رسم بعضها لا شك أنه عمل عملاً بالغاً مرتبة الإتقان والكمال^(٥٨) وقد أصبحت هذه العربات أنثى، سواء استخدمت لإبداء التقدير والإعجاب أو لحمل الغنائم والأسلاب، تشكل جزءاً ركيناً من كل هذه الاحتفالات، حتى ولو ضاقت ذات اليد عن توفير المال المرصود لأغراضها. وأعلن أهالي سيينا، في ١٤٧٧، إنشاء حلف بين فيرانتي وسيكستوس الرابع، الذي كانوا هم أنفسهم مرتبطين به، عن طريق قيادة مركبة في أرجاء المدينة، وعليها "شخصية مرتدية زي ربة السلام تقف على درع من زرد وأسلحة أخرى"^(٥٩)

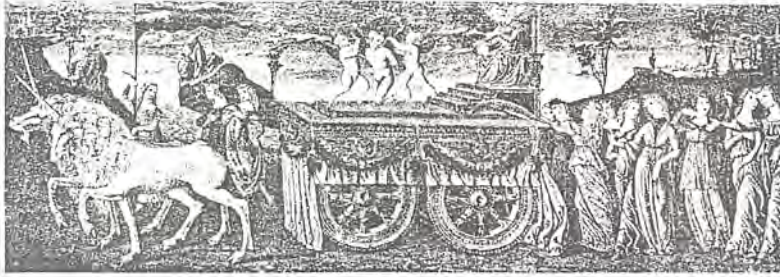


شكل ٢١٣ مَغْنٌ مع عوده
نقش فلورنسى على النحاس،
١٤٧٠-١٤٨٠

فأما فى احتفالات البندقية فكانت الموكب - التى لا تسير على البر ، بل فى القنوت على الماء - رائعة فى الإبداع الخيالى. ويبدو إقلاع قارب الأمراء الرسمى لاستقبال أميرة فيرارا فى عام ١٤٩١ (انظر هذا الفصل) كأنما كان شيئاً ينتمى إلى عالم الجنيات^(٦٠) وتحركت فى أول الموكب ما لا يحصى من السفن وعليها باقات الزهور والرايات الملونة وفتيان المدينة المكتسين بأزهى الثياب وأفخرها؛ وثمة نفر من الجنيات تلبس شارات ترمز إلى مختلف الأرباب وهى تطفو على ماكينات معلقة فى الهواء؛ وتحتها وقف غيرها جُمعت على شكل الآلهة البحرية (الترايتونات^(*)) والهوريات؛ وكان الهواء مشبعاً بصدى الموسيقى وأرج العطور ورفرفة الرايات الموشاة بالزخارف المطرزة. وجاءت فى أعقاب قارب الأمراء الرسمى زحمة مكتظة من الزوارق من جميع الأنواع إلى حد أنه على امتداد ميل كامل حول المكان فى جميع الاتجاهات (octo sta-dio) لم يكن من الممكن رؤية سطح الماء. أما فيما يتعلق ببقية الاحتفال، ففضلاً عن البانتوميم سالف الذكر، يمكننا أن نلاحظ أن سباق الزوارق، الذى اشتركت فيه خمسون فتاة قوية البدن، كان فكرة جديدة مستحدثة. وكان النبلاء فى القرن السادس عشر ينقسمون إلى هينات مختلفة فيما يتصل بهذه الاحتفالات^(٦١)، كان أهم ملمح فيها وأجدره بالذكر ماكينة عجيبة موضوعة فوق ظهر سفينة. وهكذا حدث، مثلاً، فى ١٥٤١، فى مهرجان "السرمد" Sempiterni أن طارت على امتداد القناة العظمى سفينة على هيئة "عالم مستدير" Universe ، وأقيمت على متنها حفلة راقصة فخمة. وكان الكرنفال أيضاً شهيراً فى هذه المدينة بما يحوى من رقص ومواكب ومعارض من جميع الأنواع. ووجد الناس أن ميدان القديس مارك يتسع سعة كافية ليس فقط لمنازلات البرجاس (القسم الخامس، الفصل الرابع) بل لمواكب النصر trionfi المماثلة لما كان يجرى فى أرض القارة الأوروبية نفسها. وفى احتفال أقيم بمناسبة عقد معاهدة سلام^(٦٢) اتخذت كل جماعات الإخوان الأتقياء scuole موقعها فى الموكب. وهناك، بين الشمعدانات

(*) الترايتونات: صورة خرافية لنصف إله عند الإغريق له جسم رجل وذيل سمكة. (المترجم)

الذهبية ذات الشموع الحمراء ، وبين جماهير غفيرة من الموسيقين والصبيان المجنحة نوى الخوذات الذهبية والأبواق الوفيرة، شوهدت عربة يجلس فيها كل من نوح وداود وقد تربعا على العرش؛ ثم جاءت أبيجيل، تقود جملاً محملاً بالكنوز، ثم عربة أخرى عليها ثلثة من الشخصيات السياسية - إيطاليا تجلس بين البندقية وليجوريا، والأخيرتين فى دروع الزرد، والأولى معها طائر اللقلق، وهو رمز الوحدة - وعلى سلمة عالية ثلاث شخص رمزية أنثوية مع شارات دروع الأمراء المتحالفين، وأعقب ذلك كرة أرضية ضخمة وحولها، فيما يبدو، منظومة أنجم. وظهر الأمراء أنفسهم، أو بالأحرى، الممثلين لشخصياتهم، على عربات أخرى مع خدمهم وشعارات نبالتهم، إذا كنا قد ترجمنا بطريقة صحيحة ما قاله مؤلفنا^(٦٣) وبديهي أنه كانت توجد هناك فرق الموسيقى فى هذه المواكب وكل المواكب الأخرى المشابهة.



شكل ٢١٤ انتصار العفة، لفرانشسكو دى جيورجيو (٩)
مجموعة مسز وانتاج، لوكينج هاوس، بركشاير

وربما كان الكارنفال الحقيقى فى القرن الخامس عشر، بصرف النظر عن هذه الطواير السيارة لمسيرات النصر العظيمة، لا يقام فى أى مكان يمثل هذا القدر من التغيير والتبديل مثلما كان يحدث فى روما^(٦٤) فكانت هناك سباقات من جميع الأنواع - سباقات للخيل والحمير والجاموس وسباقات للشيوخ، والشبان واليهود وهلم جراً. وكان البابا بول الثانى يقيم المآدب والتسلية للجماهير المحتشدة أمام بالاتزو دى فينيسيا (قصر البندقية) الذى كان مقيماً فيه. وكانت الألعاب المقامة فى بياتزا نافونا (ميدان نافونا)، التى من المحتمل أنها لم تتوقف توقفاً تاماً منذ العهود

الكلاسيكية القديمة، جديرة بالإعجاب من أجل فخامتها شبه العسكرية. فنحن نقرأ عن قتال زائف للخيالة وعن استعراض لجميع الممادنين وهم مدججون بالسلاح. وكان المشتركون يستمتعون بأكبر حرية في اختيار الأقنعة التي كانت تباح أحياناً لمدة أشهر متتالية^(٦٥) وقد تجرأ البابا سيكستوس الرابع بالمرور في أكثر أجزاء المدينة ازدحاماً بالسكان- في كامبوفيوري Campofiori وقرب بانكي Banchi وأن يشق طريقه من خلال جماهير المُقنَّعين بالأقنعة، وإن امتنع عن استقبالهم زواراً للفايكان. وفي عهد إنوسنت الثامن بلغت عادة مخزية في استخدامها، كانت ظهرت من قبل بين الكرادلة، ذروة الشيوخ. فإنهم درجوا في كارنفال عام ١٤٩١ على أن يرسل كل واحد منهم إلى الآخر عربات مملوءة بالأقنعة الفاخرة وبالمغنين والمهرجين، وهم يتغنون بالأغاني الفاضحة البذيئة. وكان يصحبهم رجال على صهوة الجياد^(٦٦) وبغض النظر عن الكرنفال، فإن أهل روما يبدو أنهم كانوا أول من اكتشف أثر إقامة موكب عظيم تحت أضواء المشاعل. فعندما عاد بيوس الثاني من مؤتمر ماننوا في ١٤٥٩^(٦٧) تقدم الناس لاستقباله بكوكبة من الخيالة يحملون المشاعل وهم يركبون في دوائر متألقة أمام قصره. ومع ذلك فإن سيكستوس الرابع رأى من الأفضل أن يعتذر عن استقبال زيارة مسائية من الناس، الذين اقترحوا أن يأتوا إليه بالمشاعل وأغصان الزيتون^(٦٨)



شكل ٢١٥ حفل موسيقى ريفي، لجيورجيوني
متحف اللوفر، باريس

على أن الكارنفال الفلورنسى تفوق على الرومانى فى طبقة معينة من الموكب، تركت بصمتها حتى فى الأدب نفسه^(٦٩) فكانت عربية هائلة عجيبة الشكل تظهر بين جمهور غفير من الأشخاص المقنعين يسرون على الأقدام وعلى متون الخيل وعلى متنها شخص مجازى رمزى أو مجموعة من الأشخاص المجازية عليهم ما يليق بهم من وسائل مصاحبة، مثل "الغيرة" ولها أربعة وجوه بنظارات على رأس واحدة؛ و"الأمزجة" الأربعة (القسم الرابع، الفصل الرابع) ومعها الكواكب التابعة لها؛ و"الأقدار" الثلاثة؛ "الحكمة" المتربعة على العرش فوق "الأمل" و"الخوف" الواقع مقيداً أمامها؛ وثمة "العناصر" الأربعة، و"العصور" و"الرياح" و"الفصول"، وهكذا؛ بالإضافة إلى العربية الشهيرة "للموت" وعليها النعوش التى انفتحت من فورها. وأحياناً نلتقى مع مشهد رائع من الرطازات القديمة الكلاسيكية - باخوس وأريادنى، وباريس وهيلين، وغيرهم. وإلا فإنك سترى كورس أو جوقة من شخوص تمثل طبقة أو فئة مفردة، مثل الشحاذين والصيادين والحوريات والأرواح الضائعة التى كانت أيام حياتها على ظهر البسيطة نساء فظات وقساء القلوب، والنساک والمنجمين والمتشردين والشياطين وباعة الأنواع المختلفة من السلع، بل حدث فى إحدى المناسبات أن مشى الشعب il popolo كما هم، وهم يسبون بعضهم بعضاً بالأغانى. فأما تلك الأغانى، التى لا زالت باقية والتى تم جمعها وتسجيلها، فتعطينا تفسيراً للحفلات التنكرية، وذلك حيناً فى نبرة مؤلمة محزنة ومرحة فى بعض الأحيان، ونبرة بالغة البذاءة والفحش فى أحيان أخرى. وينسب بعض من أسوأ هذه الأقوال الفاحشة إلى لورنزو الفاخر، ولعل ذلك راجع إلى أن المؤلف الحقيقى لم يجرؤ أن يفصح عن نفسه. ومهما يكن الأمر، فينبغى علينا بالتأكيد أن ننسب إليه الأغنية الجميلة التى صحبت المسرحية المقنعة "باخوس وأريادنى"، التى لا يزال مذهبها المردد يرجع صداه إلينا من القرن الخامس عشر، كأنما هو إرھاصة أسيفة بالفخامة الموجزة العمر لعصر النهضة نفسه:

Quanto è bella giovinezza,

Che si fugge tuttavia!

Chi vuol esser lieto, sia:

Di doman non c'è cetezza.

القسم السادس

الأخلاق والدين

الفصل الأول

الناموس الأخلاقي

إن العلاقة بين مختلف شعوب الأرض بالنسبة إلى الاهتمامات الأسمى في الحياة، أى بالنسبة إلى الله والفضيلة والخلود، يمكن بحثها حتى نقطة معينة، ولكن ليس فى الإمكان مقارنتها بعضها ببعض بدقة مطلقة وتؤكد تام. ففى هذه الأمور كلما زاد الوضوح الذى تبدو براهيننا أنها تتحدث به ، وجب أن نزيد حرصاً فى الامتناع عن إبداء الافتراضات القاطعة والتعميمات المتهورة.

وهذه الملحوظة تكون صادقة بوجه خاص فيما يتعلق بحكمنا على مسائل الناموس الأخلاقى. وربما كان من الممكن الإشارة إلى كثير من التناقضات وظلال الفروق بين مختلف الأمم، على أن ضرب الميزان بين الجميع أمر لم يوهب للبصيرة الإنسانية. فأما الصدق النهائى المطلق المتعلق بخلق شعب وضميره وإثمه فإنه يظل سراً مغلقاً إلى الأبد؛ وذلك على الأقل لأن نقائصه لها جانب آخر، تعاود فيه الظهور بوصفها خصوصيات (أى لوازم لاصقة) بل حتى كفضائل. وينبغى لنا أن نذر جانباً أولئك الذين يجدون لذة فى إصدار أحكام التقريع واللوم الجارفة على شعوب بأكملها ، وندعمهم يفعلون ذلك على هواهم. وتستطيع شعوب بأوروبا أن تسمى معاملة بعضها البعض،

ولكن لا يجوز لها - لحسن الحظ - أن تصدر بعضها على بعض أحكاماً. فإن شعباً عظيماً مجدولاً ومضفوراً وممتزجاً بعبءه ببعض بواسطة حضارته وإنجازاته وثرواته مع باقى أطراف الحياة كلها فى العالم المعاصر، يستطيع ببساطة أن يتجاهل كلاً من مناصريه الزائدة عنه ومتهميه اللائمين له. فهو يعيش سواء مع أو بدون استحسان أرياب النظريات والتنتظير.

وبناء على هذا لا يكون ما يعقب ذلك حكماً، ولكنه بالأحرى خيط طويل من الملحوظات الهامشية، تقترحها على الأفكار دراسة لعصر النهضة الإيطالية امتدت على طول بضعة سنين. والقيمة التى تتصل بهن تزداد قيماً وتحديداً وذلك لأنهن فى أغلب أمرهن يمسن حياة الطبقات العليا، التى لدينا بصدها معلومات أحسن فى إيطاليا منها فى أى قطر آخر بأوروبا فى تلك المدة. ومع هذا فرغم أن الشهرة وسوء السمعة كليهما يرن صوتاهما هنا أعلى منه فى أى مكان آخر، فإننا لن نجد هنا عوناً يساعدنا على تكوين تقييم أخلاقى كافٍ للشعب.

فأية عين تلك التى تستطيع اختراق الأعماق التى تصاغ وتحدد فيها شخصية أو خلق الأمم وقدرها؟ - تلك الأعماق التى يتحد فيها كل ما هو فطرى مطبوع، وكل ما جاء نتيجة التجربة، ليشكلاً كلاً جديداً وطبيعة طازجة ناضرة؟ - والتى فيها لا يتطور حقاً إلا متأخراً وببطء حتى تلك الطاقات العقلانية بعد أن نزع بادية الرؤية أنهم أصلاء إلى آخر حد؟ ومن ذا الذى يستطيع أن يجزم هل كان الإيطالى قبل القرن الثالث عشر يمتلك ذلك النشاط المرن وذلك التاكيد والعزم فى كل كيانه ووجوده - ذلك اللعب بالقوة وذلك التصرف فى تشكيل أية مادة يعالجها، كلمة كانت أو شكلاً مجسداً - وهى الصفات التى تميز بها فيما بعد؟ وإذا لم يمكن الوصول إلى أية إجابة لهذه الأسئلة فكيف سيمكننا الحكم على القنوات والضروب اللامحدودة والمعقدة بصورة لا نهائية التى تصب فيها بغير انقطاع الخلق (الشخصية) والعقل تأثيراتهما أحدهما فى الآخر. وإن هناك لحكمة، توجد من أجل كل فرد منا، صوتها هو ضميرنا؛ ولكن دعونا نتخلص من هذه التعميمات الصادرة حول الأمم. لأن العلاج قد يكون فى تناول اليد للشعب الذى يبدو أنه الأشد مرضاً؛ أما الذى يبدو ظاهرياً أنه صحيح معافى فربما يحمل فى داخله جرائم الموت المكتملة النمو، التى ستجلبها ساعة الخطر من مكنها.

وعند بداية القرن السادس عشر، عندما بلغت حضارة عصر النهضة ذروة قمتها، وفي نفس الحين كان البوار السياسى للأمة يبدو شيئاً لا مفر منه، لم يكن يعوز الناس مفكرين جادين كانوا يرون علاقة قائمة بين ذلك البوار والأخلاقية المنتشرة بين الناس. ولم يكن واحداً من الأخلاقيين المناهجين الذين يظنون فى أنفسهم فى كل عصر أنهم مدعوون لينعوا على الزمان ما فشا فيه من خبث وشر، ولكن الواقع أن مكياڤيللى، هو الذى راح فى أحد أشد أعماله^(١) تعمقاً فى البحث والتفكير يقول صراحاً: "نحن الإيطاليون غير متدينين وفيينا فساد أكثر من الآخرين". وثم رجل آخر لعله قد قال: "نحن فرادى قوم مرتفعو التطور، فنحن تجاوزنا نمواً حدود الناموس الأخلاقى والدين اللذين كانا طبيعيين بالنسبة لنا أثناء حالتنا غير المتطورة، كما أننا نحتقر القانون المادى، لأن حكامنا غير شرعيين، وقضاتهم وضباطهم رجال شريرون". ويضيف مكياڤيللى إلى ذلك قوله: "لأن الكنيسة ومن يمثلونها ينصبون أمام أعيننا أسوأ قدوة".

وهل يجوز لنا أن نضيف أيضاً قول القائل: "لأن النفوذ الذى كانت تمارسه علينا العهود القديمة كان فى هذا الصدد غير موائم؟" لا يمكن تلقى هذا القول إلا مقترناً بكثير من القيود. وربما جاز أن يصدق عن الإنسانيين (المجلد الأول، القسم الثالث، الفصل الحادى عشر)، وخاصة فيما يتعلق بالمجانة والفجور الذى كان يسود حياتهم. أما سائر الناس بعد ذلك فربما جاز أن نقول بما يقارب الدقة والصحة أنهم بعد أن أصبحوا متعمقين فى الدراية بالعصر العتيق كانوا يستبدلون بالقداسة - وهى المثل الأعلى المسيحى للحياة - نحل العظمة التاريخية (المجلد الأول، القسم الثانى، الفصل الثالث). وبناء على هذا يمكننا أن نفهم إلى أى حد من السهولة كان يمكن إغراؤهم إلى اعتبار تلك الآثام والردائل مسائل لا أهمية لها كان أبطالهم عظماء بالرغم منها. والراجح أنهم لم يكادوا يعون أو يشعرون بذلك هم أنفسهم، وذلك لأننا لو دعينا لاقتباس أى قول من المبادئ فى هذا الموضوع نشعر بالاضطرار مرة ثانية للرجوع إلى الإنسانيين مثل باولو جيوفيو Paolo Giovio، الذى يلتمس المعذرة لحنث اليمين من جيانجالياتزو فيسكونتى Giangalazzo Visconti، الأمر الذى من خلاله تمكن أن يؤسس إمبراطورية، على غرار يوليوس قيصر^(٢). ولم يحدث قط أن عظماء المؤرخين ورجال السياسة الفلورنسيين أذعنوا يوماً لهذه الأقوال الخائعة الوضيعة المقتبسة،

وما يبدو عهيداً عتيقاً فى أعمالهم وأحكامهم على الأمور. إنما جاء على هذا النحو لأن طبيعة حياتهم السياسية غرست فيهم بالضرورة طريقة فكر لها بعض الشبه بطريقة فكر الزمن العهيد.

ومع ذلك، فلا سبيل إلى إنكار أن إيطاليا وجدت نفسها عند بداية القرن السادس عشر غارقة فى بحران أزمة أخلاقية خطيرة، كان خيرة رجالهم لا يكادون يجدون منها مخرجاً.

فلنبداً الآن بقول بضع كلمات قليلة عن تلك القوة الخلقية التى كانت آنذاك أقوى متراس ضد الشر. فلقد كان ذؤ المواهب العليا من رجال ذلك اليوم يرون أنهم سيجدونها فى عاطفة الشرف. وذلك هو هذا الخليط اللغزى الغامض المكون من الضمير والأناثية، الذى كثيراً ما يبقى حياً فى الرجل العصرى بعد أن يفقد، سواء عن نتيجة خطأ منه أم لا، كلاً من الإيمان والحب والأمل. وينسجم هذا الإحساس بالشرف مع قدر كبير من حب النفس والرذائل الكبيرة، وربما أمكن أن يكون فريسة ألوان من خداع مدهش؛ ومع هذا، رغم ذلك، فإن جميع العناصر النبيلة التى تتبقى فى السفينة المحطمة لشخصية إنسان قد تتجمع حولها، ومن هذا النبع قد تستمد خيوطاً وقوة جديدة. لقد أصبحت، بمعنى أوسع كثيراً مما يشيع اعتقاده بين الناس، محكاً واختباراً قاطعاً للسلوك والخلق فى عقول الأوروبيين المثقفين من أبناء يومنا هذا، كما أن الكثيرين ممن لا يزالون يستمسكون بإخلاص بالدين والناموس الأخلاقى إنما يهديهم بدون وعى ذلك الشعور فى إصدار أخطر صنوف البت والقطع فى حياتهم^(٣)

ويخرج عن حدود عرضنا أن نظهر كيف أن الناس فى العهد العتيق أيضاً قد مر بهم هذا الشعور بشكل معين مخصوص، وكيف أنهم فيما بعد، فى العصور الوسطى، داخلهم حس خاص من الشرف وأصبح علامة تتسم بها طبقة معينة. ولا نحن هنا مستطيعون أن نجادل أولئك الذين يعتقدون أن الضمير، لا الشرف، هو القوة الدافعة المحركة. والحق أنه من الأفضل والأنبل أن يكون الأمر كذلك؛ إذ ينبغى أن يكون مسلماً أنه حتى عزماتنا وقراراتنا الأمثل والأجدر ناجمة عن ضمير وإن أعتمته الأثرة إلى حد ما، وينبغى أن نطلق على الخليط اسمه الحق^(٤) ومن المحقق أنه ليس سهلاً على

الدوام، في معالجتنا لإيطاليّ ذلك الزمان، أن نميز بين هذا الحس بالشرف وبين الشهوة إلى الشهرة، الأمر الذي ينزلق إليه الناس بسهولة دون ريب. ومع ذلك فإن كلا الوجدانين يختلفان جوهرياً.

وهذا الموضوع لا يعوزه الشواهد والشهود. وإن أحدهم ممن يتحدثون بوضوح صريح يمكن هنا أن يقتبس ممثلاً عن الجميع. فإنا لنقرأ في كتاب "الماتورات" Aphorisms لجيتشيارديني^(٥) التالي:

«إن من يقدر الشرف تقديراً عالياً ينجح في كل ما يقوم به، وذلك لأنه لا يخشى ضرراً ولا خطراً ولا غرماً (أي نفقة مالية)؛ لقد وجدت ذلك كذلك في حالتي وحياتي الخاصة، ويمكنني أن أقوله وأن أكتبه؛ وعبثاً ومواتاً كل أعمال الرجال الذين لا يتخونون من هذا دافعاً يحركهم».

ومن الضروري أن نضيف، أخذاً بما هو معروف عن حياة الكاتب، أنه إنما يمكن أن يكون هنا متحدثاً عن الشرف وليس عن الشهرة. وقد وضع رابليه Rablais الأمر بطريقة أوضح مما وضعه على الأرجح أي طلياني. والواقع أننا نقتبسه في هذه الصفحات عن غير رغبة منا. فإن الذي يعطينا إياه ذلك الفرنسي العظيم من العصر الباروكي، هو صورة لما يكون عليه عصر النهضة إن سلب الشكل وحرّم الجمال^(٦) ولكن وصفه لحالة مثالية للأمور في الدير الثيليميتي Thelemite قاطع حقاً كَبِيَّةً تاريخية. فتراه وهو متحدث عن السادة والسيدات التابعين "لطائفة الإرادة الحرة"^(٧) Order of Free Will يخبرنا بالتالي:

Enleurreiglen'estoitquecesteclause:Faycequevoudras.Parceque»
gensliberes,biennayz,bieninstruictz,conversantsencompaigniesh
onnestes,ontparnatureuninstinctetaguillonquitoujourslespouseà
faitvertueux,etretiredevic;lequelilznommoyenthonneur.
لهم لا توجد إلا المقولة التالية: افعل ما يترأى لك. وذلك بسبب أن
الناس الأحرار، نوى المحتد النبيل^(٨)، المتعلمين، والمتحدثين في
المجتمعات الشريفة، لديهم بالطبيعة غريزة تدفعهم دائماً إلى الأفعال
الفضلى والابتعاد عن الرذائل؛ وهؤلاء يطلق عليهم اسم الشرفاء».

وذلك هو الإيمان بعينه فى طيبة الطبيعة البشرية الذى ألهم أناس النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، وساعد على تهيئة السبيل للثورة الفرنسية. فعند الإيطاليين أيضاً كان كل إنسان يلجأ إلى هذه الغريزة النبيلة الكامنة فى دخيلته، ومع أنه فيما يتعلق بالشعب فى مجمله - وبخاصة فى أعقاب الكوارث القومية - أن أصبحت أحكام ذات سمة تشاؤمية أكثر شائعة سائدة ، فلا بد لأهمية ذلك الإحساس بالشرف أن تظل موضع التقدير العالى. فإن وجب أن يكون التطور الذى لا حد له للفردية، وهو أقوى من إرادة الفرد، عملاً تقوم به عناية ربانية تاريخية، فإنه لا يقل عن ذلك فى قوته، تلك القوة المعارضة التى أطلت بوجهها وأظهرت نفسها آنذاك بإيطاليا، فكم مرة، وضد أية هجمات عارمة من الأناية والأثرة، تيسر لها أن تفوز بالنصر وتكسب المعركة، ذلك ما لا نستطيع قوله، وبناء على هذا لا يستطيع أى حكم بشرى أن يقدر تقديراً أكيداً القيمة الأخلاقية المطلقة للشعب.

وهناك قوة ينبغى لنا أن نأخذها على الدوام فى حسابنا أثناء إصدارنا الحكم على الناموس الأخلاقى للإيطالى الأعلى تطوراً فى تلك الحقبة ، وتلك هى قوة الخيال، فالخيال يضفى على فضائله ووزائله لونهاً مميزاً خاصاً، وتحت نفوذه وتأثيره تكشف أنانيته التى لا كايح لها عن نفسها فى أفقع صورها وأشكالها.

هذا وإن قوة خياله لتفسر، مثلاً، كونه أول مقامر على نطاق واسع فى الأعصر الحديث ، فالصور التى تمثل ثراء المستقبل وألوان متعه كانت تقوم أمام ناظره بألوان باهرة نابضة بالحياة ، حتى لقد أصبح مستعداً للمجازفة بكل شىء للوصول إليها. وما كانت الأمم للإسلامية إلا لتتوقعه فى هذا المضمار دون أدنى ريب ، لولا أن القرآن أقام منذ البداية تحريماً قاطعاً للميسر ليكون التحريم حصناً منيعاً دون الناموس الأخلاقى العام، ووجّه خيال أتباعه إلى البحث عن الكنوز الدفينة. أما فى إيطاليا فقد بلغ الولوج بهذه اللعبة مبلغاً حاداً ، أو شك فى كثير من الأحيان أن يتهدد أو حتى أن يقضى قضاء مبرماً على كيان المقامر. وقد أصبح لدى فلورنسا فعلاً، عند نهاية القرن الرابع عشر ربيبها الخاص المماثل لكازانوفيا - وهو شخص بعينه اسمه بوناكورسو بيتى^(٩) Buonaccorso Pitti ، قام فى حدثان رحلاته المتواصلة كتاجر وعميل سياسى

ودبلوماسى ومقامر محترف، بكسب وخسران مبالغ طائلة لم يستطع أحد إلا الامراء من أمثال أدواق بربانت وياقاريا وسافوى أن ينافسه. وقد عود بنك اليانصيب الأكبر الذى كان يدعى بلاط روما الشعب على الاحتياج إلى الانفعال والإثارة، وجدت إشباعاً فى ألعاب المجازفة التى تجرى أثناء الفترات الفاصلة بين مؤامرة مدبرة وأخرى. ونحن نقرأ، مثلاً، كيف أن فرانشسكيتو تشيبو Franceschetto Cyb خسر فى دورين من اللعب مع الكاردينال رافاييلو رياريو ما لا يقل عن أربعة عشر ألف بوقية، ثم شكا بعد ذلك إلى البابا أن خصمه قد غشه فى اللعب^(١٠). ومنذ ذلك الوقت أصبحت إيطاليا دار اليانصيب الأولى.

وترجع تلك الخصيصة المميزة للإيطاليين وهى الثأر أو الانتقام إلى خيالهم. وكان الحس بالعدالة، فى واقع الأمر، واحداً تماماً بكل أرجاء أوروبا، وكان أى انتهاك لها، ما دامت لم توقع هناك عقوبة، لا بد أنه كان يحس به الناس جميعاً بنفس الطريقة. على أن شعوباً أخرى، وإن لم تجد من السهل عليها أن تعفو عن الجانى، كانت مع ذلك تنسى بسهولة أكثر، بينما كان الخيال الإيطالى يحتفظ بصورة الخطأ حية ماثلة أمام الأعين بوضوح مخيف مرعب^(١١) والواقع أنه طبقاً للناموس الأخلاقى الشعبى كان الانتقام للدم واجباً حتماً - وهو واجب كان ينفذ بطريقة تجعلنا نرتعد هلعاً - وذلك كله يمنح هذا الانفعال الأخير أساساً معيناً وشديد الحزم بدرجة أكبر. وكانت الحكومة والمحاكم تعترف بوجوده ومبرراته، وحاولت فقط أن تحدده بحدود معينة. ويحدث حتى بين الفلاحين أننا نقرأ عن المادب أو اللانم الثوسطاسبية^(*) Thyestean، وتبادل الاغتيال والقتل على أوسع نطاق. ولتلق نظرة على مثال يوضح ما نقول^(١٢)

فى منطقة أكوابندنتى Aquapendente كان ثلاثة من الصبية يرعون الماشية عندما قال واحد منهم: "هيا بنا نكتشف الطريقة التى يشنق بها الرجال". وبينما كان أحدهم جالساً على أكتاف الآخر، أخذ الثالث، بعد أن ربط الحبل حول رقبة الأول، يعلقه إلى شجرة بلوط، ولكن جاء ذئب، فولى الاثنان الحران من كل قيد الأدبار،

(*) الوليمة الثوسطاسبية: وليمة تؤكل فيها لحوم البشر. (المترجم)

وجريا تاركين الثالث معلقاً فى الهواء. وفيما بعد وجداه ميتاً فدفناه. وفى يوم الأحد جاء أبوه ليجلب له الخبز ، فاعترف له أحد الاثني بكل ما حدث ، وأراه قبر ابنه. وعندئذ قتله الرجل العجوز بسكين، وقطعه إرباً وأستخرج كبده من بطنه، وأولم عليها لوالد الطفل فى المنزل. وبعد تناول الطعام أخبره عن صاحب الكبد وأنه ابنه. وعندئذ بدأت سلسلة من القتل المتبادل بين العائلتين، ولم ينقض شهر حتى كان عدد القتلى ستة وثلاثين شخصاً ما بين نساء ورجال.

ولم يكن مثل هذا الانتقام vendette ، الذى كان يتوارثه الابن من الأب ويمتد إلى الأصدقاء والأقارب البعيدين، بقاصر على الطبقات الدنيا وحدها، بل كان يصل إلى أعلاها مرتبة. وتحفل سجلات التاريخ والروايات فى ذلك الزمان بمثل هذه الأمثلة والحوادث، وبوجه خاص للانتقام الموقع من أجل اغتصاب النساء. وكانت الأرض المثالية لهذه المنازعات والعداوات هى رومانيا Romagna ، حيث كان الانتقام vendetta مجبولاً بالمؤامرات والانقسامات الحزبية من كل نوع يمكن أن يتصوره العقل. وتقدم إلينا الأساطير الشعبية صورة فظيعة عن الوحشية التى انحط إليها هذا الشعب الشجاع والنشيط ذو الهمة. فالأساطير تخبرنا، مثلاً، قصة نبيل فى رافنا جمع كل أعدائه معاً فى برج، وأوشك أن يحرقهم؛ وبدلاً من ذلك فإنه أطلق سراحهم وعانقهم وأولم لهم بسخاء شديد وحفاوة بالغة. وهنا لعب العار بعقولهم فجنوا وتأمروا عليه^(١٢) ولم يدخر الرهبان الأتقياء والقديسون وسعاً فى حضهم بغير انقطاع على الصلح، ولكنهم لم يبلغوا إلا النذر اليسير من ضبط النفس إلى حد معين فى تلك التارات والأحقاد التى تمكنت منهم تماماً؛ ولم يكد تأثير هؤلاء الرهبان يتجاوز الحيلولة بون بذر بنور أحقاد جديدة. وإنا لنعثر فى بعض الأحيان على أوصاف يصف بها الروائيون هذا الأثر الذى يحدثه الدين فى الأنفس- كيف أن أحاسيس الكرم والغفران كانت توقظ على الفجاءة، ثم تعود فيصيبها الشلل تحت قوة ما حدث مرة ولا يمكن البتة رده. وحتى البابا نفسه لم يكن موقفاً دائماً كصانع سلام بين الناس.

**«فذات يوم رغب البابا بول الثانى أن ينتهى الخلاف بين أنتونيو كافاريلو
Antonio Cafarello وعائلة ألبرينو Albrino ، وأمر جيوفانى ألبرينو**

وأنتونيو كافاريللو أن يمثل بين يديه ، وأمرهما بأن يتبادلا القبلات ،
وأوعدهما بغرامة ألفى دوقية إن جددا خلافهما، وبعد ذلك بيومين خر
أنتونيو صريعاً بطعنات من يد چياكومو البرينو نفسه، ابن چيوهاني،
الذى جرحه ذات مرة قبل ذلك ؛ وامتلات نفس البابا بالغضب وصادر
بضائع البرينو ودمر بيوته ، ونفى كل من الأب والابن من روما^(١٤)

وكثيراً ما كانت الأيمان والمراسم، التى حاول بها الأعداء المصطلحون أن يحموا
أنفسهم من الحنث بها، فظيعة رهيبة. فعندما التقى الخصمان، حزبا نوقى Nove
وبوبولارى Popolare وتبادلا كل اثنين منهما القبلات فى الكاتدرائية بمدينة سينا ليلة
عيد الميلاد فى عام ١٤٩٤^(١٥)، قرئ يمين ينكر ويحرم كل خلاص من النار فى الزمان
والأبد على كل حانث يحنث فى المستقبل ويحرق العهد - وهو قسم مدهش وقطيع
لم يسمع الناس بمثله قط. وكانت آخر التعازى الدينية ساعة الموت تتجه إلى إلقاء
اللعة والثبور على الرجل الذى ينقض هذا القسم. ومع هذا فمن الواضح أن مثل هذا
المرسوم الحفى إنما يمثل، أو يكاد ، الحالة اليائسة التى بلغها الوسطاء فى الصلح
أكثر مما يقدم أى ضمان حقيقى للسلام ؛ وذلك نظراً لأن أصدق صلح إنما هو
بالضبط ذلك الصلح الذى ليس هناك أقل احتياج إليه.

وهذه الحاجة للانتقام التى أحس بها الإيطالى المثقف عالى المنزلة، والقائمة على
الأساس الصلب المتين لعادة شعبية مشابهة، من الطبيعى أن تكشف نفسها فى ألف
ناحية وشكل مختلف، وتتلقى الاستحسان المطلق للرأى العام، كما ينعكس فى أعمال
الروائيين^(١٦) فكلهم على رأى واحد فى نقطة هى أنه، فى حالة تلك الإصابات والإهانات
التى لا تقدم عنها العدالة الإيطالية أى قصاص، وأكثر من ذلك، فى حال أولئك الذين
لا يستطيع أى قانون من وضع الإنسان أن يتخذ الإجراءات ضدهم على نحو ملائم،
يصبح كل رجل حراً فى أن يتناول القانون فى قبضة يده. وكل ما فى الأمر أنه ينبغى
أن ينطوى الانتقام على فن، وأن التشفى وإرضاء النفس ينبغى أن يكون مشكلاً من
الإصابات المادية والتحقير الأخلاقى الأدبى للمعتدى والأثم. وكان مجرد استيفاء
النصر البحت الوحشى القبيح الصورة القائم على القوة يعد فى نظر الرأى العام شيئاً

لا يرضى ولا يشفى غلة. فإن الرجل بأكمله ومع إحساسه بسمعته وشعوره بالسخرية، وليس فقط قبضتى يديه، ينبغي أن ينالوا النصر.

وكان الرجل الإيطالى فى ذلك الزمان لا يتهيب حقاً أو ينقبض من إخفاء الحقيقة لكي يصل إلى أغراضه، ولكنه كان خالياً تماماً من النفاق فى كل ما يتعلق بالمبادئ من أمور. فهو فيها لم يكن يحاول أن يخادع نفسه ولا الآخرين. وبناء على ذلك كان الانتقام يعلن عنه بصراحة تامة أنه ضرورة تستلزمها الحياة البشرية. وكان المترنون ثابتو الجأش من الرجال يصرحون بأن الانتقام شىء جدير بالشأن إلى أقصى حد إذا فُك ما بينه وبين نويات الانفعال من ارتباط، وتم تنفيذه ببساطة عن نوافع الوجوب، لكي يتعلم الرجال الآخرون أن يتركونا نعيش بلا أذى^(١٧) ومع هذا فإن مثل هذه الأمثلة لا بد أنها لم تشكل إلا أقلية صغيرة بالمقارنة إلى تلك الحالات التى كانت فيها نويات الانفعال تبحث لنفسها عن مخرج. وهذا النوع من الانتقام يختلف اختلافاً واضحاً عن ثأر (ترة) الدم، الذى سبق الحديث عنه؛ فبينما كان ثأر الدم يظل إلى حد متفاوت زيادة ونقصاناً مقيماً داخل حدود أخذ الثأر أو القصاص - iustalionis - فإن الانتقام يذهب بالضرورة إلى أبعد من ذلك كثيراً، حيث أنه ليس فقط يستلزم إقرار ومصادقة الحس بالعدالة، ولكنه يتوق إلى تلقى الإعجاب، بل حتى تراه محاولاً ضم واستمالة الضحك إلى صفه.

وهنا يكمن السبب الذى من أجله كان الناس راغبين فى الانتظار طويلاً لتوقيع انتقامهم. وكان الانتقام الجميل bellavendetta يتطلب، فى العادة، جمعاً بين الظروف التى من أجلها كان من الضرورى الانتظار المقترن بالصبر. ويتولى الروائيون وصف هذا النضج التدريجى لمثل هذه الفرص، حيث يدبجونها بابتهاج مخلص تابع من أعماق القلب.

ولا حاجة بنا إلى بحث الناموس الأخلاقى للأعمال والتصرفات التى يكون فيها المدعى والقاضى نفس شخص واحد. فلو أمكن إطلاقاً أن تلتمس المعاذير لذلك التعطش الإيطالى إلى الانتقام، فلا بد أن يكون ذلك بإثبات وجود فضيلة قوية مقابلة له - هى فى أغلب الأمر عرفان الجميل. فإن نفس قوة الخيال التى تحتفظ فى الصدور

وتضخم فى القلوب حزازات الخطأ والاعتداء الذى حل بالفرد يوماً ما ربما جاز أن يتوقع منها أيضاً أن تحتفظ بذكرى حية عن الفضل والإنعام التى تلقاها ذلك الفرد من قبل^(١٨) ومع هذا، فليس فى الإمكان إثبات ذلك فيما يتعلق بالامة ككل، بالرغم من أنه قد يمكن رؤية آثار طفيفة له فى الخلق الإيطالى فى زماننا الحاضر. فإن الشكر الذى تظهره الطبقات الدنيا لقاء المعاملة الرقيقة والذكرى الجميلة لدى الطبقات العليا على الأدب والكياسة فى الحياة الاجتماعية، أمثلة تثبت ذلك وتوضحه.

وهذه الصلة بين الخيال والصفات الأخلاقية لدى الإيطالى إنما تكرر نفسها باستمرار. وإذا حدث، رغم ذلك، أننا وجدنا تقديرات أدق وأرزن فى حالات يروق فيها للشمالى من الأوروبيين أن يتبع دوافعه، فَمَرَدَ ذلك أن التطور الفردى بإيطاليا لم يكن فحسب أوضح وأبرز معالماً وأقدم عهداً من حيث الزمان، بل كان كذلك أكثر عدداً وأوسع انتشاراً. وحيثما كان ذلك هو الحال فى أقطار أخرى كانت النتائج مماثلة أيضاً. فنحن نجد، على سبيل المثال، أن التحرر المبكر للشباب من سلطان البيت والوالد شىء شائع بالنسبة لأمريكا الشمالية وإيطاليا. والذى يحدث فيما بعد، فى داخل الطبائع الأكثر سماحة أنه تنشأ رابطة من العاطفة الأكثر حرية بين الوالدين والأبناء.

ولا شك أن من العسير إلى أقصى حد إصدار الحكم العادل حول الأمم الأخرى فى فلكى الأخلاق والإحساس. ففى هذين الصددين قد يتطور شعب تطوراً عالياً جداً، ومع هذا يتم ذلك بطريقة يبلغ من غرابتها أن أجنبياً يشهده يكون غير قادر على الإطلاق أن يفهم ذلك التطور. ولعل حظ جميع أمم الغرب فى هذه الناحية متعادل تماماً.

ولكن حيثما كان الخيال يمارس أشد أنواع نفوذه قوة وطفياًناً جارفاً على النواميس الأخلاقية كان ذلك فى الاختلاط غير المشروع للجنسين (الذكر والأنثى). فمن المعلوم لنا جميعاً أن البغاء كان يمارس فى العصور الوسطى بحرية ووفرة تامة قبل ظهور مرض الزهري. على أن البحث فى هذه المسائل لا ينتمى إلى مجال عملنا هذا. أما ما يبدو أنه خصيصة من سمات إيطاليا فى ذلك الزمان فهو أن الزواج هنا وحقوق الزوجية كانت، فى الأغلب وبطريقة مقصودة ومتعمدة، أكثر تعرضاً للوطء بالأقدام منها

فى أى مكان آخر. على أننا هنا لا نتحدث عن بنات الطبقات العليا اللاتى كن يعزلن بحرص شديد. وكانت كل العواطف المشبوبة توجه نحو السيدات المتزوجات.

وفى ظل هذه الظروف يصبح من الجدير بالذكر أنه، بقدر مبلغ علمنا، لم يكن هناك نقصان فى عدد الزيجات، وأن الحياة العائلية لم تُصَبْ بأية حال بذلك التفكك والانحلال الذى لايد أنها كانت تصاب به فى الشمال لو تشابهت الظروف. لقد كان الرجال يرغبون أن يعيشوا كما يشتهون ولكن ليس بأية حال إلى حد التخلّى عن العائلة، حتى عندما لم يكونوا متأكدين أن الحياة الزوجية هى كلها ملك لهم. كما أنه لم يحدث أن العرق أو العنصر انحط، لا جسمانياً ولا عقلياً، نتيجة لذلك؛ وذلك لأن هذا الانحطاط الفكرى الواضح الذى أطل برأسه قرب منتصف القرن السادس عشر يمكن بالتأكيد تبين أسبابه فى علل ودواعى سياسية وكنسية إكليروسية، حتى لو لم نفترض أن دائرة المنجزات الممكنة لعصر النهضة قد تم تنفيذها. فإن الإيطاليين، بالرغم من تهتكهم وفجورهم، استمروا، جسمانياً وعقلياً، شعباً من أشد شعوب أوروبا تمتعاً بالصحة وحسن العافية والمولود^(١٩)، كما أنهم احتفظوا بموقعهم هذا، مع تحسن أخذهم بالأخلاقيات، حتى زماننا هذا.



شكل ٢١٦ زوجان يرقصان ومشهد غرامى
نقش فلورنسى على النحاس، ١٤٧٠-١٤٨٠

وعندما نتقدم للنظر نظرة أدق إلى أخلاقيات الحب فى عصر النهضة يصدنا وضع عجيب مناقض. فإن الروائيين والشعراء الهزليين يدفعوننا أن نفهم أن قوام الحب إنما يكمن فقط فى المتعة الحسية، وأنه لكى يتم الفوز بتلك الغاية يسمح باتخاذ جميع الوسائل، المأسوية والهزلية سواء، وليس ذلك فقط، بل إنها تثير الاهتمام بقدر ما تحوى من جرأة وعدم مراعاة للمثل والضمير. ولكن لو تحولنا إلى أحسن الشعراء الغنائيين وكُتَّاب المحاورات وجدنا لديهم حباً عميقاً وروحياً من أنبل الأنواع، تعبيره الأخير والأسمى فى إحياء للاعتقاد القديم فى وحدة أصيلة للأرواح مع الكائن الربانى. وكانت كلتا طريقتى الإحساس أصيلتين صادقتين، وكان فى الإمكان أن تتعايشا معاً فى فرد واحد. وليس يعد بالضبط من الأمور المجيدة التى يتفاخر بها، ولكنها حقيقة واقعة أن هذا الوجدان فى الرجل المثقف فى العصور الحديثة يمكن أن يكون، لا مجرد موجود غير مُدرَك ولا محسوس فى كل من أعلى مراحلها وأدناها، ولكنه قد يكشف هكذا عن نفسه صراحاً، بل حتى بصورة فنية. والرجل العصرى، مثله مثل إنسان العصر العتيق، يعد فى هذا الصدد أيضاً عالماً مصغراً، وهو أمر لم يكنه ولم يستطع أن يكونه إنسان العصور الوسطى.

ولنبداً بناموس الروائيين الأخلاقى. فإنهم يعالجون بوجه رئيسى، كما أوضحنا، شؤون المتزوجات من النساء، وتبعاً لذلك يعالجون شؤون الزنا.

وعندى أن الرأى المذكور أعلاه (القسم الرابع، الفصل الثمن) عن المساواة بين الجنسين يعتبر ذا أهمية عظيمة فيما يتعلق بهذا الموضوع. فالمرأة عالية التطور والثقافة تتصرف فى نفسها بحرية غير معروفة فى الأقطار الشمالية؛ وهنا لا تقوم الخيانة بتحطيم حياتها بنفس الطريقة الفظيعة، ما دام لم يعقبها نتيجة خارجية مكشوفة. إذ ليس لادعاء الزوج الحق فى إخلاصها الزوجى ذلك الأساس الثابت الوطيد الذى يتخذ فى الشمال عن طريق الشعر والحب والتودد الغزلى والارتباط بالخطبة. فبعد أوجز فترة تعارف ممكنة مع زوج المستقبل تغادر الزوجة الصغيرة الدير أو سقف دار أبيها لتدخل عالماً تبدأ فيه شخصيتها فى التطور سريعاً. ومن ثم فإن حقوق الزوج تكون لهذا السبب مشروطة، بل إنه حتى الرجل نفسه الذى ينظر إليها فى ضوء

الشريعة المالية jusquoesito لا يفكر إلا فى الشروط الظاهرية للعقد، وليس فى الحب والعواطف. وكانت العروس الشابة الجميلة لرجل عجوز ترد الهدايا والرسائل لمحبتها الشاب فى ثنايا عزمها الاكيد على حفظ شرفها honesta ولكنها تفرح جذلانة بحب شاب من أجل ما جبل عليه من امتياز عظيم؛ كما أنها تدرك أن امرأة نبيلة يجوز لها أن تقع فى حب رجل ذى جدارة واقتدار دون أى مساس بشرفها^(٢٠) ولكن ما أقصر الطريق بين مثل ذلك الامتياز وبين الإذعان والاستسلام الكامل.

ويبدو أن الوضع الأخير يكاد فى الواقع أن يجد المبررات، عندما تحدث الخيانة الزوجية من جانب الزوج. فأما المرأة، وهى الواعية لكرامتها الخاصة، فهى لا تشعر بهذا فقط بوصفه ألماً موجعاً، وإنما هى أيضاً ترى فيه تحقيراً ومهانة وخداعاً، ثم تشرع فى العمل، وكثيراً ما يكون بوعى هادئ بما هى مقبلة عليه، لتضع خطة الانتقام الذى يستحقه الزوج. ويجب أن تتولى الكياسة واللباقة تحديد درجة العقوبة المناسبة لهذه الحالة المعينة. فإن أعمق الجراح، مثلاً، ربما مهد السبيل للصلح ولحياة أمنة فى المستقبل، لو أمكن فقط حفظ الأمر سرّاً. والروائيون، الذين يمارسون هم أنفسهم هذه الخبرات أو يخترعونها حسب روح العصر، تمتلئ نفوسهم بالإعجاب عند ما ينزل الانتقام بمهارة بالحالة الخاصة بين يديهم - وذلك فى الحق، عندما يكون الانتقام قطعة فنية. ويدهى أن الزوج لا يعترف فى قرارة نفسه قط بهذا الحق فى القصاص، ولا يخضع له إلا بدافع الخوف أو عن حكمة وحصافة. وحيثما غابت هذه الدوافع، أى حيثما تعرّضه خيانة الزوجة، أو قد يجوز أن تعرّضه، لسخرية من حوله من الناس، يصبح الموضوع مأساوياً، ولا يندر أن ينتهى بالقتل أو بانتقام آخر من نوع عنيف. ومن الخصائص المميزة للدافع الحقيقى الذى تنجم عنه هذه الأعمال أن الأمر لا يقتصر فقط على الأزواج، بل يتعداه إلى إخوة المرأة^(٢١) أو أبيها، حيث يشعرون بأن لهم ليس فقط مبرر للأخذ بالثأر، بل بأنهم ملزمون بأخذه. وبالتالي فليس للغيرة دخل بالأمر، وليس للاستنكار الخلقى إلا الدخل القليل؛ وإنما السبب الحق هو الرغبة فى إفساد نصر الآخرين. ويقول بانديلو^(٢٢):

«ونحن في أيامنا هذه نرى امرأة تدس السم لزوجها لتشبع شهواتها، ظناً منها أن الأرملة تستطيع أن تفعل كل ما تهوى. وأخرى تعمد، خشية افتضاح أمر حباها amour غير المشروع، إلى قتل زوجها بيد عشيقها. ومع أن الآباء والأخوة والأزواج قد يهبون لحو العار بالسم وبالسيوف وبأية وسيلة أخرى ممكنة، فإن النساء يواصلن مع ذلك متابعة ما تمليه عليهن شهواتهن، غير مباليات تماماً بشرفهن وحياتهن».

ويعود مرة أخرى، وفي درجة انفعال أهدأ، فيصبح قائلاً:

«أتمنى ألا نضطر في كل يوم أن نسمع أن رجلاً قد قتل زوجته بسبب شكه في عدم إخلاصها؛ وأن آخر قتل ابنته بسبب زواج سرى؛ وأن ثالثاً كلف من يقتل عنه أخته لأنها أبت أن تتزوج على مشيئته! ومن القسوة البالغة أن ندعى لأنفسنا الحق في أن نفعل ما نشاء ولا نسمح للنساء بفعل ذلك نفسه. فإن هن فعلن شيئاً لا نرضاه، برزنا على الفور بالحبال والخناجر والسم. فيا لحماقة الرجال إذ يظنون أن شرفهم وشرف بيوتهم يتوقف على شهوة المرأة!»

والمناسة التي كانت تنتهي بها عادة تلك الأمور كانت معروفة مشهورة ، بحيث أن الروائي كان يعد الشاب العاشق المفتون المههد رجلاً ميثاً لا محالة، حتى وهو يمضى هنا وهناك حياً مَرِحاً. وحدث أن الطبيب وعازف العود أنطونيو بولونيا⁽²³⁾ Antonio Bologna عقد زواجاً سرياً بدوقة أمالفي Amalfi المترملة، من بيت أراجون. وبعد ذلك بمدة قصيرة تمكن أخوها من الإيقاع بها هي وأطفالها وقتلهم في إحدى القلاع. وكان أنطونيو في تلك المدة مقيماً في ميلانو وهو يجهل مصيرهم ولا يبرح يعلل النفس بأمل اللقاء بهم مرة ثانية، وكان تحت مراقبة دقيقة من قتلة ماجورين، وذات يوم وهو في صحبة إيبوليتا سفورزا، أخذ يغنى على العود قصص حظه العاشر. وعندئذ انبرى صديق لبيت الإمارة، ويدعى ديليو Delio ، "قروى الحكاية حتى هذه النقطة على مسامح سكيبيوني أتيلانو Scipione Atellano ، وأضاف إلى ذلك أنه سوف يحولها إلى موضوع لرواية قصصية، وذلك ليقينه بأن أنطونيو سيقتل. والطريقة التي حدث بها ذلك، تقريباً تحت أنظار ديليو وأتيليانو توصف بقلم بانديللو وصفاً مثيراً (i,Nov.26) .

ومع ذلك فالروائيون عادة ما كانوا يظهرّون العطف على العنصر الفكاهي الماهر والملاح الماكرة التي قد تقع مصاحبة للزنا. فكانوا يصفون بابتهاج كيف كان العاشق يتمكن من إخفاء نفسه في المنزل، ويوضحون جميع الوسائل والطرق والحيل التي كان يتصل بواسطتها بخليته، والصناديق ذات النمارق (الثلث) والطلوى التي كان في الإمكان تخبئته فيها ، وحمله بعيداً عن نطاق الخطر. ويوصف الزوج المخدوع أحياناً بأنه مغفل يجب أن يضحك منه الناس، ويوصف طوراً بأنه منتقم لشرفه متعطش للدم؛ وليس هناك موقف ثالث بعد هذين إلا عندما تصور المرأة بأنها شريرة وقاسية الفؤاد، وأن الزوج أو العاشق هو الضحية البريئة. ومع ذلك ففي الإمكان أن نلاحظ أن ما يروى من النوع الأخير ليست، لو شئنا القول الدقيق، تعد من القصص والروايات وإنما هي أمثلة للتحذير منتزعة من الحياة الحقّة^(٢٤)

وفي غضون القرن السادس عشر، عندما وقعت الحياة الإيطالية تحت النفوذ والتأثير الإسباني أكثر فأكثر، فإن عنف الوسائل التي كانت تلجأ إليها وتستخدمها الغيرة ربما يكون قد زاد. ولكن ينبغي التفريق بين هذا الطور الجديد وبين العقوبة الموقعة جزاء الخيانة التي كانت موجودة من قبل، والتي تأسست أخذاً بروح عصر النهضة نفسه. فبينما بدأ تأثير ونفوذ إسبانيا يتناقص ، أخذت هذه المبالغات المسرفة في الغيرة تتناقص هي الأخرى، حتى ترامى الأمر أنه قرب نهاية القرن السابع عشر اختفت من الوجود تماماً، وحل محلها ذلك عدم الاهتمام واللامبالاة الذي كان يعد عشيق المرأة المتزوجة *cicibeo* شخصية لا يستغنى عنها في أية دار، ولا يرى أية غضاضة في عشيق أو اثنين (*patiti* زائدين عن الحاجة (أي كمالة عدد)).

ولكن من ذا الذي يأخذ على عاتقه المقارنة بين ذلك القدر الهائل من الشر الذي تتضمنه جميع هذه الحقائق ، وبين ما كان يحدث في دول أخرى؟ فهل كانت، مثلاً، رابطة الزوجية تعد حقاً أكثر قداسة بفرنسا أثناء القرن الخامس عشر منها في إيطاليا؟ فالحكايات النظرية الفرنسية القديمة *fabliaux* ومسرحيات الفارص الفكاهية ستقودنا أن نشك في ذلك، بل تدعونا إلى الميل للاعتقاد بأن الخيانة الزوجية كانت شائعة بين الناس بنفس الدرجة ، وإن كانت عواقبها التراخيديّة أقل انتشاراً، لأن الفرد

هناك كان أقل تطوراً ، وادعاءاته كانت محسوسة بوعى أقل منه بإيطاليا . وهناك أية أخرى، مع ذلك، تساند الشعوب الجرمانية وهى تكمن فى وجود الحرية الاجتماعية التى تتمتع بها عندهم البنات والنساء، التى استرعت أنظار الرحالة الإيطاليين ، وأثرت فيهم بكل من إنجلترا والأراضى الواطئة (هولندا). ومع هذا فلا ينبغي لنا أن نعلق أهمية كبيرة جداً على هذه الحقيقة. فلا شك أن الخيانة الزوجية كانت كثيرة جداً، وكانت تؤدى فى حالات معينة إلى انتقام دموى. وما علينا إلا أن نتذكر كيف كان الأمراء فى الشمال يتصرفون مع زوجاتهم عند أول شبهة تشير لعدم الأمانة الزوجية.

ولكن لم تكن الرغبة الحسية فقط، ولا مجرد الشهوة المبتذلة الغليظة للرجل العادى، هى وحدها التى تعد تحيفاً على الأرض المحرمة لدى الإيطاليين فى ذلك الزمان، بل كانت أيضاً شهوة خير الناس وأنبئ الناس، ولم يكن ذلك فحسب لأن الفتاة غير المتزوجة لم تكن تظهر فى اجتماعات المجتمع، بل أيضاً لأن الرجل، بدرجة تتناسب واستكمال طبيعته الخاصة وتماهما، كان يحس بنفسه منجذباً بقوة إلى أقصى حد إلى المرأة التى طورها الزواج. أولئك هم الرجال الذين عزفوا أنبل نغمات الشعر الغنائى الليريكى، والذين حاولوا فى أبحاثهم وحواراتهم أن يعطونا صورة مثالية ومجسدة للشهوة الملتهبة الأكلول- l'amordivino فهم عندما يشكون من قسوة رب الحب المجنح لا يفكرون فقط فى خفر المحبوبة أو صلابة قلبها، ولكن أيضاً فى لا مشروعية الشهوة نفسها. وهم ينشدون رفع أنفسهم فوق هذا الوعى الأليم عن طريق ذلك التجسيد الروحى للحب، الأمر الذى وجد سنداً يدعمه فى المذهب الأفلاطونى للروح ، والذى يجد أشهر ممثل له فى شخص بييترو بيمبو. وهو يقدم بنفسه أفكاره فى هذا الموضوع فى الكتاب الثالث من أسولانى Asolani ، كما أنه يُعرض ويُقدم تقدماً غير مباشر بواسطة كاستيليونى Castiglione ، الذى يضع فى فمه ويجعله ينطق ذلك الخطاب البديع الذى يختم به الكتاب الرابع من "رجل البلاط" Cortigiano ، وإن أحداً من هذين الكاتبين لم يكن رواقياً فى سلوكه، ولكن فى ذلك الزمان كان مما له معنى وقيمة كبيرة أن يكون الرجل فى نفس الحين رجلاً شهيراً وطيباً، وأن هذا الثناء ينبغى أن يمنح لهما كليهما؛ وكان معاصروهما يتقبلون كل ما يقوله هذان الرجلان على أنه تعبير حق عن وجدانهما، وليس من حقنا أن نحقره بوصفه افتعالاً لا صدق فيه. وسيرى كل من حمل

نفسه مئونة دراسة الخطبة الواردة في "رجل البلاط" Cortigiano إلى أى حد ستكون فكرتنا هزيلة إذا نحن قصرنا دراستها لها على قطعة صغيرة مقتبسة. فقد كانت تعيش بإيطاليا آنذاك كثيرات من النساء المتميزات اللواتى يُدُنُّ بشهرتهن بوجه خاص لعلاقات من هذا النوع، مثل جوليا جونزاجا Giulia Gonzaga ، وثيرونیکا دا كوريجيو Veronicada Coreggio ، ثم فوق كل شيء فيتُوريا كولونا Vittoria Colonna. ذلك أن أرض الخليعين والهازلين من الرجال كانت تحترم هؤلاء النسوة وهذا الصنف من الحب - وماذا نستطيع أن نزيدك من قول فى صفهن؟ إذ لا نستطيع أن نقول إلى أى بعد يمكن أن يكون للغرور علاقة فيه بالموضوع، وإلى أى مدى كانت فيتُوريا تصاب بالزهو والخلابة حين تسمع حولها الأقوال والتعبيرات المتسامية الرفيعة التى ينطق بها الحب اليائس الفاقد للأمل من لسان أشهر رجال إيطاليا. فإذا كان الأمر هنا وهناك زياً يتزى به أو موضحة تتخذ، فإنه لم يكن مع ذلك بالثناء الهين عند فيتُوريا أنها، على الأقل، لم تخرج قط عن تلك الموضحة، كما أنها فى أخريات سنيها أحدثت فى الأنفس أعمق أنواع الانطباعات والتأثيرات. ولا يغيين عنا أنه انقضت أيام وأيام قبل أن تتمكن أقطار أخرى كثيرة من أن يكون لها أشياء مماثلة تستطيع عرضها على أنظارنا^(٢٥)

من أجل ذلك فإن الخيال هو المناط وهو الشيء الذى يقود الناس ويتحكم فيهم أكثر من أى شيء آخر، وفيه يكمن سبب واحد عام يوضح لماذا كان كل حب وشهوة يسلك طريق العنف، ولماذا كثيراً ما كانت الوسائل المستخدمة فى إشباع الشهوة إجرامية. وهناك نوع من العنف لا يستطيع التحكم فى نفسه لأنه يتولد عن الضعف؛ فأما فى إيطاليا فإن الذى نجده أمامنا هو الفساد الذى حل بالطبائع القوية. ويتخذ الفساد فى بعض الأحيان هيئة هولة جبارة، وتبدو الجريمة كأنما تتخذ لنفسها وجوداً يكاد يكون شخصياً خاصاً.

وكانت العوائق المقيدة التى يعى الرجال وجودها قليلة قلة ملحوظة. فكان كل فرد، ولو كان من سفلة الناس، يحس بنفسه محرراً جوائياً من كل تحكم للدولة وشرطتها، الذين كان حقهم فى الاحترام غير مشروع، وكان هذا التحكم هو نفسه مؤسساً على العنف؛ كما لم يعد أى إنسان يؤمن بعدالة القانون. فإذا ارتكبت جريمة قتل كانت

تعاطفات الشعب، قبل معرفة ظروف القضية، تتراص بعضها فوق بعض تراصاً يقوم على الغريزة إلى جانب القاتل^(٢٦) ومظهر الكبرياء والرجولة الشهم قبل تنفيذ حكم الإعدام وفي ساعته، يستثير من الإعجاب ما ينسى واصف المنظر وروايه في أغلب الأحيان أن يخبرنا لاية جريرة أنفذ حكم الموت في المجرم^(٢٧) ولكن عندما نضيف إلى ذلك شعور احتقار القانون المضمّر في الأنفس ، وإلى ما لا يحصى من أحقاد وعداوات كامنة كانت تطالب بإرواء غلتها، فإن الإفلات من العقوبة الذى كانت الجريمة تحظى به أثناء أوقات الاضطرابات السياسية، لم يعد عند ذاك يسعنا إزاءه إلا أن نعجب كيف أن الدولة والمجتمع لم يصابا بالانحلال التام المطلق. إذ كانت أزمات من هذا النوع تحدث في نابولى أثناء فترة الانتقال من حكم أسرة أراجون إلى الحكم الفرنسى والإسباني، كما كان يحدث في ميلانو بعد عمليات الطرد والعودة المتكررة من وإلى العرش التي جرت لأسرة سفورزا؛ ففي مثل هذه الأوقات كان أولئك الرجال الذين لم يعترفوا في قلوبهم قط بروابط القانون والمجتمع يتقدمون إلى الساحة ، ويمنحون الحرية المطلقة لغرائزهم في القتل والسلب والنهب. ولنأخذ الآن، على سبيل المثال، صورة مأخوذة من فلك أخط منزلة.

فعندما كانت دوقية ميلانو تقاسى المتاعب من الاضطرابات التي عقبته وفاة جيانجالياتزو سفورزا Giangaleazzo Sforza ، حوالى عام ١٤٨٠ انتهى الأمن في المدن الإقليمية. وذلك ما جرى في بارما^(٢٨)، حيث وافق الحاكم الميلانى، الذى أخافته التهديدات باغتياله، وبعد أن عرض بلا جدوى المكافآت فى سبيل اكتشاف الأثمين، على فتح أبواب السجون على مصاريعها وإطلاق سراح أشد المجرمين عتواً. فأصبح من الحوادث التي تحدث كل يوم جرائم السطو على المنازل وهدم البيوت والاعتداءات الصارخة على الأعراس ، المنافية لكل ، خجل والاعتداءات العامة ، والقتل العلنى، وبخاصة قتل اليهود. وكان مرتكبو هذه الأعمال الخبيثة فى بادئ الأمر يتسحبون فى الطرقات فرادى وعلى وجوههم الأقنعة؛ وسرعان ما أصبحت مناسر ضخمة من الرجال المسلحين تخرج للعمل كل ليلة بون خفاء أو تنكر. وشاعت خطابات التهديد، وذاعت بوفرة شديدة الهجائيات (الساتيرات) والفكاهات الفاضحة؛ كما أن أنشودة (سونيتة) تتهجم ساخرة بالحكومة ربما أثارت، فيما يبدو، من بالغ غضبها أكثر مما أثارت

الأوضاع المخيفة التي تردت فيها المدينة. ومن أعجب الأمور أن الأوعية المقدسة كانت تسرق من كثير من الكنائس بما حوت من خبز القربان، وهذه الحقيقة من سمات المزاج الذي كان يستفز هذه الاعتداءات في حنايا النفوس. ومن المستحيل علينا أن نقول ماذا يحدث الآن في أى قطر من أقطار العالم لو كفت الحكومة والشرطة عن العمل والحركة، ومع ذلك فإنها عطلتا بوجودهما تأسيس سلطة مؤقتة؛ ولكن الذي كان يحدث آنذاك بإيطاليا يتخذ طابعاً خاصاً به هو وحده يمضى من خلال النصيب الكبير الذى يسهم به فيه كل من الكراهية الشخصية والانتقام. والحق، أن الانطباعة التي تطبعها إيطاليا فى أذهاننا أثناء تلك المدة هى أنه حتى فى الأزمنة الهادئة كانت الجرائم الكبرى أشيع منها فى أقطار أخرى. أجل أننا يمكن أن يضللنا أننا نملك تفاصيل أوفى فى مثل هذه الأمور هنا أكثر من أى مكان آخر، وأن نفس قوة الخيال التى تضيف طابعاً خاصاً مميّزاً على الجرائم التى ترتكب فعلاً كانت السبب فى أن كثيراً منها كانت تخترع اختراعاً بينما هى لم تحدث فى الواقع أبداً. نعم إن مقدار العنف ربما كان فى نفس قدره العظيم فى الأماكن الأخرى. فمن العسير أن نقول بتأكيد جازم هل كان الناس فى عام ١٥٠٠ يعيشون فى أمان أكثر من هذا، وهل كانت الحياة البشرية، قبل كل شىء، تُحمى وتُصان أحسن من ذلك على كل حال، ببلاد أقوى وأثرى مثل ألمانيا، بما حوت من فرسان لصوص، ومتسولين مغتصبين، وقطاع طرق شديدي الجرأة. على أن هناك شيئاً واحداً مؤكداً، وهو أن الجرائم العمد، التى كانت ترتكب بطريقة حرفية ومقابل أجر مدفوع على يد طرف ثالث، كانت تحدث بإيطاليا بكثرة شديدة ومرعبة.

وفيما يتعلق بالمناسر وقطع الطرق، فإن إيطاليا، ويوجه خاص بالولايات الأكثر ثراءً ويسراً مثل توسكانيا، كانت بالتأكيد لا تزيد أكثر، وربما أقل، تعرضاً لهذا الداء من غيرها من دول الشمال. ولكن الشخصوس التى نلتقى بها يتميز بها هذا القطر. إذ من العسير، مثلاً، أن نجد فى أى مكان آخر حالة كحالة ذلك القسيس الذى قادته شهوته القوية بالتدرج رويداً رويداً من تجاوز إلى آخر، حتى انتهى به المطاف أن رأس عصاية (منسراً) من اللصوص. إن ذلك العصر يضع بين أيدينا هذا المثال وغيره كثير^(٢٩) ففى يوم ١٢ أغسطس ١٤٩٥، حبس القسيس دون نيكولو دي بيليجاتي Don-Niccolode'Pelegati من فيجارولو فى قفص من حديد خارج برج سان چوليانو فى

فيرارا. كان قد احتفل بأولى صلوات القديس مرتين؛ وفي المرة الأولى كان قد ارتكب جريمة قتل في نفس اليوم، ولكنه تلقى الغفران من روما؛ ثم قتل أربعة أشخاص وتزوج من زوجتين كان يرتحل معهما علناً أمام الناس بكل مكان. ثم بعد ذلك اشترك في كثير من الاغتيالات، واغتصب النساء، واختطف أخريات بالقوة، وأخذ يقوم بعمليات النهب في كل مكان، وكان يعكر جو إقليم فيرارا بثلة من الأتباع يرتدون ملابساً رسمياً، يأخذون الطعام والمأوى غضباً بكل أنواع العنف. وعندما نعمل الفكر فيما يتضمنه ذلك كله، تصبح ضخامة الوزر الملقى على رأس ذلك الرجل بمفرده عبئاً ثقيلاً هائلاً. وكان لرجال الدين والرهبان امتيازات عديدة ولا يخضعون إلا لقدر قليل من الإشراف، وكان فيهم دون أدنى ريب كثير من القتلة وغيرهم من فعلة السوء الأشرار- على أنه لا يكاد يقوم بينهم بيليجاتي ثانٍ. والحق إنه يعد شيئاً آخر تماماً، وإن لم يكن مقبولاً بأية حال من الناحية الأخلاقية، عندما كانت الشخصيات المحطمة سمعتهم تلتجئ إلى قلنسوة الراهب لكي تقلت من ذراع القانون، شأن القرصان الذي عرفه ماسوتشييو Massuccio بأحد الأديرة بمدينة نابولي^(٢٠) ولا يدرى أحد بالتأكيد^(٢١) مدى الصدق فيما يتعلق بالبابا يوحنا الثالث والعشرون بهذا الصدد.

ومما يذكر أن عصر رئيس المنسر (زعيم العصاة) الشهير لم يبدأ إلا بعد ذلك، في القرن السابع عشر، عندما كف عن إزعاج البلاد عامل الكفاح السياسي بين الجويلف Guelph والجيبيلين Ghibelline، بين الفرنسي وبين الإسباني، ولم يعد له أثر. فعندئذ احتل اللص مكان المناضل الوطني.

والذي كان يحدث في مناطق معينة من إيطاليا لم تحرز فيها الحضارة قدماً راسخاً هو أن أهل الريف كانوا أميل إلى اقتتاف القتل كلما وقع في أيديهم غريب. وكان ذلك كله مما جرت به أحوال الأماكن القاصية في مملكة نابولي، حيث كان التوحش البربري يرجع على الأرجح إلى أيام العزب والشفالك الرومانية latifundia، وعندما كان الغريب والعدو hospesandhostis يعدان بمنتهى حسن النية كأنهما شخص واحد. لقد كان هؤلاء القوم أبعد ما يكون عن انعدام التقوى والتدين. إذ حدث يوماً أن أحد الرعاة بدا واقعاً في عناء شديد أثناء الاعتراف للقسيس، حيث اعترف

بأنه بينما كان يصنع الجبن أثناء الصوم الكبير عندما تطايرت بضع قطرات من اللبن إلى فمه وانزلت إلى زوره. واكتشف القسيس المتلقى للاعتراف، وهو رجل حذق عادات تلك المنطقة، وتبين له في ثنايا دراسته للموضوع أن ذلك النادم المعترف بذنبه فى اللبن كان يمارس هو وزملاء له جرائم سرقة وقتل المسافرين، على أن ذلك الاعتياد، عن طريق قوة العادة، لم يثر لديه أى وخز فى الضمير لا فيه ولا فى زملائه^(٣٢) وقد سبق أن أشرنا (القسم الرابع، الفصل الثامن) إلى أى درك من التوحش البربرى كان الفلاحون يستطيعون أن يتربوا فى أوقات الاضطرابات السياسية.

وثمة سمة أسوأ من قطع الطريق تتسم بها أخلاقيات ذلك الزمان هى الاغتياى بالأجر. وفى هذا الصدد كانت نابولى مسلماً لها أن تقف على القمة بين جميع مدن إيطاليا. ويقول بونتانو^(٣٣) "Pontano ليس هنا شىء أخص من الحياة البشرية". على أن مناطق أخرى كانت تستطيع هى أيضاً أن تبرز قائمة رهيبة من هذه الجرائم. ومن العسير بطبيعة الحال تصنيف تلك الجرائم حسب الدوافع التى ارتكبت من أجلها، حيث تتدافع فيها إحداها بالأخرى الذرائع السياسية والبغضاء الشخصية والخوف والانتقام. وليس يعد من منازل الشرف الصغيرة عند الفلورنسيين، وهم أعظم شعوب إيطاليا شأواً فى التطور، أن تحدث جرائم من ذلك النوع بدرجة أندر منها فى أى مكان آخر^(٣٤)، ولعل ذلك يرجع إلى أنه كانت هناك عدالة فى متناول اليد يعترف بها الجميع مهينة لتلافى الاعتداءات القانونية، أو لأن الثقافة الأكثر علواً لدى الفرد كانت تمنحه وجهات نظر مختلفة حول حق الرجال فى التدخل إزاء تصاريق القدر. وفى فلورنسا، قبل كل مكان آخر، كان فى مستطاع الرجال أن يشعروا بالعواقب التى لا تحصى لعملية تمس الدماء، وأن يفهموا كم يكون ذلك المتسبب فيما يسمى بالجريمة المجدية غير آمن مالياً وكما أنه ليس من ورائها أى مكسب حق ودائم. ويعد سقوط الحرية الفلورنسية، يبدو أن الاغتياى، وبخاصة ما كان منه على يد عملاء ماجورين، قد زاد سريعاً، واستمر حتى بلغت حكومة كوسيمو الأول من القوة بحيث أصبحت الشرطة^(٣٥) أخيراً قادرة على القضاء عليه تماماً.

فأما في أماكن أخرى من إيطاليا فكانت الجرائم المأجورة فيما يرجح كثيرة أو قليلة وتتبع نسبياً وجود المشتريين أقوى النفوذ ، والقادرين على السداد. ومن المحال عمل أى تقدير إحصائي لعددها، ولكن إذا كان جزء يسير من الوفيات التي تنسبها التقارير العمومية إلى العنف يعتبر جرائم قتل نفس حقاً، فلا بد أن الجريمة كانت شديدة الانتشار بصورة مرعبة. وكان الأمراء والحكومة يقيمون أسوأ قنوة، فهم الذين كانوا يعدون القتل دون أدنى وازع من ضمير أحد أدوات سلطانهم. وذلك دون أن يصلوا إلى نفس مستوى سيزار بورجيا. فإن عائلة سفورزا والملوك الأراجونيين وجمهورية البندقية^(٣٦)، لجأوا للقتل كما لجأ إليه فيما بعد عملاء شارل الخامس (شارلكان) كلما كان ذلك موائماً لأغراضهم. وبلغ الأمر أن خيال الشعب صار شديد الاعتياد لحقائق من هذا النوع بحيث أصبحت وفاة أى شخصية قوية لا تنسب إلا نادراً، أو قل لا تنسب على الإطلاق إلى أسباب طبيعية^(٣٧) ومن المؤكد أنه ذاعت عندهم آراء عبثية وسخيفة حول آثار مختلف السموم. وربما لم تجاوز الصدق قصة ذلك المسحوق الأبيض التي كانت تستخدمه أسرة بورجيا، الذي كان يفعل مفعوله في نهاية فترة محددة من الزمن (المجلد الأول، القسم الأول، الفصل العاشر)، ومن المحتمل أنه كان في الواقع سماً زعافاً *velenumatteminatum* ذلك الذي قدمه أمير ساليرنو إلى كاردينال أراجون مع هذه الكلمات، "ستموت في غضون أيام قليلة، لأن أباك الملك فيرانتى أراد أن يطأنا جميعاً بقدميه"^(٣٨) ولكن الرسالة المسمومة التي أرسلتها كاترينا رياريو إلى البابا اسكندر السادس^(٣٩) ما كادت عقلاً يمكن أن تتسبب في وفاته حتى لو أنه قرأها؛ كما أنه عندما حذر الأطباء الفونسو العظيم ألا يقرأ في كتاب ليقى *Livy* الذي أهداه له كوسيمو دي ميدتشي، أمرهم، بكل إنصاف، ألا يتحدثوا حديث الحمقى^(٤٠) ولا كان ذلك السم، الذي أراد سكرتير بتشينينو *Piccinino* أن يدهن به على سبيل التكريس محفة (الكرسى المحمول) للبابا بيوس الثاني^(٤١)، بمستطيع أن يؤثر في أى عضو آخر إلا خيال مدبره. ولا يمكن التأكد بأية حال من نسبة استخدام كل من السموم المعدنية والنباتية. ومن الواضح أن السم الذي دمر به المصور روسو فيورينتينو *Rosso Fiorentino* في ١٥٤١ نفسه كان حمضاً قوياً^(٤٢)، كان من المستحيل استخدامه ضد أى شخص آخر بغير علمه. وكان من المألوف استخدام الأسلحة سراً،

وبخاصة الخنجر، في خدمة الأقوياء من الأفراد في ميلانو ونابولي وغيرهما من المدن. والحق إنه كان من الطبيعي بين حشود الأتباع المسلحين الذين كان وجودهم ضرورياً من أجل السلامة الشخصية للعظماء، والذين كانوا يعيشون في بلادة وكسل، أن تحدث من حين إلى حين انفجارات لذلك التعطش الجنوني إلى الدماء. ولا ريب أن كثيراً من الأعمال المرعبة ما كانت لترتكب بدون علم سيدهم ورئيسهم أنه لا يحتاج إلا إلى إعطاء الإشارة لواحد أو أكثر من أتباعه.

ومن الوسائل المستخدمة في تدمير الآخرين بطريقة سرية- ما دامت النية قد اتجهت لذلك - اللجوء لممارسات السحر^(٤٣)، ولو أنه كان يمارس بقلة. وحيثما كان يذكر الشر الوبيل أو الأذى العنيف malefici, malie وما إليهما، فالظاهر أنها كلمات كانت تتخذ وسيلة لإضافة القناطر المقتطرة من الرعب الإضافي على أم رأس عدو مبغوض. والذي كان يحدث بالبلاط الفرنسي والإنجليزي إبان القرنين الرابع عشر والخامس عشر، هو أن السحر، الذي يمارس التماساً لموت أحد الخصوم، كان يلعب دوراً أهم من دوره بايطاليا كثيراً.

وإننا لنجد في هذا القطر، في نهاية المطاف، حيث بلغت الفردية بجميع أصنافها أعلى غاياتها التطورية، نجد أمثلة لذلك المثل الأعلى وذلك الولوج المطلق بالأذى والشر، الذي يبتهج بالجرائم من أجلها هي نفسها، وليس لكي تكون وسيلة لغاية، أو على كل حال يقترفها ليتخذها وسيلة لغايات في نفسه لا يجد علم النفس لها مقياساً يباريها.

ومن بين هذه الشخصيات الرهيبة، نستطيع أن نلاحظ ابتداء مجموعة من قادة المرتزقة^(٤٤) condottieri، مثل براتشيو دي مونتوني Bracciodi Montone وتيبرتو براندولينو Tiberto Brandolino، وذلك الرجل فيرنرفون أورسلينجن Wernervon Ur-slingen الذي كان درعه الفضى يحمل نقش "عدو الله، وخصيم الشفقة والرحمة". وهذه الطبقة من الرجال تقدم إلينا بعض أمثلة من المجرمين الذين يرفضون وينكرون عمداً كل وازع أخلاقي. ومع هذا فإننا سنكون أكثر تحفظاً في حكمنا الخلقى عليهم عندما نتذكر أن أسوأ جزء من جرمهم - في تقدير من يسجلونه - ربما كمن في تحديدهم واستخفافهم بالتهديدات والعقوبات الروحية، وأنه يرجع إلى هذه الحقيقة ذلك

الجو من الرعب الذى يمتلئون فيه. وبلغ الأمر فى حالة براتشيو أن زاد أوار كراهيته للكنيسة أنه كانت نفسه تثور حنقاً عند مرأى الرهبان وهم يرتلون مزاميرهم ، كما أنه رماهم من أعالي قمة برج^(٤٥)، على أنه كان فى نفس الحين مخلصاً لجنده كما أنه قائداً عظيماً. والذى جرت به العادة أن جرائم قادة المرتزقة condotieri كانت ترتكب من أجل مصلحة محدودة ، وينبغى أن تنسب إلى مركز أو منصب لم يكن يفلت الناس من أن يحقروا فيه خلقياً. فمن الظاهر أنه حتى قسوتهم التى لا مبرر لها كان لها فى العادة هدف ترمى إليه، ولو على الأقل لإلقاء الرعب. وكانت الفظاعات التى يرتكبها آل أراجون، كما رأينا، ترجع بوجه رئيسى إلى الخوف وإلى الرغبة فى الانتقام. ولا شك أن التعطش إلى الدماء، لمجرد الرغبة فيه، والابتهاج الشيطانى بالتدمير له مشهد ومثال بالغ الوضوح فى حالة الإسبانى سيزار بورجيا، الذى كانت قساوته بكل تأكيد خارجة عن كل تناسب مع الغاية التى كان يرمى إليها (المجلد الأول، القسم الأول، الفصل العاشر). وفى إمكان المشاهد أن يستبين أيضاً، فى حالة سيسيموندى مالاتستا Sisimondo Malatesta طاغية ريمينى Rimini المجلد الأول، القسم الأول ، الفصل الخامس؛ والقسم الثالث، الفصل السابع)، نفس حب الشر الذى لا يبالي بشيء. وليس الذى يتهمه هو وحده محكمة روما^(٤٦)، بل وأيضاً حكم التاريخ، حيث يتهمه بالقتل والاعتصاب والزنا وغشيان المحرمات وتدنيس المقدسات وشهادة الزور والخيانة، وكلها لا يرتكبها مرة واحدة بل مرات عديدة. وربما كانت أفظع جرائمه طراً - تلك المحاولة غير الطبيعية التى وجهت إلى ابنه روبرتو، الذى أفسد المحاولة باستلانه خنجره^(٤٧) - ربما لم تنتج عن الانحلال الخلقى وحده، وإنما عن بعض المؤثرات والخرافات السحرية أو التنجيمية. وقد اتخذت نفس الفكرة سبباً فى اغتصاب أسقف فانو^(٤٨) Fano على يد بييرلويجى فارنيزى Pierluigi Farnexe من بارما، ابن بول الثالث.

فإذا نحن الآن حاولنا أن نلخص الملامح الرئيسية فى الشخصية الإيطالية لذلك الوقت، كما نعرفها من دراسة حياة الطبقات العليا، فإننا سنحصل على شيء قد يماثل النتيجة التالية. لقد كانت الرذيلة الجوهريّة فى تلك الشخصية فى الحين نفسه شرطاً واضحاً لعظمتها - وأعنى بها النزعة الفردية المسرفة. فإن الفرد يبدأ أولاً وبصورة مستبطنة بنبذ سلطان دولة تكون، فى واقع الامر، فى معظم الحالات استبدادية طاغية

وغير شرعية، بينما فكره وعمله يكونان، إن خطأ أو صواباً، مما يسمى الآن بالخيانة. فإن منظر الأنانية المنتصرة الذى يتجلى به الآخرون يدفعه إلى الدفاع عن حقه هو، بذراعه وسلاحه. وبينما هو يفكر فى استعادة توازنه الباطن يقع، من خلال الانتقام الذى ينفذه بيده، بين أيدي "قوى الظلام". فأما حبه، فإنه أيضاً فى غالب الأمر، يتحول من أجل الإشباع والإرضاء إلى فردية متطورة بنفس الدرجة - وأعنى بذلك بالتحديد إلى زوجة جاره. فإنه يعمد فى وجه جميع الحقائق الموضوعية للقوانين والقيود مهما يكن نوعها، إلى الاحتفاظ بالشعور بسيادته الخاصة، كما أنه فى كل حالة مفردة من الأحوال يعمد إلى وضع قراره فى ذلك بصورة مستقلة، حسبما يملئ عليه أو يتغلب عليه الشرف أو المصلحة أو الحسابات المحسوبة أو الانتقام أو صرف النظر نهائياً.

فإذا حدث، بناء على ذلك، أن الأنانية بمعناها الأوسع والأضيق أيضاً، هى جذر الشر كله ومنبعه، فإن الإيطالى الأعلى تطوراً لذلك السبب أميل إلى الشر والأذى من أى عضو من أعضاء الأمم الأخرى فى ذلك الزمان.

ولكن هذا التطور الفردى لم يسقط على أم رأسه عن طريق أى خطأ ارتكبه هو نفسه، ولكنه جاءه بالحرى من خلال حاجة تاريخية. ولم يتنزل عليه هو وحده، ولكنه هبط أيضاً، وبوجه رئيسى بواسطة الثقافة الإيطالية، على الشعوب الأخرى بأوروبا، كما أنه شكل منذ ذلك الحين الجو الأعلى الذى كانوا يتنفسونه. وذلك التطور فى حد ذاته لا يعد خيراً ولا شراً، ولكنه كان ضرورياً؛ ونما فى داخله مستوى حديث عصرى من الخير والشر - وهو إحساس بالمسئولية الأخلاقية أو المعنوية - الذى يختلف بطريقة جوهرية عن ذلك الذى كان مألوفاً فى القرون الوسطى.

ولكن الإيطالى من عصر النهضة كان عليه أن يتحمل أول صدمة صاعدة عتية لعصر جديد. ولقد أصبح من خلال مواهبه وشهواته أبرز الشخصيات التى تمثل جميع ارتفاعات وكافة أعماق زمانه. وظهرت إلى جوار الفساد المتغلغل إلى الأعماق شخصيات بشرية تتسم بأنبل انسجام وتناغم ويفخامة رائعة فنية أضفت على حياة الإنسان صقلاً ولعناً ، لا يستطيع العصر العهيد ، ولا العصور الوسطى ، أن تسمح ولا أن تُقدِّم على إضفائه عليها.

الفصل الثانى

الدين فى الحياة اليومية

من الأمور المسلمة أن النزعات الأخلاقية لشعب من الشعوب تكمن فى أشد صورها التصاقاً مع وعيها بالله - أعنى أنها تقف جنباً إلى جنب مع إيمانها الأوثق أو الأضعف فى الحكم الإلهى للعالم، سواء أكان ذلك الإيمان ينظر إلى العالم بأنه مقدر عليه السعادة أو مكتوب له الشقاء والتدمير العاجل^(١) ولا جدال أن الخيانة الزوجية الشائعة آنذاك فى إيطاليا قد فاحت رائحتها الكريهة وذاعت شنعها إلى حد أن كل من شاء العثور على البراهين الدالة على ذلك وجدها بالمئات. ونحن سنقتصر هنا ، شأننا فى كل مكان آخر من الكتاب، أن نفرق ونميز ممتنعين تماماً عن إصدار حكم مطلق ونهائى.

وكان للاعتقاد بوجود الله فى أوقات أبكر مصدره وعماده الأكبر فى المسيحية وفى الرمز الخارجى للمسيحية وهو الكنيسة. وعندما تغلغل الفساد فى الكنيسة، أصبح لزاماً على الناس أن يضربوا خطاً فاصلاً ومميزاً واحتفظوا بدينهم رغم كل شىء. ولكن هذا شىء يسهل قوله عن فعله، فلم يخلق الله الشعوب جميعاً على قدرٍ كافٍ من الهدوء ولا على قدرٍ كافٍ من الغباء للتسامح ، مع تناقض دائم ومستمر بين مبدأ وبين التعبير الخارجى عنه. ولكن التاريخ لا يسجل مسئولية أنقل وطأة من تلك التى تستقر على الكنيسة المنحلة. فإنها أقامت، صدقاً مطلقاً وبأعنف الوسائل، مبدأ ومذهباً شوهته لكى يخدم تعظيمها وتجيلها هى وحدها. وقد عمدت، وهى آمنة بسبب حصانتها، إلى تسليم نفسها إلى أشد أنواع الخلاعة شنعة وقصحية، كما أنها، لكى تواصل الاحتفاظ بنفسها فى بؤرة تلك الحال، سدت ضربات قاتلة إلى ضمير الأمم وعقليتها، ودفعت بجماهير غفيرة من أنبل الأرواح، الذين نفرت قلوبهم تنفيراً داخلياً، إلى أحضان الكفر واليأس.

وهنا يلاقينا هذا السؤال: لماذا لم تلجأ إيطاليا، وهي على هذا القدر من العظمة الفكرية، إلى التصرف الأشد بأساً إزاء هيئة الكهنوت أو الهرم الكنسى؟ ولماذا لم تقم بإصلاح دينى، كالذى جرى فى ألمانيا، ولماذا لم تنجزه فى وقت أبكر؟

لقد جرى تقديم إجابة مستحسنة عن هذا السؤال. فإنهم يخبروننا أن العقل الإيطالى لم يذهب قط أبعد من إنكار الهرم الكنسى وطغمة رجال الدين، بينما كان مصدر الإصلاح الدينى الألمانى وقوته راجعَيْن إلى مذاهب الدينية الإيجابية، القائمة على أمرين هامين: التبرير بالإيمان وعجز الأعمال الصالحة عن إحداث الأثر المطلوب.

ومن المحقق أن هذه المذاهب الدينية إنما كانت تؤثر فى إيطاليا عن طريق ألمانيا، وهذا لم يحدث حتى أصبحت قوة إسبانيا من العظمة والبأس بحيث تقطع تلك المذاهب من جذورها بغير صعوبة، وكان ذلك من ناحية بيدها هى نفسها، ومن ناحية أخرى بواسطة البابوية وعملائها^(٢) ومع هذا، فإنه حدث فى الحركات الإيطالية الأولى، ابتداء من منتصف القرن الثالث عشر صعوداً حتى سافونارولا، أن كان هناك قدر عظيم من التمسك بالمذاهب الدينية الإيجابية الذى أخفق دون النجاح فيها لمجرد أن الظروف كانت معاكسة له، شأن تلك المسيحية المحددة جداً التى اتبعتها طائفة الهوجونوت. ولا يخفى أن الأحداث العارمة كالإصلاح الدينى مثلاً إنما تضلل، فيما يتعلق بتفاصيلها وانفجارها وتطورها، كل استنباطات الفلاسفة ويفوت إدراكها عليهم مهما يكن فى الإمكان توضيح ضرورتها ككل. ومن المسلم به أن حركات الروح الإنسانى وتوجهاتها الفجائية وتوسعاتها وتوقفاتها، ينبغى أن تظل إلى الأبد سرّاً خافياً عن أعيننا، نظراً لأننا لا نستطيع أن نعرف إلا هذه أو تلك من القوى التى تعمل داخلها، ولا يحدث أبداً أن نعرفها جميعاً مجتمعاً فى وقت واحد.

وكان إحساس الطبقتين العليا والوسطى فى إيطاليا نحو الكنيسة إبان بلوغ عصر النهضة ذروته إحساساً مختلطاً يتركب من الكراهية العميقة والمستحقرة، ومن شعور الرضا والخضوع للأعراف الظاهرية الكنسية التى دخلت الحياة اليومية، ومن شعور بالاعتماد على ما تقوم به من أسرار مقدسة ومراسم. ويمكن أن يضاف إلى ذلك النفوذ الشخصى العظيم الذى يتمتع به كبار الوعاظ بوصفه حقيقة تتميز بها إيطاليا.

وقد عالج كثير من الكُتَّاب معالجة وافية تماماً ذلك العداء لهيئة الكهنوت أو الهرم الكنسى، الذى يتجلى بوجه أخص منذ زمن دانتي فصاعداً فى الأدب والتاريخ الإيطالى. وسبق أن أشرنا (المجلد الأول، القسم الثالث، الفصل السادس) إلى موقف الرأى العام فيما يتعلق بالبابوية. وعلى من يشاء الاطلاع على أقوى البيانات التى يقدمها خير الثقات ، أن يلتمسها فى تلك الفقرات الشهيرة الواردة فى "أحاديث" مكيافيللى Discorsi ، وفى الإصدارة غير المشوهة لكتاب جيتشياردينى Guicciardini. فأما فى خارج الهيئة الكنسية الرومانية فإنه يبدو أن شيئاً من الاحترام كان الناس يحسونه نحو خير الرجال بين الأساقفة^(٣)، ونحو كثير من رجال الدين فى الأبروشيات. على أنه جرى، من الناحية الأخرى، أن أصحاب الرتب الكنسية ذات الدخل ، فضلاً عن قسوس الكاتدرائية والرهبان ، كانوا يوضعون بوجه عام موضع الشبهة، وكثيرا ما كانوا يوصمون بأشنع الفضائح، التى تمتد لتشمل كل هيئاتهم بأجمعها.

وذاع القول بأن الرهبان كانوا يتَّخِذون كِبْشاً للعداء لرجال الدين جميعاً، وذلك بسبب أنهم هم وحدهم دون غيرهم كان فى الإمكان السخر منهم دون أى خطر يعود على الساخر^(٤) بيد أن ذلك خطأ دون أدنى ريب. فإنهم يقدمونهم بكثرة فى الروايات والمسرحيات الكوميديّة لأن هذه الأشكال من الأدب تحتاج إلى أنماط وطرز ثابتة ومعروفة تماماً ، يمكن معها بسهولة ملأ الفراغ فى خيال القارئ وسد الثغرات وتكوين معالم وأشكال عنها. وبالإضافة إلى ذلك ، كان الروائى لا يستطيع أن يمنع قلمه من أن يستثنى فى الواقع رجال الدين من غير الرهبان^(٥) ولدينا فى المقام الثالث براهين موفورة تدل فى سائر الأدب الإيطالى بمعناه العام على أن الرجال كانوا يستطيعون التحدث بجرأة باللغة عن البابوية ويلاط روما. وليس لنا أن ننتظر فى أعمال من نسج الخيال أن نجد نقداً من هذا القبيل. ورابعاً فإن الرهبان، عندما كان يهاجمهم أحد، كانوا قادرين فى بعض الأحيان على أن ينتقموا لأنفسهم شر انتقام.

ومع هذا فإن الرهبان كانوا فى الواقع الحقيقى أقل الطبقات قبولاً لدى الشعب، وأنهم كانوا يعدون برهاناً حياً على عدم انعدام القيمة الذى ينسحب على الحياة الديرية الرهبانية وعلى الهيئة الكنسية بأكملها وعلى نظام الدوجما أى مبادئ العقيدة

أو دستور الإيمان وعلى الدين كله مجتمعاً، حسبما يرضى الناس ويوافق هواهم، إن خطأ أو صواباً، لكي يخلصوا إلى استنتاجاتهم. ويجوز لنا أيضاً أن نفترض أن إيطاليا احتفظت في بالها بذكرى أوضح عن أصل ومنشأ جماعتي الرهبان المتسولين العظيمنتين أكثر مما فعلت الأقطار الأخرى، كما أنها لم تنس قط أنهما كانتا العميلتين الرئيسيتين في رد الفعل^(٦) الذي حدث ضد ما يسمى بالبدعة أو الهرطقة التي صحبت القرن الثالث عشر - أو بعبارة أخرى ضد حركة قديمة وقوية للروح الإيطالية العصرية. كما أن ذلك الرقيب الروحي الذي كان موكلاً بصفة دائمة بطائفة الرهبان الدومينيكيين لم يكن بكل تأكيد ليثير على الإطلاق أى شعور آخر غير الكراهية والاحتقار السريين.

ويجوز لنا أن نتصور بعد مطالعة ديكاميرون Decamerone (الليالى العشر) وروايات فرانكو ساكيتى FrancoSacchetti أن قاموس البذاءة الموجه إلى الرهبان والراهبات قد استنفد استنفاداً تاماً. ولكن الذى حدث قرب عهد الإصلاح الدينى هو أن هذه البذاءة أصبحت أشد إقذاً. ولن نقول شيئاً عن أريتينو، الذى راح فى كتاب Ragionamenti يستخدم الحياة الديرية لا لشيء إلا كذريعة لإطلاق قلمه ولسانه للتعبير عن طبيعته السامة ، وفى إمكاننا أن نقتبس لكم من مؤلف آخر نتخذ منه نموذجاً للآخرين - وهو ماسوتشيو Massuccio ، فى العشر الأوائل من قصصه الخمسين. فإنها كتبت بنغمة ران عليها أعمق الغضب، ولونت بقصد إشاعة هذا الغضب وجعله عاماً ؛ كما أنها مهداة إلى الرجال الذين يتولون أرفع المناصب، مثل الملك فيرانتى والأمير ألفونسو أمير نابولى. فإن كثيراً من القصص قديمة، كما أن بعضها مألوف لدى قراء بوكاتشيو. على أن بعضها الآخر يعكس، فى واقعية رهيبه، صورة الحالة الحقيقية الواقعية للأمور فى نابولى. فإن الطريفة التى يتمكن بها القساوسة من استغلال الناس ونهب أموالهم بواسطة المعجزات الكاذبة، مضافاً إليها حياتهم الخاصة الفاضحة، تكفى لدفع أى مراقب له أقل نصيب من التفكير أن يمتلكه اليأس. وإنا لنقرأ عن الرهبان الفرنسيسكان Minorite الذين كانوا يقومون بالأسفار لجمع الصدقات: "إنهم يغشون ويسرقون ويزنون، فإذا أعوزتهم كل الحيل، فإنهم يدعون القداسة ويأتون بالمعجزات، فأحدهم يستعرض رداء القديس فينسنت، وآخر يبين للناس خط^(٧) القديس برناردينو، بينما ثالث يعرض لجام حمار كابيسترانو". Capistrano وثمة آخرون

يحضرون معهم شركاء لهم يدعون أنهم عميان أو مصابون بمرض عضال قاتل، وبعد أن يلمسوا طرف قلنسوة الراهب أو الآثار المقدسة التي يحملها، فإنهم يبرأون من مرضهم أمام عيون الجماهير. وعندئذ يصيح الجميع "السماح" "Misericordia"، وتدق الأجراس، وتسجل المعجزة في احتفال مهيب. وإلا فإن راهباً على المنبر يُتهم بأنه كاذب بلسان زميل له يقف في أسفل بين الجماهير المحتشدة؛ وعندئذ يمس الشيطان على الفور الراهب الجانى الذى يتهم زميله بالكذب ثم يقوم الراهب الواعظ بشفائه من مس الشيطان. لقد كانت المسألة كلها كوميدياً مدبرة مقدماً، حصل منها، مع ذلك، الممثل الرئيسى مع مساعده على مبالغ طائلة من المال حتى لقد تمكن من أن يشتري أسقفية من أحد الكرادلة، عاش منها الشريكان عيش اليسار والراحة حتى آخر أيامهما. ولا يميز ماساتشييو تمييزاً شديداً بين جماعتي الرهبان الفرنسيين والرومينيكانيين، حيث وجد قدر الأولى مساوياً لقدر الثانية. ومع هذا فإن الشعب الأحمق يترك نفسه لكى يقاد فى سكة ما بينهما من كراهيات وانقسامات، ويتشاجر عليهما فى الأماكن العامة⁽⁸⁾، ويسمى نفسه بالفرنسيسكانى أو الرومينيكانى -franceschinoordo-minichino". والراهبات كن يعتبرن ملكية خاصة للرهبان. فأما من كانت لها منهن صلة بعامة الناس كانت تقدم للمحاكمة ويزج بها فى السجن، بينما أخريات كن يزوجن بالطريقة المعهودة للرهبان، بمصاحبة القداس وعقد زواج وانغماس سخى للطعام والخمر. ويقول المؤلف: "أنا نفسى حضرت ذلك المشهد لا مرة واحدة بل عدة مرات، ورأيت كل شىء بعينى رأسى. ولا تلبث أن تلد الراهبات بعد ذلك رهباناً صغاراً ذوى جمال وملاحة وإلا فإنهن كن يستخدمن الوسائل لمنع هذه النتيجة. وإذا اتهمنى أحدهم بالزيف والتدليس فاسمحوا له بالبحث داخل دور الراهبات جيداً فإنه سوف يعثر هناك من العظام الصغيرة ما يوازى فى كثرته ما يوجد فى بيت لحم فى عهد هيرودس"⁽⁹⁾ إن هذه الأشياء وأشباهاها إنما هى جزء من أسرار الحياة الديرية. فليس الرهبان بأى حال شديدي التدقيق بعضهم مع بعض فى شئون الاعتراف، ويفرضون صلاة رباتية Paternoster فى حالات يرفضون فى أمثالها أى خلاص لأى شخص عادى علمانى كأنما هو هرطيق. وعلى ذلك أتمنى أن تنفتح الأرض وتبتلع كل البؤساء أحياء، مع

أولئك الذين يحمونهم! . وفى مكان آخر راح ماسوتشييو، وهو يتحدث عن حقيقة أن نفوذ الرهبان إنما يعتمد بوجه رئيسى على الرهبة من عالم آخر، ينطق الأمنية العجيبة التالية: "إن خير عقوبة تنزل بهم هى فى أن يمحو الله المطهر من الموجود ؛ فعندئذ لا يتلقون أى صدقات، ويلزمون أن يعوبوا إلى جواريفهم وفؤوسهم".

فلو أن الرجال كانوا أحراراً فى أن يكتبوا فى عهد فيرانتى، وأن يكتبوا إليه، وبذلك الأسلوب، فإن السبب ربما وجد فى حقيقة أن الملك نفسه سبق أن أثير سخطه بمعجزة زائفة خدعوه بها^(١٠) فقد تمت محاولة لحته على اضطهاد اليهود، مثل ما جرى فى إسبانيا وأقبل البابوات على تقليدها^(١١)، وذلك عن طريق استخراج لوح عليه نقوش تحمل اسم القديس كاتالدوس Cataldus ، والمعروف أنه مدفون فى تارنتوم Tarentum والمنبوش قبره بعد ذلك. فلما اكتشف الخديعة تحداه الرهبان. وتمكن أيضاً من أن يشتبته ويكشف حالة تظاهر بالصيام، كما فعل أبوه ألفونسو قبل ذلك^(١٢) ومن المؤكد أن رجال البلاط لم يشتركوا فى حيك هذه الخرافات العمياء الموضوعية^(١٣)

ونحن الآن كنا ننقل عن مؤلف كان يكتب بجدية، ولا يقف بمفرده بأية حال فى صدق رأيه وحكمه. ويفيىض الأدب الإيطالى كله فى ذلك الوقت بما حوى من السخرية والسباب الموجهين للرهبان المتسولين^(١٤) ولا يكاد يتطرق شك إلى أن عصر النهضة ما كان إلا سيدمر وشيكاً هاتين الجماعتين من الرهبان لولا قيام الإصلاح الدينى الألمانى والإصلاح الدينى المضاد الذى استفزه الأول. ولم يكن قديسوهما ولا واعظوهما الشعبيون بمستطيعين إنقاذهما إلا بشق الأنفس. وعندئذ ما كان الأمر ليجتاج إلا إلى الوصول إلى تفاهم فى لحظة مناسبة مع بابا من نوع ليو العاشر، الذى كان يحتقر طوائف الرهبان المتسولين. فلئن كان روح العصر قد وجدهم مضحكين ومثاراً للسخر أو منفريين ومثاراً للاشمئزاز فإنهم ما كانوا ليصبحوا إلا مسيئاً للارتباك والمضايقة للكنيسة. ومن الذى يستطيع أن يحدد ماذا كانت الأيام تخبئه للبابوية نفسها من مصير لو لم ينقذها الإصلاح الدينى؟

ولا شك أن النفوذ الذي كان يتمتع به الأب محقق محكمة التفتيش -FatherInquisi- tor في أي دير دومينيكي في المدينة التي كان يقع فيها هذا الدير، كان في الجزء الأخير من القرن الخامس عشر من الجسامة بحيث يعوق ويستفز كل العقول المستنيرة المهذبة، ولكنه لا يبلغ من القوة بدرجة تكفي لأن تنتزع خوفاً أو طاعة مستمرة دائمة^(١٥) ولم يعد من الممكن بعد ذلك توقيع العقوبة على الرجال جزاء لهم على أفكارهم، الأمر الذي كان يحدث ذات يوم في الماضي (القسم الرابع، الفصل الثاني)، فأما الذين كانت أسنتهم تقبب بوقاحة على رجال الدين فقد أصبحوا بعيدين بسهولة عن الاتهام باعتناق مبادئ الزندقة. ويندر أن نقرأ في ذلك الوقت عن رجال تم حرقهم على المحرقة اللهم إلا إذا كان هناك حزب قوى له غاية يرمى إليها، كما جرى في حالة سافونارولا، أو عندما كان هناك موضوع مثار حول استعمال فنون السحر، كما كان يحدث كثيراً في مدن شمال إيطاليا. وكان محققو محكمة التفتيش في بعض الحالات يقنعون بأشد أنواع التراجع عن الأقوال سطحية، وفي حالات أخرى حدث حتى أن الضحية أنقذ من أيديهم وهو في طريقه إلى مكان تنفيذ الحكم. وقد حدث في بولونيا (في عام ١٤٥٢) أن القسيس نيكولو دا فيرونا جُرد من رتبته وتم الحط من قدره وتخزينته على منصة خشبية أمام كنيسة القديس دومينيكو بوصفه ساحراً ومجدفاً في حق الأسرار المقدسة، وكان على وشك أن يقاد إلى المحرقة عندما حررتة عصاة من الرجال المسلحين، أرسلهم أكيلى مالفيترزى Achile Malvezzi ، وهو صديق مشهور للهرطقة ومعتدٍ على أعراض الراهبات. ولم يتمكن النائب البابوي، الكاردينال بيساريون، من أن يصنع شيئاً إلا أن أمسك أحد أفراد تلك الجماعة المهاجمة وشنقه؛ وعاش مالفيترزى بقية عمره في سلام^(١٦)

ومما هو جدير بالذكر أن الطوائف الديرية الأعلى رتبة - وهم البنديكتيون بكل ما لهم من فروع كثيرة - كانوا، على الرغم من ثرائهم ورفاهية حياتهم، أقل كراهية عند الناس من الرهبان المتسولين. فلو استعرضنا عشر روايات تعالج جماعات الرهبان frati، لم نكد نجد إلا بشق الأنفس واحدة يكون فيها الديرى monaco هو الموضوع

والضحية. ولم يكن من المزايا الهينة لتلك الطائفة أنها أُسست قبل ذلك فى زمن أبكر. ولم تنشأ كأداة للشرطة ، وأنها لم تكن تتدخل فى الحياة الخاصة للناس. وكانت تضم بين صفوفها رجال العلم والذكاء والتقى، ولكن المستوى المتوسط من أفرادها تولى وصفه عضو من أعضائها هو فيرينزولا^(١٧) Firenzuola الذى كتب يقول:

«إن هؤلاء السادة السمان الجيدى التغذية ، نوى القلائس الواسعة الفضفاضة لا يقضون وقتهم فى القيام برحلات حافية أقدامهم ، ولا فى إلقاء المواعظ، وإنما يجلسون مرتدين الشباشب الرشيقة ويشبكون (يربعون) أيديهم فوق كروشهم، فى قلايات (صومعات) مكسوة جدرانها بالخشب القبرصى. وعندما يجبرون على مغادرة المنزل يركبون ركوبة مريحة، كأنما هم خارجون للتعم بتسلية، على صهوات البغال والخيول سلسة القيادة. وهم لا يرهقون عقولهم عنثاً بدراسة الكتب الكثيرة، خشية أن تضع المعرفة كبرياء الشيطان فى مكان بساطة الراهب».

وسيرى الملمون بأدب ذلك الزمان أننا لم نقدم أمام ناظرهم إلا ما هو ضرورى لفهم ذلك الموضوع^(١٨) فأما كون السمعة المتصلة أن الرهبان ورجال الدين الدنيويين لا بد أنها مزقت إرباً إيمان وعقيدة الجماهير فى كل ما هو مقدس، فأمر واضح دون أدنى ريب.

كما أن بعض الأحكام التى نقرأها فظيعة؛ وسوف نقتبس واحداً منها كختام، وهو حكم غير مشهور. فإن المؤرخ جيتشاردينى Guicciardini ، الذى ظل يعمل فى خدمة البابوات من آل ميديتشى لمدة طويلة، يقول (فى ١٥٢٩) فى كتابه الأقوال المأثورة^(١٩)

Aphorisms:

«ما من رجل أشد اشمنزازاً منى من شدة مطامح القساوسة وجشعهم وخالعتهم، وليس مرد ذلك فقط أن كل واحدة من هذه الرذائل كريهة فى حد ذاتها، بل لأن كل واحدة منها جميعاً شىء لا يليق ولا يتوأم مع الذين يعلنون عن أنفسهم أنهم رجال لهم علاقة خاصة بالله، وأيضاً لأنها

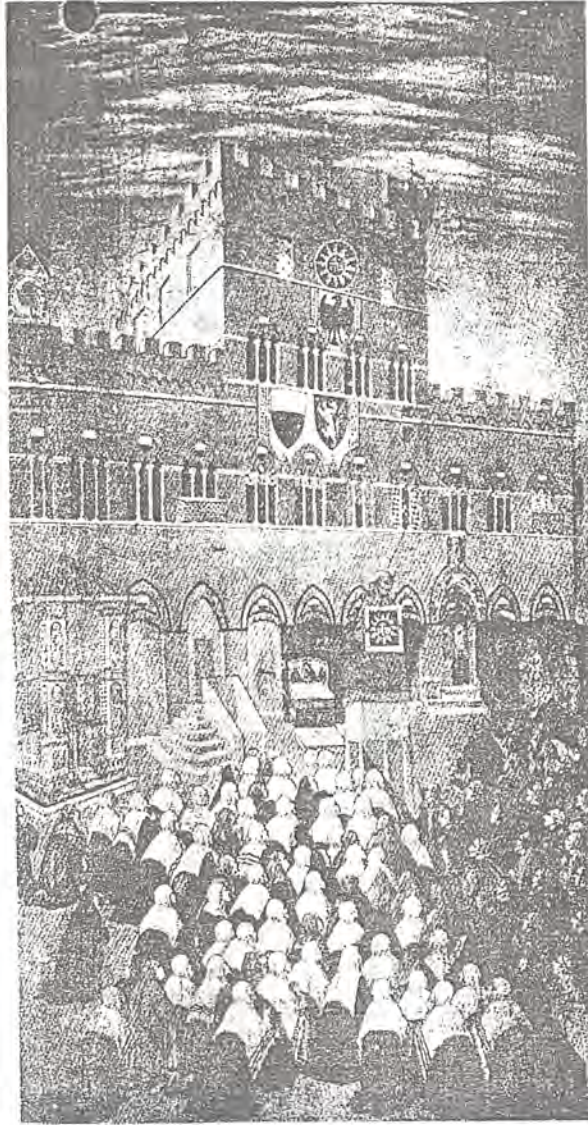
ردائل تتناقض إحداها مع الأخرى حتى إنها لا تستطيع التعايش معاً إلا فى طبائع متفردة للغاية. ومع ذلك كله فإن موقعى فى بلاط العديد من البابوات أجبرنى أن أتمنى لهم العظمة من مصلحتى الخاصة. ولكن لو كان الأمر من أجل ذلك لوجب على أن أحب مارتن لوثر حى لنفسى، لا لكى أخلص نفسى من القوانين التى تضعها على عاتقنا الكنيسة، كما تفهم وتفسر بصفة عامة، ولكن لكى أشهد هذا الحشد الهائل من الأوغاد questacatervadiscellerati وقد رُبوأ إلى مكانهم الصحيح، حتى يرغموا على العيش إما بغير ردائل أو بغير قوة وسلطان^(٢٠)»

وإن جيتشاردينى هذا نفسه ليرى أننا نعيش فى ظلام دامس من حيث كل ما هو خارق للطبيعة، أى غيبى، وأن الفلاسفة ورجال اللاهوت ليس لديهم غير الهراء يقدمونه إلينا عن ذلك الخارق للطبيعة، وأن المعجزات تحدث فى كل دين، وأنها لا تثبت صدق أى منها بوجه خاص، وأنها جميعاً يمكن تفسيرها بأنها ظواهر مجهولة غير معروفة للطبيعة. فإن الإيمان الذى يحرك الجبال، وهى الفكرة الشائعة آنذاك بين أتباع سافونارولا، قد ذكره جيتشاردينى بوصفه حقيقة عجيبة، ولكن بغير أن يعقب عليها بملحوظة مريرة.

وعلى الرغم من ذلك الرأى العام المعادى، كان لرجال الكنيسة والرهبان ميزة كبرى، هى أن الناس كانوا معتادين عليهم، وأن وجودهم كان متداخلاً فى نسيج الوجود اليومى للجميع، وهذه هى الميزة التى تمتلكها أية مؤسسة قديمة وقوية. وكان كل إنسان له قريب يلبس قلنسوة القسيس أو مسوح الراهب، يملك وجها ولو ضئيلاً من العون أو الكسب المستقبل من خزانة الكنيسة؛ وفى وسط إيطاليا كان يقع بلاط روما، حيث كان الرجال يصبحون فيه فى بعض الأحيان أثرياء فى لحظة. على أنه ينبغى ألا يغيب عن البال أبداً أن ذلك كله لم يمنع الناس من الكتابة والكلام بحرية تامة. فإن كتاب ومؤلفو أشد أنواع الساتيرات (أى الهجائيات الساخرة) إمعاناً فى الفضيحة، كانوا هم أنفسهم فى غالب الأحوال من الرهبان أو القساوسة نوى إقطاع له إيراد. فإن بوجيو الذى كتب "الطرائف أو النكات" Facetiae، كان من رجال

الإكليروس ، أى الدين المسيحى؛ وكان فرانشيسكو بيرنى Francesco Berni كاتب الساتيرات الساخرة يتقلد منصباً كنسياً ؛ وكان تيوفيلو فولنجو Teofilo Folengo مؤلف أورلاندينو Orlandino ، راهباً بينيديكتياً، ومن المؤكد أنه لم يكن بأية حال بينيديكتياً مخلصاً ؛ أما ماتيو بانديلو، الذى عرض طائفته الخاصة للسخرية والهزء، فكان راهباً دومينيكياً، وابن أخت لأحد قادة تلك الطائفة. فهل شجعهم على الكتابة إحساسهم أنهم لا يتعرضون لأى خطر؟ أم إنهم أحسوا حاجة داخلية لتخليص أنفسهم شخصياً من الشنعة التى لصقت بجمعيّتهم الدينية ؟ أم إن الذى حركهم ودفعهم هو ذلك التشاؤم الأنانى الذى يتخذ شعاره "سنستمر حتى نهاية زمننا؟" ربما كانت كل هذه الدوافع تقريباً هى المحركة لهم. وفى حالة فولنجو ينبغى أن يضاف التأثير الجلى للمذهب اللوثرى^(٢١).

هذا وإن حاسة الاعتماد على المناسك والأسرار المقدسة التى مسسناها مسأ خفيفاً أثناء حديثنا عن البابوية (المجلد الأول، القسم الأول، الفصل العاشر) ليست تدعو لأية دهشة بين ذلك الجزء من الشعب الذى كان لا يزال يؤمن بالكنيسة. فأما عند من كانوا أكثر تحراً فإنها تشهد بقوة المؤثرات الشبائية وعلى العزم والقوة السحرية للرموز التقليدية. وتدل الرغبة المنتشرة بين الجميع من الرجال الذين يحتضرون بالحصول على الغفران على يد القسس على أن آخر بقايا الرهبة من نار جهنم لم يحدث أن محيت تماماً من الأنفس، حتى حالة واحد مثل فيتيلوتزو Vitellozzo ولا يكاد يكون من الممكن العثور على حالة أكثر توجيهاً للأفكار من هذه. وقد استمر المبدأ الذى علمته الكنيسة وهو "شخصية طبقة القساوسة التى لا يمكن الاستغناء عنها أو محوها" indelibills ، وذلك فى استقلال تام عن شخصية القسيس، يؤتى ثمراته حتى ذلك الوقت حتى لقد أصبح ممكناً توجيه المقت إلى الفرد ثم الرغبة مع ذلك فى هباته الروحية. وحقيقى، مع ذلك، أنه كانت هناك طبائع تتسم بالتحدى مثل جاليوتو Galeot- to من ميراندولا^(٢٢)، الذى مات بغير غفران فى ١٤٩٩، بعد أن عاش ستة عشر عاماً محروماً من الكنيسة. وكانت المدينة طوال هذا الوقت كله تقع تحت طائلة الحرمان بسببه، بحيث أنه لم يكن يتم الاحتفال بأى قداس بها ، ولم تقم صلاة أو مراسم دفن مسيحية على أى ميت فيها.



شكل ٢١٧ القديس برناردين يعظ أمام مجلس المدينة في سيينا،
لساتو دي بييترو الكاتدرائية، سيينا تصوير أليباري

على أن هناك نقيضاً عظيماً لهذا كله ، تقدمه تلك السلطة الهائلة المضروبة على الأمة على يد أولئك العظماء من وعاظ التوبة والإنابة الخاصين بها . وثمة أقطار أخرى من أوروبا كانت بين حين وآخر تحركها كلمات رهبان متصفين بالقداسة، ولكن ذلك التأثير ما كان يتم إلا بصورة سطحية، بالموازنة إلى الانتفاضة الدورية للضمير الإيطالي. وفي الواقع، أن الرجل الوحيد الذي أنتج أثراً مماثلاً بألمانيا أثناء القرن الخامس عشر كان إيطالياً، ولد في أبروتزي Abruzzi ، وكان يدعى جيوفاني كابيسترانو^(٢٣) Giovanni Capistrano. وإن هذه السلانق التي تحمل في صميم نواتها هيكل المهنة الدينية ذاك ، وهذه الجدية المسيطرة على الناس ألبستهم جدية إلهامية وتصوفية دينية. أما في الجنوب ، فإنها كانت عملية ومتوسعة، وكانت تشارك في الهبة القومية : هبة اللغة والمهارة الخطابية. وأنتج الشمال محاكاة للمسيح Imitation of Christ ، قامت بعملها في صمت تام أولاً بين جدران الدير، ولكنها كانت تعمل من أجل العصور؛ وأنتج الجنوب رجالاً أحدثوا بإخوانهم انطباعاً قويا ولكنه عارض.

وكان هذا الانطباع يكمن بوجه رئيسي في إيقاظ الضمير. وكانت المواعظ تحضيات خلقية، خالية من الفكرات التجريدية ومليئة بالتطبيق العملي، التي تصبح أوقع أثراً في النفوس بفضل شخصية الواعظ القديسية والزهدية، وبفضل تلك المعجزات التي كان ينسبها إليه، ولو ضد إرادة الواعظ نفسه، خيال الشعب الملتهب^(٢٤) ولم تكن أقوى الحجج المدفوعة المستخدمة هي التهديد بنار جهنم واصطلاء المطهر، وإنما هي بالأحرى النتائج الحية للعة maledizione ، وهو الدمار المؤقت المنزل بالفرد الذي تنزله اللة التي تلصق بإتيان الإثم. وكان لإنزال الأحران بالمسيح والقديسين عواقبه في هذه الحياة الدنيا. وعلى هذا النحو فقط يستطيع الناس الغارقون لأذقانهم في الشهوات والآثام أن يدفعوا إلى سبيل التوبة والندم وإصلاح الخطأ والإنابة ، وهو الغرض الأساسي من هذه المواعظ.

وكان من بين هؤلاء الوعاظ برناردينو دا سيينا Bernardinoda Sienna ، وتلميذه ألبرتو دا سارتيانو Albertoda Sarteano وچاكوبو ديللا ماركا Jacopodella Marca ، ثم جيوفاني كابيسترانو Giovanni Capistrano ، وروبرتو دا ليتشي Roberto da Lecce القسم الخامس، الفصل الثامن)، وأخيراً جيورولامو ساقونارولا Giorolamo Sa-vonarola وليس ثمة موجدة وتحامل في تلك الأيام أقوى من تلك الموجهة ضد الراهب المتسول، وهو تحامل استطاعوا التغلب عليه. ووجهت إليهم سهام النقد والسخرية حركة إنسانية مزدرية^(٢٥)؛ ولكنهم عندما رفعوا عقيرتهم بالصياح لم يعر أحد من الناس

اهتماماً للإنسانيين. فالشئىء لم يكن هناك فيه من جديد، وكان الفلورنسيون الساخرون فى القرن الرابع عشر قد تعلموا قبل ذلك كيف يصورون له صورة كاريكاتورية كلما ظهر على المنبر^(٢٦) ولكن ما أن تقدم سافونارولا إلى الأمام وظهر حتى استحوذ على مشاعر الناس بطريقة ساحقة ، بحيث ذاب كل ما لهم من فن وثقافة محببة إلى نفوسهم ، محترقاً فى ذلك الأتون الذى أشعله. وبلغ الأمر أن أغلظ أنواع التجديف والمروق التى أنزلها بالقضية الرهبان المنافقون، الذين كان لهم فى المستمعين تأثير بواسطة أعوانهم، لم يستطيعوا أن يوقعوا الأمر نفسه موقع فقدان الثقة. وظل الناس يواصلون الضحك على مواظ الرهبان العادية، بكل ما حوت من معجزات مزورة وأثار مقدسة مصطنعة^(٢٧)، ولكنهم لم يكفوا عن تكريم الأنبياء الحقيقيين العظماء، وهذه إنما هى اختصاصية إيطالية حقة فى القرن الخامس عشر.



شكل ٢١٨ تمثال القديس برناردين،
لفيكييتا نارنى، سان برناردينو

وجرت عادة طائفة الرهبان - وهى بوجه عام طائفة القديس فرانسيس، وبوجه
أخص طائفة المتقيدين بالتقاليد والشعائر (الأوبزرقانتين) Observantines - أن ترسلهم
إلى الخارج حيثما كانوا مطلوبين. وكان هذا يراعى بوجه عام عندما كان هناك وجه
خلاف عام أو خاص يثور بإحدى المدن، أو اندلاع أعمال العنف أو خروج على الأخلاق
أو انتشار للمرض. فإذا تم لحسن سمعة أحد الوعاظ أن ذاعت وملأت الأسماع، اشتد
اشتياق المدن جميعاً للاستماع إليه حتى ولو لم تكن هناك مناسبة خاصة تدعو لذلك ،
فإنه كان يذهب حيثما أرسله رؤساؤه. وكانت هناك شاكلة خاصة لهذا العمل لا تبرح
أبداً ؛ هى الوعظ والتبشير والدعوة لحملة صليبية على الترك^(٢٨)، ولكن علينا هنا أن
نتكلم بوجه أخص على الحز على الندم والتوبة.

ويبدو أن الطائفة المهيمنة على هذه الأمور، عندما كانت تتعامل وإياها بطريقة
منهجية، كانت تتبع القائمة المألوفة الخاصة بالخطايا القاتلة. ومع ذلك، فكلما اشتدت
المناسبة ضغطاً وضنكاً، زاد الوعاظ فى ضرباته المباشرة واتجاهه إلى النقطة الرئيسية
فى الموضوع ، وربما بدأ مهمته فى إحدى الكنائس الكبيرة التابعة للطائفة، أو فى
الكاتدرائية. ولا يلبث أعظم ميدان piazza اتساعاً أن يصبح صغيراً بالغ الصغر على
ال جماهير التى تحتشد من كل النواحي لتستمع إليه، وحتى لا يكاد هو نفسه يستطيع
بين الجماهير حراكاً من غير أن يعرض حياته للخطر^(٢٩) والعادة أن تنتهى الموعظة
بمسيرة ضخمة، بيد أن كبراء المدينة، الذين يأخذونه فى وسطهم، لا يكادون يستطيعون
إنقاذه من جموع النساء اللائى يحتشدن لتقبيل يديه وأقدامه ويقتطعن جذاذات من
مسوحه^(٣٠)

وهنا نذكر أن النتائج المباشرة حقاً التى تتمخض عنها تشهيرات الوعاظ
بما يجرى من ربا فاحش ، ورفاهية مترفة ، وبدع ، وموضات فاضحة هى فتح أبواب
السجون على مصاريعها - وهو أمر لا معنى له إلا الإفراج عن المدينين الفقراء -
وإحراق مجموعة متنوعة من وسائل الترف والتسلية، سواء أكانت وسائل بريئة
أم لم تكن. ومن بين هذه الأشياء، النرد وأوراق اللعب (الكوتشينة) والألعاب بأنواعها،
والرقى والتعاويد^(٣١) المكتوبة ، والأقنعة ، والآلات الموسيقية ، وكتب الأغاني ، وباروكات

الشعر المستعار، وما إليها. وعندئذ تصف كل هذه الأشياء صفًا رشيقيًا على صقالة أو منصة خشبية - أى محرقة - (talamo) ويوضع تمثال للشيطان فى قمتها ثم تشعل النار فيها جميعاً (القسم الخامس، الفصل الثانى).

ثم يجىء بعد ذلك دور الضمائر الأشر قسوة وصلابة، وهم الرجال الذين لم يقتربوا منذ مدة طويلة من كاهن الاعتراف، وها هم الآن يعترفون بما ارتكبوا من خطايا، إن المكاسب المستفادة عن طريق السوء تم ردها، كما أن الإهانات التى ربما أثمرت إراقة الدماء عادت فسحبت. وأقبل الخطباء من أمثال برناردينو دا سيينا^(٣٢) يتطرقون ويدخلون بهمة بالغة فى جميع تفاصيل الحياة اليومية للناس، وفى النواميس الأخلاقية التى تتضمنها تلك الحياة. وقلٌ بين رجال اللاهوت فى زماننا هذا من يشعر بدافع يغريه بأن يلقى عظة الصباح عن "العقود والتعويضات والدين العام [monte] وميراث أو باننة البنات" مثل تلك التى ألقاها يوماً فى الكاتدرائية فى فلورنسا. وكان بعض الخطباء غير البصيرين بالعواقب يقعون بسهولة فى زلة مهاجمة طبقات معينة، أو بعض الحرف أو الوظائف، بحمية فياضة تجعل السامعين المهيجين غضباً يخرجون إلى العنف على من نعى عليه الواعظ سلوكه المنحرف^(٣٣) وهناك موعظة ألقاها برناردينو ذات مرة فى روما (عام ١٤٢٤) كانت لها عاقبة أخرى عدا محرقة الأشياء التافهة عديمة القيمة فى الكابيتول، فنحن نقرأ: "وبعد هذا^(٣٤)، أُحرقت الساحرة فينتشيللا Finicella، لأنها قتلت كثيراً من الأطفال، وسحرت أشخاصاً آخرين كثيرين بفنونها الشيطانية، وخرجت روما على بكرة أبيها لتشهد المنظر".

بيد أن أهم غرض يهدف إليه الواعظ كان، كما ألعنا آنفاً، هو الصلح بين الأعداء وإقناعهم بالتخلى عن كل فكرة فى الانتقام. ومن المحتمل أن تلك الغاية لم يكن يتم بلوغها قط إلا بعد أن تقترب نهاية فاصل أو مجموعة عظيمة من العظات، عندما كان فيضان التوبة والندم يغمر المدينة، وعندما كان الجو تتجاوب أرجاؤه^(٣٥) بأصداء صيحة الشعب: "الرحمة! Misericordia!!" ثم تعقب ذلك خالص تبادلات الأحضان والعناق التى تتم فى رحاب الدين، ومعاهدات السلام التى لم تستطع حتى بحور الدم، التى سبق وأن أريقت، أن تعوقها. وكان المبعدون المنفيون من الرجال يستعادون مرة أخرى

إلى المدينة للمشاركة فى هذه الصفقات المقدسة. ويبدو أن هذه الأنواع من معاهدات السلام paci كانت على وجه الجملة تُراعى وتُحترم بإخلاص، حتى بعد أن انتهت حالة المزاج التى كانت تُملئها؛ وعندئذ كانت ذكرى الراهب تبقى مباركة من جيل إلى جيل. على أنه كانت تجىء هناك فى بعض الأحيان أزمات فظيعة كالتى جرت فى تاريخ عائلات ديلا فاللى della Valle وديلا كروتشى della Croce بمدينة روما (عام ١٤٨٢)، حيث حدث أنه حتى روبرتو دا ليتشى Roberto da Lecce العظيم اضطر أن يرفع صوته ويجأر عبثاً^(٣٦) فإنه اضطر قبل الأسبوع المقدس بقليل أن يعظ جماهير هائلة فى الميدان القائم أمام المنيرفا. ولكن الذى حدث فى الليلة السابقة على خميس العهد أن نشب صراع رهيب أمام قصر ديلا فاللى، قرب الجيتو Ghetto (أى حى اليهود). وفى الصباح أصدر البابا سيكستوس أمره بتدميره، ثم راح يجرى المراسم الدينية المعتادة لذلك اليوم. وفى يوم الجمعة الحزينة ألقى روبرتو موعظة ثانية وقد أمسك بيده تمثال المسيح مصلوباً؛ على أنه لم يستطع هو وسامعوه أن يفعلوا شيئاً إلا أن يبكوا.

وكثيراً ما كان نوح الطبايع العنيفة من الناس، الذين وقعوا فريسة للتناقض مع أنفسهم، يعمدون آخر الأمر إلى الدخول إلى الدير بدافع الأثر الذى يحدثه فيهم هؤلاء الرجال. ومن بين هؤلاء لم يكن هناك فحسب قطاع الطرق والمجرمون من كل نوع وجنس، بل كان هناك أيضاً جند خالون من العمل أى عاطلون^(٣٧) وكان يدفعهم إلى ذلك العزم إعجابهم بالرجل المقدس، ورغبتهم فى أن يحاكوا على الأقل موقعه الظاهرى.

وكانت العظة الختامية تتكون من بركات عامة، لخصت فى هذه الكلمات: السلام يكون معكم lapacesiaconvoi. وكانت حشود المستمعين ترافق الواعظ إلى المدينة التالية التى ينتقل إليها، وهناك يستمعون مرة ثانية للمجموعة الكاملة من المواعظ نفسها.

وقد دفع النفوذ الهائل الذى يتمتع به به هؤلاء الوعاظ كلاً من رجال الدين والحكومة إلى الاهتمام على الأقل بالأجراً يجرؤوا على أنفسهم عداءهم؛ واتبعوا للوصول إلى تلك الغاية طريقة معينة هى عدم السماح إلا للرهبان^(٣٨)، أو القسس الذين تلقوا

على كل حال ولو أدنى أنواع التكريس، باعتلاء منبر الوعظ، وبذلك تكون الطائفة التي ينتسب إليها الراهب أو القسيس، إلى حد ما، مسئولة عنهما. ولكن لم يكن من الأمور السهلة إطلاق القاعدة على علاتها المطلقة، وذلك نظراً لأن الكنيسة والمنبر طالما استخدمتا وسيلة للإعلان والإشهار في كثير من الطرق، منها القضائية والتعليمية وغيرها، ونظراً لأنه حتى المواعظ نفسها كانت تلقى في بعض الأحيان من علماء إنسانيين ومن غيرهم من الرجال العلمانيين (المجلد الأول، القسم الثالث، الفصل السابع). وكان يعيش بايطاليا، أيضاً، طبقة من الأشخاص مشكوك في أمرها^(٣٩)، لم يكونوا رهباناً ولا قساوسة، ومع ذلك فإنهم قد نبذوا العالم - وأعنى بهم تلك الطبقة غفيرة العدد من الزهاد والنسك الذين كانوا يظهرون من وقت لآخر على منبر الوعظ ويعملون لحسابهم الخاص، وكثيراً ما كانوا يستطيعون الاستحواذ على مشاعر الناس إلى صفهم. وهناك حالة من هذا القبيل حدثت في مدينة ميلانو في ١٥١٦، بعد الغزو الفرنسي الثاني، وذلك بالتأكيد في وقت كان فيه النظام العام تضرب الفوضى فيه بأطنابها بشدة. فإن ناسكاً توسكانيًا يدعى هيرونيموس Hieronymus من سيينا، ولعله كان من أتباع سافونارولا، استمر محتفظاً بمكانه لعدة شهور مجتمعة في منبر الكاتدرائية، وهو يدين مجتمع الكنيسة وهيئة كهنوتها الهرمية بعنف شديد، وتسبب في أن ثريا (قنديلية أو نجفة) أخرى جديدة ومذبحة (هيكلًا) آخر أقيما في الكنيسة، وقام بإتيان المعجزات ولم يغادر الميدان إلا بعد كفاح طويل مستينس^(٤٠) وفي أثناء العقود التي كان فيها مصير إيطاليا يُحسم كانت رياح روح التنبؤ ناشطة نشاطاً غير عادى، ولم يحدث في أى مكان أظهرت فيه نفسها أنها تجلت بشكل مقصور على طبقة واحدة مخصصة. وإنما لنعلم بأى نغمة من نغمات التحدى النبوى الصادق كان النسك يظهرون بها قبل نهب روما (المجلد الأول، القسم الأول الفصل العاشر). وإذا أعوزت هؤلاء الرجال فصاحتهم وفن إقتاعهم كانوا يعمدون لاستخدام رسل يحملون رموزاً من نوع ما، شأن ذلك الناسك الذى عاش قرب سيينا (١٤٢٩)، والذى أرسل ناسكاً صغيراً - أعنى تلميذاً له - فدخل إلى المدينة المذعورة يحمل جمجمة على نهاية عصا طويلة أو عامود، ألصقت به ورقة كتبت عليها عبارة تهديد اقتبست من الكتاب المقدس^(٤١)

وكذلك لم يكن الرهبان أنفسهم يتورعون عن مهاجمة الأمراء والحكومات ورجال الإكليروس أو حتى هيئاتهم الدينية الخاصة نفسها. وهناك نصيحة تحضيض مباشرة لخلع أمراء بيت مستبد، مثل التي تفوه بها چاكوبو بوسولارو Jacopo Bussolaro في بافيا في القرن الرابع عشر^(٤٢)، ولكنها لم تكد تتكرر ثانية في الفترة التالية؛ ولكن القوم لم تكن تعوزهم الشجاعة في توجيه اللائمة حتى للبابا نفسه في كنيسته الصغيرة الخاصة، وتقديم النصيحة السياسية الساذجة التي تلقى بحضرة الحكام الذين لم يكونوا بأية حال يرون أنفسهم بحاجة إليها^(٤٣) وحدث في ساحة ديل كاستيلو -Piaz zadelCastello بميلانو أن واعظاً أعمى من جماعة إنكوروناتا Inconorata فهو من ثم كان أوغسطينيا - تجرأ في ١٤٩٤ على تقديم النصح إلى لودوفيكو إيل مورو -Lodovi-coilMoro من على المنبر فقال: "مولاي!.. احذر أن تظهر الفرنسيين على الطريق، وإلا فإنك ستندم على ذلك"^(٤٤) وهناك رهبان متنبئة آخرون، كانوا، بغير إلقاء عظات سياسية بالضبط، يرسمون صوراً رهيبية للمستقبل يكاد السامعون يفقدون معها شعورهم تقريباً. وحدث بعد انتخاب ليو العاشر في ١٥١٣ أن جمعية باكملها من هؤلاء الرجال، وهم اثني عشر راهباً فرنسيسكانياً في مجموعهم، أخذوا يذرعون كل أرجاء إيطاليا، وكل منهم مُعَيَّن واعظاً لأحد تلك الأرجاء. فأما أحدهم الذي ظهر في فلورنسا^(٤٥)، وهو الراهب فرانثسكو دي مونتبولتشيانو Francscodi Montepulciano ، فقد بث الرعب في قلوب الشعب كله. ولم يخفف من وقع الرعب تلك الشائعات والتقارير المبالغلة لنبوءاته التي بلغت مسامع حتى أولئك الذين كانوا على بعد شديد منه حتى ليستحيل أن يسمعه. وبعد أن ألقى إحدى مواعظه مات على الفجاءة "لألم أصابه في صدره". وتزاحم الناس بأعداد غفيرة ليقبلوا قدمي الجثة حتى لقد اضطر المسئولون إلى دفنها خفية أثناء الليل. ولكن روح التنبؤ والنبوءات الحديثة الإيقاظ، التي تملك كل العقول حتى عقول النساء والفلاحين ، لم يكن في الوسع التحكم فيها إلا بصعوبة شديدة.

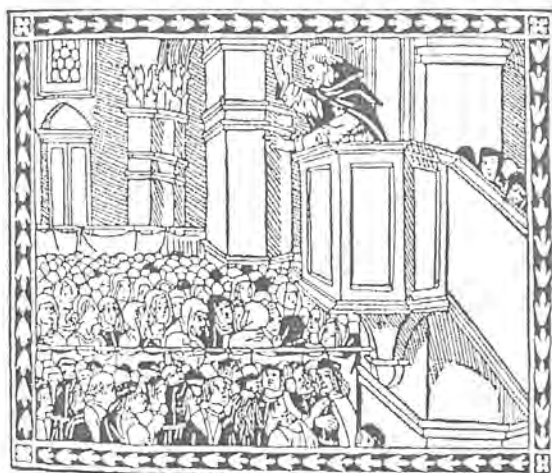
ولكى يعيدوا للشعب روح المرح عمد جوليانو - وهو الأخ الأصغر لليو - ولورنزو دي ميدتشي في عيد القديس يوحنا في ١٥١٤ إلى تقديم تلك الاحتفالات الفخمة من مباريات البرجاس والمواكب وحفلات الصيد، حضرها كثير من علية القوم من روما، ومنهم ستة من الكرادلة على الأقل، ولو أنهم حضروا متنكرين.



شكل ٣١٩ سافونارولا ممثلاً لبطرس الشهيد، للأخ يارتولوميو
الأكاديمية فلورنسا

على أن أعظم الأنبياء والرسل - وهو الراهب جيورلامو سافونارولا Giorolamo Savonarola من فيرارا، كان قد سبق إحراقه في فلورنسا في ١٤٩٨ وينبغي أن نجتزئ بذكر بضع كلمات في شأنه^(٤٦)

لقد كانت فصاحة لسانه هي الأداة التي عن طريقها غير وحكم مدينة فلورنسا (١٤٩٤-١٤٩٨)، ولا تعطينا التقارير الهزيلة التي بقيت لنا عن هذه الفصاحة، والتي كانت تكتب تقريباً في نفس بقعة ووقت إلقاء خطبه، بجلاء إلا فكرة غير كاملة. فلم يكن الأمر أنه كان يمتلك أية مزايا ظاهرية جذابة، لأن الصوت والنبرة والمهارة البيانية كانت تشكل فعلاً أضعف جانب فيه؛ فأما الذين كانوا يريدون من الواعظ أن يكون أديباً ذا أسلوب رفيع، فكانوا يذهبون إلى مناقسه، وهو الراهب ماريانو دا جينازانو - Maria nodi Genazzano. وكانت فصاحة ساقونارولا تعد تعبيراً عن شخصية طاغية قوية الأثر في الناس، لم يرُ شبيهه لها بعد ذلك حتى زمان لوثر. أما هو نفسه فكان يعتقد أن نفوذه وتأثيره الخاص على الناس إنما يعود إلى تنوير رباني مقدس، وكان من ثم يستطيع، دون أى ادعاء باطل، أن يحدد مكانة عالية جداً لوظيفة الواعظ، الذي كان يحتل المركز التالي مباشرة بعد الملائكة في الترتيب الهرمية العظمى للأرواح.



شكل ٢٢٠ ساقونارولا على المنبر
من كومبندينو دي ريجيلازيوني (١٤٩٦)

إن هذا الرجل، الذي تبدو طبيعته وكأنها قُدَّت من النار، قام بمعجزة أخرى وعظيمة أكثر من أى واحدة من انتصاراته الخطابية. فإن دير الدومينيكي في سان

ماركو، وبالتبعية كل الأديرة الدومينيكية فى توسكانيا، أصبح مشكلاً على نفس طريقة تفكيره وعقليته، وأخذ على عاتقه متطوعاً إجراء الإصلاح الباطنى. ولا شك أننا عندما نتأمل ما كان عليه حال الأديرة فى ذلك الزمان ونتأمل الصعوبات البالغة التى كانت مرتبطة بأقل تغيير يمس حال الرهبان، تأخذنا الدهشة أضعافاً مضاعفة إزاء تلك الثورة الكاملة الشاملة. فبينما كان الإصلاح الدينى لا يزال يمضى فى طريقه انضمت أعداد غفيرة من أتباع ساقونارولا للطائفة، وبذلك سهلت الطريق أمام خطته بدرجة كبيرة. وانضم أبناء خيرة البيوت بفلورنسا إلى دير القديس ماركو بوصفهم مريدين جدداً.

لقد كان إصلاح الطائفة هذا فى مقاطعة معينة أول خطوة فى سبيل إقامة كنيسة قومية، التى كان يجب فيها، لو أن المصلح نفسه عاش عمراً أطول، أن ينتهى تماماً دون أدنى خطأ، والحق، إن ساقونارولا كان يرغب فى تجديد أو إعادة ميلاد الكنيسة بأكملها، وقام قرب نهاية أيامه بإرسال نصائح التحضيض الحارة إلى القوى العظمى تحثهم على أن يجتمعوا جميعاً إلى مجلس عام. ولكن الواقع أنه فى توسكانيا كانت طائفته وحزبه هما اللسانان المعبران عن روحه - ملح الأرض - بينما ظلت المقاطعات المجاورة على حالتها القديمة. وظلت سعة الخيال والتزهد تتجهان أكثر وأكثر إلى أن تنتجا فيه حالة ذهنية تخيل بها فلورنسا فى بهرة الحلقة مشهداً لملكة الرب على الأرض.

وكانت النبوءات، التى أضفت إنجازاتها الجزئية على ساقونارولا فضلاً غيبياً، هى الوسائل التى تمكن بها الخيال الإيطالى دائب النشاط والحيوية من التحكم فى أكثر الطبائع عقلانية وأشدّها حذراً. ففى البداية تخيل فرنسيسكان أوسيرفانزا Osservanza، وقد وثقوا فى السمعة الطيبة التى أضفاها عليهم القديس برناردينو دا سينا، أنهم مستطيعون التنافس والراهب الدومينيكانى العظيم. فوضعوا أحد رجالهم فى منبر الكاتدرائية وراحوا يزيون على مرأى وتوجعات ساقونارولا بتحذيرات أقطع كثيراً، حتى اضطرهما ببييترو دى مديتشى، الذى كان لا يزال يحكم فلورنسا، أن يلزما الصمت كلاهما. وبعد ذلك بقليل، عندما نزل شارل الثامن إلى إيطاليا، وبعد أن تم طرد آل مديتشى، كما تنبأ بذلك ساقونارولا بشكل واضح، أصبح هو وحده من يؤمن به الناس.



شكل ٢٢١ رجل على مفترق الطريق بين الجنة والنار

من طبعة من عظة لساقونارولا عن الموتى المقدسين

وينبغي لنا أن نعترف بصراحة إنه لم يكن يضع أبداً إرهاباته الدينية ورؤاه الخاصة تحت محك النقد، مثلما كان يفعل مع آراء الآخرين. فقد حدث في خطاب الجنازة الذي ألقاه على بيكو ديلا ميراندولا Picodella Mirandola أنه سلق بأسنة حداد إلى حد ما صديقه الراحل، ونظراً لأن بيكو، رغم صوت جواني يأتي من عند الله، لم يقبل الانضمام للطائفة فإنه هو نفسه طالما دعا الله أن يطهره من عصيائه. ومن المؤكد أنه لم يكن يرغب في موته، وقد أحرزت الصدقات والصلوات الفضل في

بقاء روح بيكو آمنة فى المَطْهَر. أما فىما يتعلق برؤىا معزىة وتبشر بالراحة رآها بىكو وهو على فراش مرضه، والتى تجلت فىها العذراء أمامه ووعدته بأنه لن يموت، فإن ساقونارولا اعترف أنه طالما اعتبرها خدعة من خدع الشيطان، حتى أوحى إله أنه المادونا (أى السىة العذراء) كانت تعنى بذلك الموة الثانية والأبديّة^(٤٧) فإذا اعتبرت هذه الأشياء وأمثالها آيات تدل على الاجتراء الوقح وجب أن يسلم بأن هذا الروح العظىم نال جزاء مريراً على غلطته. وىبدو أن ساقونارولا قد أدرك فى أخريات أيامه ما تنطوى عليه رؤاه وتنبؤاته من غرور وباطل. ومع هذا فقد ترك له قدر كاف من الراحة والسلام الجوانى يمكنه به أن يلقى الموت كمسىحى. وتمسك مرىدوه بمذهبه ونبوءاته لمدة ثلاثىن عاماً بعده.

ولم يتقدم لإعادة تنظيم الدولة إلا بسبب أنه إذا لم يفعل ذلك لوضع أعداؤه أىديهم على زمام الحكم. ولىس من العدل أن نحكم عليه من خلال ذلك الدستور شبه الديمقراطى (المجلد الأول، القسم الأول، الفصل السابع، هامش ٥٥) الذى صدر أوائل عام ١٤٩٥، وكذلك لا يمكن أن يقال إنه أفضل أو أسوأ من الدساتىر الفلورنسىة الأخرى^(٤٨).

قلقد كان فى داخلته الباطنىة أشد الرجال عدم ملائمة لتولى مثل ذلك العمل. وكان مثله الأعلى هو دولة دىنىة يخضع فىها الجمىع وىنحنون فى تواضع وذلة مباركىن أمام "غىر المشهود بالعىن" Unseen، كما أن جمىع صراعات الشهوات كان عليها أن تظل مححوقة لا تستطىع حتى أن تنبعث بأىة حال. وقد سطر عقله باكمله فى ذلك النقش على قصر دىللا سىنىورىنا Palazzodella Signorina، الذى كان جوهره هو شعاره ومبداه الأساسى^(٤٩) منذ وقت مبكر هو ١٤٩٥، والذى تم بغاية الإجلال والوقار تجدىده على يد أتباعه فى ١٥٢٧، وهو: "ىسوع المسىح ملك الشعب الفلورنسى - Jesus-Christus Rexpopuli FlorentiniS.P.Q.decretocreatus". ولم يتخذ موقفاً ذا صلة بالشئون الدنىوىة وأحوالها الواقعىة أكثر من أى ساكن من سكان أحد الأدىرة. ولم يكن على الإنسان، حسب رأيه، إلا الالتفات إلى تلك الأشياء المتجهة مباشرة إلى خلاصه.

ويبرز هذا المزاج الخلقى واضحاً في آرائه في الأدب العتيق:

«إن الشيء الجيد الوحيد الذى ندين به لأفلاطون وأرسطو هو أنهما أظهرنا كثيراً من الحجج التى يمكننا أن نستخدمها ضد الهرطقة. ومع ذلك فإنهما هما وغيرهما من الفلاسفة إنما يقبعون الآن فى نار جهنم. وإن امرأة عجوزاً لتعرف عن العقيدة والإيمان أكثر من أفلاطون نفسه. وقد كان من الأفضل للديانة لو أن كثيراً من الكتب التى تبدو نافعة للناس تم تدميرها. وعندما لا يكون هناك ذلك القدر الكبير من الكتب ولا ذلك القدر البالغ من المجادلات [ragioninatali] والمنازعات انتشرت الديانة ونمت أسرع مما فعلت مُنْذُ.»

وكان يرغب أن يقتصر التعليم الكلاسيكى بالمدارس على هوميروس وقيرجيل وشيشرون، وأن يستكمل الباقي من جيروم وأوغسطين. ولا ينبغي فحسب تحريم أوقيد وكاتولوس، بل ويستبعد أيضاً كل من تيرينس وتيبولوس. وربما لم يزد ذلك عن تعبير عن سنة أخلاقية عصبية، ولكنه يعترف فى موضع آخر فى عمل مخصص بأن العلم بمجموعه ضار. وهو يعتقد بأن قلة من الناس فقط هم الذين ينبغي أن تكون لهم علاقة بالعلم، حتى لا يهلك تراث وتقاليد المعرفة الإنسانية، وحتى لا يحدث بوجه خاص إغواز فى الأبطال العقليين المفكرين لدحض سفسطائية الهرطقة ومغالطاتهم. أما بالنسبة لجميع العلوم الأخرى، وهى علوم النحو (الأجرومية) والأخلاق والتعاليم الدينية litterae-sacrae ففيها ما يكفى وزيادة. وبذلك تعود الثقافة والتعليم بكليتهما إلى أيدي الرهبان، ونظراً لأنه ينبغي، فى نظره، "لأعمق الناس علماً وأشدهم تقى" أن يتولوا حكم الدول والإمبراطوريات، فإنه قد وجب لهؤلاء الحكام أن يكونوا هم أيضاً من الرهبان. فهل هو حقاً تكهن بهذا الاستنتاج؟ ذلك أمر لا حاجة بنا إلى التحرى وراءه.

وليس فى الإمكان تخيل وسيلة للتعقل أكثر طفولة وسذاجة. فإن التأمل البسيط بأن العصر العهيد المولود من جديد والتوسعة غير المحدودة فى الفكر والمعرفة الإنسانيين التى نتجت عنه والتى ربما منحتنا تأكيداً بديعاً راسخاً لديانة قادرة على تكيف نفسها تبعاً لذلك، ربما تبدو شيئاً لم يخطر ببال هذا الرجل الصالح أبداً. وكان

يريد حظر كل ما لم يكن يستطيع معالجته بأية وسيلة أخرى. والواقع أنه لم يكن
 تحريراً ليبرالياً، وكان مستعداً، على سبيل المثال، لأن يرسل المتجمين إلى نفس
 المحرقة التي مات عليها هو نفسه بعد ذلك (٥٠)



شكل ٢٢٢ انتصار الموت

من طبعة من عظة لسافونارولا عن الموتى المقدسين

فما أقوى منة تلك الروح التي عاشت جنباً إلى جنب مع تلك العقلية الضيقة !
 ويا له من لهب ساطع ذلك الذي كان يتوهج بين جوانحه قبل أن يستطيع دفع
 الفلورنسيين - وهم الذين تغلب على عقولهم شهوة الثقافة - إلى الخضوع لرجل كان
 مستطيعاً استخدام العقل بهذا الشكل!

فأما مقدار ذلك الشطر من فؤادهم وأشيانهم الدنيوية ، الذى كانوا مستعدين أن يضحوا به من أجل خاطره ، يظهر من المشعلات التى إلى جوارها أصبحت جميع منصات محارق talami برناردينو دا سيينا وغيره ذات قدر ضئيل بالتأكيد .

ومع ذلك، فإن هذا كله لم يكن ليتم بغير مساعدة شرطة مستبدة. لذلك فإنه لم يتوان قط دون أشد أنواع التدخل المغيظ المكدر فى حرية الحياة الإيطالية الخاصة عظيمة القدر، مستخدماً تجسس الخدم على سادتهم وسيلة لتنفيذ إصلاحاته الأخلاقية. وغنى عن البيان أن ذلك التحول الذى ألم بالحياة العامة والخاصة، الذى لم يكد كالقن Calvin الحديدي يستطيع إحداثه بمدينة جنيف إلا بشق النفس بالاستعانة بحالة حصار مستديم، قد تبين بالضرورة استحالة تنفيذه فى فلورنسا، ولذا فإن المحاولة لم تنته إلا إلى دفع أعداء ساقونارولا إلى إبداء عداوة أشد بأساً ومرارة. ومن أشد إجراءاته إثارة لمت الشعب يمكن ذكر تلك الجماعات المنظمة من الصبيان^(٥) الذين كانوا يقتحمون البيوت عنوة وقسراً ويسطون بعنف على أى شىء يبدو صالحاً للمشعلة. والذى كان يحدث هو أنهم كانوا فى بعض الأحيان يُصرفون بعد أن يتلقوا الضرب المبرح، ولذا، رغبة فى المحافظة على الصورة الملققة "لجيل صاعد" تقى، كان يصحبهم بعد ذلك حرس من الرجال الراشدين.

وفى اليوم الأخير من الكارنقال فى عام ١٤٩٧، وفى اليوم عينه من السنة التالية، حدث "فعل الإيمان أو إحراق المهروط" auto-da-fe فى ميدان ديللا سينيوريا -Piazza della Signoria. وقام فى وسط الميدان مجموع هرمى ضخم من السلالم يشبه المنصة rogos التى كان أباطرة الرومان عادة يحرقون عليها. ورضت على الدرجة الدنيا من السلالم اللحي المستعارة والأقنعة ووسائل التكر الكرنقالية؛ وعلى الدرجة الأعلى وضعت مجلدات الشعراء اللاتين والإيطاليين ومن ضمنها بوكاتشيو والزواج غير المتكافئ Morgante لبولشى، وبترارك، وبعضها على هيئة مطبوعات رقية نفيسة ومخطوطات مزخرفة بالذهب والفضة أو الألوان الساطعة؛ ثم أدوات زينة النساء وأدوات التجميل والعمود والمرايا والخمارات (البراقع) والشعر المستعار (الباروكات)؛ وأعلى ذلك وضعت آلات العود وآلات الهارب (الكثارات) ورقع الشطرنج وأوراق اللعب

(الكوتشينة)، وفي النهاية على الدرجتين الأعلىين وضعت الصور المنقوشة (اللوحات الزيتية) فقط، وخاصة للجمال الأنثوي، بعضها صور متخيلة تحمل أسماء كلاسيكية مثل لوكريشيا وكليوباترا أو فاوستينا، وبعضها الآخر صور شخصية للجماليات بنشينا Bencina وينا موريللا Lena Morella وبيننا Bina وماريا دي لنزي Maria de'Lenzi؛ وجميع صور بارتولوميو ديللا بورتا Bartolomme della Porta ، الذي أحضرها بمحض إرادته؛ وهناك أيضاً، كما يبدو، بعض الرءوس النسائية - وهي أعمال أثرية من الدرر اليتيمة للنحاتين القدماء. وفي المناسبة الأولى عرض تاجر بندقي تصادف وجوده هناك اثنين وعشرين ألف فلورين ذهبى مقابل جميع الأشياء التي كانت على الهرم؛ ولكن الرد الوحيد الذي حصل عليه أن صورته الشخصية أخذت منه وأحرقت مع الباقي، وعندما أشعلت النيران في الكومة ظهر الكبراء (Signoria) فى الشرفة، وردد الجو أصوات الغناء ونفخات الأبواق ورنين الأجراس. وعندئذ دلف الناس إلى ساحة (ميدان) القديس ماركو حيث رقصوا دورات فى ثلاث دوائر موحدة المركز. وكانت الدائرة الداخلية مكونة على التبادل من رهبان الدير والغلمان فى ثياب الملائكة؛ ثم الدائرة التى تليها كان فيها الشبان الدنيويون العاديون ورجال الإكليروس؛ وفى الدائرة الخارجية كان الرجال كبار السن والمواطنون والقسس، وقد توج الأخيرون بكليل من أغصان الزيتون^(٥٢)

وذهبت أدراج الرياح جميع ألوان السخرية التى أنزلها به أعداء ساقونارولا المنتصرون عليه، الذين فى الحقيقة لم يكن لديهم القدر القليل من مبررات السخرية ومواهبها، فلم يستطع شئ منها النيل من ذكراه. وكلما زاد تعثر حظ إيطاليا فى وهاد المأسى، زاد توهج هالة القداسة التى أحاطت بشخص الراهب والنبي العظيم فى ذاكرة عقول الأحياء من أهلها. وبالرغم من أن تنبؤاته وإن لم تصدق على مر الأيام بالتفصيل فإن المصيبة الفادحة العامة التى تنبأ بها تحققت بصدق رهيب.

على أنه مهما بلغ من عظم أثر هؤلاء الوعاظ جميعاً، ومهما بلغ من سطوع ما قام به ساقونارولا من تبرير ادعاء الرهبان بملكية هذه الوظيفة^(٥٣)، فإنه مع ذلك يمكن القول بأن الطائفة فى مجموعها لم يمكنها الفرار من احتقار الشعب وإدانته. وأظهرت إيطاليا بجلاء أنها غير مستطبعة أن تمنح حماسها إلا للأفراد.

وإذا نحن حاولنا، بغض النظر عن كل ما يتصل بالقسس والرهبان، أن نقيس قوة العقيدة القديمة، فسيتبين لنا عظمتها أو صغرها تبعاً للاعتبار الذي ننظر به إليها في ضوءه. ولقد سبق لنا الحديث عن إحساس الناس بالحاجة إلى الآثار المقدسة بوصفها شيئاً لا غنى عنه (المجلد الأول، القسم الأول، الفصل العاشر؛ والمجلد الثاني، القسم السادس، الفصل الثاني). ولنلق الآن نظرة عابرة على مركز العقيدة والعبادة في الحياة اليومية. فلقد كان كلاهما محددتين جزئياً بحكم عادات الناس وجزئياً بحكم سياسة الحكام والقادة التي يمثلونها.



شكل ٢٢٢ إهراق ساقونارولا

نسخة من اللوحة الزيتية الأصلية (حوالي ١٥٠٠) لأستاذ رسام مجهول

متحف سان ماركو، فلورنسا

وكل ما له علاقة بالتوبة وبلوغ الخلاص بواسطة صالح الأعمال يكاد يكون على نفس مستوى التطور أو الفساد الذي هو عليه في شمال أوروبا، سواء بين كل من طبقة

الفلاحين والطبقة الفقيرة من سكان المدن. فأما الطبقات المتعلمة فكانت تتأثر هنا وهناك بنفس الدوافع. وأما تلك الجوانب من الكاثوليكية الشعبية التي كانت تقوم أصولها في الطرق الوثنية القديمة الخاصة بمخاطبة الآلهة إلى مكافأتهم والتصالح معهم (أى التماس رضاهم) فقد ثبتت نفسها ثباتاً لا سبيل إلى نزعها في وعى الشعب. وأية ذلك أن الإكلوجة (أى نشيد الرعاة) الثامنة لباتيستا مانتوقانو^(٥٤) Batista Manto vano، والتي أوردناها فيما سبق، تحتوى على صلاة فلاح إلى العذراء (المالونا) يتوجه بها إليها بوصفها الراعية الخاصة لكل المصالح والشئون الريفية والزراعية. وبعد، فيا لها من فكرات تلك التي كانت تدور بخلد الناس حول حاميتهم العذراء فى السماء! وما الذى كان يدور بعقل تلك المرأة الفلورنسية^(٥٥) التى قدمت وفاء لنذرهما exvoto قطرميذاً (أى برميلاً صغيراً) من الشمع إلى المبشرة أنوننتزياتا Annunziata، لأن حبيبها، وهو راهب، قد أفرغ بالتدريج برميلاً من النبيذ دون أن يكتشف ذلك الأمر زوجها الغائب! ثم حدث أيضاً، كما لا يزال يحدث فى وقتنا هذا، أن جهات متنوعة من شعب ومصالح الحياة الإنسانية كان يوجهها رعاتها كل فى اختصاصه. وكثيراً ما جرت محاولات لتفسير عدد من أشيع الشعائر فى الكنيسة الكاثوليكية على أنها بقايا لاحتفالات وثنية، ولا يشك أحد فى أن كثيراً من الشعائر المحلية والشعبية المرتبطة بالاحتفالات الدينية إنما هى فى الحقيقة جذافات منسية من العقائد الأوروبية السابقة على المسيحية. وفى إيطاليا، على العكس من ذلك، نجد أمثلة تدل على أن ضم العقيدة الجديدة إلى القديمة يبدو كأنما هو شىء معترف به بوعى تام. وهكذا، على سبيل المثال، يجرى حال عادة إخراج الطعام للموتى قبل موعد عيد كرسى القديس بطرس بأربعة أيام - أى فى اليوم الثامن عشر من فبراير، وهو موعد وتاريخ الفيراليا Ferialia القديمة^(٥٦) وعلى ذلك فإن ممارسات أخرى عديدة من هذا النوع ربما كانت منتشرة عندئذ ثم عادت فاستؤصلت منذ ذلك الوقت. وربما لم يبد التناقض واضحاً إلا عندما تقتصر على القول بأن الإيمان الشعبى فى إيطاليا كان له أساس متين يتناسب بالضبط بنفس النسبة التى كان عليها وهى على الوثنية.

وإن المدى البعيد الذى بلغه هذا النوع من الإيمان وذاع به بين الطبقات العليا لشىء يمكن إظهاره بالتفصيل إلى درجة ما. لقد كانت تساعده وتقف إلى جانبه، كما

سبق وأن ذكرنا عند حديثنا عن نفوذ رجال الإكليروس، قوة العادة والإلف والانطباعات المبكرة منذ الطفولة. وساعد الولوج بالفخامة وحب الأبهة والخيلاء والاستعراض الإكليروسى على تأكيده، وبين حين وآخر كان يظهر أحد تلك الأوبئة الشائعة المتعلقة بالنهضة، وإعادة القديم التي قل من الناس حتى الساخرين منهم والمتشككين من قاومها وصمد لها.



شكل ٢٢٤ الصياد يعطى خاتم القديس مارك إلى الدوق
ليباريس بوردوتى الاكاديمية، البندقية

على أن من الخطر فى مسائل من هذا النوع أن يتلقف المرء بتسرع النتائج المطلقة. وقد يجوز أن نتخيل، على سبيل المثال، أن شعور الرجال المتعلمين نحو آثار وبقايا القديسين لا بد أن تصبح مفتاحاً يمكن بواسطته فتح بعض مغاليق حجرات

وعيهم وشعورهم الدينى. والواقع أن فى الإمكان وضع إصبع الإشارة على بعض الفوارق فى الدرجة ، وإن لم يتم ذلك بأية حال بنفس الوضوح المرغوب. ويبدو أن حكومة البندقية فى القرن الخامس عشر كانت تشارك مشاركة تامة فى التبجيل والتوقير الذى كان محسوساً فى بقية أوروبا تجاه رفات وبقايا أجساد القديسين (المجلد الأول، القسم الأول، الفصل السابع). بل لقد بلغ الأمر حتى بالأجانب الذين يعيشون بالبندقية أنهم وجدوا من الأفضل أن يكيفوا أنفسهم وفق تلك الخرافة^(٥٧) وإذا جاز لنا أن نحكم على مدينة بادوا المستفيضة فى العلم استدلالاً بشهادة ميشيل ساثونارولا، وهو عالم الطبوغرافيا بها (المجلد الأول ، القسم الثانى، الفصل الثالث)، لوجدنا أن الأشياء لابد أنها كانت على نفس الشاكلة بون أدنى اختلاف. ويخبرنا ميشيل فى مزيج من الكبرياء والرهبنة الورعة كيف حدث فى أزمان المخاطر العظيمة أن سُمع القديسون يبتون أثناء الليل فى شوارع المدينة، وكيف أن شعر وأظافر جثة إحدى الراهبات المقدسات بمدينة سانت كيارا S.Chiera ظلت تنمو باستمرار، وكيف أن نفس تلك الجثة كانت تحدث ضجيجاً وترفع ذراعيها^(٥٨) كلما أهدقت بالمدينة طامة. وعندما يشرع الكاتب فى العمل فى وصف كنيسة القديس أنطونيو الصغيرة فى سانتو Santo ينسى نفسه فى الاستغاثات والأحلام الهائمة. والذى حدث بميلانو هو أن الناس على الأقل أبدوا إخلاصاً متعصباً للآثار المقدسة ، وعندما حدث ذات مرة فى ١٥١٧ أن رهبان سان سيمبليسيانو S.Simpliciano بلغ من إهمالهم أنهم كشفوا عن ستة أجساد مقدسة أثناء إجراء بعض التعديلات فى المذبح الأعلى، وأعقب تلك الحادثة هطول فيضانات ثقيلة من المطر، فنسب الناس^(٥٩) هذه النازلة إلى امتهان الحرمان وتدنيس المقدسات، وكانوا ينهالون على الرهبان ضرباً كلما التقوا بهم فى الطرقات. وحدث بأجزاء أخرى من إيطاليا، بل حتى فى حالة البابوات أنفسهم، أن كان الإخلاص فى دوافع تلك المشاعر يوضع موضع الشك بدرجة أكبر كثيراً، وإن حدث هنا أيضاً أن كان من غير الممكن التوصل إلى نتيجة قاطعة. ومن المعلوم جيداً مقدار ذلك الحماس العام الذى أحاط بوضع البابا بكل إجلال ووقار رأس الرسول أندرو، التى جلبت من اليونان ثم من سانتا مورا، فى كنيسة القديس بطرس (١٤٦٢)؛ ولكننا نستنتج من روايته هو نفسه أنه إنما فعل ذلك فقط على سبيل نوع من الخجل، نظراً لأن كثرة

غفيرة من الأمراء كانوا يتنافسون على هذا الأثر المقدس. ودار الزمن ولم يخطر بباله إلا بعد ذلك أن راودته الفكرة بأن يتخذ من روما المثوى المشترك لجميع بقايا القديسين التي دفنت بكنائسهم^(٦٠) وحدث في عهد البابا سيكستوس الرابع أن سكان المدينة كانوا لا يزالون أكثر تحمساً في هذه القضية من البابا نفسه، وشكت هيئة الحكام (١٤٨٣) بمرارة من أن سيكستوس أرسل إلى لويس الحادي عشر، ملك فرنسا المحتضر، بعض عينات من آثار اللاتيران^(٦١) ولكن صوتاً شجاعاً ارتفع حوالى ذلك الوقت بمدينة بولونيا، ناصحاً ببيع جمجمة القديس دومينيك إلى ملك إسبانيا، واستخدام المال فى مشروع عام نافع^(٦٢) ولكن الذين اجتمع فى قلوبهم أدنى درجة من التقدير تحو الآثار والبقايا المقدسة كانوا هم أهل فلورنسا. فقد انقضت تسعة عشر عاماً (١٤٠٩-١٤٢٨) بين استقرار الرأى على تكريم قديسهم، القديس زانوبى، بإنشاء تابوت حجرى جديد له وبين التنفيذ النهائى لهذا المشروع على يد جيبرتى Ghiberti ، ولكنه حدث فقط بمحض الصدفة، لأن الأستاذ العظيم كان قد أتم عملاً أصغر من نفس النوع بمهارة شديدة^(٦٣)

وربما أخذ الملل يدخل أنفسهم من الآثار المقدسة^(٦٤) بعد أن خادعتهم رئيسة راهبات نابوليتانية ماكرة (١٣٥٢)، عندما أرسلت لهم ذراعاً زائفة لراعية الكاتدرائية، القديسة ريباراتا Santa Reparata ، كانت مصنوعة من الخشب والجبس. أو ربما كان الأصدق أن يقال إن حاستهم الجمالية تحوَّلت بهم بعيداً فى اشمئزاز عن هذه الجثث مقطعة الأوصال والملابس العفنة. أو لعل أن شعورهم كان بالأحرى بسبب ذلك الإحساس نحو المجد الذى كان يرى أن دانتى وبترارك أحق بقبر فاخر من جميع الحواريين الإثنى عشر مجتمعين. ومن المحتمل أنه قد جرى بكل أرجاء أنحاء إيطاليا، بغض النظر عن البندقية وروما، التى كانت حالة الأخيرة منهما استثنائية، أن كانت عبادة الآثار المقدسة قد أفسحت المجال منذ وقت طويل أمام تقديس السيدة العذراء (المادونا)^(٦٥)، وذلك كان على كل حال بدرجة أكبر من أى مكان آخر فى أوروبا؛ وفى هذه الحقيقة دليل غير مباشر يشهد بقيام تطور مبكر فى الحس الجمالى.



شكل ٢٢٥ معجزة الصليب الحق
لجيتتيلي بيليني الاكاديمية، البندقية

وربما جاز التساؤل عما إذا كان في الشمال، حيث تكاد جميع أفخم الكاتدرائيات تقام تكريماً لسيدتنا البتول، وحيث يتغنى فرع ضخّم لا يستهان به من الشعر اللاتيني والوطني بمدح أم الرب، قدّر أعظم من الإخلاص لها من ثم كان ممكناً. ومع ذلك فإن الذي حدث بإيطاليا هو أن عدد الصور الإعجازية للعدراء كان أعظم كثيراً، كما أن الدور الذي كانت تلك الصور تلعبه في حياة الناس اليومية كان أهم كثيراً. فكانت كل مدينة مهما كان حجمها تحتوى على كمية منها، بدءاً بالصور القديمة، أو المزعوم بأنها قديمة جداً ظاهرياً، والصور التي رسمها القديس لوقا حتى أعمال الرسامين المعاصرين، الذين لم يندر أنهم عاشوا ليروا المعجزات التي اصطنعتها أيديهم. وما كان العمل الفني في تلك الحالات بريئاً من كل ضرر كما يعتقد باتيستينا

مانتوفانو^(٦٦) Batista Mantovano : ففي بعض الأحيان كان يكتسب فجأة فضيلة سحرية. ومن المحتمل أن التلهف الشعبى الشديد لكل ما هو معجز وخارق ، الذى كان قوياً بخاصة بين النساء، كان يمكن إشباعه تماماً بفضل هذه الصور، ومن أجل ذلك فقدت الآثار المقدسة مكانتها واعتبارها. وليس فى الإمكان القول فى تأكيد تام إلى أى حد كان احترام الآثار المقدسة الأصيلة الحقيقية يقاسى من تلك السخرية التى كان يوجهها الروائيون إلى الزائف منها^(٦٧)

وموقف الطبقات المتعلمة من عبادة مريم العذراء يمكن إدراكه بوضوح أشد من موقفهم من عبادة الصور. ولا يسع المرء إلا أن يُصدم من أنه فى الأدب الإيطالى كان (الفردوس) Paradise^(٦٨) لدانتى آخر قصيدة كتبت فى مدح وتكريم العذراء، بينما بين الشعب فإن الترانيم والتراتيل فى مدحها ظلت تُنتج باستمرار حتى يومنا هذا. ولا تكاد أسماء سانتازارو وسابيلليكو^(٦٩) وغيرهما من كتاب الشعر اللاتينى تثبت شيئاً من الناحية الأخرى، وذلك نظراً لأن الهدف الذى كانوا يكتبون متجهين إليه كان أدبياً بصفة رئيسية. فإن الأشعار المكتوبة باللغة الإيطالية فى القرن الخامس عشر^(٧٠) وبداية القرن السادس عشر، والتى نلتقى فيها وشعوراً دينياً أصيلاً، مثل ترانيم وتراتيل لورنزو الفاخر والأشعار الغنائية (السونيتات) لقيتوريا كولوناً ومايكل أنجلو، كان من الممكن أن تكون بنفس المعيار من نسج كُتابهم البروتستانت. وبالإضافة إلى التعبير الغنائى الليريكى عن الإيمان بالله، نلحظ فيها بوجه رئيسى الإحساس بالإثم، والوعى بالخلاص عن طريق وفاة المسيح والتشوق إلى عالم أفضل. ولا تُذكر شفاعاة أم الرب إلا عرضاً^(٧١) وتتكرر الظاهرة فى الأدب الكلاسيكى للفرنسيين فى زمن لويس الرابع عشر. ولم تعاود عبادة السيدة العذراء الظهور فى الشعر الإيطالى الرفيع إلا قبل زمن الإصلاح الدينى المضاد. وفى الحين نفسه لم يدخر الفنانون التشكيليون دون أدنى ريب قصارى جهدهم فى تمجيد السيدة العذراء. ويجوز أن نضيف أن عبادة القديسين بين الطبقات المتعلمة اتخذت بصفة جوهرية صورة وثنية (المجلد الأول، القسم الثالث، الفصل العاشر).



شكل ٢٢٦ السيدة العذراء والقديسين
لمانتينيا معرض الفن، درسدن

وهكذا يجوز لنا أن نفحص فحص الناقد المدقق الجوانب المتنوعة للكاثوليكية الإيطالية أثناء تلك الفترة، وعلى ذلك نثبت بدرجة معينة من الاحتمالية موقف الطبقات المتعلمة من الإيمان الشعبي. ومع هذا فليس من الميسور الوصول إلى نتيجة مطلقة

وإيجابية. فإننا نلتقى وتناقضات عسيرة التفسير. وبينما كان المعماريون والمصورون والنحاتون يعملون بنشاط لا يهدأ داخل الكنائس ومن أجلها، إذا بنا نسمع عند بداية القرن السادس عشر أشد الشكاوى مرارة من إهمال للعبادة العامة وإهمال لتلك الكنائس نفسها.

Templa ruunt, passim sordent altaria, cutlus

Paulatim divinus abit^(٧٢)

ومن المعلوم لدينا جميعاً كيف أن لوثر قد هاله عدم الوقار الذى كان يقيم به القسس فى روما صلوات القداس. وفى الحين نفسه كانت أعياد الكنيسة تقام بذوق رفيع وفخامة ليس بمستطاع للأقطار الشمالية تصورهما. وكأنما أشد الأمم سعة خيال كانت عرضة بسهولة لإهمال الأمور اليومية، كما أنها بنفس السهولة كانت سريعة الافتتان بأى شىء خارق للمألوف.

وإلى هذا الإفراط البالغ فى سعة الخيال ينبغى أن نعزو انتشار عدوى النهضات الدينية، التى سنقول عنها بضع كلمات قليلة مرة ثانية. وينبغى لنا أن نميزها بوضوح من تلك الانفعالات التى يثيرها الوعاظ العظام. فإنها كانت راجعة بالأحرى إلى الكوارث والملمات العامة، أو إلى الفزع المروع من حدوثها.

فقد كانت أوروبا بأجمعها فى القرون الوسطى تجتاحها من وقت لآخر مثل هذه الطامات الكبرى، التى تجترف بين أمواجها شعوباً بأكملها. وما الحروب الصليبية والنهضة الدينية على يد جماعة السياطين^(*) إلا أمثلة على ذلك. وشاركت إيطاليا فى هاتين الحركتين كليهما. وظهرت أول الجماعات الكبرى للسياطين، بعد سقوط إيزيلينو Ezzelino وعائلته مباشرة، بالقرب من نفس مدينة بيروجيا^(٧٣) التى ورد ذكرها آنفاً

(*) السياطون : Flagellant : فئة دينية ظهرت فى إيطاليا، كان أفرادها يسبرون عرايا وجلدون أنفسهم بالسياط تقرباً إلى الله. (الترجم)

(فى نفس هذا الفصل) بوصفها المقر الرئيسى لوعاظ حركة إيقاظ الروح الدينية. ثم تلى ذلك حركة السياطين فى عام ١٣١٥ وعام ١١٣٤^(٧٤) ثم بعد ذلك الحج الكبير بغير إلهاب بالسياط فى ١٣٩٩، الذى سجله كوريو^(٧٥) وليس من المستبعد أن تكون فترات الغفران Jubilees أنشئت جزئياً بقصد تنظم وإزالة الشر من هذه الشهوة الشريرة للتشرد، تلك الشهوة التى كانت تستحوذ على عقول مجاميع السكان إبان أوقات الهياج الدينى. وأصبحت الملاذات المقدسة بإيطاليا، مثل لوريتو Loreto وغيرها، شهيرة فى ذلك الحين، كما أنها دون أدنى ريب حولت جزءاً معيناً من هذا الحماس عن وجهته^(٧٦)

على أن اللمات والكوارث الرهيبة لم يزل لها فى وقت أواخر كثيراً القوة على إحياء شعلة توبة العصور الوسطى، فكان الشعب الذى يلذعه ضميره والذى ما زال فى الغالب مرعوباً أكثر وأكثر بفعل الآيات والأعاجيب، يحاول أن يحرك شفقة السماء بالإعوال البكائية وإلهاب أنفسهم بالسياط وبالصيام والمواكب وسن التشريعات الأخلاقية. ذلك ما حدث فى مدينة بولونيا يوم انتشر وباء الطاعون فى ١٤٥٧^(٧٧)، وكذلك أيضاً ما حدث فى ١٤٩٦ إبان شقاق داخلى بمدينة سيبينا^(٧٨)، مع الاقتصار على حالتين بون ما لا حصر له من الأمثلة. وليس فى إمكاننا أن نتصور منظرأ أشد إيلاًماً من ذلك المشهد الذى نقرأ عنه بميلانو فى ١٥٢٩، يوم تأمرت المجاعة والطاعون والحرب مع الاغتصاب الإيبانى للنزول بالمدينة إلى أدنى أعماق اليأس والهوان^(٧٩) وتصادف أن الراهب الذى كان يمتلك ناصية أذن الشعب، وهو الراهب توماسو نيبوتو Tommaso Nieto، كان هو نفسه إيبانياً. فحُمل خبز القربان المقدس بطريقة جديدة طريفة، بين تلاطم جماهير الحفاة ما بين شاب وشيخ. ثم وُضع فوق تابوت مزخرف استقر فوق أكتاف أربعة قساوسة يرتدون الملابس الكتانية - تقليداً لتابوت العهد^(٨٠) الذى حمله بنو إسرائيل يوماً ما حول أسوار أريحا. وهكذا ذكّر أهالى ميلانو المبتلون المعذبون ربهم العتيق بعهده القديم مع الإنسان؛ وعندما عاد الموكب فدخل ثانية إلى الكاتدرائية، وبدا كأنما البناء الشامخ قد وجب أن يتوافق مع الصيحة المتألة المعذبة "الرحمة" "Misericordia!"، فإن كثيراً ممن وقفوا هناك ربما اعتقدوا أن "القوى القادر" سيدمر فعلاً قوانين الطبيعة والتاريخ، وينزل على رؤوسهم خلاصاً إعجازياً.



شكل ٢٧٧ العذراء ذات العباءة
قالب جصى لبرناردينو روسيلينو (٤)
أريتزو، قصر دي تريبونالى

لقد كانت هناك إحدى الحكومات فى إيطاليا، وهى حكومة دوق إركول الأول Dukel Ercoleof Ferrara من فيرارا^(٨١)، تولت توجيه الشعور العام وأجبرت حركات النهضات الشعبية على التحرك فى قنوات منتظمة. وفى الوقت الذى اجتمعت فيه القوة فى يد ساقونارولا بمدينة فلورنسا، وانتشرت الحركة التى بدأها بطريقة كبيرة ومتوسعة بين سكان وسط إيطاليا، فإن أهالى فيرارا بدءوا صوماً تطوعياً اختيارياً عاماً (فى بداية ١٤٩٦). فقد أعلن أحد أتباع القديس لازار من على المنبر اقترباً موسم من الحرب والمجاعة لم يشهد لهما العالم مثيلاً على أن السيدة العذراء أنبأت بعض الأتقياء^(٨٢) أن هذه الشرور يمكن تجنبها عن طريق الصوم. وعلى ذلك، فلم يكن أمام البلاط نفسه إلا أن يصوم، على أنه أخذ زمام العبادات العامة بين يديه. وفى يوم عيد الفصح، الموافق للثالث من أبريل، صدر بيان عن الأخلاق والدين، يحظر التجديف

ويحرم الألعاب واللواط واتخاذ السراري والمحظيات ، وتأجير المنازل للعاهرات أو القوادين، وفتح جميع المحلات والدكاكين فى أيام الأعياد، فيما عدا المخابز ومحلات الخضراوات. وأجبر الآن اليهود والمغاربة، الذين لجأوا إلى فيراراً هرباً من الأسبان، مرة أخرى إلى ارتداء الدائرة الصفراء على صدورهم. وأنذر المخالفون بأنهم لن يواجهوا فقط بتوقيع العقوبات المنصوص عليها فى القانون، بل وأيضاً بتعقوبات أقسى كثيراً حسبما يراه الدوق صالحاً لإنزالها بهم، يُدفع ربه، لو كان غرامة مالية، إلى الدوق، والثلاثة الأرباع الباقية تذهب إلى بعض المؤسسات العامة. وبعد ذلك ذهب الدوق ورجال بلاطه إلى الكنيسة عدة أيام متوالية لسماع الوعظ، وفى اليوم العاشر من أبريل أُجبر كل اليهود فى فيراراً على عمل نفس الشيء^(٨٢) وفى يوم الثالث من مايو أرسل مدير الشرطة - وهو نفس زامبانتي ذلك الذى سبقت الإشارة إليه فى هذا الفصل - منادياً يعلن على الناس أن كل من سبق وأعطى أموالاً لضباط الشرطة حتى لا يرشدوا عنه أنه من المجدفين، يستطيع، لو تقدم للسلطات، استرداد أمواله مرة أخرى مع تعويض إضافي. وقال إن هؤلاء الضباط الفاسدين قد ابتزوا ما يقارب اثنين أو ثلاث بوقيات من أشخاص أبرياء بتهديدهم بتقديم بلاغ ضدهم. وكانوا يوم ذاك اعترفوا على بعضهم البعض ، وبذلك سيقوا جميعاً إلى السجن. ولكن نظراً لأن الناس دفعت تلك المبالغ بالضبط لكيلا يكون لأى واحد منهم أى شأن مع زامبانتي، فإنه من المحتمل أن هذا البيان لم يلق صدق إلا عند قلة من الناس ليتقدموا ويطالبوا بأموالهم. وفى عام ١٥٠٠، بعد سقوط لولدفيكو إيل مورو، عندما حدث انفجار مماثل فى الشعور العام، أمر إركول^(٨٤) بإقامة سلسلة من تسعة مواكب، سار فيها أربعة آلاف طفل يلبسون الملابس البيضاء ويحملون راية يسوع. وركب إركول نفسه على صهوة جواد، نظراً لأنه لم يكن يستطيع السير إلا بصعوبة. وصدر بعد ذلك مرسوم من نفس نوع مرسوم عام ١٤٩٦ ومن المعروف جيداً كم عدد الكنائس والأديرة التى شيدها يد ذلك الحاكم. بل لقد بلغ الأمر أن أرسل فى طلب قديسة حية وهى الأخت الراهبة كولومبا^(٨٥)، بعد فترة قليلة من تزويجه ابنه ألفونسو إلى لوكريتيا بورجيا (فى ١٥٠٢). وذهب رسول خاص ليأتى بها^(٨٦) ومعها خمسة عشر راهبة أخرى من

فِي تريبو Viterbo، وصحبها الدوق بنفسه عند وصولها إلى فيرارا إلى دير أعد لاستقبالها. ولعلنا لا ننزل به أي ظلم إذا عزونا كل تلك الإجراءات إلى حد كبير إلى حسابات وتقديرات سياسية بحتة. وينتمي هذا التوظيف للدين لغايات فن إدارة الدولة أو فن الحكم عن طريق نوع من الضرورة المنطقية إلى فكرة الحكومة التي كونتها عائلة إيستي حسبما أشرنا آنفاً (المجلد الأول، القسم الأول، الفصل الخامس).

الفصل الثالث

الدين وروح النهضة

على أنه لا بد لنا بقصد الوصول إلى نتيجة ختامية فاصلة فيما يتعلق بالحس الديني لأناس تلك الفترة أن ننتهج منهجاً مخالفاً. وفي استطاعتنا أن نستنتج من موقفهم الفكرى بوجه عام علاقتهم بكل من الفكرة الإلهية وبالديانة الموجودة فى عصرهم.

ذلك أن هؤلاء الناس العصريين، وهم ممثلو ثقافة إيطاليا، إنما ولدوا يحملون نفس الغرائز الدينية مثل غيرهم من أهل أوروبا فى العصور الوسطى. ولكن فرديتهم القوية جعلتهم فى شعبة الديانة، شأنهم فى الأمور الأخرى، ذاتيين تماماً، كما أن الفتنة الساحرة التى أنزلها بهم اكتشاف الكون الجوانى والبرانى جعلهم دنيويين نوى خبرة بالدنيا والناس على وجه واضح ملحوظ. فأما فى سائر أوروبا ظل الدين، حتى فترة متأخرة جداً، شيئاً هابطاً من الخارج، كما أن الواقع فى الحياة العملية أن الأثانية والحسانية(*) كانتا تتبادلان المواقع مع العبادة والندم. والأخيران لم يكن لهما منافسون روحيون، كما هو الشأن فى إيطاليا، أو فقط إلى حد أصغر كثيراً.

زد على ذلك أن العلاقات الوثيقة والكثيرة بين إيطاليا وبيزنطة والشعوب الإسلامية أنتجت تسامحاً لا حدة فيه عاد بالضعف على الفكرة العرقية الإثنوجرافية عن "العالم المسيحى" المتميز. وعندما أصبحت العصور الكلاسيكية العهيدة بما حوت من رجال

(*) الحسانية أو الحسية : هى الانغماس فى الشهوات الحسية، وربما بلغ الأمر حد الفجور. (المترجم)

ونظم ومؤسسات سنّة كبرى ومثلاً أعلى فى الحياة، كما أنها غدت أعظم الذكريات التاريخية، حصلت أصول الفكر ومذاهب الشك العتيقة فى كثير من الحالات على سيادة كاملة على عقول الإيطاليين.

ونظراً، مرة أخرى، لأن الإيطاليين كانوا أول الشعوب الحديثة بأوروبا التى سلمت نفسها بجرأة للتظهير حول الحرية والضرورة، ونظراً لأنهم فعلوا ذلك فى ظل ظروف سياسية عنيفة ولا قانونية كثيراً ما كان الشر فيها هو الفائز بنصر فآخر مؤزر ودائم، فإن إيمانهم بالله أخذ يهتز، وأصبح رأيهم فى حكومة العالم قدرياً. وعندما أبت طبائعهم الحارة أن تستقر فى حاسة عدم اليقين، تحركوا لمساعدة أنفسهم بالاستعانة بالخرافات الشرقية أو القروسطية. فجنحوا إلى التنجيم والسحر.

وأخيراً فإن هؤلاء الجبابرة العقليين، هؤلاء الممتلون لعصر النهضة، أظهروا، فيما يتعلق بالدين، صفة شائعة فى الطبائع الفتية الشابة. وإذ هم يفرقون تفريقاً حاداً بين الخير والشر فإنهم مع ذلك لا يعون الخطيئة. فإزاء كل إزعاج لانسجامهم الجوانى يشعرون فى أنفسهم القدرة على إخراج الخير من الموارد اللدنة الكامنة فى طبيعتهم الخاصة، وبذلك فإنهم لا يحسون بأدنى ندم. وهكذا تصبح الحاجة إلى الخلاص محسوسة بغموض يزداد أكثر فأكثر، بينما طموحات الحاضر والنشاط الفكرى الذى فيه يجبان حجباً مطلقاً كل فكرة عن عالم آت، وإلا فهى تتسبب له فى أن يتخذ شكلاً شاعرياً بدلاً من شكل دوجماتى عقيدى ملزم.

وعندما ننظر إلى هذا كله بوصفه شيئاً واسع الانتشار ومنحرفاً فى غالب الأحيان بسبب ذلك الخيال الإيطالى كلى القوة نحصل على صورة لذلك الزمن لا مرأى أنها أشد اتفاقاً مع الصدق من التنديدات الغامضة التى تثار ضد الوثنية الحديثة. كما أن الفحص الأثق غالباً ما يكشف لنا عن أنه من دون تلك القشرة البرانية يمكن للقدر الكبير من الدين الحق أن يبقى حياً مع ذلك.

وينبغى أن تقتصر المناقشة الوافية أكثر لهذه النقاط على عدد قليل من أهم التفسيرات الجوهرية.

فأما أنه يجب أن تصبح الديانة مرة أخرى شأنًا خاصًا للفرد وأشعوره الشخصي الخاص فأمر لم يكن منه مندوحة يوم أصبحت الكنيسة فاسدة في مبادئها واستبدادية في ممارساتها، كما أنه دليل ساطع على أن العقل الأوروبي كان لا يزال ينبض بالحياة. وفي الحق أن ذلك تجلى للأعين بطرائق كثيرة مختلفة. فبينما لم تُضَع الشيع الصوفية والزهدية في الشمال وقتاً في خلق أشكال برانية جديدة لأوضاعها الفكرية الجديدة وإحساسها النابت، كان كل فرد في إيطاليا يسلك طريقة الخاص، كما أن ألقاً كانوا يجوبون في بحر الحياة دون هداية دينية على الإطلاق. وإنه ليجب ألا ندخر أى مزيد من الإعجاب بأولئك الذين حققوا لأنفسهم ديانة شخصية واستمسكوا بها بشدة. وهم قوم لا يجوز أن يوجه إليهم أى لوم بأنهم لم يستطيعوا أن يحصلوا على أى دور أو نصيب من الكنيسة القديمة العجوز، وهو شأنها أننذ؛ ولن يكون من المعقول أيضاً أن يتوقع أنهم ينبغي عليهم جميعاً وبلا استثناء أن يؤديوا ذلك العمل المرهق الروحي الذى اختص به المصلحون الدينيون الجرمان. وإن شكل هذا الإيمان الشخصي، كما تجلى في العقول الأفضل، ليقدم للقارئ في ختام عملنا هذا.

وتدين النزعة الدنيوية، التى بسببها ومن خلالها يبدو عصر النهضة كأنما هو نقيض مضاد واضح للعصور الوسطى، بأصلها الأول إلى فيض الأفكار الجديدة، والأهداف ووجهات النظر المستحدثة، التى قلبت رأساً على عقب التصور القروسطى للطبيعة والإنسان. وهذا الروح ليس فى حد ذاته أكثر عداءً للدين من تلك "الثقافة" التى تحل محله الآن، ولكنها تستطيع أن تمنحنا فكرة ضعيفة عن الاختمار الشامل الذى استدعاه أننذ اكتشاف عالم جديد من العظمة. ولم يكن ذلك التهافت الدنيوى ماجناً أو طائشاً، وإنما هو جاد، كما كان الفن والشعر يملأه نبلاً. ومن الضرورات السامية للروح العصرية أن هذا الموقف ما يكاد يتخذ ويكتسب لا يعود من الممكن فقدانه بعد ذلك، وأن دافعاً لا سبيل إلى مقاومته يجبرنا على فحص الرجال والأشياء، وأننا يجب علينا أن نتمسك بهذا الفحص بوصف كونه غايتنا وعملنا الحق⁽¹⁾ فبأية سرعة وعن طريق أية سبل سيققادنا هذا البحث ويعيدنا إلى الله، وبأية الطرق سيتأثر به المزاج الدينى للفرد تلك أسئلة لا يمكن أن تُلَقَى بأية إجابة عامة. وليس فى إمكان العصور الوسطى، التى جنبت نفسها متاعب الاستقراء المنطقى والفحص الحر، أن يكون لها

حق في أن تفرض علينا حكمها العقيدى الدوجماتى فى أمر له مثل هذه الأهمية القصوى.

وإلى دراسة الإنسان، كواحدة بين عدة قضايا أخرى كثيرة، كان يرجع التسامح وعدم الاهتمام اللذين قويت بهما الديانة الإسلامية. فإن المعرفة والإعجاب بتلك الحضارة العجيبة الأخاذة التى بلغها الإسلام، وبوجه خاص قبل الطوفان المغولى، كان شيئاً خاصاً مميّزاً بإيطاليا وحدها منذ زمن الحروب الصليبية. وقد جرى تعزيز هذا التعاطف على يد الحكومة نصف الإسلامية لبعض الأمراء الإيطاليين، وعن طريق الكراهية بل حتى الاحتقار للكنيسة القائمة والعلاقات التجارية الثابتة المستمرة مع موانئ شرق وجنوب البحر الأبيض المتوسط^(٢) وفى إمكاننا أن نبين أنه فى القرن الثالث عشر اعترف الإيطاليون بمثل أعلى إسلامى للنبل والكرامة والكبرياء كانوا يحبون أن يربطوه بشخص أحد السلاطين. وكان ذلك يعنى بصفة عامة سلطاناً مملوكياً؛ وإذا ذكر اسم ما فإنه اسم السلطان صلاح الدين^(٣) وحتى الأتراك العثمانيون Osmanli، الذين لم تكن ميولهم التدميرية بالسر الخفى على أحد، لم يكونوا يشكلون للإيطاليين إلا درجة يسيرة من الخوف كما بيّناً أنفاً (المجلد الأول، القسم الأول، الفصل الثامن)، كما أن عقد اتفاق سلمى معهم كان ينظر إليه على أنه ليس من المستحيلات. ومع هذا، فقد ظهرت إلى جوار هذا التسامح أشد أنواع المعارضة الدينية مرارة نحو الإسلام؛ يقول فيليلفو Filelfo أنه ينبغي لرجال الإكليروس أن يتقدموا للأمام ويقفوا ضده، وذلك لأنه انتشر بأرجاء شطر كبير من العالم، وكان أشد خطراً على العالم المسيحى من اليهودية^(٤)؛ وتواكبت مع الاستعداد للتفاهم مع الترك رغبة نارية عارمة لخوض حرب ضدهم تملك زمام عقل البابا بيوس الثانى طيلة عهد توليه السلطة البابوية، وعبر عنها كثير من الإنسانيين بعبارات هجائية طنانة.

وكانت أصدق التعبيرات عن عدم الاهتمام الدينى هذا وأبرزها وأشدّها تمييزاً ، تلك القصة ذائعة الصيت عن الخواتم الثلاثة ThreeRings، التى وضعها ليسينج Less- ing على لسان ناثنان، بعد أن ظلت تُروى فعلاً قبل ذلك بعدة قرون، وإن كان مع بعض التحفظ، فى الحكايات المائة القديمة Hundred Old Tales، فى (Nov.72or73)، كما وردت

بصورة أجراً عند بوكاتشيوي⁽⁶⁾ ففي أية لغة وفي أى ركن من أركان البحر الأبيض المتوسط وردت هذه الحكايات لأول مرة، ذلك أمر لا يمكن البتة معرفته؛ وأقرب الاحتمالات أن الأصل كان أكثر صراحة بكثير من تلكا الاقتباسين الإيطاليين المعدلين. والافتراض الدينى الذى تقوم عليه تلك الرواية - أعنى الإيمان بوجود الله بالعقل - سيطرح للمناقشة فيما بعد وفق أهميته ومغزاه الأوسع بالنسبة لتلك الفترة. وتتكرر الفكرة نفسها، وإن كان بطريقة كاريكاتورية سمجة خرقاء، فى القول السائر الشهير "ثلاثة خدعوا العالم - هم موسى وعيسى ومحمد (حاشا الله !!!)"⁽⁷⁾ فإذا كان الإمبراطور فريديريك الثانى، الذى يقال إن هذا القول صدر عنه، ذهب إلى مثل هذا الرأى حقاً، فلعله ربما عبر عن نفسه بحنكة وخفة دم أكثر. ولقد كانت هناك أفكار من هذا القبيل منتشرة أيضاً فى الإسلام.

وعند ذروة عصر النهضة، قرب نهاية القرن الخامس عشر، يقدم إلينا لويجي بولشى مثلاً على نفس هذا القبيل والمزاج من التفكير فى مورجانتى الكبير *Morgante Maggiore*. وينقسم العالم الخيالى الذى تعالجه حكايته، شأن جميع القصائد البطولية فى ماثور الرومانس، إلى معسكر مسيحي وآخر إسلامي. وطبقاً للمزاج القروسطى، كان يواكب نصر المسيحي والصلح النهائى بين المتقاتلين تعميد المسلمين المنهزمين، ولا بد أن الشعراء المرتجلين *Improvisatori*، الذين سبقوا بولشى فى معالجة هذه الموضوعات، قد استخدموا هذه الحادثة الأساسية المخزونة بحرية مطلقة. وكان هدف بولشى أن يحاكي سابقيه، وبخاصة أسوأهم وأضعفهم مكانة، محاكاة ساخرة، وهو يفعل ذلك مستعيناً بتلك الالتماسات إلى الله والمسيح والعذراء، تلك الالتماسات التى تبدأ بها كل أنشودة؛ وبوضوح أكثر بعد هذا يتم له بواسطة التحويلات إلى الدين والتعميد بصورة فجائية، التى كانت الفكاهة والهراء المطلق المجتمع فيها يصدم ويضرب ألباب كل قارئ أو مستمع. ويؤدى به هذا الإضحاح والسخر، فضلاً عن ذلك إلى الاعتراف بإيمانه فى الخير النسبى لكل الأديان⁽⁸⁾، وهو إيمان كان، رغم اعترافه بصدق يقينه⁽⁸⁾، يقوم بالضرورة الجوهرية على أساس لاهوتى. وفى نقطة أخرى أيضاً يفترق افتراقاً بعيداً عن التصورات والمفاهيم القروسطية. وكانت البدائل فى القرون الغابرة هى بدائل مسيحية، وإلا فهى وثنية وإسلامية؛ أو هى عقيدة المؤمن بيقين

أو الكافر الهرطيق. ويرسم بولشى صورة للمارد مارجوتى^(٩) Margutte، الذى راح فى استهانة بكل وجميع الأديان، يعترف فى جذل ومراح بكل شكل من أشكال الرذيلة والحسانية، ويحتفظ لنفسه فقط بجدارة واحدة هى أنه لم يخرج عن العقيدة أبداً. ولعل الشاعر كان يقصد بقوله هذا أن يكبر من قدر ذلك الوحش الأمين - على طريقته المألوفة. ولعله كان يريد أن يقتاده إلى جادة الفضيلة وطرقها على يد مورجانتى Mor-gante، ولكنه ما لبث أن مل مما أبدع وخلق، ثم عاد فى المقطع الغنائى التالى فأوقعه فى نهاية كوميدية مازحة^(١٠) وقد قُدِّم مارجوتى Margutte كدليل على خفة بولشى وطيشه؛ ولكن الأمر يحتاج إليه لكى يكمل صورة شعر القرن الخامس عشر. ومن الطبيعى أنه ينبغى له فى مكان ما أن يقدم بمقاييس نسبية متنافرة صورة أنانية غير مستأنسة وغير واعية ولا مدركة لجميع أنواع الأصول المسلمة، وتكون مع هذا حاوية لبقية من الشعور الشريف الباقى. وهناك أشعار ومقصودات أخرى توضع العواطف فيها على ألسن المرءة والعفاريت والكفرة والمسلمين (كذا!!)، وهى الأمور التى لا يجرؤ فارس مسيحي على النطق بها.

وكان العصر العهيد يمارس سلطاناً ونفوذاً من نوع آخر يختلف عما للإسلام، ولم يكن ذلك من خلال دينه وعقيدته، التى لم تكن إلا وثيقة المشابهة بكاثوليكية هذه الفترة، ولكن من خلال فلسفته. والأدب القديم، الذى يعبد الآن بوصفه شيئاً لا يضاهى، ملئ بانتصار الفلسفة على المأثور الدينى. ولم يلبث عدد لا حصر له من النظم وشذرات النظم أن قدمت فجأة إلى العقل الطليانى، لا بوصفها عجائب ولا حتى بوصفها هرطقات، ولكنها تكاد تقريباً تتخذ وزن العقيديات (الدوجماتيات)، وهو أمر أصبح من الواجب أنذاك إرضائه ومصالحته لا التعصب ضده. وهذه الآراء المختلفة والمبادئ المتنوعة تكاد تقريباً تنطوى ضمناً على إيمان بالله؛ ولكنها لو أخذت فى مجملها فإنها كانت تشكل تبايناً ونقيضاً ملحوظاً مع العقيدة المسيحية فى أخذها بحكومة إلهية مقدسة للعالم. وكان هناك سؤال مركزى واحد، حاول اللاهوت القروسطى عبثاً أن يحله ويوجب عليه، وهو الآن يتطلب بشدة إجابة تستخرج من حكمة القدماء - وأعنى به، مسألة علاقة العناية الإلهية بحرية أو حاجة الإرادة البشرية. ولا مرأ أن كتابة تاريخ هذه المسألة، حتى ولو بصفة سطحية منذ القرن الرابع عشر فصاعداً، لا بد أنه يحتاج إلى مجلد بأكمله. ويكفي هنا بعض اللمحات عنها.

ولو اتخذنا دانتى ومعاصريه شاهداً لوجدنا أن الفلسفة القديمة احتكت لأول مرة مع الحياة الإيطالية بالطريقة التى قدمت أشد ألوان التباين قوة ووضوحاً مع المسيحية - أعنى، الفلسفة الأبيقورية (أو الانغماس فى الملذات الحسية). ولم تعد كتابات أبيقور مُحْتَفَظاً بها، بل إنه عند ختام العصر الكلاسيكية كان قد تشكل تصور لفلسفته ذو جانب واحد تقريباً. ومع هذا، فإن هذا الطور من الفلسفة الأبيقورية الذى يمكن دراسته عند لوكريتيوس^(١١)، وبوجه خاص عند شيشرون، كافٍ تماماً لإلمام الناس التام بعالم لا رب له. فإلى أى حد كانت تعاليمه مفهومة فعلاً؟، وهل لم يكن اسم ذلك الحكيم الإغريقى العويص المُشْكَلِ شعاراً أو توجيهاً للجماهير الغفيرة؟، ذلك أمر يعسر الخوض فيه. ومن المحتمل أن محكمة تفتيش الدومينيكان استخدمت الفلسفة ضد رجال لم يكن من الممكن الوصول إليهم بوسيلة اتهام أشد تحديداً. وفى حالة المتشككين الذين ولدوا قبل أن يبلغ الزمان أشده والأمور تمام نضجها، والذين كان من العسير بعد إدانتهم بأفكار هرطيقية إيجابية، ربما كان العيش فى ظل درجة معتدلة من الترف كافياً لإثارة التهمة. وقد استخدم جيوفانى فيلانى^(١٢) الكلمة بهذا المعنى المتواضع عليه عندما فسر الحرائق الفلورنسية فى أعوام ١١١٥، ١١١٧ على أنها عقاب إلهى على الهرطقات، من بين أشياء أخرى، "موجه إلى طائفة الأبيقوريين المترفة والشبهة". ويقول الكاتب نفسه متحدثاً عن مانفرد: "كانت حياته أبيقورية، نظراً لأنه لم يكن يؤمن بالله ولا بالقدسين، ولكن يؤمن وحسب فى المتع والملذات الجسدية".

ويتحدث دانتى بوضوح أكثر فى المقطعين التاسع والعاشر من "الجحيم". *Inferno*. فيذكر ذلك الحقل النارى الرهيب المغطى بالمقابر نصف المفتوحة، التى تنبعث منها صيحات الألم المبرح اليأس، الآهة بالطبقتين العظيمين من أولئك الذين أخرجتهم الكنيسة من رحمتها أو طردتهم فى القرن الثالث عشر. فكانت إحدى الطبقتين تضم الهرطقة الذين عارضوا الكنيسة بنشرهم مع التعمد والإصرار لمذهب كاذب زائف؛ والأخرى ضمت الأبيقوريين، وكانت خطيئتهم ضد الكنيسة فيما شاع من ميل عام من الاعتقاد الذى خلاصته أن الروح تموت مع الجسد^(١٣) وكانت الكنيسة تعلم اليقين

أن هذا المذهب بالذات، لو أنه كسب المعركة وانتشر، لابد أن يكون أشد تدميراً لسلطتها من جميع تعاليم المانوية Manichaeans والباتيرينية(*) Paterini، وذلك نظراً لأنه مذهب يحو كل مسبب لتدخلها فى شئون الناس بعد الموت. فأمّا أن الوسائل التى استخدمتها فى كفاحاتها كانت بالضبط هى عين الوسائل التى دفعت بأشد الطبائع موهبة إلى الكفر واليأس، فهى الشئ الذى لم تكن لتسلم به هى نفسها بالطبع.

ولا مرء أن شنآن دانتى لأبيقور، أو لما كان يظن أنه مذهبه، كان إحساساً بالغ الصدق بالتأكيد. ولا يملك شاعر الحياة القادمة إلا أن يحتقر من ينكر الخلود؛ كما أن عالماً لا صنعه الله وخلقه ولا دبره وحكمه، فضلاً عن الأشياء السوقية المبتذلة للحياة الأرضية الدنيوية التى بدا النظام كأنما يتقبلها، تلك أشياء لم تكن تستطيع طبيعة مثل طبيعته إلا أن تكون نافرة منها نفوراً عاماً، لكننا لو زدنا النظر إنعاماً لوجدنا أن قدراً معيناً من مذاهب الأقدمين كانت تحدث لديه هو نفسه انطباعاً كان يرغم مبدأ الكتاب المقدس المتعلق بالحكومة المقدسة إلى الترحيح نحو الخلفية، ما لم يكن فكره الخاص حقاً، أو بتأثير الآراء المنتشرة آنذاك، أو بغض العنيف للظلم الذى كان يبدو أنه يحكم هذا العالم، هو الذى دفعه أن ينبذ ويتخلى عن الإيمان بوجود عناية ربانية خاصة^(١٤) وإن ربه ليترك جميع تفاصيل إدارة حكم العالم موكلة إلى مفوض، هو الحظ، الذى عمله الوحيد هو تغيير وإعادة تغيير جميع الأشياء الأرضية الدنيوية، والذى يستطيع أن يتجاهل ويتغاضى عن إعوات الرجال فى سعادة وطوبى سرمدية غير قابلة للتغيير^(١٥) ومع هذا فإن دانتى لا يفقد ولو للحظة واحدة تركيز قبضته على المسئولية الخلقية للإنسان؛ وهو يؤمن بالإرادة الحرة.

والاعتقاد بحرية الإرادة، بالمعنى الشائع الشعبى للكلمة، كان اعتقاداً شائعاً على الدوام فى الأقطار الغربية. وفى كل الأوقات كان الإنسان يُعد مسئولاً عن أعماله، وكأنما هذه الحرية شئ طبيعى. فأمّا القضية فى المذهب الدينى والفلسفى فمختلفة، لأنه يعمل بشق الأنفس عملية شاقة هى إدخال الانسجام بين طبيعة الإرادة وبين قوانين

(*)الباتيرينية: هى الطريقة الأبوية التى تنتهجها بعض الحكومات فى إدارة البلاد ومعاملة الناس. (المترجم)

الكون فى جملة. ونحن هنا ملزمون بالتعامل مع مسألة تفاضل الأمور، وينبغى على كل تقدير خلقى أن يدخله فى حساب. وليس دانتى بالشخص الخلى تماماً من تلك الخرافات التنجيمية التى أضاءت أفق زمانه بضياء خادع، ولكنها لا تحول بينه وبين الوصول إلى فكرة وتصور قمين بالاحترام عن الطبيعة البشرية. وإنه ليجعل ماركو لومباردو، تلك الشخصية التى ابتكرها، يقول^(١٦): "إن النجوم تعطى الدافع الأول لأعمالك، ولكن

«أعطيت الضوء من أجل الخير والشر»

والإرادة الحرة؛ الأمر الذى، لو أن شيئاً من الكلال

فى المعارك الأولى مع السماء، فإنه يقاسى

وإنه فيما بعد ليقهر كل شيء، فإن خيراً فإنه يراعى ويعزز».

وربما جاز لغيره أن يبحثوا عن الضرورة التى محت وأبطلت الحرية البشرية فى أية قوة أخرى عدا النجوم، ولكن المسألة أصبحت منذ تلك اللحظة مسألة مفتوحة ولا مفر منها. وما دامت المسألة مسألة تختص بها المدارس أو دراسات المفكرين الفرادى المتباعدين زماناً ومكاناً فإن دراستها ومعالجتها إنما تنتمى إلى مؤرخ الفلسفة. ولكنها بقدر ما تدخل فى وعى جمهور أوسع فقد وجب علينا بالضرورة أن نقول بضع كلمات قليلة عنها.

لقد تنبه القرن الرابع عشر تنبهاً خاصاً رئيسياً بفضل كتابات شيشرون، وهو كاتب، وإن كان فى الحقيقة جامعاً وانتقائياً، إلا أنه بحكم عاداته فى شرح وعرض آراء مدارس مختلفة نون أن يصل إلى رأى حاسم يفصل به بينها، كان يمارس نقوذ مفكر من أهل التشكك. ويليه فى الأهمية سينيكا Seneca، والأعمال القليلة لأرسطوطاليس التى ترجمت من قبل إلى اللاتينية، وكانت الثمرة المباشرة لهذه الدراسات هى القدرة على التأمل فى الموضوعات العظيمة، الذى إن لم يصل إلى المعارضة المباشرة لسلطات الكنيسة، فإنه على كل الأحوال كان فى استقلال تام عنها^(١٧)

وجرى في حدثان القرن الخامس عشر أن اكتُشفت أعمال العصر العهيد وانتشرت بين الناس بسرعة خارقة. وأصبحت جميع كتابات الفلاسفة الإغريق التي نملكها نحن الآن، وذلك على الأقل في صورة ترجمات لاتينية، موجودة آنذاك في متناول أيدي الجميع. ومن أعجب الحقائق التي تروى أن بعض أشد الرواد حماسة لهذه الثقافة الجديدة كانوا رجالاً ينطوون على أدق أنواع التقوى، بل حتى من أشد الزهاد نسكاً (المجلد الأول، القسم الثالث، الفصل الحادي عشر). فإن الراهب أمبروجيو كامالدوليزي Ambrogio Camaldolese بوصفه شخصية روحية مرموقة تشغل بوجه خاص بالشئون الكنسية، ويوصفه رجل أدب منشغلاً بترجمة آباء الكنيسة الإغريقية، لم يستطع أن يوقف اندفاع الدافع الإنساني، وتعهده تلبية لرغبة كوسيمو دي مديتشي أن يترجم ديوجينيس لارتيوس Diogenes Laertius إلى اللاتينية^(١٨) وجمع معاصروه، نيكولو نيكولي وجيانوتزو مانيتي Giannozzo Manetti ودوناتو أنتشياچولي Donato Acciajuoli والبابا نيقولا الخامس^(١٩)، مذهباً إنسانياً متعدد الجوانب مع دراسات عميقة للكتاب المقدس وتقوى عميقة الجذور. وقد لوحظ نفس المزاج آنفاً عند فيثورينو دا فيلترى Vittorino da Feltre (المجلد الأول، القسم الثالث، الفصل الخامس). وكانت تتملك ماتيو فيجيو Matthew Vegio نفسه الذي أضاف الكتاب الثالث عشر إلى الإنيادية neid حماسة بالغة لإحياء ذكرى القديس أوغسطين وأمه مونيكاً، لم يكن من الممكن تكوينها بغير تأثير مؤثر أعمق في نفسه. وكانت نتيجة هذه النزعات كلها هي أن الأكاديمية الأفلاطونية في فلورنسا تعمدت أن تختار هدفاً لها التوفيق بين روح العصور العهيدة وبين روح المسيحية. كانت تلك واحة تدعو للإعجاب في صحراء المذهب الإنساني لتلك الفترة^(٢٠)

كان هذا المذهب الإنساني، في حقيقة الأمر، وثنياً، وزاد في طابعه ذاك باتساع دارته في القرن الخامس عشر. ويكشف ممثلوه، الذين وصفناهم آنفاً بأنهم الحرس الأمامي لفردية لا سبيل إلى كبجها، في المعتاد عن خصيصة لا تستطيع حتى ديانتهم، التي يعترفون بها اعترافاً محدداً جداً في بعض الأحيان، إلا أن تصبح شيئاً لا أهمية له عندنا. وما أسرع ما اقترن اسمهم بلقب الملحدين لو أظهروا أنهم لا يأنهون بالدين، وتحذثوا بطلاقة وحرية ضد الكنيسة، ولكن واحداً منهم لم يعترف قط، أو جرى على

الاعتراف، على نفسه رسمياً بالحاد فلسفى^(٢١) ولو التمسوا لأنفسهم مبدأ مرشداً، فلا بد أنه كان ضرباً من العقلانية السطحية - أعنى استنتاجاً غير دقيق من الآراء العديدة والمتناقضة للأزمان العتيقة التى كانوا يشغلون بها أنفسهم، ومن الشكوك وعدم الثقة التى كانت الكنيسة ومبادئها وقعت فيها. ذلكم هو نوع الاستدلال العلقى الذى أوشك أن يدفع جاليوتوس مارتىوس Galeottus Martius إلى المحرقة^(٢٢)، لولا أن أنقذه تلميذه السابق، البابا سيكستوس الرابع، ولعل ذلك تم بناء على طلب من لورنزو دي مديتشى، من بين براثن محكمة التفتيش. وكان جاليوتوس قد تجرأ أن يكتب أن الرجل الذى يمشى مستقيماً ويتصرف وفق القانون الطبيعى الفطرى فى داخله، إنسان يذهب إلى الجنة، مهما تكن الأمة التى ينتمى إليها.

فلنأخذ، على سبيل المثال، الموقف الدينى لأحد أصاغر الرجال فى الجيش العظيم. لقد كان كوردوس أوركيوس^(٢٣) Cordus Orceus فى أول أمره مريباً لآخر أمير على فورلى من عائلة أورديلافو Ordelfaffo، وبعد ذلك أستاذاً لعدة سنوات بمدينة بولونيا. وكانت لغته التى يسلطها على الكنيسة والرهبان بذئنة مثل لغة الآخرين تماماً. وكانت نغمة صوته على الجملة مستهينة مستهترة إلى آخر حد، كما أنه كان على النوام يدخل نفسه فى كل ما ينطق به من تاريخ محلى وغيبة للناس. بيد أنه يعرف تماماً كيف يتحدث ليصل إلى السمو الخلقى للرجل - الرب الحق، يسوع المسيح، وكيف يزكى نفسه بفضل التبحر العلمى إلى صلوات قسيس قديس^(٢٤) وحدث فى إحدى المناسبات، وبعد أن عدّد حماقات الديانات الوثنية، أن مضى على هذا النحو: إن رجال اللاهوت عندنا، أيضاً، يتقاتلون ويتشاجرون de lana caprina، حول "الحمل الطاهر" والمسيح الدجال" والأسرار المقدسة" والقضاء والقدر"، وغيرها من أشياء، وهى أمور كان الأفضل أن تترك وشأنها لا أن يتكلم فيها علناً. وذات مرة، عندما كان خارج منزله، أحرقت حجرته ومخطوطاته. وعندما سمع الخبر وقف قبالة تمثال للعدراء فى الشارع وصاح قائلاً: "استمعى لما أقوله لك؛ أنى لست بالمجنون، وإنما أنا أقول ما أعنيه. فلو حدث فى ساعة وفاتى إنى دعوتك، فلست بحاجة أن تسمعينى ولا أن تضمينى إلى من يتبعونك، وذلك لأنى سأذهب وأقضى الخلود كله مع الشيطان"^(٢٥) وبعد هذه الخطبة وجد من الأنسب أن يقضى ستة أشهر فى عزلة بمنزل خطاب. ومع كل هذا فإنه كان

يعتقد بالخرافات ، بحيث أن الخوارق والدلائل المنذرة كانت تعود عليه بخوف لا ينقطع معينه، ولم تترك له اعتقاداً وإيماناً يدخره من أجل خلود روحه. وكان يجيب سامعيه عندما كانوا يسألونه عن الأمر أن أحداً لا يعرف مصير أى رجل ، سواء عن روحه أو جسده بعد الموت، وأن الحديث حول حياة أخرى لم يكن ملائماً إلا لإخافة النساء العجائز. ولكنه عندما وافته منيته استودع فى وصيته روحه^(٢٦) إلى الله القوى القادر، ناصحاً تلاميذه الباكين أن يخافوا ربهم وأن يؤمنوا بوجه خاص بالخلود والجزاء الأوفى فى قابل الدهر، وتناول السر المقدس بالقدر الكبير من الحماسة. وليس لدينا أى ضمان بأن رجالاً أشهر منه فى نفس مهنته، مهما بلغت أراؤهم من السداد، كانوا فى مضمار الحياة العملية أكثر منه منطقاً مستقيماً. والراجح أن معظمهم كانوا يتذبذبون فى دخيلتهم بين عدم التصديق وبين بقية من الإيمان الذى نشأوا بين ظهرانيه، كما أنهم وقفوا فى الظاهر يناصرون الكنيسة أخذاً بمقتضيات التعقل والحكمة.

وعن طريق الارتباط بين العقلانية وبين علم الأبحاث التاريخية حديث الولادة، قامت على خوف واستحياء بعض محاولات هنا وهناك لنقد الكتاب المقدس. فقد سجل قول البابا بيوس الثانى^(٢٧) يبين أن القصد منه تمهيد الطريق لمثل ذلك النقد : "حتى ولو لم أؤكد المسيحية بالمعجزات، ينبغى لها مع ذلك أن تلقى قبولاً بناءً على ما فيها من مبادئ أخلاقية". فعندما يدعو لورنزو فالالا Lorenzo Valla، موسى ومؤلفى الأنجيل الأربعة بالمؤرخين فإنه لا يبغي أن يقلل من كرامتهم وسمعتهم، ولكنه مع ذلك كله شديد الوعى بأنه يكمن فى هذه الكلمات بكل تأكيد مناقضة للرأى الماثور التقليدى الذى تأخذ به الكنيسة ، لا يقل عن إنكار أن قانون الإيمان الرئيسى للرسل كان عملاً لجميع الرسل، أو أن رسالة أبقاروس Abgarus إلى المسيح كانت حقيقية^(٢٨) ولقيت أساطير الكنيسة، بقدر ما احتوت ترجمات تحكيمية لمعجزات الكتاب المقدس، السخرية والهزء الوفير^(٢٩)، وكان لذلك مفعوله على الإحساس الدينى للناس. فحيثما ذكر الكفرة اليهودون ؛ فينبغى لنا أن نفهم بوجه خاص أن المقصود بهم هم الفئة التى كانت تنكر ألوهية المسيح، وهى الجريمة التى أحرقت من أجلها فيما يرجح چيورچيو دا نوقارا Giorgio da Novara بمدينة بولونيا حوالى عام ١٥٠٠^(٣٠) ولكن حدث مرة أخرى فى بولونيا فى ١٤٩٧ أن قاضى محكمة التفتيش الدومينيكانى أُجبر على أن يخلى سبيل

الطبيب جابرييللى دا سالو Gabrielle da Salo، وهو رجل له سند قوى من النصراء الرعاة، ويفلت من العقوبة بإبدائه تعبيراً بسيطاً عن التوبة والإنابة^(٣١)، بالرغم من أنه كان من عاداته القول بأن المسيح لم يكن إلهاً، ولكنه ابن يوسف النجار ومريم، وأنه تم الحمل فيه بالطريقة المعتادة؛ وأن المسيح بمكره قد خدع العالم حتى أوردته موارد التلف، وأوصله إلى الدمار؛ وأنه ربما مات على الصليب نتيجة لجرائم ارتكبها؛ وأن ديانته سوف تصل إلى نهايتها سريعاً، وأن جسده لم يكن فعلاً يحتويه السر والقربان المقدس، وأنه قام بمعجزاته لا عن طريق قوة ربانية ولكن بتأثير الأجرام السماوية. وهذا القول الأخير كان ذائعاً ومن خصائص ذلك الزمن- لقد ولى الإيمان ولكن السحر لا يزال محتفظاً بمكانه^(٣٢)

على أن مصيراً أنكى وقع على أم رأس كاهن كاتدرائية من برجامو، هو زانينو دى سولشيا Zanino de Solcia، قبل ذلك بيضع سنين (١٤٥٩)، لأنه أكد أن المسيح لم يقاس نتيجة حبه للإنسان، ولكن تحت تأثير النجوم، وهو الذى قدم أفكار أخرى علمية وأخلاقية عجيبة. لقد أُجبر أن يرجع على الملأ عن أخطائه ودفع ثمنها بأن سجن سجنًا أبدياً^(٣٣)

أما فيما يتعلق بالحكومة الأخلاقية للعالم، فإن الإنسانين قلما تجاوزوا حد إلقاء نظرة اعتبار فاترة ومستسلمة إلى العنف السائد وسوء الإدارة وفساد الحكومة. وفي هذه الحالة المزاجية كُتبت الكتب الكثيرة عن القدر On Fate، أو أى اسم آخر حملته. وهى تتحدث عن دوران عجلة الحظ وعن عدم ثبات الأشياء الدنيوية والسياسية منها بوجه خاص. ولا تُستدعى العناية الإلهية إلا لأن الكتاب كانوا لا يزالون يخلون من القدرية السافرة، ومن الاعتراف بجهلهم، أو من الشكاوى التى لا جوى منها. ويوضح جيوفانى بونتانو Gioviano Pontano^(٣٤) بمهارة فائقة طبيعة ذلك الشيء الغامض الذى يسميه الناس الحظ، عن طريق مائة من الحوادث، يرجع أغلبها إلى ما مر به هو نفسه من خبرات. على أن إينياس سيلفيوس neas Sylvius يعالج الأمر بطريقة أكثر فكاهاة فى صورة رؤيا يراها فى المنام^(٣٥) غير أن هدف بوجيو، من الناحية الأخرى، فى عمل كتبه عندما شاخ^(٣٦)، هو أن يمثل العالم فى صورة وادٍ من الدموع، وأن يثبت سعادة

مختلف الطبقات فى أدنى صورة خفيضة ممكنة. وما عتم ذلك النغم أن بات هو المنتشر الغالب فى المستقبل. وأقام الممتازون من الرجال صورة لمزايا كل من السعادة والشقاء وغيوبهما أى ما لها وما عليها فى حياتهم، فوجدوا بصفة عامة أن الشقاء رجح السعادة. ووصف تريستانو كاراتشيولو^(٣٧) Tristano Caracciolo قدر إيطاليا والإيطاليين، بقدر ما ممكناً أن يروى فى ١٥١٠، بكرامة تامة ويكل أسى فاجع. وتطبيقاً لهذا اللون والنغم من الشعور على الإنسانين أنفسهم، راح بييريو فاليريانو Pierio Valeriano فيما بعد ينشئ ويديج رسالته الشهيرة (المجلد الأول، القسم الثالث، الفصل الحادى عشر). وبعض هذه الأفكار أو التيمات، مثل ثروات البابا ليو، مليئة بالإيحاء إلى أقصى حد. وقد ركز فرانيسكو فيتورى Francesco Vettori كل الخير الذى قيل فيه من الناحية السياسية تركيزاً موجزاً ومثيراً للإعجاب؛ وقُدمت صورة مسرات ليو ومتعه من تدبيج قلم باولو جيوفانى وفى الترجمة المجهولة المؤلف لسيرة حياته^(٣٨)؛ كما أن الظلال التى ظلمت نجاحه فى جمع الثروة رسمت بصدق صلب لا هواده فيه بواسطة نفس بييرو فاليريانو الذى سبق ذكره.

على أننا، من الجانب الآخر، لا نستطيع أن نقرأ دون أن يداخلنا شعاع من الخوف كيف أن الرجال كانوا فى بعض الأحيان يفاخرون بثرواتهم فى الكتابات المنقوشة العامة. ألم تر إلى جيوفانى الثانى بنتيليفوليو Giovanni Bentivoglio، حاكم بولونيا، كيف تجرأ أن ينقش على حجر على البرج حديث البناء بجوار سرايه أن جدارته وحظه قد أعطياه وأجزلا له العطاء بغير حدود من كل ما كان يتمناه^(٣٩) - وذلك كله قبل طرده من المدينة ببضع سنوات. على أن القدماء، مع ذلك، عندما كانوا يتكلمون بهذه النغمة، كان بهم حس بحسد الآلهة. وفى إيطاليا فالأرجح أن قادة الجند المرتزقة condottieri (المجلد الأول، القسم الأول، الفصل الثالث) كانوا أول من لجئوا إلى التفاخر علناً بما يمتلكون من نشب وأموال.

على أن الطريقة التى تمكن بها العهد العهيد المبعوث من ضمير الماضى، من التأثير فى الدين إلى أقوى حد، لم تكن عن طريق أية مبادئ ولا منظومة فلسفية، بل عن طريق اتجاه أو ميل عام قام ببث جنوره ورعايته. فإن رجال العهد العهيد

القديم، ومؤسساته فى بعض الأحيان، كانوا يفضلون على رجال ومؤسسات العصور الوسطى، وفى ثنايا المحاولات المتلهفة لتقليدهم وإعادة إنتاجهم ترك الدين وشانه ليرعى نفسه. فالكل بلا استثناء منهمك فى الإعجاب بالعظمة التاريخية (المجلد الأول، القسم الثانى، الفصل الثالث، وانظر أعلاه بكل مكان). وأضاف علماء فقه اللغة (الفيلولوجيون) إلى ذلك حماقات كثيرة من عند أنفسهم، أصبحوا بها العلامة المميزة للالتفات العام. فإلى أى حد كان البابا بول الثانى محقاً فى دعوة ناقديه وأصدقائهم لى يبرروا وثيتهم، تلك مسألة لا شك تعورها الشكوك الشديدة، حيث أن مترجم حياته وضحيته الكبرى، وهو بلاتينا (المجلد الأول، القسم الثالث، الفصل السابع؛ والمجلد الثانى، القسم الرابع، الفصل الخامس)، أظهر مهارة أستاذية فائقة فى تفسير حبه للانتقام والتشفى على أسس أخرى، وبخاصة أنه أفلح فى جعله يشكل شخصية مضحكة. ولم يحدث أن أصبحت الاتهامات بالكفر والوثنية^(٤٠) وإنكار الخلود، أو ما إليها، تقام ضد المنهم إلا بعد أن انهارت تهمة الخيانة العظمى. حقا إن بول، إذا كان ما وصلنا عنه صحيحاً، لم يكن بأية حال هو الرجل الذى يستطيع إصدار الأحكام فى الشئون الفكرية. فإنه لم يكن يعرف إلا القليل من اللاتينية، وكان يتحدث فى المجالس الكنسية بالإيطالية وكذلك فى أثناء المفاوضات الدبلوماسية. وكان هو الذى نصح الرومانيين ألا يعلموا أبناءهم شيئاً يتجاوز القراءة والكتابة. وىذكرنا ضيق أفقه كقسيس ساقونارولا (القسم السادس، الفصل الثانى)، مع فارق هو أن بول كان يمكن عدلاً وقسطاً أن يقال له إنه هو وأمثاله كان يقع عليهم اللوم إلى حد كبير إن كانت الثقافة تجعل الرجال يكونون العداء نحو الدين، وليس فى الإمكان، مع ذلك، الشك أنه كان يحس قلقاً حقيقياً على انتشار الميول الوثنية، الذى كان يحيط به من كل جانب. وما الذى، فى الحقيقة، لم يسمح الإنسانىون لأنفسهم به فى بلاط الداعر الوثنى سيجيسموندو ملاتستا Sigismondo Malatesta؟ واعتمد المدى الذى جسر هؤلاء الرجال، الذين كانوا يفتقرون إلى أقصى حد إلى المبادئ الراسخة، أن يصلوا إليه بالتاكيد على نوع المؤثرات التى كانوا معرضين لها. كما أنهم لم يكونوا يتناولون المسيحية دون إضفاء الوثنية عليها (المجلد الأول، القسم الثالث، الفصل العاشر). فمن العجيب، على سبيل المثال، أن نلاحظ إلى أى حد كان چيوثانو بونتانو يعزز هذا الارتباك. فهو يتحدث عن قديس ليس فقط بوصفه قدسياً divus بل بوصف كونه ريانياً

deus؛ وهو يرى أن الملائكة ، هم والجن في العصور العهيدة قديمة^(٤١) شيء واحد؛ كما أن فكرته عن الخلود تذكرنا بمملكة الظلمات " Kingdomofthe Shades القديمة. ويبدو هذا الروح بين حين وآخر في أشد صورهِ مغالاة. وفي ١٥٢٦ ، عندما هاجم الحزب المنفى سيينا^(٤٢)، نهض الكاهن الوقور تيتزيو Tizio ، الذي يخبرنا بالقصة بنفسه، من فراشه في يوم ٢٢ يوليو، واسترجع إلى الذاكرة ما هو مكتوب في الكتاب الثالث لماركوبيوس^(٤٣) Marcobius ، وأقام صلاة القداس، ثم نطق لعنة على الأعداء استقاها من كتاب ماركوبيوس، دون أن يغير فيها إلا "Tellusmater teque" robtestor إلى ". Tellusteque Christe Deusobtestor وبعد أن فعل ذلك لمدة ثلاثة أيام، تقهقر الأعداء. ومن ناحية فإن هذه الأشياء تبدو كأنما هي مجرد أسلوب وموضة شائعين؛ ومن ناحية أخرى، كأنما هي عرض من أعراض الانحلال والتدهور الديني.

الفصل الرابع

خليط من الخرافات القديمة والمعاصرة

على أن العصر العهيد مارس بطريقة أخرى، ولكنها بوجماتية اعتقادية جازمة، نفوذاً محفوراً بالمخاطر حقاً. فإنه بث في عصر النهضة كل ما عنده من أشكال الخرافات. وقد بقيت بعض شذرات من تلك الخرافات بإيطاليا بكل أنحاء العصور الوسطى، ومن هنا صار ابتعاثها جميعاً أسهل مئونة. ولا حاجة بنا إلى التركيز طويلاً على الدور الذي كان يلعبه الخيال في العملية. فإن ذلك لم يكن بمستطيع إلا أن يخمد العقلية النقدة التي يتصف بها الطليان.

ولقد تم تدمير الاعتقاد بحكومة إلهية للعالم كله في عقول كثير من الناس بفضل مشاهد الظلم والشقاء المتفشين ، على أن هناك آخرون من أمثال دانتي ممن سلماً تصاريف الحياة الدنيا هذه على كل حال لأهواء المصادفات، فلإن احتفظوا، مع ذلك، بالراسخ من الإيمان فما ذلك إلا لأنهم كانوا يؤمنون بأن القدر الأعلى للإنسان سيتم إنجازه في الحياة الآتية. على أنه ما أن شرع الاعتقاد في الخلود يتذبذب حتى أصبح للجبرية اليد العليا، أو ربما حدث أحياناً أن الجبرية جاءت أولاً ، فكان الخلود هو النتيجة المترتبة عليها.

ومن هنا فإن الهوة التي انفتحت آنذاك قد ملئت في المقام الأول بتنجيم العصور القديمة ، بل حتى غمرها تنجيم العرب. فأصبحت تستنتج من علاقات الكواكب بين بعضها البعض ، وإلى علامات دائرة البروج كل أحداث المستقبل ومجرى الحياة بأكملها، وكانت أشد القرارات وزناً وأعمقها أثراً تتخذ نتيجة لتلك الأمور، وصار الأمر في كثير من الأحيان أن خط سير الأعمال الذي كان يتخذ على هذا النحو بإيحاء النجوم ربما لم يكن أكثر لا أخلاقية من ذلك الرأي الذي كان في الإمكان اتباعه. على

أنه ربما حدث في الكثير الغالب من الأحوال أن استقر القرار على حساب الشرف والضمير. ومما يعود علينا بالحكمة والموعظة الحسنة أن نلاحظ كيف أن الثقافة والاستنارة كانتا عاجزتين إزاء هذا الخداع، حيث أن الاستنارة كانت تجد العون قائماً في أخيلة الناس، أى في الرغبة الحارة إلى اختراق المستقبل وتحديده. ولعل القارئ يذكر أن العصور العهيدة القديمة كانت، أيضاً، تميل إلى جانب علم التنجيم.

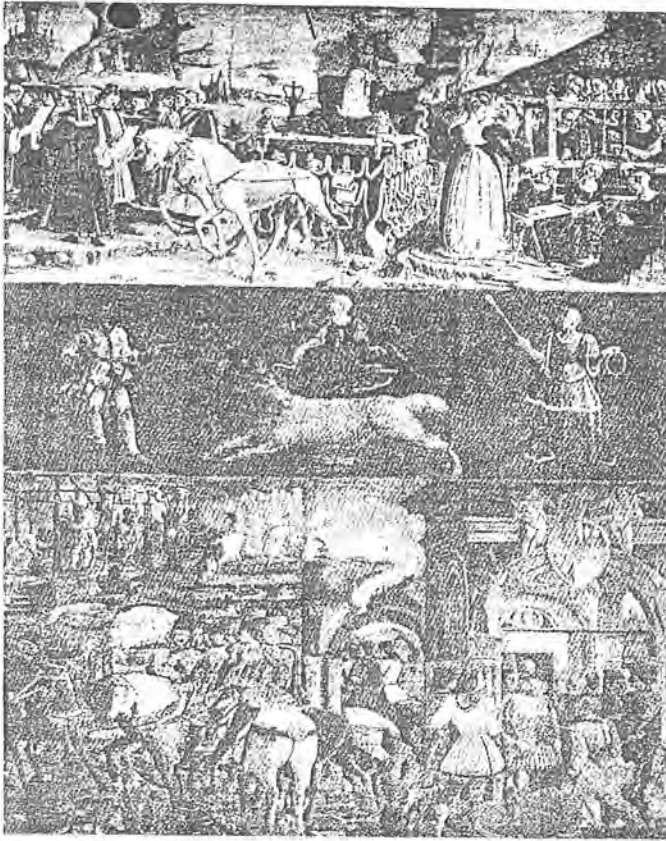
وتبوأت هذه الخرافة فجأة عند بداية القرن الثالث عشر مكان الصدارة من الحياة الإيطالية. فقد كان الإمبراطور فريديريك الثاني لا ينفك يسافر على الدوام وبصحبته منجمه تيودوروس Theodorus ؛ كما أن إيزيلينو دا رومانو^(١) Ezzelino da Romano كان يسافر مع حاشية ضخمة من نوى الأجرور العالية من هؤلاء القوم ، وفيهم جيو بوناتو Guido Bonatto الشهير ، وذلك العربي الشرقي طويل اللحية ، بولس من بغداد. لقد كانوا في جميع التصرفات المهمة يحددون له اليوم والساعة، وربما جاز أن تكون الفظائع الهولة التي ارتكبتها، استنتاجات عملية واقعية استنتجها جزئياً من نبوءاتهم. وسرعان ما توقفت جميع الموانع التي تحول دون استشارة النجوم واستطلاعها. ولم يقتصر الأمر على الأمراء فقط، بل تعداهم أيضاً إلى المدن الحرة^(٢) إذ كان لهم جميعاً منجموهم المنتظمون، كما أنه حدث بين جدران الجامعات^(٣)، ابتداء من القرن الرابع عشر حتى السادس عشر، أن كان أساتذة هذا العلم الزائف يعينون مع هيئات التدريس، ويلقون المحاضرات جنباً إلى جنب مع علماء الفلك. وكان الناس جميعاً يعلمون تماماً أن أوغسطين وغيره من آباء الكنيسة قد حاربوا التنجيم، ولكن آراءهم العتيقة الطراز طوردت باحتقار لا مبال^(٤) ولم يكن الباباوات^(٥) يخفون عن الناس عادة استطلاعاتهم للنجوم، وإن كان البابا بيوس الثاني، الذي كان أيضاً يحتقر السحر ويزدرى ما يسمى بالنذر الشريرة وتأويل الأحلام، يعتبر استثناءً مشرفاً^(٦) على أن يوليوس الثاني، من الناحية الأخرى، جعل المنجمين^(٧) يحسبون له طالع يوم تنويجه ويوم عودته من بولونيا. بل حتى ليو السادس يبدو كأنما زعم أن ازدهار شأن التنجيم يعد فضلاً ينسب إلى عصره وشخصه كحبر أعظم^(٨)، كما أن بول الثالث لم يعقد البتة مجلساً كنسياً حتى يحدد له المتطلعون إلى النجوم ساعة الانعقاد^(٩)

ويمكننا أن نفترض ، ملتزمين العدالة ، أن نوى الطبائع الأفضل لم يكونوا ليسمحوا بأن تحدد النجوم أعمالهم إلا في حدود معينة ، وأنه كان هناك حد يقوم عنده

الضمير والدين بإيقافها. والواقع أنه لم يكن يشترك في هذه الخديعة الأتقيا والممتازون من الرجال فقط، بل إنهم تقدموا فعلاً إلى الأمام حتى اعترفوا بالتنجيم علناً. ومن هؤلاء مايسترو باجولو Maestro Pagolo من فلورنسا^(١٠)، وهو إنسان نستطيع أن نشتَم فيه نفس الرغبة في تحويل التنجيم إلى تقدير أخلاقي، التي تقابلنا عند فيرميكوس ماتيرنوس Firmicus Maternus الروماني الراحل^(١١)، وكانت حياته حياة زاهد ورع متقدس. كان تقريباً لا يأكل شيئاً، ويحتقر كل الطيبات الدنيوية، ويقتصر في حياته على جمع الكتب. وكان طبيباً ماهراً، ولكنه رغم ذلك لا يمارس الطب إلا بين أصدقائه فقط، وكان شرطه لمداواتهم هو أن يعترفوا بخطاياهم. وكان يتردد على الدائرة الصغيرة والشهيرة في الحين نفسه التي كانت تجتمع في دير الأنجيلي Angeli حول الراهب أمدروجيو كامالدوليزي Amdrogio Camaldolese (الفصل السابق). وقد طالت أيضاً معرفته وعشرته لكوسيمو الأسن، وبخاصة في سنواته الأخيرة؛ وذلك لأن كوسيمو كان يتقبل التنجيم بالرضا ويستخدمه، وإن لم يستخدمه على الأرجح إلا لأغراض ذات أهمية أقل. على أن باجولو لم يكن في العادة، مع ذلك، يفسر النجوم إلا لأشد أصدقائه ودأ وموضِعاً لثقتهم. على أنه حتى رغم هذه الشدة في تحرى الأخلاقيات يجوز أن يحظى المنجمون بالاحترام الشديد وأن يظهرها بين الناس في كل مكان. وأيضاً كان هناك عدد أكبر كثيراً منهم في إيطاليا منها في الأقطار الأوروبية الأخرى، حيث لم يكونوا يظهرون إلا في البلاطات الكبرى، بل حتى لم يكونوا يظهرون هناك دائماً. وكان جميع أرباب البيوت الكبيرة بإيطاليا يعمدون، بعد أن ثبتت أقدام تلك الموضة، إلى الاحتفاظ بمنجم، الذي، لا بد أن نضيف هنا، لم يكن دائماً متأكداً من الحصول على غذائه^(١٢) ومن خلال الأدب المكتوب عن هذا العلم، الذي كان شديد الانتشار بين الناس على نطاق واسع، حتى قبل اختراع الطباعة، نما في هذا الفن ضرب من التذوق الفنى، أو قل الهواية، كان يمضى جهد مستطاعه في إثر خطوات كبار الأسانذة. وكان أسوأ أنواع المنجمين هم أولئك الذين يستخدمون النجوم إما عوناً أو عباءة لفنون السحر.

ومع هذا، بغض النظر عن الحالة الأخيرة، لم يكن التنجيم إلا ظاهرة بائسة في حياة الناس في ذلك الزمان. فإيا لها من شخصية تلك التي كان يمثلها أولئك القوم ذوو المواهب العظيمة والجوانب المتعددة والأصالة، عندما كانت الرغبة في معرفة

المستقبل وتحديد حدوده تعمى أبصارهم وتنزع الملك من إرادتهم القوية وعزمهم الأكيد! وبين القيتة والقيته، عندما كانت النجوم تدهمهم برسالة بالغة القسوة، فإتهم كانوا يستطيعون أن يستجمعوا قواهم، وأن يتصرفوا من تلقاء أنفسهم وأن يقولوا بجرأة، " -Vir sapien dominabitur astris" الرجل الحكيم هو سيد النجوم" (١٣) - ثم يغمسون مرة أخرى في الوهم.



شكل ٢٢٨ انتصار منيرقًا وعلامة الكيش ،
ومشاهد من الحياة في بلاط بورسو ديستي
لوحة جصية مجازية وتنجمية في بلاترو شيفانوجا، فيرارا تصوير أليباري

وكانت خريطة البروج للأطفال تُستجلى وتصور فى جميع العائلات الأرقى شأنًا بوصف ذلك من طبيعة الأشياء البسيطة، كما أنه حدث فى بعض الأحيان أن الرجل من هؤلاء كان يقضى نصف حياته وقد جثم على دماغه توقع بليد للأحداث التى لم تحدث أبدًا. ولم يكن بد من سؤال النجوم^(١٤) واستطلاعها قبل أن يقدم عظيم من الرجال على البت فى أمر من الأمور المُهمّة، بل إنها كانت تستشار حول الساعة التى ينبغى أن يبدأ فيها القيام بأى عمل مهما صغر شأنه. وكانت جميع رحلات الأمراء، واستقبال السفراء الأجانب^(١٥)، وإرساء حجر الأساس للمباني العامة، تتوقف تمامًا على إجابة النجوم. وهناك مثال واضح على الحالة الأخيرة حدث فى حياة جيدو بوناتو السابق ذكره، الذى يستحق بفضل نشاطه الشخصى وعمله العظيم المنظم فى ذلك الموضوع^(١٦)، أن يُدعى بأنه المعيد لحياة التنجيم فى القرن الثالث عشر. فلكى يضع حدًا لكفاح الحزبين الجويلف والجيليبين بمدينة فورلى، أقنع السكان بإعادة بناء أسوار المدينة وأن يبدأوا العمل تحت سلطان مجموعة النجوم أشار إليها بنفسه، فإذا حدث، إذن، أن رجلين، واحد من كل حزب، وضعا فى نفس اللحظة حجرًا فى عمق الأساس، فلن يكون هناك - وإلى الأبد - أى انقسام حزبي فى فورلى. وتم اختيار أحد أفراد حزب الجويلف وآخر من الجيليبين لهذا العمل؛ وجاءت اللحظة الرهيبة، وأمسك كل منهما بالحجر فى يديه، ووقف العمال مستعدين بمعاولهم وفئوسهم، وأعطى بوناتو الإشارة، فألقى الجيليبينى حجره فى أغوار الأساس. ولكن الجويلفى تردد، ثم رفض أخيرًا أن يفعل شيئًا على الإطلاق، على أساس أن بوناتو نفسه كان مشهورًا عنه أنه جيليبينى النزعة، وربما كان يدبر فى نفسه شيئًا من الشر الخفى ضد الجويليفين. وعند ذلك خاطبه المنجّم قائلاً: "لعمرك الله أنت وحزب الجويلف معًا، على بما فيكم من شر لا يطمئن إلى أحد! فلن تعود هذه المجموعة من النجوم إلى الظهور فوق مدينتنا إلا بعد خمسمئة عام". والواقع، أن الله ما لبث أن قضى على الجويليفين فى فورلى، ولكن فى ذلك الوقت، كما يكتب مؤرخ أحداث عام ١٤٨٠، فإن الحزبين قد تم بينهما الصلح التام، كما أن اسميهما لم يعودا يسمعان بعد^(١٧)

ولم يكن ثمة شيء يتوقف على النجوم أهم من إصدار القرارات زمن الحرب. وتمكن بوناتو نفسه أن يحرز للزعيم الجبليبي العظيم جيو دا نتيفيلترو Guido da Montefeltro سلسلة متتابعة من الانتصارات، بإبلاغه عن الساعة المناسبة للزحف^(١٨) وعندما لم يعد مونتي فيلترو يصحبه معه^(١٩)، فإنه فقد كل شجاعة في مواصلة طغيانه، ودخل إلى دير فرنسيسكاني Minorite، حيث عاش مترهباً عدة سنين حتى وافاه الموت. والذي حدث أثناء الحرب مع بيزا في ١٣٦٢ هو أن الفلورنسيين فوضوا مُنجمهم أن يحدد ساعة الزحف^(٢٠)، وأوشكوا أن يصلوا متأخرين بعد فوات الأوان بسبب تلقيهم أمراً مفاجئاً باتخاذ طريق ملتو خلال المدينة. لقد كانوا في حالات سابقة يزحفون خارج المدينة مخترقين طريق فيا دي بورجو سانت أبوستولو، ولم تظفر الحملة بالنجاح. وكان من الجلى أنه كانت هناك نذر سوء تتصل بالنفاذ والخروج من هذا الطريق ضد بيزا، وكانت عقبى ذلك أن اتجه الجيش خارجاً عن طريق بورتا روسا Por-ta Rossa ولكن نظراً لأن الخيام التي بسطت هناك لتجف لم ترفع من مكانها، وجب أن تخفض الرايات - وهذا نذير شر جديد. ومما ثبت أقدام التنجيم في وسلطانه في الحرب أن قادة المرتزقة condottieri جميعاً تقريباً كانوا يؤمنون به. وقد كان چاكوبو كالورا Jacopo Caldora مرحباً حتى في أثناء مرضه الشديد الخطر، لأنه كان يعرف بأن قدره هو أن يموت في المعركة، الأمر الذي حدث فعلاً^(٢١) وكان بارتولوميو ألقيانو Bartolommeo Alviano على قناعة أن الجروح في رأسه كانت هبة من النجوم بقدر ما كانت توليته على القيادة العسكرية^(٢٢) وطلب نيكولو أورسيني بتيليانو Niccolo Orsi-ni Pitigliano من الطبيب والمنجم ألساندرو بينيديتو^(٢٣) Alessandro Benedetto أن يحدد ساعة موأتية لعقد صفقته مع مدينة البندقية (١٤٩٥). وعندما قلد الفلورنسيون بجلال في اليوم الأول من يونيو ١٤٩٨ قائد عسكرهم المرتزقة condottiere الجديد باولو فيتيللي Paolo Vitelli منصبه كانت عصا المارشالية التي أهدها له مزخرقة، بناء على رغبته، بصور مجاميع النجوم^(٢٤) ومع ذلك، فقد كان هناك جنرالات مثل ألقونسو الأكبر من نابولى ممن لم يكونوا يسمحوا بأن يحدد المتنبئون ساعة زحفهم^(٢٥)



شكل ٢٢٩ مُنجمٌ يحسب خريطة بروج لطفل، طبقاً لـ جيورجيو
معرض الفن، درسدن تصوير الجمائني فيرلاجس أنشتات، ميونيخ

وفى بعض الأحيان ليس من السهل تبين هل تم فى الأحداث السياسية المهمة استطلاع النجوم مقدماً، أو أن المنجمين ببساطة كانوا يحاولون على سبيل الفضول أن يكتشفوا مجموعة النجوم التى حسمت النتيجة. فعندما تمكن جيانجاليتزو فيسكونتى Visconti Giangaleazzo (المجلد الأول، القسم الأول، الفصل الثانى) بفضل ضربة أستاذية فى السياسة، من أسر عمه برنابو Bernabo ، مع أسرة الأخير (١٣٨٥)، يخبرنا معاصروه أن المشتري وزحل والمريخ كانوا فى دارة الاقتران^(٢٦)، ولكننا لا نستطيع أن نقول ما إذا كان العمل قد تم الاستقرار على إتيانه نتيجة مشورة النجوم. ومن المحتمل أيضاً أن نصيحة المنجمين غالباً ما كانت تحدها تقديرات وحسابات سياسية بدرجة لا تقل عن مجرة الكواكب^(٢٧)

ولقد كانت أوروبا كلها طوال الجزء التالى المتأخر من العصور الوسطى تسمح لنفسها بأن ترعبها تنبؤات بالطواعين والحروب والفيضانات والزلازل ، وفى هذا الصدد لم تكن إيطاليا بأية حال تتخلف وراء الأقطار الأخرى. ومما لا يندر أنه كثيراً من

نبوءات المحن والكوارث^(٢٨) سبق وأن أُنذرت بسوء طالع عام ١٤٩٤ ، الذى فتح أبواب إيطاليا للأبد للغريب - إلا أننا لا نستطيع القول هل حدث أم لم يحدث أن كانت مثل النبوءات مُعدّةً وجاهزة لكل سنة وللسنين كافة.

وقد انتشر هذا النهج من التفكير مع الاستمرار والثبات إلى أقاليم لا نكاد نتوقع أن نلتقى بها فيها. فإذا كانت حياة الفرد الخارجية والروحية بأكملها تحددها الحقائق المتصلة بمولده ، فإن نفس القانون يحكم مجموعات الأفراد والنتائج التاريخية - أو بعبارة أخرى، يمضى حكمه فى الأمم والأديان؛ وكما أن مجموعة نجوم هذه الأشياء تتغير فكذا تتغير الأشياء نفسها. ووصلت الفكرة القائلة بأن لكل ديانة يومها إلى الثقافة الإيطالية أول ما وصلت مرتبطة بهذه المعتقدات التجسيمية، حيث جاءت بخاصة من مصادر يهودية وعربية^(٢٩) ، وكان اقتران المشتري مع زحل هو الذى أثمر، فيما يخبروننا^(٣٠)، عقيدة اسرائيل؛ كما أن اقتران المشتري مع المريخ، أثمر عقيدة الكلدانيين؛ ومع الشمس، عقيدة المصريين؛ ومع الزهرة، العقيدة الإسلامية؛ ومع عطارد العقيدة المسيحية؛ كما أن اقتران المشتري مع القمر سيأتى يوماً ما بدين المسيح الدجال. وأقدم تشيكيو دا سكولى Ceccod'ascoli من قبل ، بكفر وتجديف ، ليحسب طالع ميلاد المسيح ، كما استنتج منه موته على الصليب. ومن أجل ذلك أحرقوه على المحرقة فى ١٣٢٧ بمدينة فلورنسا^(٣١) وكم من مرة انتهت فيها مذاهب من هذا القبيل بإسدال تعظيم دامس على كامل إدراكات الرجال للأشياء الروحية.

على أن هناك شيئاً أجدر كثيراً بالتقدير والاعتراف ، هو تلك الحرب التى شنّها الروح الإيطالى الصافى على هذا الجيش من الخداعات والضلالات. وعلى الرغم من ذلك التمجيد العظيم الهائل للتنجيم، كما هو بينٌ فى التصاوير الجدارية الجصية فى السالونى Salone فى بادوا^(٣٢) وتلك الموجودة فى قصر بورسو الصيفى (شيفانوجا) فى فيرارا، وعلى الرغم من المدائح التى كالمها حتى رجل مثل بيرولودوس^(٣٣) Beroal- dus ، فلم يكن هناك من إعواز إلى عقول مفكرة ومستقلة للاحتجاج عليها. فهنا، أيضاً، كان الطريق ممهّداً على يد العصر العتيق ، ولكن كان تفكيرهم السليم العادى وملاحظتهم الثاقبة هما اللذان علماهم ماذا يقولون. وكان موقف بترارك من المنجّمين، الذين كان يعرفهم عن طريق الاختلاط الشخصى، مملوءاً بالاحتقار المرير^(٣٤) ؛ كما أن ناظرى أحد لم يخترقاً جُدر منظومتهم من الأكاذيب بوضوح أكثر منه. وتكاد جميع

الروايات القصصية، منذ بدايات ظهورها - منذ زمن المئة قصة القديمة Cento Novelle Antiche أن تكون معادية للمُنجمين^(٣٥) وبشجاعة تذكر، يظل الإخباريون الفلورنسيون خاليّ الذهن من الأضاليل التي، بصفتها جزءاً من الماثور التاريخي، كانوا مضطرين أن يسجلوها. ويقول جيوفاني فيلاني، أكثر من مرة^(٣٦)، "ليس هناك من مجموعة نجمية تستطيع أن تُخضع لا إرادة الإنسان الحرة ولا إرشادات الله". ويصرح ماتيو فيلاني^(٣٧) بأن التنجيم رذيلة ورثها الفلورنسيون، ومعها كثير من الخرافات الأخرى، عن أسلافهم الوثنيين، أعنى الرومان. ومع هذا، فإن السؤال لم يظل قائماً لمجرد المجادلات والمناقشات الأدبية، ولكن الأحزاب الواقفة في صفه أو ضده كانت تتنازع علناً. ويعد فيضانات عام ١٣٣٣ الفظيعة، وكذلك أيضاً في ١٣٤٥، كان المُنجمون ورجال اللاهوت يتجادلون بدقة شديدة في سلطان النجوم وإرادة الله وعدالة عقوباته^(٣٨) على أن المنازعات لم يخمد أوارها أبداً طوال زمان عصر النهضة^(٣٩)، ولذا يجوز لنا أن نخلص إلى أن المحتجين كانوا جادين تماماً، وذلك نظراً لأنه كان أيسر عليهم أن يُزكّوا أنفسهم عند العظماء بالدفاع عن التنجيم لا بمعارضته.



شكل ٢٣٠ لوحة خشبية عن كراسه سافونارولا الدينية الدعاية ضد المنجمين (فلورنسا، ١٤٩١)

تصوير روزنتال، ميونيخ

وقد اختلفت الآراء اختلافاً بيّناً حول هذه المسألة فى دائرة لورنزو الفاخر، بين أعظم الأفلاطونيين من رجاله امتيازاً وعلو شهرة. وهناك فرية مكنوبة، أرادنا جيوفو أن نصدقها، هى أن مارسيليو فيتشينو Ficino Marsilio كان يدافع عن علم التنجيم، وكان يرسم خريطة بروج أطفال العائلة، وأنه وعد جيوفانى الصغير، الذى أصبح فيما بعد ليو العاشر، بأنه يوماً ما سيكون البابا^(٤٠) - على أن هناك أكاديميين آخرين كانوا يتقبلون التنجيم. ولكن بيكو ديلا ميراندولا^(٤١)، من الناحية الأخرى، ابتدع للموضوع عهداً جديداً لما قدمه فى تقنيده الشهير له. وهو يتشمم فى هذا الاعتقاد جذور كل ما بين الناس من عدم التقوى والأخلاقية. وهو يرى أنه لو اعتقد المنجم فى شىء على الإطلاق وجب عليه أن يعبد لا الله، بل الكواكب التى يستمد منها الخير والشر جميعاً. وغنى عن البيان أن جميع الخرافات الأخرى تجد فى التنجيم وسيلة وأداة سهلة وميسرة تخدم كشف الغيب بضرب الرمل وكشف البخت بقراءة الكف والسحر بكافة أنواعه. وهو يصر، من ناحية الأخلاقيات، أن شيئاً لن يستطيع أن يثبت أقدام الشر أكثر من الرأى القائل بأن السماء نفسها هى السبب فيه، وفى هذه الحالة ينبغى أن يختفى أيضاً الإيمان بالسعادة والعقاب الأبديين. بل لقد بلغ الأمر ببيكو أن تجشم عناء التحقق من تنبؤات المنجمين بطريقة استقرائية، فوجد أنه فى مدى شهر واحد فإن ثلاثة أرباع توقعاتهم لحالة الجو كانت كاذبة. على أن أهم ما أتاه من جلائل المنجزات أنه بدأ، فى الكتاب الرابع، يوضح مبدأ مسيحياً إيجابياً حول حرية الإرادة وحكومة العالم، الأمر الذى يبدو أنه ترك على الطبقات المتعلمة بكل أرجاء إيطاليا طويلاً وعرضاً أثراً أشد كثيراً من أثر جميع وعاظ إحياء العقيدة مجتمعين. والواقع أن الأخيرين غالباً ما كانوا يفشلون دون الوصول إلى هذه الطبقات.

وكانت النتيجة الأولى لكتابه هى أن المنجّمين توقفوا عن نشر مبادئهم^(٤٢)، فأما أولئك الذين سبق فعلاً أن طبعوها فكانوا إلى حد ما خجلين مما فعلوا. فإن جيوفيانو بوتتانو، مثلاً، عمد فى كتابه عن القدر (الفصل السابق)، إلى الاعتراف بالعلم، كما أنه فى عمل عظيم من تأليفه^(٤٣)، كانت أجزاءه العديدة مهداة إلى أصدقائه المبرزين وزملائه فى الاعتقاد، ألدو مانوتشى Aldo Manucci وب. بيمبو P. Bembo وسانأزارو Sannazaro، راح يفسر جماع نظرية التنجيم بأكملها بأسلوب فيرميكوس القديم، ناسباً إلى النجوم نمو كل خلة وصفة جسمية وروحية. وما هو الآن فى محاورته

المعنونة أجيدوس *gidius*، يسلم خاضعاً، إن لم يكن للتنجيم، فعلى الأقل لبعض المنجمين، ويردد ألوان الشتاء والمديح للإرادة الحرة، التي يتمكن بها الإنسان من معرفة الله^(٤٤) وظل التنجيم مقبولاً ومحبباً إلى حد ما، ولكنه يبدو وكأنما لم يعد يسود الحياة البشرية بنفس الطريقة التي بلغها فيما مضى، وما هو ذا فن التصوير، الذي بذل في القرن الخامس عشر قصاراه في تثبيت جذور الخداع، قد طفق الآن يعبر عن نعمة الفكر المتغيرة. وقد نهض رافاييل في تصويره قبة كنيسة كيجي^(٤٥) *Capella Chigi*، بتمثيل آلهة الكواكب المختلفة والسماء ذات النجوم، تراقبهم، ومع هذا، ترشدهم شخوص ملائكية جميلة، ويتلقون من عل بركة الأب الأبدى. وكان هناك أيضاً سبب آخر بدأ يكون له أثره ضد التنجيم في إيطاليا. فإن الإسبان لم يلقوا إليه بالأل، ولا حتى القواد، وأولئك الذين كانوا يريدون أن يفوزوا برضاهم^(٤٦) أعلنوا حرباً صريحة على ذلك العلم نصف الهرطيقى ونصف الإسلامى. أجل إن جيتشاردينى^(٤٧) *Guicciardini* يكتب في ١٥٢٩: "ما أسعد أولئك المنجمون، الذين يلقون التصديق إن هم قالوا صدقاً واحداً من بين مئة كذبة، بينما يخسر غيرهم كل رصيدهم من الثقة إن هم قالوا كذبة واحدة لقاء مئة صدق". على أن احتقار التنجيم لم يؤد بالضرورة إلى العودة إلى الاعتقاد بالعبادة الإلهية. وكان من الممكن بنفس السهولة أن يؤدى الأمر إلى جبرية لا حد لها.



شكل ٢٣١ قبة موزايكو من كنيسة كيجي لرافاييل سانت ماريا ديل بويلو، روما تصوير سيمان، لبيزج

وفى هذا الشأن، كما فى غيره، لم تتمكن إيطاليا أن تشق وتصنع طريقها الخاص بطريقة صحية من خلال اختبار عصر النهضة، لأن الغزو الأجنبى والإصلاح الدينى المضاد هبطا عليها فى منتصف الطريق. فلولا هذه الأسباب المعوقة المتدخللة لمكتتها قوتها الخاصة من التخلص تماماً من هذه الأوهام السخيفة الباطلة، فأما من يؤمنون بأن هجمة الأجانب وريود الأفعال الكاثوليكية كانت من الضرورات التى كان الشعب الإيطالى هو وحده المسئول دون غيره عنهما سينظرون إلى الإفلاس الروحى الذى أنتجته على أنه الجزاء العادل الوفاق، ولكن مما يؤسف له أن سائر أوروبا اضطرت بصورة غير مباشرة أن يدفع قدراً ضخماً جداً من العقوبة.

وكان الإيمان بالنذر المنذرة بالشر فيما يبدو يعد أمراً أكثر براءة بكثير من التنجيم. فالعصور الوسطى قد كتبت عليها أن تترك فى كل مكان تلك النذر بوفرة شديدة من مختلف الديانات الوثنية؛ ولم تختلف إيطاليا فى هذا الاتجاه عن الدول الأخرى. فأما ما تتميز به إيطاليا من خصائص مميزة فهو دعم المذهب الإنسانى للخرافات الشعبية. لقد كان الإرث الوثنى مسنوداً هنا بتطور أدبى وثنى.

وكانت الخرافات الشعبية لدى الإيطاليين تقوم إلى حد كبير على التوجسات (الإحساسات الباطنية بالنذر) والاستنتاجات المستنتجة من الأحداث المنذرة بالشر^(٤٨)، والتى يرتبط بها قدر كبير من السحر الذى هو فى معظمه من النوع البرى. ومع ذلك، فلم يكن هناك أدنى نقص أو إعواز فى عدد الإنسانين العلماء الذين كانوا يسخرون من هذه الأباطيل بجرأة، والذين كان من نتيجة هجماتهم الضارية أننا أصبحنا ندين جزئياً بالمعرفة بهم. ألا ترى إلى جيوفانى بونتانو، مؤلف العمل التنجيمى العظيم سالف الذكر (انظر نفس هذا الفصل)، كيف يروح يعدد بأسف فى كتابه المعنون كارون Charon صفاً طويلاً من الخرافات المنتشرة فى نابولى - مثل حزن النساء عندما كانت دجاجة أو أوزة تصاب بالحناق؛ والقلق الشديد الذى يلم بالنبلأ إذا لم يعد باز من بزاة الصيد إلى دكنته، أو إذا أصيب أحد الجياد بالتواء فى إحدى قوائمه؛ والنص السحرى لفلأحي أبوليا، الذى يتلى فى مساء ثلاثة أيام سبت، عندما تنتشر الكلاب المسعورة. وكانت المملكة الحيوانية، شأنها فى العصر العتيق، تعتبر كأنما هى ذات دلالة خاصة

فى هذا الصدد، كما أن سلوك الأسود والفهود وغيرها من الكواسر التى تحتفظ بها الدولة فى حدائق حيواناتها (القسم الرابع، الفصل الثانى) كانت تمنح الشعب قدراً عظيماً من الغذاء اللازم للتأمل، لأنها أصبحت تعتبر رمزاً حية للدولة. وفى أثناء حصار فلورنسا فى ١٥٢٩، أصيب نسر، فوقع داخل المدينة، وأعطت السنينورا حامله أربع دوقات، لأن البشارة كانت حسنة^(٤٩) وكانت هناك أوقات وأماكن معينة تعد فائلاً حسناً أو سيئاً، أو حتى تعد فاصلة فى هذه الأمور توجه إلى هذه الوجهة أو نقيضها بالنسبة لبعض الأعمال المعينة. وكان الفلورنسيون، فيما يخبرنا فاركى Varchi، يعتقدون أن يوم السبت يوماً مقدراً تحدث فيه عامة جميع الأحداث الهامة، سواء حسنة أم سيئة. وقد أسلفنا عليك من قبل كراهيتهم للخروج إلى الحرب مخترقين شارعاً بعينه (انظر نفس هذا الفصل). وفى مدينة بيروجيا، كان يُعتقد أن أحد الأبواب يجلب الحظ وهو باب إيبورنيا Eburnea، وكانوا الباجليونيون Baglioni يخرجون منه دائماً للقتال^(٥٠) وكانت الشهب ومظهر السماء لهما فى إيطاليا دلالتها، شأنها فى أى مكان آخر فى العصور الوسطى، كما أن الخيال الشعبى كان يرى الجيوش المتقاتلة فى ظلال التشكيلات الغريبة غير العادية للسحب، كما أنه كان يستمع إلى ضجة اصطدامها عالية فى طبقات الجو^(٥١) وأصبحت الخرافة شيئاً أشد خطورة عندما ربطت نفسها بالأشياء المقدسة، عندما كانت تماثيل العذراء تبكى أو تحرك العينين^(٥٢)، أو عندما كانت الكوارث العامة تُربط ببعض الأعمال المدعى بأنها غير ورعة، الأمر الذى من أجله كان الشعب يطلب تقديم الكفارة عنها. وفى ١٤٧٨، عندما أصيبت بياتشنزا Piacenza بموجة عنيفة وطويلة من الأمطار الغزيرة، قيل بأنه لن تكون هناك فترة جو جاف حتى يحال بين جسد مراب، سبق وأن دفن فى الآونة الأخيرة فى سان فرانشيسكو، وبين الاستقرار فى الأرض المقدسة المكرسة للدفن. ولما تجلى أن الأسقف لم يكن من كرم الأخلاق بحيث يسمح بنبش الجثة من الأرض، أخذها شباب المدينة بالقوة، وسحلوها فى أرجاء شوارع المدينة بين ظهرانى فوضى مخيفة، ثم قدموها إلى المدينين السابقين للمرابى حتى يهينوها ويسينوا معاملتها ويمثلوا بها، ثم انتهوا فى آخر المطاف إلى إلقائها فى نهر البو^(٥٣) بل إنه حتى بوليتيان قبل وجهة النظر هذه فى حديثه عن جياكومو باترى Giacomo Pazzi، وهو أحد زعماء مؤامرة عام ١٤٧٨ بفلورنسا، تلك

المؤامرة المسماة باسمه، فعندما أعدم كرس روحه للشيطان في كلمات مخيفة مريعة، وهنا أيضاً هطل المطر بعد ذلك مهدداً بتدمير المحصول؛ وهنا أيضاً أقدمت مجموعة من الرجال، معظمهم من الفلاحين، على استخراج الجثة من مقبرة الكنيسة، وعلى الفور أشرقت الشمس وذهبت الغيوم، ويضيف العالم الكبير^(٥٤) "وكان الحظ في رأى الشعب بالغ الرحمة". وألقيت الجثة أولاً بأرض دنسة غير مقدسة، ثم فى اليوم التالى استخرجت من الأرض من جديد، وبعد موكب قطيع مربع اخترق المدينة أقيمت فى نهر

الأرنو Arno



شكل ٢٢٢ السيدة العذراء تنقذ طفلاً من براثن شيطان، لنيكولو ألونو

معرض كولونا، روما تصوير أليبارى

ولهذه الحقائق وأمثالها سمة مميزة شعبية، وربما جاز أن تحدث فى القرن العاشر مثلما تحدث فى القرن السادس عشر تماماً، وهاهو ذا الآن يجىء النفوذ الأدبى للعهد العهيد. فإننا نعرف بالتأكيد أن الإنسانين كانوا سرعى التأثر بوجه خاص بالأعاجيب المعجزة والكهانة والعرافة، كما أنه سبق لنا أنفأ أن أتينا بأمثلة على ذلك.

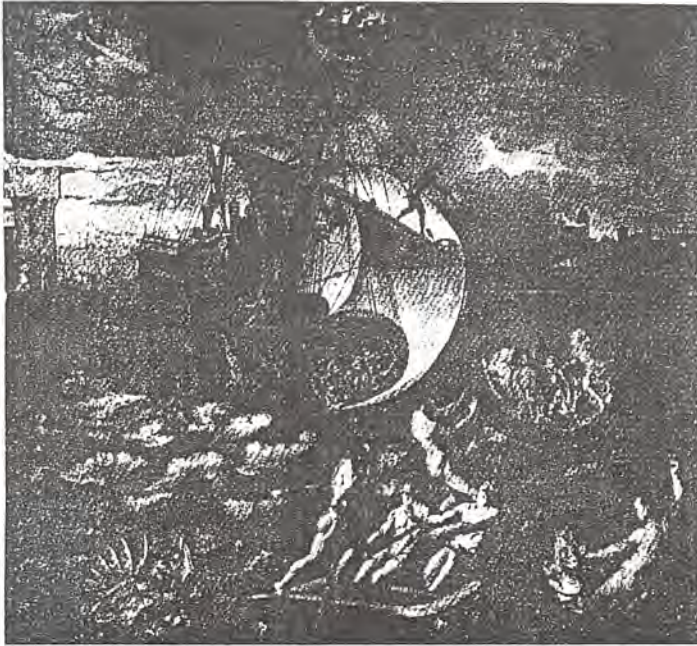
فإن احتاج الأمر إلى شواهد أخرى فإننا نجدها في بوجيو. ذلك بأن نفس المفكر الراديكالي الذي أنكر حقوق الميلاد للتبلاء واستنكر عدم المساواة بين الناس (القسم الخامس، الفصل الأول) لم يكن يؤمن فقط بجميع حكايات العصور الوسطى المتعلقة بالأشباح والشياطين، بل كان يؤمن أيضاً بالأعاجيب المعجزة بنفس طريقة القدماء، مثل تلك الوقائع التي قيل إنها حدثت أثناء الزيارة الأخيرة للبابا يوجينيوس الرابع لفلورنسا^(٥٥)

«حدث ذات ليلة أن شوهد قرب كومو أربعة آلاف كلب، كانوا يتجهون ناحية ألمانيا، وكان يتبعهم قطع كبير من الماشية، ويتبع هذه جيش من المشاة والخيالة، منهم من ليس له رأس ومنهم من له رؤوس لا تكاد تبين، ثم فارس هائل الجثة وخلفه قطع آخر من الماشية».

ويعتقد بوجيو أيضاً في معركة بين طيور العقاقق magpies والزاغ الأخضر jack-daws. بل إنه يروي، ربما بغير أن يدري، قطعة تحفظها الأجيال من الرطازات القديمة. فقد ظهر إله بحري؛ نصف سمكة ونصف إنسان على الساحل الدالماشي، له لحية وقرون، وهو ساطير^(*) بحري حقيقي، وينتهي جسمه بزعانف وذيل؛ وكان يتخطف النساء والأطفال من الشاطئ، حتى تمكنت خمس غسالات أوتين شجاعة الفؤاد من قتله بالعصى والحجارة^(٥٦) ولما عرض نموذج خشبي لذلك الوحش الرهيب بفيرارا أصبحت القصة بأكملها موضع التصديق تماماً عند بوجيو. ورغم أنه لم يعد هناك وسيط وحى، ولم يعد في الإمكان استشارة الآلهة أو أخذ نصيحتهم، فقد أصبح من الشائع أو الموضة بين الناس أن يُفتح فيرجيل عفواً على أية صفحة حيث يتخذون الفقرة التي يقع عليها بصرهم علامة بشرى وقال^(٥٧) Sortes Vigilanae وكذلك لم يكن الإيمان بالروح الشريرة أو الشياطين، الذي كان شائعاً في الفترة الأخيرة من العصور القديمة، بدون تأثير على عصر النهضة. فكان عمل جامبليكوس Jamblichus وأبامون

(*) الساطير Satyr: إله غابات عند الإغريق له ذيل وأذنا فرس، مولع بالعريضة والانغماس في المذات.
(المترجم)

Abammon عن أسرار المصريين، وهو الكتاب الذي لعله قد أسهم في الوصول إلى هذه النتيجة، قد تم طبعه في ترجمة لاتينية عند نهاية القرن الخامس عشر. ولم تكن الأكاديمية الأفلاطونية بفلورنسا خالية من هذه وغيرها من أحلام الأفلاطونية الحديثة neoplatonic عن انحطاط الرومان. وينبغي أن ندون هنا بضع كلمات قليلة في أمر الاعتقاد بالشياطين والسحر الذي كان مرتبطاً بهذا الاعتقاد.



شكل ٢٢٢ القديس مارك يوقف العاصفة

لأستاذ بنديقي الأكاديمية، البندقية

وكان الإيمان الشعبي بما يسمى العالم الروحي متماثلاً تقريباً في إيطاليا ، وفي أى مكان آخر في أوروبا^(٥٨) ففي إيطاليا، كما في أى مكان آخر، كان هناك أشباح - أى عودة الأشخاص المتوفين إلى الظهور؛ وإذا كانت الرأى المتخذ حول ذلك مختلفاً في أى صدد عن ذلك الرأى الذى كان منتشرراً في الشمال ، فإن الفرق بين الرأين

لا يكشف عن نفسه إلا في الاسم القديم ombra ، أما الآن إذا ظهر مثل ذلك الطيف فإن قداسين كانا كفيلين بسكوته. فأما كون أرواح الرجال السيئين الخبثاء تظهر في شكل مربع، فأمر يعد من طبيعة الأشياء، ولكننا نجد إلى جوار ذلك الفكرة القائلة بأن أشباح الراحلين يشيع بينها عنصر الشر جميعاً. ويقول القسيس في بانديلو^(٥٩) إن الموتى يقتلون الأطفال الصغار. ويبدو هنا كأنما كان يُفَرَّق بين الطيف وبين الروح، حيث أن الأخيرة تعاني في المَطْهَر، وعندما تظهر فإنها لا تفعل شيئاً سوى النواح والصلاة. وحتى يتم التخلص من الشبح كان القبر يفتح والجبنة تمزق إرباً والقلب يُحرق ويتم نثر الرماد في مهب الرياح الأربع^(٦٠) وفي أحيان أخرى لم يكن ما يظهر شبحاً لرجل وإنما هو شبح لحادث - أى عن سابق عهد الأمور - وهكذا فسر الجيران ظهور الشيطان في القصر القديم لأسرة فيسكونتي بقرب سان جيوفانى في كونكا في ميلانو، وذلك لأنه هنا كان برنابو فيسكونتي قد أمر بما لا يحصى عدده من ضحايا طغيانه وجبروته فعذبوا وخنقوا، فلا عجب إذن أن أشياء عجيبة^(٦١) تبدو هناك وترى. وقد حدث ذات مساء أن حشداً من الفقراء ظهروا وفي أياديهم الشموع أمام وصي غير أمين على الفقراء بمدينة بيروجيا وأخذوا يرقصون ويدورون حوله؛ وتكلم شخص ضخم بلهجة وعيد وتهديد مدافعاً عنهم - وكان هذا هو القديس ألو Alo، القديس الراعى لبنت الفقراء^(٦٢) ولقد كانت أشكال المعتقدات هذه من المسائل الطبيعية المتوقعة بحيث أن الشعراء كانوا يستخدمونها بوصفها شيئاً يمكن لكل القراء أن يفهموه. وقام كاستيليوني^(٦٣) بتقديم صورة شعرية رائعة لظهور لوفيفيكو بيكو، الذى سبق ذبحه، تحت أسوار ميراندولا المحاصرة ، حقاً إن الشعر استرسل واستفاض فى استخدام هاته الأفكار والتصورات عندما كبرت سن الشاعر نفسه عن التأثر بها.

ولا تنس أن إيطاليا أيضاً كانت تشترك فى الاعتقاد بالأبالسة مع جميع أمم العصور الوسطى الأخرى. إذ كان الناس على اقتناع بأن الله يسمح فى بعض الأحيان بظهور الأرواح الشريرة من كل الطبقات لتمارس تأثيراً مدمراً على أجزاء من العالم وعلى الحياة البشرية. وكان التحفظ الوحيد المتخذ هو أن الفرد الذى تظهر له الروح الشريرة لإغرائه يستطيع استخدام إرادته الحرة للمقاومة^(٦٤) وذلك بينما فى إيطاليا كان التأثير الإبليسى، وبخاصة كما يتجلى فى الأحداث الطبيعية، يتخذ بسهولة طابعاً

من العظمة الشعرية ، ففي الليلة السابقة على الفيضان العظيم فى وادى نهر الأرنو Val d'Arno فى عام ١٢٢٢ سمع ناسك ورع فوق قالومبروسا Vallombrosa جلبة شيطانية وهو فى صومعته، فرسم علامة الصليب على صدره، وخرج من الباب ، فرأى حشداً من الفرسان السود المرعبين يعدون بخيولهم بكامل عدتهم الحربية، وعندما ناشدهم أن يتوقفوا قال أحدهم: "إننا ذاهبون لإغراق مدينة فلورنسا بسبب خطاياها، إن أنن المولى"^(٦٥) ويمكن مقارنة هذه بالرؤيا المعاصرة تقريباً فى البندقية (١٣٤٠)، التى فيها صور أستاذ عظيم من المدرسة البندقية، من المحتمل أنه جيورجىونى، تلك الصورة الرائعة عن سفينة كبيرة مليئة بالأبالسة، وهى تنطلق بسرعة طائر يطير فوق المستنقع العاصف بقصد تدمير المدينة - الجزيرة الخاطئة، حتى تمكن القديسون الثلاثة، الذين تقدموا لا يلحظهم أحد إلى خُص نوتى فقير، فصرفوا الشياطين بالرقى والأدعية وأرسلوهم هم وسفینتهم إلى قاع المياه^(٦٦)

وإلى هذا الاعتقاد، أضيف الآن الوهم أنه من الممكن بواسطة فنون السحر الدخول فى علاقات مع الأرواح الشريرة ، واستخدام مساعدتها فى تقوية أغراض الطمع والطموح والحسانية. ومن المحتمل أن عديداً من الأشخاص كانوا يُتَهمون بفعل ذلك قبل الزمن الذى حاول فيه كثيرون فعلاً هذه الممارسة، ولكن عندما بدأ إحراق من يسمون بالسحرة والساحرات أصبحت الممارسة المتعمدة للسحر الأسود أكثر شيوعاً. ومع تصاعد دخان النيران التى كان يضحى فيها بالضحايا المشتبه فيهم، انتشرت الأبخرة المخدرة التى كان بها يخدر الأشخاص المنهارون بالسحر؛ وبهم ارتبط كثير من المحتالين الماكريين.

وكان الشكل البدائى والشعبى، الذى كان من المحتمل أن الخرافات استمرت تحيا فيه بدون توقف من زمن الرومان^(٦٧)، هو فن الساحرات strega وكانت الساحرة، طالما أنها كانت تقصر نشاطها على الرجم البحت بالغيب ومجرد العرَافة^(٦٨) والنبوءات، بريئة بدرجة كافية، لولا أن الانتقال من التكهّن إلى المساعدة الفعالة كان من الممكن بسهولة أن يكون، وإن تم ذلك بطريقة ضئيلة غير مدركة فى غالب الأحيان، خطوة قاتلة نحو الهوة. وكانت لها شهرة وسمعة فى تلك الحالة ليس فقط بالقدرة على إثارة الحب

والكره بين رجل وإمرأة، بل وأيضاً بالفنون المدمرة والشريرة الخبيثة على نحو صرف، وكانت تُتهم بوجه خاص بجلب المرض للأطفال الصغار، حتى ولو كان المرض ناجماً بوضوح من إهمال وغباء الوالدين. ولا يزال موضع الشك كيف كان عليها أن تعمل عن طريق الطقوس والتعاويذ السحرية البحتة، أو باستخدام ، تحالف وإع مع الشياطين، بغض النظر عن السموم والأبوية التي تستخدمها مع علمها التام بتأثيرها.

وكان الشكل الأشد براءة من الخرافات، والذي فيه الراهب المتسول يستطيع أن يجرو أن يظهر بوصفه المنافس للساحرة، يستبين في حالة ساحرة جيتا Gaeta ، التي نقرأ عنها في بونتانو^(٦٩) فإن رحالته سوبأتوريوس Suppatius يصل إلى مسكنها ، بينما تُجرى مقابلة مع فتاة وخادمتها، اللتين تجيئان إليها بدجاجة سوداء وتوسع بيضات بيضت في يوم جمعة ، وبطة ، وبعض الخيط الأبيض - لأن ذلك كان اليوم يوافق الثالث لبروغ الهلال الجديد - ويعد ذلك تصرفهن، وتطلب منهن القدوم مرة أخرى ساعة الفسق. ولا يغيب عن أذهاننا أن المقصود لا يتجاوز بآية حال شيئاً أسوأ من التكهّن والرجم بالغيب، وكانت سيدة الخادمة حاملاً من أحد الرهبان؛ حيث أظهر حبيبها أنه غير مخلص وانخرط في أحد الأديرة، وشكت الساحرة أن:

”إنى أعول نفسي بهذه الطريقة منذ وفاة زوجي، وكان الواجب أن أتخذ من ذلك ربحاً مجزياً، نظراً لأن نساء جيتا يتحلين بالقدر الوفير من الإيمان، لولا أن الرهبان يحرمونني من مكاسبى، بتفسيرهم الأحلام ويسكنوا غضب القديسين من أجل المال وأعددين الفتيات بالأزواج وواعدين النساء الحوامل بالأطفال الذكور والذرية للعاقر والعقيم، وفوق ذلك كله يقومون بزيارة النساء ليلاً عندما يكون أزواجهن غائبين لصيد الأسماك ، حسب المواعيد الغرامية التي يتفق عليها في النهار في الكنيسة“.

ويحذرنا سوبأتوريوس من غيرة الدير منها، ولكن الخوف لا يداخل قلبها، نظراً لأن رئيس الدير هو أحد معارفها القداماء^(٧٠)

على أن الخرافة لم تلبث أن تمخضت عن نوع أسوأ من الساحرات - أعنى بهن أولئك اللاتي يحرمن الرجال من صحتهم وحياتهم. ففي هذه الحالات فإن الشر، عندما كان لا يمكن تفسيره بدرجة كافية بأنه نتيجة للعين الشريرة وما شابهها، كان من الطبيعي أن يُنسب إلى مساعدة الأرواح القوية. فأما العقوبة، كما رأينا في حالة فينشيلا (القسم السادس، الفصل الثاني)، كان المحرقة؛ ومع ذلك كان يتم الوصول إلى تسوية مع التعصب في بعض الأحيان، فحسب قوانين بيروجيا، على سبيل المثال، كان في إمكان الساحرة أن تسوى المسألة بدفع أربعمئة جنيه^(٧١) وعندئذ لم يكن الأمر يعامل بنفس الجدية والصمود التي عومل بها في الأزمنة التالية. وكان هناك بمناطق الكنيسة بناحية نورتشيا Norcia، وهي مسقط رأس القديس بنديكت، في المناطق العليا بجبال الأبنين Apennine، عش كامل من الساحرات والمشعبذين يعمل علناً بلا خفاء. وقد جاء ذكره في إحدى شهيرات رسائل إينياس سيقيليوس^(٧٢)، التي تنتمي إلى الفترة الأولى من حياته. وإليكم ما كتب لأخيه:

«جاء حامل هذه ليسألني عما إذا كنت أعرف شيئاً عن جبل ليفينوس في إيطاليا، وذلك لأنه في هذا المكان كانت فنون السحر تُعلم، وأن سيده، وهو رجل ساكسوني وفلكي^(٧٣) عظيم، كان مشوقاً لتعلم تلك الفنون. فأخبرته أنني أعرف مكاناً يسمى بورتو فينيري غير بعيد من كارارا، على الساحل الصخري لليجوريا، حيث أمضيت ثلاث ليال وأنا في طريقى إلى بازل، وكذلك وجدت أن هناك جبلاً يدعى إيريكس في جزيرة صقلية كان مخصصاً لفينوس، ولكني لم أعلم هل كان السحر يُعلم هناك أم لا. على أنه طرأ إلى ذهني وأنا أتكلم أنه في أومبريا، في النوقية القديمة سبوايتو، بقرب بلدة نورتشيا، كان هناك كهف يقع تحت صخرة منحدره، يفيض عليها الماء، وهناك، كما أتذكر أنني قد سمعت، توجد ساحرات [striges] وشياطين وأطياف ليلية، وأن كل من أوتى الشجاعة يستطيع أن يرى ويتحدث مع الأشباح [spiritus]، وأن يتعلم فنون السحر^(٧٤) وأنا لم أر هذا المكان بنفسى، ولم أجد أى اهتمام به، لأن ما يتم تعلمه بالخطيئة من الأفضل ألا نتعلمه على الإطلاق».

ومع هذا فهو يذكر اسم مرشده، ويرجو أخاه أن يأخذ حامل الخطاب إليه، إذا كان لا يزال على قيد الحياة. وهنا يبلغ إينياس نزوة في تأدبه إزاء رجل ندى منصب، ولكنه شخصياً لم يكن فقط خالياً من الخرافات أكثر من معاصريه (القسم السادس، الفصل الثاني والفصل الرابع)، بل أيضاً جابه اختباراً في هذا الموضوع لا يستطيع كل متعلم في أيامنا هذه أن يتحمله. فإنه في وقت انعقاد مؤتمر بازل، عندما رقد مريضاً بالحمى لمدة خمسة وسبعين يوماً في ميلانو، لم يتمكن أحد البتة من إقناعه بالإنصات لنصائح الأطباء السحرة، بالرغم من أنهم أحضروا له رجلاً سبق له منذ مدة وجيزة أن شفى ألفى جندي من الحمى في معسكر بيتشينينو Piccinino وبينما كان لا يزال في طور النقاهة، عَبَرَ الجبال بجواده إلى مدينة بازل وأبلى من مرضه أثناء الرحلة^(٧٥)

ويزيد علمنا بجيرة نورتشيا من خلال الساحر المستحضر للأرواح الذي حاول أن يوقع بينيفينوتو تشيليني Benvenuto Cellini تحت سلطانه. فإن كتاباً جديداً في السحر كان سيُكرس^(٧٦) ويقُدس، وكان أفضل مكان للاحتفال وإجراء الطقوس هو بين الجبال بتلك المنطقة. وكان أستاذ الساحر سبق له مرة، وهذا أمر حقيقي، أن فعل نفس الشيء قرب فارفا، إلا أنه وجد هناك صعوبات لن تظهر في نورتشيا؛ وبالإضافة إلى ذلك، فإن الفلاحين في نورتشيا كانوا من أهل الثقة الذين كان لهم سابق خبرة وتمرس بالأمر، فكانوا من ثم يستطيعون تقديم مساعدة متى احتاج الأمر. ولم يتم القيام بالمهمة وإلا لا يمكن على الأرجح أن يكون بينيفينوتو قادراً أن يخبرنا ببعض الشيء عن مساعدي ذلك الدجال. وأصبحت هذه المنطقة وما يجاورها عندئذ مضرب الأمثال. ويقول أريتينو بمكان ما عن بئر مسحور، "حيث تسكن شقيقات عرافة نورتشيا وعمة السراب (أي القسمة والنصيب)". وحتى قريب من ذلك الوقت كان تريسينو لا يزال يستطيع الاحتفال بذلك المكان في ملحمة الكبرى^(٧٧) بمصاحبة جميع مصادر الشعر والمجاز بوصفها موطن التنبؤ الأصلي.

ويعد صدور المرسوم البابوي الرسمي ذائع الصيت لإنوسنت الثامن (١٤٨٤)^(٧٨) تحولات صناعة السحر وتعقب الساحرات بالاضطهاد إلى حركة عظيمة حاشدة بالتمرد. وكانت الجماعة الفعالة الرئيسية في ذلك الاضطهاد هي جماعة الرهبان

الدومينيكيين الألمان^(٧٩)؛ وكانت ألمانيا، وللغرابية تلك الأجزاء من إيطاليا الأدنى قريباً من ألمانيا، هي المناطق الأكثر ابتلاءً بهذا الطاعون الاضطهادي. فكانت المراسيم البابوية ووصايا البابوات أنفسهم تشير، على سبيل المثال، إلى المقاطعة الدومينيكية في لومباردى وإلى كريمونا وإلى أسقفيات بريشيا Brescia وبرجامو. ونحن نعلم من دليل سبرنجر النظرى-العملى الشهير، Malleus Maleficarum ، أن إحدى وأربعين ساحرة قد أحرقت بمدينة كومو فى السنة الأولى من إعلان المرسوم البابوى؛ ولجأت حشود كبيرة من النساء الإيطاليات إلى أراضى الأرشيدوق سيغيسموند، حيث كن يعتقدن أنهن لا يزلن آمنات. وأخيراً انتهت صناعة السحر باتخاذها جنوراً راسخة فى قلة تعسة من وديان الألب، وخاصة فى وادى كامونيك^(٨٠) Camonica ؛ وكان نظام التضيق والاضطهاد نجح فى نقل عدوى الخداع إلى أولئك السكان الذين كانوا فى حالة استعداد مسبق لتقبلها بكل الأحوال. وهذا الشكل الألمانى جوهراً من صناعة السحر هو الشكل الذى ينبغى أن يذهب تفكيرنا إليه عندما نقرأ قصص وروايات ميلانو وبولونيا^(٨١) والراجع أن عدم تمكنه من إحراز تقدم أكثر فى إيطاليا راجع إلى حقيقة معروفة هى أنه فى كل مكان آخر كان تطور كبير وانقلاب فى السحر -streghe- ria قد أخذ بالفعل يدب حياً، وهو قائم على مجموعة مختلفة من الفكرات. فإن الساحرة الإيطالية كانت تمارس حرفة وتحتاج فى مقابلها إلى المال وتحتاج فوق كل شىء إلى العقل السليم. فنحن لا نجد عنها شيئاً من تلك الأحلام الهيستيرية للساحرة الشمالية، ولا عن الرحلات الأعجوبية خلال الهواء، ولا عن الحوضون Incubus وهى الروح الشريرة التى تضاجع النساء ، ولا السقوية Succubus التى تضاجع الرجال ليلاً؛ وكان عمل الساحرة strega هو تزويد الناس الآخرين بالمتعة والملذات. فلئن كانت يُنسب إليها القدرة على اتخاذ أشكال مختلفة، أو على نقل نفسها فجأة إلى أماكن بعيدة، فقد كانت بذلك كله قانعة بأن تتقبل لنفسها هذه السمعة، وذلك نظراً لأن نفوذها وسلطانها كان يزداد سعة بهذه الشهرة، ومن الناحية الأخرى، كان من الخطر لها أن يتسع بين الناس نطاق الخوف من شرها وإيذائها وانتقامها وبخاصة قدرتها على سحر الأطفال والماشية والمحاصيل. وعندئذ كان رجال محكمة التفتيش والقضاة على وفاق تام مع رغبات الشعب لو أنهم أحرقوها.

وكان أهم ميدان لنشاط الساحرة *strega* يكمن كما أوضحنا آنفاً، وبدرجة أعلى من كل شيء ، فى "شئون الحب"، كما كان يضم إثارة الحب والبغض، وإحداث الإجهاض، والقتل المدعى للرجل غير الأمين، أو المرأة الخائنة، بفنون السحر، بل حتى صنع السموم^(٨٢) ونظراً لعدم رغبة كثير من الأشخاص فى إقامة علاقة بهؤلاء النسوة، نشأت طبقة من الممارسين العرضيين الذين تعلموا منهن فى خفية من الناس سرّاً أو أكثر من سر من فنون مهنتهن، ثم يعودون فيستخدمون تلك المعرفة على مسؤوليتهم. فكانت العاهرات الرومانيات على سبيل المثال تحاولن زيادة جاذبيتهن الشخصية مستعينات برقى وتعويذات ذات وصف مخالف على الأسلوب الكلبى الهوراسى *Hora tian Canidia*. وربما لم يكن أريتينو^(٨٣) يعرف فحسب حقيقة أمرهن، بل كان يحكى عنهن ويصدق فى الرواية من هذه الناحية الخاصة. فإنه يقدم قائمة بالأشياء العجيبة الكريهة المقوثة التى كان يُعثر عليها مثل الشعرات والجماجم والضلوع والأسنان وعيون الموتى وجلود البشر وسرة الأطفال الصغار ونعال الأحذية وقطعاً من الملابس مأخوذة من القبور. بل لقد كن يذمبن بأنفسهن إلى المقابر ويستحضرن منها قطعاً من اللحم المتعفن الرميم الذى كن يقدمنه خفية إلى محبيهن ليأكلوه - مع ما هو أسوأ من ذلك وأنكى. وكانت قطع من شعر الحب وأظافره تغلى فى الزيت المسروق من قناديل الكنائس المتقدة على الدوام. وكانت أحمد رقاهن وتعاويذهن عاقبة هى صنع قلب من الجمرات المتوهجة واختراقها بألة حادة مع الغناء:

Prima che l'fuoco spenghi,

Fa ch' a mia porta venghi;

Ta lti punga mio amore

Quale io fo questoc uore.

وكانت هناك تعازيم أخرى تمارس فى ضوء القمر مع رسوم تُرسم على الأرض ، وأشكال من الشمع أو البرونز، كانت نون أدنى ريب تمثل العاشق المحب، وتعامل طبقاً للظروف.

وكانت هذه الأشياء من الشيوخ والانتشار وإلف الناس بها، بحيث أن امرأة حُرمت نصيبها من الشباب والجمال، وكانت مع ذلك تملك أن تمارس سحراً بالغاً على الرجال، لا تلبث بطبيعة الحال أن تتهم بالسحر. وقامت والدة سانجا^(٨٤)، سكرتير البابا كليمنت السابع، بتقديم السم لخليلة ابنها، التي كانت امرأة من هذا النوع من النساء. ومن سوء الطالع أن الابن مات هو أيضاً وبصحبه مجموعة من الأصدقاء أكلوا من الكامخ (السَّلَطَة) المسمومة.

ثم يجيء بعد ذلك، لا بوصفه مساعداً للساحرة بل منافساً، ذلك المشعوذ السحار أو الرقى العراف وصاحب التعاويذ - *incantatore* ، وهو الذي كان أشد دراية عميقة بأعمال ذلك الفن الأبلغ خطراً. وكان في بعض الأحيان أقرب إلى حد ما إلى مُنَجِّمٍ منه إلى المشعوذ السحار؛ والراجح أنه كان يعرض نفسه على الناس على أنه مُنَجِّمٌ لكيلا يحاكم بوصفه سحاراً، كما أنه معلوم أن قدراً من التنجيم كان ضرورياً بقصد اكتشاف الساعة الموائمة لإتمام عملية سحرية^(٨٥) ولكن نظراً لأن كثيراً من الأرواح طيبة^(٨٦) أو محايدة غير مهتمة، كان الساحر يستطيع في بعض الأحيان أن يحتفظ بساعة مقبولة جداً، وقد اضطر البابا سيكستوس الرابع (في ١٤٧٤) أن يتخذ إجراءات متعمدة لإقامة الدعوى ضد راهب كرملي^(٨٧) من بولونيا، لأنه ادعى وهو على المنبر أنه لا ضرر من استقاء المعلومات من الأبالسة. وكان العدد الجم الغفير جداً من الناس يعتقد في ذلك الشيء نفسه؛ وهناك برهان غير مباشر على هذا يكمن في أن كثيراً من أشد الناس تقوى كانوا يعتقدون أنهم بإقامة الصلوات ورفع الدعوات كانوا مستطيعين الحصول على رؤى للأرواح الطيبة. وكان عقل ساقونارولا محتشداً بهذه الأشياء؛ ويتحدث أنصار الأفلاطونية الفلورنسية عن اتحاد صوفى مع الله؛ ويحملنا مارسيلوس بالينجينوس *Marcellus Palingenius* المجلد الأول، القسم الثالث، الفصل العاشر) بأحاديثه على أن نفهم بكامل الوضوح أنه كان على علاقة بالأرواح المكرسة لله^(٨٨) وإن نفس الكاتب لمقتنع بوجود هرم ونظام مدرج لهيئة أبالسة السوء، لهم مقرهم بدءاً من القمر إلى أسفل، كما أنهم على الدوام في أهبة وترصد للقيام ببعض الشر اعتداء على الطبيعة وعلى الحياة البشرية^(٨٩) بل إنه ليتحدث عن تعرفه الشخصي ببعض هؤلاء الأبالسة، ونظراً لأن حيز هذا الكتاب ونطاقه لا يسمح لنا بالقيام بعرض

منتظم للاعتقاد الشائع آنذاك فى الأرواح، فإن ما يرويه بالينجينيوس يمكن تقديمه على أنه يورد على سبيل المثال لا الحصر (٩٠)

فإنه كان فى سان سيلفيسترو، على نهر سوراكتى Soracte، يتلقى التعليمات من ناسك تقى حول لا شينئية وانعدام جميع الأشياء الدنيوية، وانسحاق قيمة الحياة البشرية، وعندما اقترب سدول الليل بدأ مسيرة العودة إلى روما. وبينما هو فى الطريق، فى ضياء القمر التام، انضم إليه ثلاثة رجال، ناداه أحدهم باسمه وسأله من أين جاء. فأجابه بالينجينيوس عن سؤاله: "من عند الرجل الحكيم على الجبل". فأجابه الغريب: "يا لك من أحمق! وهل أنت فى الحق تؤمن بأن إنساناً على الأرض حكيم؟ فقط الكائنات الأعلى [divi] هى التى تملك الحكمة، وما نحن الثلاثة على ذلك الوصف وإن ارتدينا أشكال الرجال. فأما أنا فأدعى ساراكيل Saracil، وهذا الإثنان ساذيال Sathiel وچانا Jana. وتقع مملكتنا قرب القمر، حيث تسكن جماهير غفيرة من الكائنات المتوسطة الذين لهم سلطان على الأرض والبحر". ثم عاد بالينجينيوس بعد ذلك فسأل، وليس ذلك بغير أن تخالجه رجفة داخلية ساورته، ماذا ينوون أن يصنعوا فى روما؟ وكان الجواب: "إن أحد رفاقنا، وهو أمون Ammon، محجوز فى خدمة شاقة بواسطة الفنون السحرية من أحد الشبان من مدينة نارنى وهو أحد أتباع الكاردينال أورسينى؛ وذلك لأن عليكم أن تلاحظوا، يا أيها الناس، أن هناك برهاناً على خلوكم قائماً فيها، وإنكم تستطيعون أن تتحكموا فى أحدنا؛ فأما عن نفسى، وقد حبست فى وعاء البللور، اضطررت ذات مرة أن أخدم أحد الجرمان، حتى أطلق سراحي راهب ملتج. وهذه هى الخدمة التى نرغب فى تقديمها بمدينة روما إلى صديقنا، وسننتبل الفرصة أيضاً لنرسل واحداً أو اثنين من الرومان المتميزين إلى العالم السفلى". وعندما نطق بهذه الكلمات هب نسيم عليل، وقال ساذيال: "أصغوا إلى، إن رسولنا عائد من روما، وهذه الرياح إعلان بقدمه". وعندئذ ظهر كائن آخر، فحيوه بسرور وغبطة، ثم سأله عن روما. وكانت روده مضادة للبابوية بقوة: فإن كليمنت السابع عاد فتحالف مع الإسبان مرة ثانية وأنه يأمل أن يستأصل المبادئ اللوثرية من جنورها، لا بطريق الجدل والإقناع، ولكن بواسطة السيف الإسبانى. وذلك شئ لا شك أنه كله فى صالح الشياطين، الذين سوف يمكنهم سفك الدماء المتراثة فى الأفق قريباً من حمل أرواح الآلاف إلى جهنم.

وفى ختام هذه المحادثة، التى فيها تمثل روما بكل ما فشى فيها من إثم فى صورة الملقية بنفسها تماماً والمستسلمة للكائن الشرير theEvilOne تختفى الأشباح وتغادر الشاعر أسفة ليوصل طريقه بمفرده^(٩١)

والذين يبتغون أن يصوروا لأنفسهم فكرة عن مدى اتساع الاعتقاد فى هذه العلاقات بالشياطين التى كان يمكن الاعتراف بها علناً على الرغم من العقوبات المرتبطة بصناعة السحر يمكن إرجاعهم إلى الكتاب الشائع بين العدد الجم من القراء من تأليف أجريباً Agrippa من نيتيسهايم Netteshheim عن الفلسفة السرية SecretPhi- losophy. ويبدو أصلاً أنه كتبه قبل حضوره إلى إيطاليا^(٩٢)، على أنه فى إهدائه الكتاب إلى تريثيميوس Trithemius يذكر المراجع الإيطالية من بين غيرها من المراجع، ولو تم ذلك على الأقل على سبيل الغض من قيمتها. وفى حالة الأشخاص الغامضين مثل أجريبياً، أو شخصيات الأندال والسفلة والحمقى الذين يمكن تقسيم معظم ما تبقى منهم، لم نجد فى النظام الذى يحترفونه كله ما يستحق الاهتمام إلا أقل القليل، بكل ما حوى من وصفات سحرية وإطلاق للبخور ومراهم الزيت، إلى غير ذلك^(٩٣) على أن هذا النظام كان عامراً بمقتطفات واقتباسات من خرافات العصور العهيدة القديمة، التى كان سلطانها على حياة الإيطاليين وعواطفهم وشهواتهم ملحوظاً ومثمراً إلى أقصى حد فى بعض الأوقات. وربما دار بخلدنا أن عقلاً عظيماً لا بد أن يتدمر تدميراً تاماً قبل استسلامه لمثل تلك المؤثرات ؛ ولكن عنف الأمل والرغبة أدى حتى بالرجال أقوىاء الشكيمة المتصفين بالأصالة من جميع الطبقات إلى اللجوء إلى السحار، كما أن الاعتقاد بأن ذلك الشئ كان مجدياً على أى حال كان ينطوى إلى حد ما على إضعاف الإيمان، حتى إيمان أولئك الذين كانوا يقفون مترفعين متباعدين، فى النظام الخلقى للعالم. لقد كان يبدو ممكناً، بثمن بخس دراهم معدودة، وبالتعرض لخطر طفيف، أن يقوم المرء فى شئ من الحصانة من العقوبة بتحدى العقل العام والأخلاقيات التى تعمل الإنسانية على هداها، وأن يعفى نفسه من الخطوات المتوسطة التى لا مفر من أن تقف حجر عثرة بين المرء وبين غاياته المشروعة وغير المشروعة.

والآن فلنعمد للحظة واحدة إلى إلقاء نظرة على شكل أقدم من الخرافات أخذ البلى يدب إليه. فمنذ أحلك فترات العصور الوسطى، بل حتى أيام العصور العهيدة القديمة احتفظت كثير من المدن الإيطالية بذكرى العلاقة القائمة بين قدرها المحتوم وبين بعض المباني المعينة وبعض التماثيل أو بعض أشياء مادية أخرى. لقد ترك القدامى سجلات عن تكريس الكهان أعنى telesta ، الذين كانوا يشهدون عملية الإنشاء الوقور للمدن، ثم قدموا بصورة سحرية ضمان رغدها ونجاحها بإقامة آثار معينة، أو دفن بعض الأشياء المعينة telemata وكانت المآثورات التي من هذا النوع قيمة أكثر من أى شىء آخر بأن تعيش أبداً فى صورة أسطورة شعبية غير مكتوبة ؛ ولكن الذى حدث فى بحران القرون أن الكاهن تحول بطبيعة الحال إلى الساحر، نظراً لأن الجانب الدينى من وظيفته لم يعد مفهوماً. ولو نظرنا فى بعض المعجزات الفرجيلية فى نابولى^(٩٤) لوجدنا الذكرى العهيدة لأحد هؤلاء الكهان telestae محفوظة تماماً وبصورة واضحة، لولا أن اسمه قد طمس بمرضى الزمن وحل محله اسم فرجيل. وهناك عملية إدخال الصورة الخفية للمدينة فى أحد الأوعية أو السفن وهو شىء لا يزيد كثيراً ولا ينقص عن طلسم telesma ؛ كما أن فرجيل، مؤسس نابولى، ما هو إلا الكاهن المنفذ، الذى اشترك فى إقامة الحفل، مسريلاً فى ثوب آخر. لقد استمر الخيال الشعبى يعمل على هذه التيمات حتى أصبح فرجيل هو المستنول أيضاً عن الحصان النحاسى، وعن الرؤوس عند البوابة النولانية Nolan Gate، وعن الذبابة النحاسية على بوابة أخرى، وحتى عن مغارة بوسيليبو Posillippo وكل هذه الأشياء التى كانت تقوم على نحو ما، بوضع لمسة كبح واعتياق سحرية على القضاء والقدر، وهى الأشياء التى بدا أن الاثنين الأولين منها يحددان حظ المدينة بكامل كيانه. وإن روما العصور الوسطى لتحفظ أيضاً بذكريات ملتبسة يغشاها الإبهام من هذا القبيل. فقد كان هناك بكنيسة القديس أمبروجيو S.Ambrogio بميلانو تمثال رخامى عتيق لهركيوليس؛ ولعله كان يقال عنه إنه طالما قام هذا بمكانه فلسوف تعيش الإمبراطورية. ولعل المقصود بذلك هو إمبراطورية الجرمان، وذلك نظراً لأن تتويج أباطرتهم بمدينة ميلانو كان يجرى بتلك الكنيسة^(٩٥) ولقد كان الفلورنسيون^(٩٦) مقتنعين بأن معبد مارس Mars ، الذى تحول فيما بعد إلى بيت المعمودية، سوف ينهض قائماً إلى غاية الزمان وذلك طبقاً للمجموعة

النجمية التي بنى في ظلها؛ ولم يفتهم كمسيحيين أن يزيحوا منه تمثال الفارس الرخامي؛ ولكن نظراً W nWh لأن تدمير ذلك الشيء الأخير كان لا بد أن يجر كارثة عظمى على المدينة - وذلك أيضاً W وفقاً لاستطلاع النجوم - فإنهم أقاموه فوق برج يطل على نهر الأرنو. وعندما غزا توتيتلا totila مدينة فلورنسا، سقط التمثال في النهر ثم لم يُستخرج منه ثانية حتى أعاد شارل الأعظم إنشاء المدينة. وعندئذ وضع التمثال فوق عمود عند مدخل كوبرى فيكيو Ponte Vecchio، وعلى هذه البقعة ذبح بونديلمونتي Buondelmonte في (١٢١٥) وهكذا، كان الأصل في النزاع الأكبر بين حزبي الجوليف والفيبيليين مرتبطاً بالوثن المرهوب. واختفى التمثال إلى الأبد^(٩٧) في أثناء فيضان (١٢٣٢).

بيد أن ذلك الطلسم talasma نفسه يعود للظهور بمكان آخر. ألا ترى إلى أن جيودو بوناتو Guido Bonato، الذي سبق ذكره، عند إعادة بناء أسوار مدينة فورلي Forli لم يقتنع بمطالبة الحزبين بإتيان أعمال رمزية معينة للدلالة على الصلح بينهما (انظر نفس هذا الفصل). فإنه - وقد دفن في الثرى تمثالاً^(٩٨) لفارس من البرونز أو الحجر، استخرجه وأظهره بعون الفنون السحرية أو التنجيمية، كان يؤمن بأنه دافع عن المدينة وحماها من عائلة الخراب، بل حتى من شر فاتح يفتحها أو ناهب ينهبها. وعندما تولى الكاردينال ألبرنوز Albernoz (المجلد الأول، القسم الأول، الفصل العاشر) حكم رومانيا Romagna بعد ذلك بما يقارب الستين عاماً استُخرج التمثال من الأرض بمحض الصدفة ثم عُرض على أنظار الناس، ولعل ذلك كان بأمر من الكاردينال نفسه، حتى يعرف الناس جميعاً بأية وسيلة دافع مونتفلترو Montefeltro قاسى الفؤاد عن نفسه ضد كنيسة روما. ونشير أيضاً إلى أنه حدث بعد ذلك بقرن ونصف من الزمان، عندما فشلت محاولة لباغثة فورلي، أن الناس شرعوا يتحدثون من جديد عن فضائل التمثال، الذي لعله أُنقذ وأُعيد دفنه. وكانت تلك هي المرة الأخيرة التي تمكنوا فيها أن يفعلوا ذلك؛ وذلك لأنه حدث بعد ذلك بسنة أن مدينة فورلي أخذت فعلاً. وأضحى إنشاء المباني طوال مدة القرن الخامس عشر مرتبطاً ليس فقط بالتنجيم (انظر نفس هذا الفصل)، بل وأيضاً بالسحر. ولا شك أن ذلك العدد الكبير من الميداليات الذهبية والفضية التي دفنها البابا بولس الثاني في أساسات المباني^(٩٩) كان موضع الملاحظة من الناس، كما أن بلاتينا Platina لم يلم به الكدر بأية حال، لأنه تبين طلسماً وثنياً

قديمًا قائمًا في هذه العملية. فإن بولس ومترجم حياته كليهما لم يكونا بأية حال على وعى بالمغزى الدينى القروسطى لمثل هذا القريان^(١٠٠)

على أن هذا السحر الرسمى، القائم فى كثير من الحالات على مجرد التقول والسماع، كان غير هام نسبياً إلى جوار الفنون السرية التى كانت تتم ممارستها بأغراض شخصية.

والشكل الذى كانت هذه الفنون تتخذه على أرجح الاحتمالات فى الحياة اليومية، يتبين عند أرسىوستو فى كوميديته عن السحارين^(١٠١) فبطله هو أحد اليهود الكثيرين المنفيين من إسبانيا، وإن كان يدعى أيضاً أنه إغريقى، وأنه مصرى وأفريقى، وأنه لا ينفك يغير اسمه وزى ثيابه. وهو يدعى أن تعازيمه يمكن أن تحلك النهار بالظلمة وتضى الظلماء، وأنه مستطيع أن يحرك الأرض، وأن يجعل نفسه مختفياً غير مرئى، وأن يمسخ الرجال بهائم؛ ولكن هذه الطنطنات المفاخرة ليست إلا من قبيل الإعلان. فأما غرضه الحقيقى فهو أن يستنتج بيانه عن زيجات غير سعيدة ومملوءة بالمتابع، كما أن الأثر الذى يتركه خلفه فى طريقه لا يزيد عن المادة الغروية اللزجة التى تفرزها القواقع والحلزونات، أو يكون فى الغالب مثل التدمير الذى تحدثه وتخلفه زوبعة البرد الثلجية وراعاها. وللوصول إلى بغيته وأهدافه، تراه مستطيعاً أن يقنع الناس أن الصندوق المختفى فيه العاشق مملوء بالأشباح، وأنه قادر على أن يجعل جثة ميتة تتكلم. وعلى كل حال فهى علامة حسنة أن قد استطاع الشعراء والروائيون أن يعتمدوا على التهليل والاستحسان الشعبى فى عرضهم هذه الطبقة من الرجال بطريقة ساخرة مضحكة. وهذا بانديلو، لا يقتصر فقط على معالجة شعوذة راهب لومباردى بإنها حطة تعسة، كما انها فى النهاية والغاية فظيعة وأنها تنطوى على قطعة حقيرة من الاحتيال والمكر^(١٠٢)، ولكنه أيضاً يصف فى غضب صادق^(١٠٣) لا ادعاء فيه تلك النوازل التى لا تكف عن ملاحقة ذلك الأحمق المستعد لتصديق الكذابين.

« وإن الرجل ليأمل بأن يستطيع بعون مفتاح سليمان وغيره من كتب السحر أن يعثر على الكنوز المخبأة فى بطن الأرض، وليجبر حبيبتة وقره عينه على تنفيذ إرادته، وليكشف أسرار الأمراء، ولينقل نفسه فى لمح

البصر من ميلانو إلى روما. وكلما كثر عدد مرات انخداعه، زاد يقيناً
ثابتاً بالسحر... هل تذكر يا سنيور كارلو الوقت الذي ملأ فيه أحد
أصدقائنا، لكى ينال رضا محبوبته، حجرته بالجماجم والعظام كأنها
مقبرة ؟

وكانت أشد المهام مقتاً إلى القلوب توصف - كخلع ثلاث أسنان من إحدى الجثث ،
أو نزع إظفر من إصبعها، إلى غير ذلك من مهام؛ وعندما كان ضجيج وزياط التعزيم
على أشده، كان المشتركون التعساء، أحياناً كأنهم الموتى من الرعب!..

لم يمت بينقنينوتو شيليني Bentuvenuto Cellini في أثناء القيام بالتعزيم
الشهيرة (فى ١٥٢٠) فى مبنى الكوليزيوم بمدينة روما^(١٠٤)، وإن كابد هو ورفقاؤه
ألواناً غير عادية من الرعب؛ والكاهن الصقلي، الذى لعله قد توقع أن يجد فيه مساعداً
نافعاً فى المستقبل، قدم إليه تحية الاعتراف بفضلها وهما راجعان إلى المنزل بقوله إنه
لم يقابل فى حياته رجلاً على مثل هذه الشجاعة القوية. ونحن نترك كل قارئ أن يقيم
تصوراته حول الإجراءات ذاتها. ولا يخفى أن الأبخرة المخدرة وأن الواقع الفعلى
التمثل فى أن أخيلة المشاهدين كانت مهياة بطبعها لتلقى جميع أنواع الرعب الممكنة،
إنما هى النقاط الرئيسة التى ينبغى لنا ملاحظتها والاهتمام بها، وتوضح السبب الذى
من أجله كان الغلام، الذى كان يشكل أحد أفراد الفرقة، والذى كانوا ينزلون به أعنف
المؤثرات، يرى أشياء أكثر كثيراً من الآخرين. ولكن يجوز لنا أن نستنتج أن بينقنينوتو
نفسه كان هو الشخص الذى كان المطلوب التأثير فيه، وذلك لأن البداية الخطرة
للتعزيم لا يمكن أن يكون لها أى غرض آخر إلا إثارة الفضول وحب الاستطلاع. وذلك
أن بينقنينوتو كان عليه أن ينتظر فترة للتفكر قبل أن خطرت أنجيليكا الجميلة بباله؛ كما
أن السحار أخبره فيما بعد أن الغزل والحب شىء أحمق بالمقارنة بالعثور على الكنوز،
زد على ذلك، أنه لا ينبغى لنا أن ننسى أنه كان مما يداهن كبرياه ويرضيها أن يمكنه
أن يقول، "لقد برت الشياطين بكلمتهم، فوقعت أنجيليكا ملكاً ليمينى كما وعدوا، بعد
مضى شهر واحد فقط". وحتى على فرض أن بينقنينوتو كذب بالتدريج على نفسه حتى
صدق بالحكاية كلها، فإن ذلك سيظل شياً ثميناً بوصفه برهاناً وآية على طريقة
التفكير الشائعة آنذاك بين الناس.

ومع هذا فالقاعدة الجارية ، هي أن الفنانين الإيطاليين، حتى "من كان منهم غريب الأطوار ، متقلب الأهواء والانفعالات شاذاً" ، كانت صلتهم بالسحر ضئيلة لا تذكر. وربما قام أحدهم أثناء دراسته للتشريح، بتفصيل سترة لنفسه من جلد أحد الجثث، ولكنه عاد وتبعاً لنصيحة "تسييس اعترافه" فرد الجلد إلى القبر ثانية^(١٠٥) والحق، أن كثرة دراسة علم التشريح ربما تكون أقوى تأثيراً من كل شيء آخر فى تدمير الاعتقاد السحري للأجزاء المختلفة من الجسم، بينما الذى حدث فى نفس الوقت أن مواصلة مشاهدة ومراقبة وتجسيد الشكل الإنسانى جعلت الفنان وثيق العلم بسحر من نوع آخر تماماً.

وعلى العموم، فإنه رغم الأمثلة التى سيقت، يبدو أن سوق السحر كانت فى هبوط واضح ملموس عند بداية القرن السادس عشر - أى بعبارة أخرى، عندما شرع لأول مرة فى الازدهار الباذخ القوى خارج إيطاليا ؛ وهكذا يتبين أن رحلات وسرحات السحَّارين والمنجِّمين الإيطاليين فى الشمال لم تبدأ حتى تهدمت الثقة فيهم داخل وطنهم إيطاليا تهدماً تاماً. وفى القرن الرابع عشر كان الناس يرون أن من الضرورى مراقبة البحيرة الواقعة على جبل بيلاتوس Pilatus قرب مدينة سكارايوتو Scariotto مراقبة دقيقة وذلك لمنع السحَّارين من تكريس كتبهم هناك^(١٠٦) وإننا لنجد، مثلاً، فى القرن الخامس عشر أنه قُدم عرض لإنتاج عاصفة مطرية بقصد إثارة الرعب وتشثيت جيش يحاصر المدينة؛ والذى حدث حتى فى ذلك الحين، أن قائد المدينة المحاصرة - نيكولو فيتيللى Niccolo Vitelli المقيم بسيتا دى كاستيلو Cittadi Castello بلغ من حسن تعقله أن طرد السحَّارين المشعبيذين على اعتبارهم أشخاصاً ملحدين^(١٠٧) فأما فى القرن السادس عشر فلا تروى بعد أى أمثلة من هذا النوع الرسمى، وإن كان السحَّارون لا يزالون نشطين فى مضمار الحياة الخاصة. وإلى هذه الحقبة تنتمى تلك الشخصية الممتازة للسحَّار الألمانى، الدكتور يوهان فاوست Dr.Johan Faust ؛ ولكن الساحر المثالى الإيطالى، من الناحية الأخرى، وهو جويدو بوناتو، يرجع تاريخه إلى القرن الثالث عشر.

وينبغي أن يضاف إلى هذا رغم ذلك، أن هبوط الاعتقاد بالسر لم يكن يصحبه بالضرورة زيادة في الاعتقاد والإيمان بنظام أخلاقي، بل في حالات كثيرة، شأن الإيمان المضمحل بالتنجيم، فإن الخدعة لم تخلف من ورائها إلا غباء عقيدة جبرية بالقضاء.

وإن واحداً أو اثنين من الأشكال الصغرى لهذه الخرافات، هما كشف البخت بالنار وقراءة الكف^(١٠٨)، وغيرهما، وهي التي حصلت على شيء من إيمان الناس بها، بينما الاعتقاد بالشعبذة والتنجيم في اضمحلال، يمكن هنا تخطيها، بل إنه حتى العلم الزائف نفسه وهو علم الفراسة لم يحظ بأية حال بالاهتمام الذي قد يدفعا الاسم إلى توقعه. وذلك لأنه لم يظهر بوصفه الأخ والحليف للفن وعلم النفس (السيكولوجيا)؛ ولكن بوصفه شكلاً جديداً للخرافة الجبرية، كما أنه هو الشيء الذي ربما صار لدى العرب منافساً للتنجيم. ولم يكن مؤلف رسالة في علم الفراسة - وهو بارثوليو كوكلي، الذي نعت نفسه بأنه "عالم قراسة الجبهة بين العينين"^(١٠٩)، والذي كان علمه حسب تعبير جيوفيو، يبدو كأنما هو واحد من أشد الفنون الحرة مدعاة للاحترام، قانعا بالتكهنات التي وضعها للمهرة والأذكيا الكثيرين من الناس الذين كانوا يستشيرونه في كل يوم، وإنما كتب أيضاً "كتيباً بالغ الجدية لأولئك الذين ينتظروهم خطر عظيم في الحياة". وإن جيوفيو، وإن شاخ بين ظهراني الفكر الحر لروما - "in hacluceromana" يرى أن النبوءات التي يحتويها ذلك العمل لم يكن لها إلا الكثير المفرط الكثرة من الصدق^(١١٠) وأنا لنعلم من المصدر نفسه كيف كان الناس المشار إليهم في تلك التنبؤات وأشبهها يثارون لأنفسهم من قارئ المستقبل. وتسبب جيوفواني بينتوفوليو Giovanni Bentivo- gio في أن يدفع بلوكاس جاوريكوس Lucas Gauricus إلى الجدار خمس مرات ذهاباً وجيئة، وهو معلق على حبل مدلى من بئر وسلالم ملتوية محوية ومرتفعة، لأن لوكاس تنبأ له بأنه سيفقد سلطانه^(١١١) وأرسل إيرمس بنتيفوليو Ermes Bentivoglio رجلاً مغتالاً وراء كوكلي، لأن ذلك العالم في فراسة ما بين العينين تنبأ عن غير إرادته بأنه سوف يموت منفيًا أثناء إحدى المعارك. ويبدو أن القاتل قد سخر من الرجل المحتضر في آخر لحظات حياته قائلاً بان النبي قد تنبأ له بأنه سوف يرتكب وشيكاً جريمة قتل مستبشعة. وقد وقع محيي قراءة الكف، وهو أنتيوكو تيبيرتو Antioeo Tiberto من

تشييسينا^(١١٢) Cesena، ضحية لنهاية تعسة أيضاً على يد باندولفو مالاتستا من ريمينى، الذى تَنَبَّأ له بأسوأ مصير يستطيع طاغية مستبد أن يتصوره - وأعنى بذلك موته منفياً وفى أدق درجات الفقر المحزنة. وكان تيبيرتو رجلاً وُهَبَ الذكاء، كان المفروض أن يرد بإجاباته أقل مطابقة لأية قراءة كف منهجية منها بفضل معرفته الحقيقية بطبائع البشر؛ كما أن ثقافته العالية أكسبته احترام أولئك العلماء الذين لم يعيروا إلا أقل الاهتمام لتنبؤاته^(١١٣)

وفى الخاتمة، لم تلعب الكيمياء القديمة، التى لم تُذكر فى العصور العتيقة إلا فى عهود متأخرة تماماً تحت حكم الإمبراطور دقلديانوس Diocletion، إلا دوراً ثانوياً إبان أفضل فترات عصر النهضة^(١١٤) لقد أصيبت إيطاليا بذلك الداء فى عهد أبكر، عندما اعترف بترارك فى القرن الرابع عشر فى تفنيداته ضدها ومعارضته لها، أن صنع الذهب كان شيئاً يمارسه الناس عامة^(١١٥) ومنذ ذلك الحين، أصبح ذلك النوع المعين من الإيمان، وهو الإخلاص والانعزال الذى كانت تتطلبه ممارسة الكيمياء، شيئاً أندر وأندر فى إيطاليا؛ وكان ذلك بالضبط يوم شرع المكرة والمهرة من الإيطاليين وغيرهم فى أن يجنوا مكاسبهم الكاملة ممتصين إياها من كبار أمراء الشمال^(١١٦) حتى إذا وافى عهد ليو العاشر كان القلة من الإيطاليين الذين يشغلون أنفسهم بها يسمون باسم النابغين العجيبين^(١١٧) ingeniacuriosa. كما أن أوريليو أوجيوريللو Aurelio Augurello الذى أهدى إلى البابا ليو العاشر، المحتقر الأعظم للذهب، قصيدته التعليمية التى تدور حول صنع المعدن، يقال أنه تلقى فى مقابلها كيساً جميلاً ولكنه خاوٍ. وإن ذلك العلم المستيقى الصوفى الذى كان يهدف، فضلاً عن الذهب، للحصول على "حجر الفلاسفة" القوى القاهر الجبار، إنما هو تطور جديد شمالي متأخر، ذلك الذى بدأ بدايته فى نظريات باراسيلسوس Paracelsus وآخرين غيره.

الفصل الخامس

شيوخ التفكك في العقيدة

وإلى جوار هذه الخرافات، ومعها طرق التفكير العتيقة بوجه عام، يقف فى أوثق ارتباط^(١) متين انحدار الاعتقاد فى الخلود. ولهذه المسألة أعمق العلاقات وأوسعها بمجموع التطور الذى ألم بالروح العصرية.

وهناك مصدر كبير للشك فى الخلود هو الرغبة الجوانية التى تخامر الناس ليكونوا غير واقعين تحت أى التزام نحو الكنيسة البغيضة. وقد رأينا أن الكنيسة كانت تحرم كل أولئك الذين أحسوا إحساس الأبيقوريين واعتنقوا مذهبهم (القسم السادس، الفصل الرابع). ولا مرأء أنه فى ساعة الاحتضار كان الكثيرون يطلبون أداء المراسم الدينية الأخيرة، بيد أن جماهير غفيرة من الناس كانوا فى أثناء حياتهم، وبخاصة فى غضون سنوات تمتعهم بغاية القوة والعافية، يعيشون ويتصرفون نحو الدين بطريقة سلبية محضة. فأما كون عدم الاعتقاد وتطبيقه على هذه النقطة الخاصة المعينة لا بد أن يؤدى فى غالبية الأحيان إلى انتشار التشكك بين الناس، فأمر واضح فى حد ذاته، كما يشهد به شواهد وأيات تاريخية وفيرة. وهؤلاء هم الرجال الذين يتحدث عنهم أريوستو فيقول: " إن إيمانهم لا يرتفع إلى أعلى من السقف"^(٢) وكان من الممكن فى إيطاليا، وبخاصة فى فلورنسا، أن يعيش المرء عيش الملحد الصراح وسى السيرة لو أنه امتنع فقط عن إتيان أفعال عدائية نحو الكنيسة^(٣) فإن قسيس الاعتراف مثلاً، الذى أرسلوا به ليعد مجرماً سياسياً لملاقاة الموت، بدأ حديثه معه بسؤاله هل هو مؤمن؟ وذلك لأنه كان هناك بلاغ كاذب بأنه لا إيمان له على الإطلاق^(٤)

وهنا كان الأثم التعس المشار هنا إليه - وهو نفسه بيترو باولو بوسكولى الذى ذكرناه آنفاً (المجلد الأول، القسم الأول، الفصل السادس) - الذى اشترك فى ١٥١٣ فى محاولة للثورة على الأسرة المعادة حديثاً إلى العرش وهى أسرة مديتشى، مرآة صادقة للاعتراف الدينى الشائع فى ذلك الزمان. لقد بدأ حياته نصيراً لساقونارولا، ثم تملكته فيما بعد حماسة متوقدة للمثل الأعلى العتيق للحرية، وللوثنية على وجه الجملة؛ ولكن عندما كان فى السجن استرد أصحابه القدماء تمكنهم من تفكيره وحصلوا له على ما كان يعدونه خاتمة حافلة بالتقى. ومن حسن الحظ أن الشاهد الرقيق والراوية الناقل لساعاته الأخيرة كان رجلاً من أسرة ديلا روييا الفنية، وهو لوكا العلامة فى فقه اللغة. وتأنه بوسكولى قائلاً: "آه... أخرجوا بروتس من رأسى، حتى أستطيع أن أمضى فى طريقى بوصفى مسيحياً". فاجابه لوكا قائلاً: "لو شئت...! ليس ذلك بالأمر الصعب؛ وذلك لأنك أعلم الناس بأن هذه الأقوال والوصايا المنثورة عن الرومان لم تُسَلَّم إلينا كما كانت تماماً، بل وصلت فى صورة مثل متمثلة [con arte ac- cresciute] ويرغم التائب النادم الآن فهمه على الإيمان، وينعى عليه عجزه عن الإيمان بمحض إرادته. فلو أنه استطاع فحسب أن يعيش شهراً واحداً مع رهبان أنقياء، فإنه سوف يكون لا ريب ذا ميول روحية. ونتيجة لذلك يتبين أن هؤلاء المشايخين لساقونارولا يعرفون كتابهم المقدس معرفة معيبة جداً؛ فبوسكولى مثلاً لا يستطيع أن يقول إلا الصلاة الربانية Paternoster والسلام المريمى AveMaria ، كما أنه بجدية تامة يرجو لوكا أن يحض أصدقاءه على دراسة الكتابات المقدسة، إذ أن ما يتعلمه الرجل فى حياته إن هو إلا ما يملكه فى دار الموت. وعندئذ يقرأ له لوكا ويفسر قصة "آلام المسيح" كما وردت فى إنجيل متى؛ ومن عجب أن المستمع المسكين كان يستطيع أن يدرك بوضوح ألوهية المسيح، ولكن كانت تحيره ناسوتيته؛ ولذا فهو يريد أن يتمكن منها تمكناً وثيقاً كأنما خرج إليه المسيح لمقابلته من إحدى الغابات. وعندئذ يحثه صديقه أن يكون متواضعاً، وذلك نظراً لأن هذا لم يكن سوى شك أرسله إليه الشيطان. وبعد ذلك بزمان يسير، خطر ببال "النادم" أنه لم يف بذر نذره فى شبابه أن يؤدي الحج إلى الإمبرونيتا Impruneta ، ويعدده صديقه أن يقوم بدله بالوفاء بذلك النذر. وفى الحين نفسه يصل كاهن الاعتراف - وهو راهب من دير ساقونارولا، كما كان مرغوباً - فراح

بعد إعطائه التفسير المقتبس أعلاه لرأى القديس توماس الأكويني فى القضاء على الطفيلان، يحثه أن يتحمل الموت برجولة. ويقدم بوسكولى الجواب فيقول: "يا أبتاه لا تضيع وقتك فى هذا الأمر؛ فقد علمنى الفلاسفة ذلك من قبل؛ فساعدنى على تحمل سكرات الموت حباً فى المسيح". فأما ما أعقب ذلك - التناول ، والوداع، وتنفيذ حكم الإعدام - فشئء جرى وصفه بطريقة مؤثرة جداً. على أن هناك نقطة تستحق أن تُذكر ذكراً خاصاً. فعندما وضع بسكولى رأسه على كتلة الخشب رجا الجلاد أن يؤخر الضربة القاضية لحظة واحدة:

**«لقد ظل أثناء المدة كلها منذ إعلان الحكم، يحاول الاتحاد الوثيق بالله،
دون بلوغ تلك الغاية، كما اشتهى، والآن فى هذه اللحظة الرفيعة
القوى نراه يرى أنه ببذل جهد قوى يستطيع أن يسلم نفسه تماماً لله».**

ومن الواضح أن ما أربكه تعبير لساقونارولا غير مفهوم تمام الفهم.

فلو كان لدينا اعترافات من هذا القبيل أكثر عدداً لزادت الصورة الروحية لذلك الزمان غنى وجزالة بفضل كثير من الملامح المهمة التى لم تقم قصيدة شعرية ولا أطروحة بحفظها لنا. وينبغى أن نرى بوضوح أكثر كم كانت الغريزة الدينية الفطرية قوية، وكم كانت علاقة الفرد بالدين ذاتية ومتغيرة، وأى أعداء ومناقسين أقوياء يقفون للدين بالمرصاد. فأما كون الرجال الذين حالتهم الباطنية هى من هذا الطبع ليسوا هم الرجال الذين اكتشفوا أن قيام كنيسة جديدة أمر ممكن وواضح؛ ولكن تاريخ الروح الغربية لا بد أن يبدو عديم الكمال بدون توجيه نظرة إلى تلك الفترة من التخمير بين الإيطاليين، وذلك بينما أمم أخرى، ممن لم يكن لهم نصيب فى تطور الفكر، يمكن تجاوزها دون أية خسارة تمسنا. على أننا ينبغى أن نعود إلى مسألة الخلود.

وإذا كان عدم الإيمان فى هذا الاتجاه تقدم ذلك التقدم الشديد بين ذوى الطبائع الأعلى تثقيفاً، فالسبب يرجع جزئياً إلى أن كون العمل الأرضى العظيم، ألا وهو اكتشاف العالم وتمثيله بالكلمة والشكل، امتص معظم الملكات الروحية الأعلى شأنًا. وقد أسلفنا إليك (القسم السادس، الفصل الثالث) الحديث عما لم يكن منه بد من دنيوية عصر النهضة. بيد أن هذا البحث وهذا الفن كانا بالضرورة مصحوبين بروح

عام من التشكك والتحرى. فإن كان هذا الروح لا يتبدى فى الأدب إلا قليلاً، أى أننا مثلاً لا نجد إلا أمثلة منعزلة لبدايات ألوان النقد للكتاب المقدس (القسم السادس، الفصل الثانى)، لم يجز لنا أن نستنتج من ذلك أن النقد لم يكن له وجود. ولم يقض على صوته ويخفته إلا الحاجة إلى قلم يدبجه ومبدع يخلقه فى جميع الاتجاهات والشعاب - أعنى على يد الغريزة الفنية المبدعة؛ كما أن مما عوقه أكثر، كلما حاول التعبير عن نفسه تعبيراً نظرياً، الاستبداد القائم فعلاً الذى تمارسه الكنيسة. وروح الشك الفذة، لأسباب أوضح من أن تحتاج إلى بحث ومناقشة، لا بد أنها دون أدنى ريب وبصورة رئيسية قد شغلت نفسها بمسألة حالة الإنسان بعد الموت.

وهنا دخل مفعول العصر العتيق، وفعل فعله فى الجدل بطريقة مزدوجة. ففى المقام الأول دفع الرجال بأنفسهم حتى يتمكنوا من علم نفس الأقدمين، وظلوا ينزلون العذاب والنقمة برسالة أرسطو التماساً لإجابة قاطعة فى ذلك الموضوع. ففى أحد الحوارات اللوكيانية^(٥) Lucianic dialogues الشائعة فى ذلك الزمان يُبلغ شارون ميركيورى كيف ساءل أرسطو عن اعتقاده فى الخلود عندما كان الفيلسوف يعبر بالزورق الاستيجى stygian أى الاسطقسى الجهنمى؛ ولكن الحكيم الحصيف وإن كان ميتاً جسده ومع ذلك عائشاً باقياً باستمرار، امتنع عن توريط نفسه فى إجابة محددة - ثم بعد قرون عديدة، كيف سيتسنى له أن يصيب نجاحاً مع تفسيرات كتابه؟ وبتلهف أكبر وأعظم كان الناس يتنازعون فى رأيه ورأى غيره حول الطبيعة الحقة للروح، وأصلها ووجودها السابق، ووحدتها فى الناس جميعاً، وأبديتها المطلقة، بل حتى تحولاتها؛ وكان من الناس من يعالجون هذه الأمور من فوق المنبر^(٦) وظل النزاع متواصلًا بحرارة فى القرن الخامس عشر؛ ومنهم من أثبت أن أرسطو علمَ الناس مذهب النفس الخالدة^(٧)؛ وشكى بعضهم الآخر من قسوة وشدة قلوب الناس، الذين يابون أن يعتقدوا أن هناك روحاً على الإطلاق حتى يروها جالسة على كرسى أمامهم^(٨)؛ ويستعرض فيليفو، فى خطاب الجنازة الذى ألقاه على جثمان فرانشيسكو سفورزا، قائمة طويلة من آراء الأقدمين بل حتى الفلاسفة العرب، تأييداً للخلود، ثم يختم ذلك الخليط، الذى يغطى صفحة مخطوطة كاملة ونصفاً^(٩) من الطباعة، بهذه الكلمات: 'والى جوار ذلك كله فإن بين أيدينا الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، اللذين هما فوق كل صدق'. ثم جاء

الأفلاطونيون الفلورنسيون مع مذهب أستاذهم فى الروح، تكمله فى بعض الأحيان، كما فى حالة بيكو، التعاليم المسيحية. بيد أن الرأى المناقض كان هو السائد فى العالم المتعلم. وعند بداية القرن السادس عشر بلغ من خطورة العائق أى حجر العثرة الذى وضع فى طريق الكنيسة أن البابا ليو العاشر أنشأ دستوراً^(١٠) فى مجلس اللاتيران فى ١٥١٣ فى الدفاع عن خلود الروح وتفردتها. وكان الثانى موجهاً على كل من يذهب إلى أنه ليس هناك إلا روح واحدة فى الناس جميعاً. وبعد ذلك بسنوات قليلة ظهر عمل بومبوناتزو، وهو كتاب أوضح استحالة إقامة برهان فلسفى على الخلود؛ وعندئذ أصبحت نار الصراع مشبوبة بغير نهاية مع تبادل الإجابات والاعتذارات والاحتجاجات، حتى أخذها رد الفعل الكاثوليكى. ولا جرم أن التواجد المسبق للروح فى الله، الذى يُتصور إلى حد ما وفق أفلاطون فى نظريته حول الفكرات، ظل طويلاً معتقداً شائعاً بين الناس، وأثبت فائدته حيث خدم حتى الشعراء^(١١) أنفسهم. والعواقب التى نتجت عنه لم تلق تأملاً أعمق.

وكانت هناك طريقة أخرى استطاع بها العصر القديم أن يكون صاحب أثر محسوس، وذلك بوجه رئيسى بواسطة تلك الجزئية الأخاذة فى الكتاب السادس من جمهورية شيشرون Cicero's Republic المعروفة باسم "حلم سكيبيو". Scipio's Dream" فلولا وجود تعليق ماكروبيوس Macrobius فالأرجح أنها كانت تهلك وتذهب أدراج الرياح كما ذهب بقية الجزء الثانى من العمل؛ فأما عند ذاك فإنها، أى الجزئية، كانت منتشرة فيما لا يحصى من المستنسخات المنسوخة^(١٢)، كما أنها بعد اكتشاف الطباعة ظهرت فى صورة مطبوعة، كما صدرت من جديد على يد معلقين متعددين. إنها وصف حياة أخروية متسامية الصورة للعظماء من الرجال، يشوبها ما يملأ الأكوان من انسجام. لقد جاءت خطوة فخطوة، هذه السماء الوثنية التى كانت تقطف وتضم لها بالتدرج شهادات ووثائق أخرى كثيرة مقتبسة من كتابات الأقدمين، جاءت لتحل محل السماء المسيحية بنفس النسبة التى كان بها المثل الأعلى للشهرة والعظمة التاريخية يلقى إلى الظل المثل الأعلى للحياة المسيحية، نون أن يتأثر، رغم ذلك، الشعور الشعبى من جراء ذلك بأى تكرر كما تكرر من مبدأ العدم بعد الموت. بل لقد بلغ الأمر ببتاراك نفسه، أن يؤسس رجاءه وأمله على حلم سكيبيو، أى على التصريحات الموجودة فى

أعمال أخرى لشيشرون، وعلى أفلاطون في كتابه فايدو Phaedo ، دون أى ذكر للكتاب المقدس^(١٣) وهو يتساءل بموضع آخر: "لماذا لا يجوز لى ككاثوليكي أن أشارك فى أمل من الجلى أنه كان معزراً لدى المؤمنين؟" وسرعان ما كتب كولوتشيوس ساليوتاتى Coluc- cio Salutati بعد ذلك كتابه "هموم هرقل" Laboursof Hercules (الذى لا يزال موجوداً فى نسخة خطية)، وفيه يثبت فى آخر الكتاب أن ذلك الرجل الباسل الذى تَحَمَّلَ جيداً تلك المشاق العظيمة التى تنطوى عليها الحياة الدنيوية، يحق له عدلاً أن يسكن بين النجوم^(١٤) وإذا كان دانتى يرى فوق هذا بإصرار أن الوثنيين العظام، الذين ما كان إلا ليرحب بهم بسرور تام فى الفردوس، لا ينبغى بهم مع ذلك أن يتجاوزوا الشفير- Ilm- bo القائم عند مدخل جهنم^(١٥)، فإن قصيدة له لتعود إلى زمن أواخر تتقبل بجذل وسرور الفكرات التحررية الجديدة عن حياة مستقبلية فى الآخرة. وقد لقي كوسيمو الأكبر، حسبما تروى قصيدة برنادو بولشى عند وفاته، استقبلاً فى السماء من شيشرون، الذى سُمى أيضاً "أبا بلاده"، على يد الفابيين Fabbi ، كما استقبله كيوريوس Curius وفابريتشيوس Fabricius ، وكثيرون غيرهم؛ وأنه ليزين الجوقة بهم التى لا يترنم فيها إلا كل من خلا من لائمة تلام^(١٦)

ولكن توجد لدى الكتاب القدماء صورة أخرى أقل جلباً للسرور عن العالم الآتى- وهى الديار الظليلة لهوميروس وللشعراء الآخرين الذين لم يبتثوا فى الفكرة المتصورة حلوة روح ولا إنسانية. فإن ذلك كان له أثره فى بعض الأمزجة. وإنك لترى چوفيانو بونتانو فى بعض مظاهره ينسب إلى سائنازارو Sannazaro قصة رؤيا رآها فى بكرة صباح أحد الأيام، وهو نصف متيقظ^(١٧) وفيها خيل إليه أنه يرى صديقاً راحلاً، هو فيراندوس چانوارىوس Ferrandus Januarius ، وهو إنسان طالما تناقش وإياه حول خلود الروح، وما هو ذا الآن يسأله : إن كانت آلام جهنم رهيبه حقاً وأبدية. ويجيب الشبح إجابة تشبه إجابة أخيل Achilles عندما سأله أوديسيوس : "ما أكثر ما أقول لك وأؤكد، إننا نحن الذين نفارق الحياة الأرضية يداخلنا أقوى رغبة فى العودة إليها ثانية". وعندئذ حياً صديقه وانصرف.

وهنا لا يسعنا إلا أن ننتبين أن مثل وجهات النظر هذه عن حالة الناس بعد الموت، إنما هي جزئياً تتوقع مقدماً، ومن ناحية جزئية أخرى تؤيد، التصفية النهائية لأشد مبادئ بوجمات Dogmas العقيدة المسيحية جوهرية. وعندئذ لابد أن تكون تبخرت تماماً فكرنا الخطيئة والخلاص. وينبغي ألا تضللنا مؤثرات وعاط الندم الكبار ولا الانتعاشات المعاودة التي تشبه الأوبئة، وهي التي وصفت أعلاه (القسم السادس، الفصل الثاني). وذلك أنه حتى لو فرض أن الطبقات المتطورة بطريقة فردية قد شاركت فيها شأن بقية الطبقات، فإن سبب مساهمتها كان فيما يُرجح هو الحاجة إلى التهيج الوجداني، ورد فعل الطبائع المهتاجة، والرعب الذي يشعر به الناس عند نزول الكوارث الكبيرة، وصيحات الناس إلى السماء يطلبون العون. ولم يكن تيقظ الضمير منطوياً بأية حال على معنى الخطيئة والشعور بحاجة ماسة ومحسوسة إلى الخلاص نتيجة لها، كما أنه حتى الإنابة الظاهرية بالغة الشدة لم يكن لزاماً أن تنطوي على أي ندم بالمعنى المسيحي للكلمة. وعندما يبلِّغنا نوو الطبائع القوية من أبناء عصر النهضة أن مبدأهم هو عدم الندم من أي شيء^(١٨)، فربما لم يكن يملأ عقولهم إلا مسائل لا قيمة لها خلقياً، مثل أخطاء عدم إصابة التفكير أو عدم التبصر والحماقة؛ ولكن الذي يجري مع طبيعة الوضع أن هذا الاحتقار للندم ينبغي أن يمتد إلى دائرة الأخلاق، وذلك لأن الأصل فيه - وأعني بذلك الشعور الواعي بالقوة الفردية - شيء شائع في جانبي الطبيعة البشرية كليهما. إن الشكل السلبي والتأملى للمسيحية، بما حوى من إشارة لا تنقطع إلى عالم أعلى وراء القبر والموت لم يعد يستطيع بعد التحكم في هؤلاء الرجال. على أن ماكياثيللي تجرأ فأقدم أكثر وأبعد، وزعم بأنه لا يعود على الدولة بالنفع ولا على الحفاظ على الحريات العامة بالفائدة^(١٩)

غير أن الشكل الذي اتخذته الغريزة المسيحية القوية والذي ما انفك، رغم كل شيء، يعيش في كثير من الطبائع، إنما كان هو الإيمان بالإله theism على أساس التوحيد أو مذهب الربوبية deism بغير نظر إلى التنزيل، حسبما يرضينا أن نسميه. والاسم الثاني أعني مذهب الربوبية يمكن إطلاقه على تلك الشاكلة من الفكر التي محت ببساطة تامة العنصر المسيحي من الدين دون البحث عن، أو الوصول إلى، أي بديل آخر له لكي تستقر عليه المشاعر. ويمكن اعتبار الإيمان بالإله على أساس التوحيد إنه

ذلك الحب المحدد المصعد لذلك الكائن الأسمى الذى لم تكن تعرفت إليه العصور الوسطى. على أن هذا النهج من الإيمان لا يقصى المسيحية، كما أنه مستطيع إما أن يتحالف ومذاهب الخطيئة فى المسيحية، فضلاً عن مذهبي الخلاص والخلود، وإلا فإنه عائش ومزدهر بدونهن جميعاً.

وقد يحدث أحياناً أن يجلى هذا المعتقد نفسه أمام المشاهد بسذاجة طفلية naïvete ، بل حتى يبدو فى ظل جو نصف وثنى، حيث يبدو الإله كأنما هو المنقذ القادر على تلبية الرغبات الإنسانية. ويخبرنا أجنولو باندولفينى^(٢٠) كيف أنه بعد عقد زواجه أغلق على نفسه هو وزوجته الباب ، وركع أمام مذبح العائلة الحاوى على صورة السيدة العذراء، وأخذ يصلى، لا للعذراء، بل لله، داعياً أن يمنحهما القدرة على حسن الاستعمال لممتلكاتهما ، وأن يمد فى عمرهما فى بهجة وسرور، ويوفق بينهما ويمنحهما كثرة الذكور فى نسلهما : 'فأما عن نفسى فإنى دعوت راجياً أن أُمْنَح الثراء والشرف والأصدقاء، كما دعوت لها بالبراءة من كل لائمة، والأمانة، وأن تكون ربة بيت ماهرة'. وعندما تنطوى اللغة المستعملة على مذاق عتيق قوى لا يكون من السهل دائماً التفريق بين الأسلوب الوثنى والمعتقد الإيمانى التوحيدى^(٢١)

وقد يتجلى هذا المزاج نفسه أحياناً فى لحظات الملمات مع إخلاص أخاذ. فإن بعض الأدعية إلى الله بقيت لنا منذ الفترة الثانية لفيرنزولا، عندما حدث أنه أصيب بمرض الحمى الذى ألزمه الفراش سنوات وفيها - وإن كان يعلن بوضوح عن نفسه أنه مسيحي مؤمن - فإنه يبدى أن وعيه الدينى إنما هو بالضرورة الإيمان التوحيدى^(٢٢) وتبدوله الآمه لا بوصفها عقوبة على الخطيئة، ولا كأعداد له لعالم أعلى؛ إنها شأن بينه وبين الله فقط، الذى وضع الحب القوى للحياة حائلاً بين الإنسان ويأسه. 'إنى لألعن، ولكنى لا ألعن إلا الطبيعة، وذلك لأن عظمتك تنهانى عن النطق باسمك... فهبنى الموت يا إلهى إنى أتوسل إليك هبه لى الآن!...'

وفى هذه الابتهالات وأمثالها، يكون من العبث البحث عن ربانية وتوحيد وعبائية ثابتة الديمومة أى صامدة؛ وكان الخطباء يعتقدون أنهم لا يزالون من المسيحيين، فكانوا من ثم لأسباب أخرى متنوعة يحترمون المبادئ القائمة للكنيسة. ولكن الذى حدث

فى عصر الإصلاح الدينى، يوم سيق الناس أن يصلوا إلى نتيجة وختام واضح ورأى نهائى حول مثل هذه النقاط، أن تم قبول هذا الطراز من التفكير بوعى أوفى؛ إذ تقدم إلى الأمام عدد من البروتستانت الإيطاليين بوصفهم مضادين للتثليث (antitrinitarian) (ians) وسوشينيون^(*) (socinians) ، بل حتى من كانوا منفيين فى أقطار أجنبية، فأقدموا على محاولة جريئة جديدة بالذكر لإقامة كنيسة على هذه المبادئ. وسيتضح من البيانات السابقة أنه بمعزل عن العقلانية الإنسانية كانت هناك أرواح أخرى تُجدُّ عاملة فى هذا المضمار.

وهناك مركز رئيسى لطرائق التفكير التوحيدية هو الذى تضمه الأكاديمية الأفلاطونية بمدينة فلورنسا، وبوجه خاص يضمه شخص لورنزو الفاخر نفسه. ويستبين لنا من الأعمال النظرية وحتى رسائل هؤلاء الرجال نصف طابعهم فقط، فحقيقى أن لورنزو، منذ شبابه حتى توفى، كان يعبر عن نفسه بطريقة دوجماتية كمسيحى^(٢٣)، وأن بيكو كان يجذبه تأثير ساقونارولا إلى تقبل وجهة نظر راهب زاهد^(٢٤). بيد أنه فى ترانيم لورنزو^(٢٥)، التى نُحسَّ إزاعها بإغراء يدعوننا إلى اعتبارها أعلى ثمرة لهذه المدرسة، فإن توحيداً لا تحفظ فيه قد بدأ نُشُوهُ وتجليه - هو توحيد يحاول أن يعامل العالم بوصفه كوناً عظيماً خلقياً وطبيعياً. وبينما أهل العصور الوسطى يرون فى العالم وادياً للدموع، ينهض فيه البابا والإمبراطور بالحيلولة دون ظهور المسيح الدجال، بينما الجبريون من أبناء عصر النهضة يترجعون بين فترات من الهمة والطاقة الفياضة وفترات من الخرافات أو الاستسلام الأخرق الغبى، فإن الذى جرى فى دائرة الأرواح هذه المختارة المنتقاة^(٢٦) أنهم يؤمنون بمذهب أن العالم المرئى قد خلقه الله، قد خلقه رب محب، وأنه نسخة من نموذج موجود فيه تعالى من قبل، وأنه سيظل محركه الأبدى الدائم ومعينه سيرته الأولى. وإن روح الإنسان لمستطيعه بإدراك الله والاعتراف به أن تجره تعالى إلى داخل حدودها الضيقة، كما أنها قادرة أيضاً بحبها له أن تقوم هى بالانبساط فى صميم اللانهائى - وهذه هى السعادة المباركة على الأرض.

(*) السوشينيون: أتباع مذهب السيولوجين الإيطالى لإيلوس وفانستوس سوشيبوس. (المترجم)

وهنا تفيض أصداء التصوفية المستيقية ، فإذا هي تيار واحد مع المذاهب الأفلاطونية ومع روح عصرية الخصيصة. وهنا تصل إلى درجة النضج واحدة من أثنى ثمرات المعرفة بالعالم والإنسان، وهي ثمرة تقوم على حسابها وحدها تلك الفكرة القائلة بأن عصر النهضة الإيطالي ينبغي أن يسمى "قائد العصور الحديثة".



شكل ٢٣٤ خلق آدم، لمايكل أنجلو
كنيسة السيستين، روما

هوامش المجلد الثاني

هوامش الفصل الأول ، القسم الرابع

(١) انظر لويجي بوسى Luigi Bossi, Vita de Cristoforo Colombo ، الذى يوجد فيه مخطط للرحلات والاكتشافات الإيطالية المبكرة، صفحات ٩١ وما بعدها. وعن مجموعة مطبوعة من الرسائل والفقرات من المونيات التاريخية المعاصرة التى تشير إلى اكتشاف العالم الجديد انظر the Raccolta di Documenti e Studi pubblicati dalla R. Commissione Colombiana pel Quatro Centenario della Scoperta dell' America, iii, 2, 1893 (15 folio vols., Rome, 1892-96).

(٢) انظر عن هذا الموضوع بحث بيرتز Pertz, Der älteste Versuch zur Entdeckung des See- megs nach Ostindien.. /Eneas Sylvius, Europa Status sub Frederico III Imp., cap. 44 (in Freher Scriptorum, ii, 87, ed. 1624). وعن اينياس سيلفيوس انظر بيشيل Peschel, op. cit., pp. 217 sqq.

(٣) انظر أ. بيشيل لسوفوس روج O. Peschel, Geschichte der Erdkunde, 2nd ed., by Sophus Ruge, pp. 209 sqq., et passim (Munich, 1877).

(٤) نشر فى Scritti di C. Colombo, ii, 205 (Rome, 1894).

(٥) وصحتها وأصالتها، مع ذلك، مشكوك فيها. - و. ج. W. G.

(٦) انظر Pii II Comment., lib. i, p. 14. ويظهر بوضوح أنه لم يعلق دائماً بطريقة صحيحة وأنه ملا الصورة من خياله، مثلاً، عندما وصف مدينة بازل (بال). ومع هذا كانت ميزته، بالرغم من ذلك، على الإجماع عظيمة. وعن وصف مدينة بازل انظر ج. فويجت G. Voigt, Enea Silvio, i, 228؛ وعن اينياس سيلفيوس كجغرافى انظر ii, 302-309. وانظر أيضاً Cf. i, 91 sqq.

(٧) استمرت إيطاليا فى القرن السادس عشر فى أن تكون موطن الأدب الجغرافى، فى وقت كانت الاكتشافات نفسها تنتمى تقريباً على وجه القصر إلى نول شاطئ الأطلنطى. وأنتجت الجغرافيا الوطنية فى منتصف القرن العمل العظيم الرائع لليوناردو ألبرتى Leonardo Alberi, Descrizione di Tutta l' Italia (1582). وفى النصف الأول من القرن السادس عشر كانت الخرائط متقدمة فى إيطاليا عن مثيلتها فى الدول الأخرى. انظر فيسر Wieser, Der Portulan des Infanten Philipp II von Spanien فى

Sitzungsberichte der Wien. Acad. Phil. Hist. Kl., Bd. 82, pp. 541 sqq. (1876).
Oscar Peschel, الخرائط ورحلات الاكتشافات الإيطالية المختلفة انظر العمل الممتاز لأوسكار بيشيل,
Cf. inter alia, Ber- وانظر أيضاً Abhandl. Zur Erd-und Vökerkunde (Leipzig, 1878).
chet, Il Planisfero de Giovanni Leandro del' Anno 1452 fa-simil nella Grandezza
Cf. Voigt, انظر أيضاً فويجت, del' Original Nota Illustrativa, 16 S. 40. (Venezia, 1879).
ii, 516, and G. B. de Rossi, Piante Iconografiche di Roma Anteriori al Secolo XVI
Cf. Flavio Bi- وعن محاولة بترارك رسم خريطة لإيطاليا انظر أيضاً فلافيو بيوننو-
ondo, Italia Illustrata, ed. Basil., pp. 352 sqq., Also Petr. Epist. Var. LXI, ed. Fra-
cassetti, iii, 476. وتوجد محاولة رائعة لعمل خريطة لأوروبا وآسيا وأفريقيا على وجه ميدالية لشارل
الرابع من أنجو، نفذها فرانتشيسكو دا لورانا Francesco da Laurana في ١٤٦٢ .

هوامش الفصل الثاني ، القسم الرابع

- (١) انظر ليبرى ، *Paris, Histoire des Sciences Mathématiques en Italie* (4 vols., Paris, 1838).
- (٢) لإبداء حكم قاطع على هذه النقطة ، فإن نمو عادة جمع الملحوظات، فى غير العلوم الحسائية، قد يحتاج إلى توضيح تفصيلي. ولكن هذا يقع خارج حدود مهمتنا.
- (٣) انظر ليبرى فى المرجع المشار إليه . op. cit., ii, pp. 174 sqq. وانظر أيضاً بحث دانتي De Aqua et Terra، وو. شميت *W. Schmidt, Dante Stellung in der Geschichte der Kosmographie* (Graz, 1876). والفقرات التى تمت بصلة إلى الجغرافيا والعلوم الطبيعية من التينيدو لبرونيتو لاتيني -Te soro of Brunotto Latini مطبوعة منفصلة، فى *Il Trattato della Sfera di S. Br. L.* على يد بارت. سوريو *Bart. Sorio (Milan, 1858)* ، الذى أضاف نظام برونيتو لاتيني لتاريخ علم التاريخ.
- (٤) انظر سكارديونيوس *Scardeonius, De Urb. Patav. Antiq., in Gráv., Thesaur. Ant. Ital., tom. vi, Pars III, col. 227.* ومات ألبانو فى ١٣١٢ خلال التحقيق؛ وتم إحراق تمثاله. وعن جيوفانينو سانجويوناتشى *Giovannino Sanguinnacci* انظر . op. cit., col. 228. Sqq. وعنه انظر أيضاً فابريشسيوس *Sprenger in Cf. Fabricius, Bibl. Lat., s.v. Petrus de Apono.* وانظر سيرنجر *Esch. U. Gruber, i, 33.* وقد ترجم (١٢٩٢-١٢٩٣) أعمالاً فلكية لأبراهام ابن عزرا *Abraham ibn Esra* ، وطبعت فى ١٥٠٦ .
- (٥) انظر أسفله، القسم الرابع، الفصل الثاني.
- (٦) انظر الشكاوى المبالغ فيها لليبرى *op. cit., ii, pp. 258 sqq.* وعلى الرغم من أنه مما قد يؤسف له أن شعباً نو مواهب عالية مثل هذا لم يكرس جزءاً من قوته إلى العلوم الطبيعية، فنحن مع ذلك نعتقد أنه سعى، وجزئياً حقق، غايات أهم كثيراً.
- (٧) عن الدراسات على الأخير فى إيطاليا ، انظر أيضاً الأبحاث الدقيقة على يد ك. مالاجولا *C. Malagola* فى عمله عن كودروس أورسيوس *Codrus Orceus (cap. vii, 360-366, Bologna, 1878)*.
- (٨) وقد خطط الإيطاليون أيضاً حدائق النباتات فى الدول الأجنبية - مثلاً، أنجيلو من فلورنسا، وهو معاصر لبترايك، فى براغ (فريديونج *Friedjung, Carl IV, p. 311, note 4.*).
- (٩) انظر *Alexandri Bracii Descriptio Horti Laurentii Med.* الذى طبع على هيئة الملحق رقم ٨ لعمل روسكو *Lorenzo de' Medici* ويمكن أن يعثر عليه أيضاً فى الملحق لعمل فابروني *Lauren-tius*.

- (١٠) انظر Mondanatii Villa المطبوع في Poemata Aliqua Insignia Illustr. Poetar. Recent..
- (١١) عن حديقة الحيوان في باليرمو في عهد هنري الرابع انظر أوتو دي س. بلاسيو Otto de S. Blasio، عن عام ١١٩٤ Bahmer, Fontes, iii, p. 623 ؛ وكذا تلك الخاصة بهنري الأول ملك إنجلترا في منتزه وودستوك (ويليام من مالمسبري، صفحة ١٢٨) كانت تحتوى أسوداً ونموراً وشيهاً (وهو حيوان من القوارض)، وكلها هدايا من أمراء أجانب.
- (١٢) هكذا كان يسمى، سواء ملوناً أو محفوراً على الحجر، "Marzocco" وفي بيزا كان يتم الاحتفاظ بالصقور. انظر المُعَقَّبُون على "الجحيم" لدانتى. Inferno, xxiii, 22. وانظر النسور في الديكاميرون لبوكاتشيو Decamerone, v, 9. وانظر عن الموضوع بأجمعه delle Infermità degli Uccelli, Testi de Lingua Inediti (Rome, 1864). وهي أعمال من القرن الرابع عشر، من الممكن أنها مترجمة عن الفارسية.
- (١٣) انظر القتطف من Ægid. Viterb. في باينكورت Papencordt, Gesch. Der Stadt Rom im Mittelalter, p. 367, note مع حادثة عام ١٢٢٨، وكانت المعارك بين الحيوانات البرية وبعضها ومع الكلاب تستخدم لتسلية الجماهير في المناسبات الكبيرة. ففي حفل استقبال بيوس الثاني وجالياتزو ماريا سفورزا في فلورنسا في ١٤٥٩، تم إخراج الثيران والخيل والخنائير البرية والكلاب والأسود وزرافة في ساحة مفلقة، ولكن الأسود رقدت ورفضت مهاجمة الحيوانات الأخرى. انظر أيضاً Cf. Ricordi di Fi- Vita renze, Rer. Ital. Script. Ex Florent. Codd., tom. ii, col. 741. وهناك بيان مختلف في Voigt, Enea Silvio, iii, pp. 40 sqq.. وانظر فويجت Pii II, in Murat., iii, ii, col. 977. السلطان المملوكي قايتباي زرافة ثانية إلى لورنزو الفاخر. انظر أيضاً باول. چوڤيوس Paul. Jovius, Vita Leonis X, lib. i. وفي معرض حيوانات لورنزو كان هناك أسد عظيم مشهور بصفة خاصة، وعد هلاكه على يد الأسود الأخرى نذيراً بموت صاحبه.
- (١٤) انظر جيوفاني فيلاني Gio. Villani, x, 185; xi, 66. وانظر ماتيو فيلاني Matteo Villani, iii, 90; v, 68. وكان يعتبر نذيراً سيئاً لو أن الأسود تقالت، وأسوأ لو أنها قتلت بعضها الآخر. انظر أيضاً شاركي Cf. Varchi, Stor. Fiorent., iii, p. 143. ويخصص ماتيو فيلاني الفصل الأول من الفصلين المكتسبين لإثبات (١) أن الأسود كانت تولد في إيطاليا، و (٢) أنهم كانوا يجيئون إلى الدنيا أحياء.
- (١٥) انظر Cron. Di Perugia, Archiv. Stor., xvii, ii, p.77, year 1497. وقد هرب زوج من الأسود مرة من بيروجيا؛ ibid. xvi, i, p. 382, year 1434. فلان فلورنسا، على سبيل المثال، أرسلت إلى الملك فلاديسلاف ملك بولندا (في مايو ١٤٠٦) زوجاً من الأسود - ut utriusque sexus animalia ad pro-creandos catulos haberetis". ورجل العولة المرافق كان مسلحاً عندما كتب في وثيقة رسمية: Sunt equidem hi leones Florentini, et satis quantum natura promittere potuit mansueti deposita feritate, quam insitam habent, hiqu in Gætulorum regionibus nascuntur et Indorum, in quibus multitudo dictorum animalium evalescit, sicuti prohibent naturales. Et cum leonum complexio sit frigoribus inimica, quod natura sagax ostendit, natura in regionibus æstu ferventibus generantur, necessarium

est, quod vostra serenitas, si dictorum animalium vitam et sobolis propagationem, ut remur, desiderat, faciat provideri, quod in locis calidis educentur et maneant. Conveniunt nempe cum regia majestate leones quoniam leo græce latine rex dicitur. Sicut enim rex dignitate potentia, magnanimitate ceteros homines antecellit, sic leonis generositas et vigor imperterritus animalia cuncta præsit. Et sicut rex, sic leo adversus imbecilles et timidos clementissimum se ostendit, et adversus inquietos et tumidos terribilem se offert animadvrsione justissima"- Cod. Epistolarius Sæculi. Mon. Med. Ævi Hist. Res Gestas Poloniae Illustr., p. 25 (Karakau, 1876).

(١٦) انظر جاي Gaye, Carteggio, i, p. 422, year 1291. واعتاد آل فيسكونتي إن يدرّبوا النمر لصيد الأرنب البرية، حيث كانوا يخرجونها من مخابئها بواسطة الكلاب الصغيرة. انظر كوبييل Kopel, Wildanger, p. 247. حيث تُذكر أمثلة لاحقة للصيد بالنمر.

(١٧) انظر Strozii Poete, p. 146, De Leona Borsii Ducis. ويُبقي الأسد على الأرنب البري والكلب الصغير، مقلداً، وهكذا يقول الشاعر، سيده. انظر أيضاً fol. 188. الكلمات "et inclusis" in leporarii ingressu" ، وهي إبيجرامة من أربعة عشر سطراً "quam maximi" ، وانظر المصدر نفسه عن منتزه الصيد.

(١٨) انظر Cron. Di Perugia, loc. cit., xvi, ii, p. 199. ويعثر على شيء من نفس القبيل في بترايك De Remed. Utriusque Fortunæ, i, 61 ، ولكن معبراً عنه بطريقة أقل وضوحاً. وهنا يفاخر جوديويم Gaudium ، في المحادثة مع راتيو Ratio ، بامتلاكه القروء Ludicra animalia.

(١٩) انظر چوفيانوس بونتانوس Jov. Pontan., De Magnificentia. وكان في حديقة حيوان كاردينال أكوليا، في ألبانو، في عام ١٤٦٢، طواويس وطيور هندية ومعيز سورية بأذان طويلة. انظر Pii II Com- ment., lib. xi, pp. 562 sqq..

(٢٠) انظر Decembrio, in Murat., xx, col. 1012.

(٢١) انظر برونيتي لاتيني Brunetti Latini, Tesoro, lib. i (ed. Chabaille, Paris, 1863). وفي زمن بترايك لم يكن هناك أفيال في إيطاليا. "Itaque et in Italia avorum memoria unum Frederico Romanorum principi fuisse et nunc Egyptio tyranno nonnisi unicum esse fama est" (De Rem. Utr. Fort., i, 60).

(٢٢) والتفاصيل المسلية جداً في بابل. چوفيويس Paul. Jovius, Elogia, حول ترستانوس أكويونيوس Rabelais، وعن الشياهم والنعام في بالاتزو (قصر) ستروتزي انظر رابليه Pantagruel, iv, chapter 11. وتلقى لورنزو الفاخر زرافة من مصر عن طريق بعض التجار Baluz., Miscell., iv, 416. والفيل المرسل إلى ليو بكاه الناس كثيراً عندما مات، ورُسمت صورته، وكتب بيرالدوس الأصغر أبيات شعر عنه.

(٢٣) انظر أيضاً باول. چوفيويس Cf. Paul. Jovius, Elogia, p 234 , متحدثاً عن فرانتيسكو جونزاجا. وعن الفخامة في ميلانو فيما يتعلق بهذا الموضوع انظر بانديلو Bandello, ii, Nov.3 and 8. وفى القصائد السردية نسمع أحياناً أيضاً رأى خبير فى الجياد. انظر أيضاً بولتشي Cf. Pulci, Mor-gante, xv, 105 sqq..

(٢٤) انظر باول. چوفيويس Paul. Jovius, Elogia, p 234 , متحدثاً عن Hipp. Medices, pp. 307 sqq..

(٢٥) لن تكون يضع ملاحظات عن الرق في إيطاليا خارجة عن الموضوع عند هذه النقطة. وتوجد فقرة قصيرة ولكنها مهمة في چوفيانوس بونتانوس "An homo, cum liber natura sit, domino parere debeat". Jov. Pontan., De Obedientia, lib. iii, cap. i: "أما في كل مكان آخر فقد كان حتى المسيحيين، بالإضافة إلى الشركاسة والبلغار يشترون من الأتراك ويرغمون على العمل حتى يكسبوا قيمة فديتهم. أما الزنوج فكانوا على العكس يظنون عبيداً؛ ولكنه لم يكن مسموحاً، على الأقل في مملكة نابولي، أن يتم خصيمهم. وكلمة مورو moro تعنى أى رجل ملون البشرة؛ وكان الزنجى يدعى moro nero. ويدعم فابروني بالوثائق فى Fabroni, Cosmos, Adnot. 110 بيع امرأة شركسية (١٤٢٧)؛ وفى Adnot. 141 يورد قائمة من النساء عبيد لكوسيمو. - ناتيبورتو Nantiporto, in Murat., iii, ii col. 1106. وتلقى إنوسنت الثامن مائة من الرجال المغارية Moors كهدية من فرديناند الكاثوليكي، ومنحهم إلى الكاردينالات وغيرهم من الرجال العظام (١٤٨٨). - مارسوتشيو Marsuccio يسجل بيع العبيد فى القصة ١٤ 14 Novelle؛ وفى القصص ٢٤ ٢٥، يسجل العبيد من الزنوج الذين كانوا أيضاً (من أجل مصلحة أسيادهم؟) يعملون facchini ، ويكتسبون حب النساء؛ والقصة ٤٨ عن رجال مغارية Moors من تونس خطفهم القطلونيون وتم بيعهم فى بيزا. - ويذكر جاي Gaye, Carteggio, i, 360 ، إعطاء وجائزة لعبد زنجى فى وصية فلورنسية (١٤٩٠). - ويذكر باول. چوفيويس Paul. Jovius, Elogia, sub. Franc, Sfortia؛ ويورتزو Porzio, Congiu- ra, iii, 194؛ وكومينيس Comines, Charles VIII, chapter 17 ، زنوجاً يعملون كجلادين و منفذى أحكام الإعدام لبيت أراجون فى نابولي. - ويذكر باول. چوفيويس Paul. Jovius, Elogia, sub. Ga- leatio زنوجاً كتابعين للأمير فى رحلاته. - ويذكر إينياس سيلفيوس Æneæ Sylvii, Opera, p. 456 ، زنوجياً يشتغل بالموسيقى. - ويذكر باول. چوفيويس Paul. Jovius, De Poscibus, cap. 3 ، زنوجياً W(حراً؟) يعمل غطاساً ومدرب سباحة فى جنوا. - ويذكر اسكندر بينيديكتوس Alex. Benedictus, De Carolo VIII, in Eccard, Scriptorum, ii, col. 1608 ، زنوجياً (إثيوياً /Ethiops) يعمل كضابط كبير فى البندقية، وطبقاً لذلك فإننا على حق فى أن نعتقد أن عطيل كان زنوجياً. - ويذكر بانديلو أنه عندما استحق عبد فى جنوا العقاب فإنه بيع فى إيفيزا Ivezza ، وهى إحدى الجزر البالياركية، ليحمل ملحاً.

والملاحظة السابقة، بالرغم من أنه لا يدعى إنها كاملة، يمكن أن تظل قائمة بسبب الاختيار الممتاز للأمتة التى تحتويها، ولأنها لم تقابل بملاحظات كافية فى أى من الأعمال حول هذا الموضوع. وقد تم كتابة الكثير عن تجارة الرقيق فى إيطاليا. وكتاب فيليبو زامبونى الغريب جداً Filippo Zamboni, Gli Ezzelin

Dante e gli Schiavi, ossia Roma e la Schiavitù Personale Domestica. Con Documenti Inediti. Seconda Edizione Aumentata (Vienna, 1870) العنوان، ولكنه يقدم، في صفحات ٢٤١ وما بعدها، معلومات قيمة عن تجارة الرقيق؛ وفي صفحة ٢٧٠ وثيقة جديرة بالملاحظة عن شراء وبيع أمة أنثى؛ وفي صفحة ٢٨٢ قائمة عن رقيق مختلفين (مع ذكر مكان شرائهم وبيعهم ووطنهم وعمرهم وسعرهم) في القرن الثالث عشر والقرون الثلاثة التالية. وتشير دراسة Wattenbach, Sklavenhandel im Mittelalter (Anzeiger für Kunde der deutschen Alterthümer, pp. 37-40, 1874) جزئياً فقط إلى إيطاليا: كليمنت الخامس يقرر في ١٢٠٩ أن السجناء البنادقة يجب أن يتحولوا إلى أرقاء؛ وفي ١٥٠١، بعد الاستيلاء على كابوا Capua، فإن كثيراً من نساء كابوا كن يبعن في روما بسعر منخفض. ونحن نقرأ في Monum. Historica Slavorum Meridionalium, ed. Vinc. Macusceo, tom. i (Warsaw, 1874) في صفحة ١٩٩ أنه تقرر (في أنكونا في ١٤٥٨) أن "اليونانيين والأتراك والتتار والشراقة والبوسنيين والبلغار والألبان" Greci, Turci, Tartari, Sarraceni, Bossinenses, Burgari vel Albanenses "لا بد أن يكونوا ويظلوا عبيداً، إلا إذا أعتقهم أسيادهم بوثيقة رسمية. ويمدح إغناطيوس Egnatius, Exempl. Ill. Vir., fol. 246a البندقية على أساس أنها "servorum Venetis ipsis nullum unquam usum exitisse"؛ ولكن، من الناحية الأخرى، انظر أيضاً زامبوني Cf. Zamboni, "Del traffico e delle condizioni degli schiavi, in Venezia nel tempo di mezzo.", in Miscellanea di Stor. Ital., i, 463-501 (Torino, 1862).

هوامش الفصل الثالث . القسم الرابع

(١) ولا يلزم الأمر أن نحيل القارئ إلى الفصول الشهيرة عن هذا الموضوع في عمل هومبولت's Humboldt's Kosmos.

(٢) انظر عن هذا الموضوع ملاحظات فيلهيلم جريم Wilhelm Grimm، التي اقتبسها هومبولت في العمل المشار إليه.

(٣) انظر كارمينا بورانا. Carmina Burana, p. 162, De Phyllide et Flora, str. 66.

(٤) ومن الصعب أن يقال ما الذي كان عليه أن يفعله أيضاً على قمة البيسمانتوفا Bismantova، في مقاطعة ريجيو Reggio، انظر "المطهر" Pugatorio, iv, 26. ويشكك رينبير Giorn. Stor. 37, 415 فيما إذا كان دانتي قد تسلق أبداً أعالي الجبال. - و. ل. W. G. والدقة التي يقدم أمامنا بها جميع أجزاء عالمه فوق الطبيعي تظهر لنا حساً رائعاً بالشكل والفضاء. ويمكن أن نستنتج من Chron. Novaliciense, ii, 5, in Pertz, Scriptores, vii, and Monum. Hist. Patriæ, Scriptores, iii اعتقاد في وجود الكتوز المدفونة في أعالي الجبال، وأن هذه المواضع كان ينظر لها برعب متطير.

(٥) ويجانب وصف بائي Baiæ في Fiammeta، في أيكة في Ameto، الخ، فإن فقرة في De Geneal-gia Eeorum, xv, 11 لها أهميتها، حيث يعدد مناظر من الجمال الريفى - أشجار ومروج وجدول وقطعان وأسراب من الحيوانات وأكواخ، الخ - ويضيف أن هذه الأشياء "animum mulcent"؛ وأن تأثيرها "mentem in se colligere".

(٦) انظر فلافيو بيونديو Flavio Biondo, Italia Illustrata (ed. Basil.), pp. 352 sqq. وانظر أيضاً WCf. Epist. Var., ed. Fracassetti (Lat.), iii, 476. وعن خطة بترارك لكتابة عمل جغرافى عظيم انظر البراهين المعطاة على يد Attilio Hortis, Accenni alle Scienze Naturali nelle Opere di G. Boccacci, pp. 45 sqq. (Trieste, 1877). Libri, Hist. Des Sciences وانظر ليبرى Math., ii, p. 249.

(٧) بالرغم من أنه مفرم بالإشارة إليهم - مثلاً (De vita Solitaria (Opera, ed. Basil., 1581)، وبخاصة صفحة ٢٤١، حيث يقتبس وصف خضرة أشجار النبيذ من سانت أوغسطين.

(٨) انظر Epist. Fam., vii, 4, ed. Fracassetti, i, 367، حيث "Interea utinam scire posses, quanta cum voluptate solivagas ac liber, inter montes et nemora, inter fontes et flumina, inter libros et maximorum hominum ingenia respiro, quamque me in ea,

quæ ante sunt, cum Apostolo extendens et præ terita oblivisci nitor et præsentia non videre". وانظر أيضاً Cf. vi, 3, op. cit., 316 sqq., especially 334 sqq..

ل. جايجر. Cf. L. Geiger, Petrarca, p. 75, note 5, and p. 269.

(٩) "Jacuit sine carmine sacro" وانظر أيضاً Cf. Itinerar. Syriacum, Opp., p. 558.

(١٠) وهو يميز في Itinerar, Syr., p. 557 على الرقييرا دي ليفانتى Riviera di Livante, ما يلي: "De colles asperitate gratissima et mira fertilitate conspicuos".

Remediis utriusque Fortunæ, i, 54.

(١١) انظر "Subito loci specie percussus". Letter to Posterity: وأوصاف الحوادث الطبيعية

الكبرى: عاصفة فى نابولي فى ١٢٤٢. Epist. Fam., i, 263 sqq. هزة أرضية فى بازل فى ١٣٥٥ Epist. Seniles, lib. x, 2, and De rem utr. Fort., ii, 91.

(١٢) انظر Epist. Fam., ed. Fracassetti, i, 193 sqq..

(١٣) انظر Dittamondo, iii, cap. 9.

(١٤) انظر Dittamondo, iii, cap. 21; iv, cap 4.. ويقول باينكورت فى Gesch. Der Stadt Rom,

إن الإمبراطور شارل الرابع كان لديه تنوق قوى للمناظر الجميلة، ويقتبس عن هذه النقطة من عمل بيلتزير، (Pelzel, Carl IV, p. 456. والفقرتان الأخريان اللتان يقتبسهما لا تقولان الشيء نفسه). ومن الممكن أن الإمبراطور أخذ هذا الميل من الاختلاط بالإنسانيين (انظر أعلاه الفصل الثالث، القسم الرابع). وعن الاهتمام الذى أبداه شارل بالعلم الطبيعى انظر هـ. فريديونج، H. Friedjung, op. cit., p. 224, note 1.

(١٥) وبمكنتنا أن نقارن أيضاً بلاتينا P. 310, Platina, Vitæ Pontiff. حيث يقول: "Pius II Homo fuit"

-verus, integer, apertus; nil habuit ficti, nil simulati"- عدو للنفاق والخرافات وشجاع وثابت على المبدأ. انظر فويجت Voigt, ii, 261 sqq., and iii, 724. ومع ذلك، فهو لا يعطينا تحليلاً لشخصية بيوس.

(١٦) وأهم الفقرات هى التالية: Pii II, P. M. Comment., lib. iv, p. 183، الربيع فى موطنه؛ lib. v, p.

251، المقر الصيفى فى تيفولى؛ lib. vi, p. 306، المأدبة فى الربيع فى فيكوفارو Vicovaro؛ lib. viii،

p. 378، المناطق المحيطة بفيتريو؛ صفحة ٢٨٧، دير سان مارتين الجبلى؛ صفحة ٢٨٨، بحيرة بولسينا؛

lib. ix, p. 396، وصف رائع لجبل مونت أمياتا؛ lib. x, p. 483، موقع مونت أوليفيتو؛ صفحة ٤٩٧،

المنظر من تودى Todì؛ lib. xi, p. 554، أوستيا وبورتو؛ صفحة ٥٦٢، وصف تلال ألبان؛ lib. xii, p.

609، فراسكاتى Frascati وجروثافيراتا Grottaferrata؛ انظر أيضاً صفحات ٥٦٨-٥٧١،

(١٧) وذلك ما ينبغي أن نفترض أنه كان مكتوباً، وليس صقلية.

(١٨) وهو يسمى نفسه، مع تلميح إلى اسمه، "Silvarum amator et varia videndi cupidus".

(١٩) عن إحساس ليون باتيستا ألبرتى بالمناظر الطبيعية، انظر أعلاه الفصل الثانى، القسم الثانى، وألبرتى،

وهو معاصر أمغزر سناً لإينياس سيلفيوس (90) Trattato del Governo della Famiglia, p.

انظر أعلاه الفصل الأول، القسم الثانى، هامش ٦، يبهج عندما يكون فى الريف المحتوى على التلال

المدغلة والمسطحات الجميلة والمياه سريعة الجريان. ويمكن هنا أيضا ذكر عمل صغير لب. بيمبوس B. Bembus هو إبتنا Æ tna، الذي نشر لأول مرة بالبندقية في ١٤٩٥، وطبع مراراً منذ ذلك الحين، والذي فيه، من ضمن أشياء أخرى هائلة ومطنبة، توجد أوصاف جغرافية رائعة وملاحظات حول المناظر الطبيعية.

(٢٠) وتوجد عند أريوستو صورة من هذا النوع متقنة جداً : ونشيده السادس كله هو أمامية وطلية الصورة.

(٢١) وهو يتعامل بطريقة مختلفة مع إطاره المعماري، وفي هذا الفن الحديث المزخرف يمكن حتى في وقتنا هذا تعلم شيء منه.

(٢٢) انظر 36, iii, Littere Pittoriche, في مايو, ١٥٤٤

(٢٣) انظر. Strozzi Poetæ in the Erotica, lib. vi, fol. 182 sqq. وفي القصيدة Hortatur se ipse, ut ad amicam properet.

(٢٤) انظر أيضاً. Cf. Thausing, Dürer, p. 166 (Leipzig, 1876).

هوامش الفصل الرابع . القسم الرابع

- (١) وهذه التعبيرات المدهشة أخذت من المجلد السابع لعمل ميشليه - Michélet's Histoire de France (In-
roduction).
- (٢) انظر توماسو جار - Tomm. Gar, Relaz della Corte di Roma, i, pp. 278 and 279. In the
Rel. of Soriano, year 1533.
- (٣) انظر براتو، Prato, Archiv. Stor., iii, pp. 295 sqq.. وكلمة saturnico تعني "تعيس" بالإضافة
إلى "جلب الشقاء". وعن تأثير الكواكب على الشخصية البشرية بصفة عامة انظر كورن. أجريبيا
Agrippa, De Occulta Philosophia, c. 52.
- (٤) انظر تروكي، Trucchi, Poesie Ital. Ined., i, pp. 165 sqq.. والقصيدة بأكملها يمكن العثور عليها
في جريون. (1869). Grion in the Prpugnatore, i, pp. 608 sqq.
- (٥) والشعر المرسل غير المقفى أصبح في وقت لاحق الشكل العادي للتأليف الدرامي. وعبر تريسينو - Trissi-
no, في إهداء عمله Sofonisba إلى ليو العاشر، عن أمه في أن يعترف البابا بهذا الأسلوب كما هو
عليه - بوصفه أفضل وأنبيل وأصعب "less easy" مما يبدو. انظر روسكو. Roscoe, Leo X, ed.
Bossi, viii, 174.
- (٦) انظر أيضاً ، مثلاً، النماذج المدهشة التي اختطها دانتي، La Vita Nuova, ed. Witte, pp. 13 sqq.,
16 sqq.. وكل منها احتوى على عشرين سطرًا غير منتظمين؛ وفي الأولى يتكرر السجع ثمان مرات.
- (٧) انظر تروكي، Trucchi, op. cit., i, 181 sqq..
- (٨) وكانت هذه هي الأغاني canzoni والسونيتات التي غناها وقلدها في محاكاة ساخرة كل حداد وكل
مكارى- والتي تسببت في جعل دانتي يشعر بالفضب الشديد (Cf. Franco Sacchetti, Nov. 114).
115) ، وسرعان ما وجدت هذه القصائد طريقها بين الناس.
- (٩) انظر La Vita Nuova, ed. Witte, pp. 81, 82 sqq. : وانظر Deh Pergrini, ibid., 116.
- (١٠) وعن سيكلوجية دانتي، تُكوّن بداية المطهر Purgatorio, iv واحدة من أهم الفقرات. انظر أيضاً
الأجزاء من Convivio التي تمت بصلة للموضوع.
- (١١) والصور الشخصية من مدرسة فان أيك Van Eyck تثبت العكس بالنسبة للشمال. فقد ظلت لفترة
طويلة متقدمة على جميع الأوصاف بالكلمات.
- (١٢) طبعت في المجلد السادس عشر من عمله Opere Vulgari. انظر م. لانداو M. Landau, Giov.
Boccaccio, pp. 36-40 (Stuttgart, 1877) ؛ وهو يضع أهمية خاصة على اعتماد بوكاتشيو على
دانتي وبتوارك.

(١٣) فى أغنية الراعى تيوجابى Teogape، بعد عيد فينوس، Opp. ed. Moutrier, vol. xv, pp. 67 sqq..
انظر أيضاً لاندوا صفحات ٥٨-٦٤؛ وعن الفياميتا Fiammetta انظر لاندوا صفحات ٩٦-١٠٥

(١٤) ويعترف ليوناردو أريتينو الشهير، زعيم الإنسانيين فى بداية القرن الخامس عشر، بأن: "Che gli anti-chi Greci d' unmanità e di gentilezza di cuore abbino avanzato di gran lungo l' An-nostre Italiani"؛ ولكنه يقول ذلك فى بداية رواية تحتوى القصة العاطفية للأمير العليل أنتيوكوس An-tiochus وزوجة أبيه ستراتونيس -Stratonice- وهى وثيقة ذات صفة غامضة ونصف أسبوية. (طبعت على هيئة ملحق للحكايات المائة القديمة). (Cento Nouvelle Antiche)

(١٥) ولا شك أن البلاط والأمير تلقوا التعلق الكافى من شعرائهم وكتاب الدراما العرضيين.

(١٦) انظر وجهة النظر المعارضة التى اتخذها جريجوروفوس، Gesch. Roms, vii, 619.

(١٧) انظر باول. جوفيسوس، Paul. Jovius, Dialog. De Viris Lit. Illustr., in Tiraboschi, tom. vii, 40.
iv؛ وانظر . Lil. Greg. Gyraldus, De Poetis nostri Temporis, ed. K. Wotke, p. 40.

(١٨) من إيزابيلا جونزاجا إلى زوجها، بتاريخ ٢ فبراير ١٥٠٢، Archiv. Stor., App. II, pp. 306 sqq..
وانظر أيضاً جريجوروفوس، Gregorovius, Lucrezia Borgia, i, 255-266, 3rd ed.
الأسرار mystères الفرنسية فإن المعطين أنفسهم كانوا يسيرون فى موكب أمام الجمهور، وكان ذلك يسمى the montre.

(١٩) انظر . Diario Ferrarese, in Murat., xxiv, col. 404. وفقرات أخرى تشير إلى المسرح فى المدينة، فى 397, 393, 381, 380, 361, 282-285, 278, 279, cols. ومنها يظهر أن بلاطوس كان كاتب الدراما الأكثر شعبية فى تلك المناسبات، وأن العروض كانت فى بعض الأحيان تستمر حتى الساعة الثالثة صباحاً، وكانت تقام حتى فى الهواء الطلق. وكانت عروض الباليه بدون أى معنى أو إشارة إلى الأشخاص الحاضرين وكانت المناسبة تُوقَّر وتُمجَّد. وتحدثت إيزابيلا جونزاجا، التى كانت بالتأكيد متشوقة إلى زوجها وطفليها، وكانت غير راضية عن زواج أخيها من لوكرتسيا، عن برودة وتلوجة هذا الزواج والاحتفالات التى أحاطته.

(٢٠) انظر Strozzi Poetæ, fol. 232، فى الكتاب الرابع من Æolosticha من تأليف تيتو ستروتزى.
وتجرى السطور كما يلى:

Mimus, ed populum verba deserta refert

Tum similes habitu formaque et voce Menæchmi

Ducibus oblectant lumina nostra modis."

وقد عرضت Menæchmi أيضاً فى قرارا فى ١٤٨٦، بتكلفة تجاوزت ألف دوقية (Murat., xxiv, 278).

(٢١) انظر فرانش. سانسوفينو، Franc. Sansovino, Venezia, fol. 169. والفقرة فى الأصل هى كما يلى: "Si sono anco spesso recitate delle tragedie con grandi apparecchi, comporte da poeti antichi o da moderni. Alle quali per la fama degli apparati concorrevano le genti estere a circonvicine per vederle e udirle. Ma hoggi le feste da particolari si fanno fra i parenti et essendosi la città regolata per se medesima da certi anni in quà, si passano i tempi del Carnevale in comedie e in altri più lieti e honorati di-parenti. letti. والفقرة غير واضحة تماماً، وربما يجب أن نقرأ parenti بدلاً من

- (٢٢) ولابد أن هذا ما يعنيه سانسوثينو، Venezia, fol. 168. عندما يشكو أن "recitante" دمروا الكوميديات بواسطة "con invenzione o personaggi troppo ridicoli"
- (٢٣) انظر سانسوثينو بالموضع المذكور [الذى، مع ذلك، كما أثبت جايجر، لا يتحدث عن المجموعات تحت قيادة شخص محدد- و. ج. W. G.
- (٢٤) انظر سكاردونيس، De Urb. Patev. Antiq., in Græv., Thesaur., vi, iii, col. 288 sqq.. وهي فقرة مهمة لأدب اللهجات المحلية بصفة عامة. وواحدة من الفقرات نصها كما يلي : "Hinc ad reci- tandas com dias socii scenici et gregales etæmuli fuere nobiles juvenes Patavini, Marcus Aurelius Alvarotus quem in com diis suis Menatum appellitabat, et Hieronymus Zanetus quem Vezzam, et Castegnola quem Billoram vocitabat, et salii quidam qui sermonem agrestium imitando præ ceteris callebant."
- (٢٥) ويمكن الاستدلال على أن الأخير تواجد منذ وقت مبكر هو القرن الخامس عشر من -Diario Ferra- re, February 2, 1501, حيث النص: "Il duca Hercole fece una festa di Menechino secondo il suo uso." Murat., xxiv, col 393. ولا يمكن أن يكون هناك تضارب مع Me-nuchmi لبلاتوتوس، المكتوبة بطريقة صحيحة، loc. cit., col 278. وانظر أعلاه هامش ، ٢٠
- (٢٦) ويخترع بولتشي بطريقة مزعجة أسطورة مبجلة من العالم القديم لقصته عن العملاق مارجوتى Mar-gutte (Morgante, canto xix, str. 153 sqq.. والتقديم الحرج لليمورنو بيتولو Limerno Pitoc- Orlando, cap. i, str. 12-22).
- (٢٧) كتبت مورجانتى Morgante فى عام ١٤٦٠ والسنوات التالية، وطبعت لأول مرة بالبندقية فى ١٤٨١ وعن منازلات البرجاس انظر القسم الخامس، الفصل الأول. ولطلب ما يعقب ذلك انظر رانكه، Zur Geschichte der italienischer Poesie (Berlin, 1837).
- (٢٨) ونشرت Orlando Inamorata كاملة لأول مرة فى ١٤٩٤؛ والثلاثين الأولين منها منذ وقت أبكر فى ، ١٤٨٧ .
- (٢٩) انظر L'Italia Liberata da Goti (Rome, 1547).
- (٣٠) انظر أعلاه الفصل الرابع، القسم الرابع، وعمل لاندوا Landau's Boccaccio. وينبغي، مع ذلك، ملاحظة أن عمل بوكاتشيو المذكور هنا كتب قبل ١٣٤٤، بينما عمل بترارك كتب بعد موت لورا- أى بعد ١٣٤٨.
- (٣١) انظر فاسارى، Vita di Rafaello. فى التعقيب على، viii, 71 .
- (٣٢) وكثير من مثل هذا النوع فى الإلياذة Illiad يمكن لنوقنا الحالى أن يستغنى عنه.
- (٣٣) الطبعة الأولى فى ١٥١٦.
- (٣٤) والخطب المدرجة هى نفسها سرديات.
- (٣٥) مثلما كان الحال مع بولتشي، Morgante, canto xix, str. 20 sqq..
- (٣٦) انظر the Orlandino، الطبعة الأولى، ١٥٢٦.

هوامش الفصل الخامس ، القسم الرابع

- (١) انظر راديفيكوس Radevicus, De Gestis Frederici Imp., especially ii,76 وسيرة حياة هنرى الرابع Vita Henrici IV تحتوى القليل جداً من الأوصاف الشخصية، كما هو الحال مع Vita Chuonradi Imp., by Wipo.
- (٢) والمقصود هنا هو قيم المكتبة أناستاسيوس (منتصف القرن التاسع). وكل مجموعة حيوات الباباوات -Li ber Pontificalis كانت منسوبة إليه سابقاً، ولكن بطريق الخطأ. انظر أيضاً فاتباخ -Cf. Wattenbach, Deutschlands Geschichtsquellen, i, 223 sqq., 3rd ed..
- (٣) عاش فى حوالى نفس الوقت الذى عاش فيه أناستاسيوس ؛ مؤلف تاريخ أسقفية رافينا. انظر فاتباخ بالموضع المذكور صفحة ٢٢٧.
- (٤) ولا يمكننى القول فى أى وقت أبكر تم استخدام فيلوستراتوس Philostratus بنفس الطريقة. وكان سويتونيوس Suetonius بغير شك يتخذ نموذجاً يُحتذى فى وقت أبكر. ويجانب حياة شارل العظيم التى كتبها إيجينهارد، فإن أمثلة من القرن الثانى عشر مقدمة على يد ويليام من المايسبورى فى وصفه لويليام الفاتح (صفحة ٤٥٢ وما بعدها و٤٦٦ وما بعدها)، ووصفه لويليام الثانى (صفحات ٤٩٤ و٥٠٤) ووصفه لهنرى الأول (صفحة ٦٤٠).
- (٥) انظر النقد الرائع فى لاندau. Landau, Boccaccio, pp. 180-181.
- (٦) انظر أعلاه الفصل الأول، القسم الثانى. وكان الأصل (اللاتينى) قد نشر لأول مرة فى ١٨٤٧ فى فلورنسا، على يد جاليتى تحت عنوان Philippi Villani Liber de Civitatis Florentie Famosis Civibus ؛ وطبعت ترجمة إيطالية قديمة مكرراً منذ ١٧٤٧، والكتاب الأول ، الذى يتناول التاريخ المبكر لفلورنسا وروما، لم يطبع أبداً. والفصل فيعمل فيلانى - De Semipoetis أى، أولئك الذين كتبوا نثرأ بالإضافة إلى الشعر، أو أولئك الذين كتبوا القصائد بجانب مزاوله مهنة أخرى- مشوق بصفة خاصة.
- (٧) ونحن هنا نحيل القارئ إلى ترجمة حياة ل. ب. ألبرتى والتي قدمت مقتطفات منها أعلاه، وإلى التراجم اللورنسية العديدة فى ميوراورى Muratori, Archivio Storico ومواضع أخرى. وترجمة حياة ألبرتى هى فى الغالب سيرة ذاتية: الفصل الثانى، القسم الثانى، هامش ٧ .
- (٨) انظر. Storia Fiorentina, ed. F. L. Polidori (Florence, 1838).
- (٩) انظر De Viris Illustribus، فى منشورات، Stuttgarter Liter. Vereins, No. I, Stuttgart, 1839. وانظر أيضاً ج. فويجت Cf. G. Voigt, ii, 324. ومن بين الخمسة وستين ترجمة حياة فإن واحدة وعشرين قد فقدوا.
- (١٠) انظر عمله Diarium Romanum, from 1472 to 1484, in Murat., xiii, 81-202.

- (١١) انظر Ugolini Verini Poetæ Florentini ، (وهو معاصر للورنزو، وتلميذ للاندنيوس، Landinus ، fol. 13 ، ومعلم بتروس كرينيتوس .) Pertus Crinitus، fol. 14 والعمل De Illustratione, Urbis Florentinæ Libri Tres (Paris, 1583) ، يستحق أن يُذكر، وبخاصة 2. lib. ويتم التحدث عن دانتى وبترارك ويوكاتشيو ويتم تمييزهم بدون كلمة لوم. وعن نساء مختلفات انظر. fol. 11.
- (١٢) انظر Petri Candidi Decembrii Vita Philippi Marizæ Vicecomitis, in Murat. xx.. أعلاه الفصل الخامس، القسم الأول.
- (١٣) انظر أعلاه، الفصل السادس، القسم الثالث.
- (١٤) عن كومينيس انظر أعلاه الفصل الثامن، القسم الأول هامش ٢٢، وبينما كان كومينيس، كما هو مشار إليه هناك، يدين بقوة نقده الموضوعى جزئياً إلى الاتصال والاختلاط مع الإيطاليين، فإن الإنسانيين ورجال الدولة الجرمان، على الرغم من الإقامة الطويلة بعضهم فى إيطاليا ودراساتهم المتقنة الجادة والناجحة جداً فى أحوال كثيرة للعالم الكلاسيكى، لم يكتسبوا إلا القليل أو لا شىء على الإطلاق من موهبة التصوير التراجىمى أو تحليل الشخصيات. ورحلات وتراجم والتخطيطات التاريخية للإنسانيين الجرمان فى القرن الخامس عشر وفى كثير من الأحوال فى الجزء المبكر من القرن السادس عشر هى فى الأعم الأغلب إما كتالوجات جافة أو جوفاء، أو خطباً بلاغية متكلفة.
- (١٥) انظر أعلاه الفصل الثامن، القسم الأول.
- (١٦) ونحن نجد هنا وهناك استثناءات. خطابات هاتين Hutten ، المحتوية على ملاحظات ترجمة ذاتية ومقادير ضئيلة من عرض أحداث بارث. Barth. ويقدمنا ساستروف Sastrow وساباتا Sabbata لجوهان كيسلر Joh Kessler إلى الصراعات الجوانية للكتاب، ومعظمها، مع ذلك، تحمل الصفة الدينية الخاصة لحركة الإصلاح الدينى.
- (١٧) وربما يمكننا أن نختار للمقارنة من ضمن التراجم الذاتية الشمالية تلك الخاصة بأجريبيا Agrippa d'Aubigné (بالرغم من انتمائه لفترة لاحقة) كصورة حية ومتمكلمة عن الفردية البشرية.
- (١٨) الذى تم كتابته فى شيخوخته، حوالى ١٥٧٦، وعن كاردانو بوصفه باحثاً ومكتشفاً انظر ليبرى Libri Histoire des Sciences Mathématiques, iii, p. 167 sqq..
- (١٩) مثلاً، إعدام ابنه الأكبر، الذى انتقم من خيانة زوجته بدس السم لها .(col. 27, 50).
- (٢٠) انظر Discorsi della Vita Sobria ، المتكوّن من trattato ، ومن compendio ، ومن estorrazzi- one ، ومن lettera إلى دانييل باريارو . Daniel Barbaro. والكتاب طبع مرات عديدة.
- (٢١) هل كانت هذه هى الفيللا فى كوديفيكو المذكورة أعلاه الفصل الرابع، القسم الرابع . انظر أيضاً لوفاريني Cf. Lovarini, Le Ville edificate da Al. Cornaro, L'Arte, ii, pp. 189 sqq. (1898).

هوامش الفصل السادس . القسم الرابع

(١) مبكراً جداً في بعض الحالات؛ وفي المدن اللومباردية منذ وقت مبكر هو القرن الثاني عشر. انظر أيضاً لاندوفوس الأسن Cf. Landufus Senior, Ricobaldus, والعمل الرائع المجهول مؤلفه، في الراجع من تاليف جيوفاني إينانيسونو (in Murat., xi), Giovanni Inagnono, De Laudibus Papiæ من القرن الرابع عشر. وأيضاً (in Murat., i), Liber de Situ Urbis Mediol. وبعض الملاحظات عن التاريخ المحلي الإيطالي في عمل أ. لورنزو O. Lorenzo, Deutschlands Geschichtsquellen im Mittelalter seit dem 13ten Jahr (Berlin, 1877) : ولكن المؤلف يمتنع بوضوح عن تناول مبتكر للموضوع.

(٢) انظر. Il Tesoro, ed. Chabaille, pp. 179-180 (Paris, 1863). Cf. Ibid., p. 577 (lib. iii, p. ii, c. 1).

(٣) وعن باريس، التي كانت مكاناً أهم كثيراً لإيطالي القروسطي عما كانت لخلفه بعد مئة عام، انظر Ditta- mondo, iv, cap. 18. والتباين بين فرنسا وإيطاليا يؤكد على يد بترارك في عمله -Invectivæ con- tra Gallum.

(٤) انظر سافونارولا Savonarola, in Murat., xxiv, col. 1186 (أعلاه الفصل الثالث، القسم الثاني). وعن البندقية انظر أعلاه الفصل السابع، القسم الأول. وأقدم وصف لروما، على يد سينيوريلى Signorilli وهو مخطوط)، كُتِب في عهد تولى مارتن الخامس منصب البابوية (١٤١٧)؛ انظر جريجوروفيسوس Greg- orovius, viii, 569: والأقدم على يد رجل جرمانى هو ذلك على يد هـ. موفل H. Muffel (منتصف القرن الخامس عشر). ed. By Voigt (Tübingen, 1876).

(٥) وشخصية برجاماسك Bergamasqu القلقة النشطة والمملوءة بالفضول والشك، موصوفة بطريقة ساحرة في بانديلو. 34. Nov. i,

(٦) مثلاً، فاركي، في الكتاب التاسع من. (vol. iii, pp 56 sqq.) Storie Fiorentine

(٧) انظر فاساري Vassari, xii, p. 158. و انظر V. di Michel Angelo عند البداية. وفي أوقات أخرى يتم مدح الطبيعة الأم بصوت عال إلى حد كاف، مثل سوناتة ألفونسو دي باتزي Alfonso de'Pazzi إلى أنيبالي كارو غير التوسكاني. (in Trucchi, loc. cit., iii, p. 187). Annibale Caro

"Misero il Varchi! e più infelici noi,

Se a vostri virtrudi accidentali

Aggiunto fosse 'l natural, ch' è in noi!"

(٨) انظر Forcianæ Quæstiones, in quibus varia Italorum ingenia explicantur nullaque Maurilii alia scitu non indigna. Autore Philaette Polytopiensis cive. Scæve Carmen.

"Quos hominum mores varios quas denique mentes

Diverso profert Itala terra solo,

Quisve vinis animua, mulierum et strenua virtus

Pulchre hoc exili codice lector habes."

Neapoli excudebat Martinus de Ragusia, anno MDXXXVI..

استخدمه رانكه ، Pöpste, i, 385 ، يعتبر على أنه من عمل أورتيئسيو لاندى .Ortensio Landi (Cf. Tiraboschi, vii, 800-812). بالرغم من أنه فى العمل نفسه لا توجد أى إشارة إلى المؤلف. ويُشرح العنوان عن طريق ملايصة أن المحادثات مروية وقد عقدت فى فورسيوم Forcium، وهو حمام بقرب لوكا Lucca. على يد جماعة من الرجال والنساء، حول التساؤل أن هناك اختلافات كبيرة فى الجنس البشرى. والتساؤل لا يجد جواباً، ولكن كثيراً من الاختلافات يتم ملاحظتها بين إيطالياً ذلك الوقت- فى الدراسات والتجارة والمهارة الحربية (وهذه هى النقطة التى اقتبسها رانكه) وصناعة الأدوات الحربية، وطرائق الحياة، والتميز فى الملابس، واللغة والثقافة، وفى الحب والكره، وفى طرق كسب المودة، وفى طريقة استقبال الضيوف، والأكل. وفى الختام جاءت بعض التأملات عن الاختلاف بين النظم الفلسفية. وجزء كبير من العمل مخصص للنساء - اختلافهن بوجه عام، قوة جمالهن، وبخاصة مسألة ما إذا كانت النساء مساويات أو أقل من الرجال. واستخدم العمل مراراً فى فقرات عديدة أسفله. والمقتطف التالى يخدم كمثال (fol. 7b sqq.) :Aperiam nunc quæ sint in consilio aut dando aut accipien-

do dissimilitudo. Præstant consilio Mediolanenses, sed aliorum gratia potuis quam sua. Sunt nullo consilio Genuenses. Rumor est Venetos abundare. Sunt perutili consilio Lucenses, idque aperte indicarunt, cum in tanto totius Italiæ ardore, tot hostibus circumsepti suam libertatem, ad quam nati videntur semper tutati sint, nulla, quidem, aut capitis aut fortunarum ratione habita. Quis porro non vehementer admireturi Quis callida consilia non stupeate Equidem quotiescunque cogito, quanta prudentia ingruentes procellas evitarint, quanta solertia impendentia pericula effugerint, adducor in stuporem. Lucanis vero summum est studium, eos deludere qui consilii captandi gratia adeunt, ipsi vero omnia inconsulte ac temere faciunt. Brutii optimo sunt consilio, sed ut incommodent, aut pemiciem afferant, in rebus quæ magne deliberationis dictu mirum quam stupidi sunt, eisdem plane dotibus instructi sunt Volsci quod ad cædes et furta paulo propensiores sint. Pisani bono quidem sunt consilio, sed parum constanti, si quis deversum ab eis senserit, mox acquiescunt, rersus si aliter suadeas, mutabunt consilium, illud in caussa fuit quod tam duram ac diutinam obsidionem ad extremum usque pertulerint. Placentini utrisque abundant consiliis, scilicet salutaribus ac peritio-

sis, non facile tamen ab iis impetres pestilens consilium, apud Regienses neque consilii copiam invenies. Si sequere Mutinensium consilia, raro cedet infeliciter, sunt enim peracutissimo consilio, et voluntate plane bona. Providi sunt Florentini (si unumquemque seorsum accipias) si vero simul conjuncti sint, non admodum mihi consilia eorum probabuntur; feliciter cedunt Senensium consilia, subita sunt Perusinorum; salutaria Ferrariensium, fideli sunt consilio Veronenses, semper ambigui sunt in consiliis aut dandis aut accipiendis Patavini. Sunt pertinaces in ro quod c perint consilio Bergomates, respuunt omnium consilia Neapolitani, sunt consultissimi Bononienses."

(٩) انظر Commentario delle Più Notabili, e Mostruose Cose d' Italia e Altri Luoghi, di Lingua Aramea in Italiana tradotta. Con un Brev Catalogo degli Inventori delle Cose che si Mangiano et Beveno, novamente ritrovato (البندقية ١٥٥٢؛ والمطبوع لأول مرة عام ١٥٤٨؛ وهو مؤسس على رحلة قام بها أورتنيسيو لاندى خلال إيطاليا في عامي ١٥٤٣ و١٥٤٤). وواضح أن لاندى كان حقاً مؤلف هذه التعقيبات Commentario وذلك من الملاحظات التي يختم بها نيكولو موراً (fol. 46a) Niccolò Morra حيث تنص: "Il presente commentario nato del constantissimo cervello di M. O. L. ومن إمسضاء الكل SVISNETROH (fol. 70a): SVDNAL, ROUTA TSE, "Hortensius Landus autor est".. ويعد إعلان عن إيطاليا من فم رجل غامض حكيم ذى شعر أشيب يتم وصف رحلة من صقلية خلال إيطاليا إلى الشرق. وتم مناقشة جميع مدن إيطاليا تقريباً بالتفصيل: وجلي من طريقة المؤلف فى التفكير أن لو كان ينبغي أن تتلقى مديحاً خاصاً. ويتم وصف البندقية، حيث يدعى أنه تقابل كثيراً مع بيترو أرتينو (الفصل الرابع، القسم الثانى، المجلد الأول)، وميلانو بالتفصيل، وفيما يخص الأخيرة تُحكى حكايات مثيرة جداً (fol. 25 sqq.) ولا يوجد إعراف في ذلك فى الأماكن الأخرى- الورد التي تزهر طوال العام، والنجوم التي تلمع فى منتصف النهار، والطيور التي تتحول إلى رجال، ورجال نوى رموس ثيران، والمخلوقات البحرية الخرافية، ورجال ينفثون النار من أفواههم. ومن بين كل هذا توجد مقادير ضئيلة حقيقية من المعلومات، بعضها سيتم استخدامه فى المكان المناسب؛ وقد ذكر اللوثريون ذكراً قصيراً fol. 32a, 38a ، وتُسمع شكوى متكررة عن الأوقات العصيبة والحالة التعسة لإيطاليا. ونحن نقرأ هناك fol. 22a ما نصه: "Son questi quelli Italiani li quali in un fatto d' armi uccisero ducento mila Francesie Sono finalmente quelli che di tutto il mondo s'impadronirono Hai quanto (per quel che io vego) degenerati sono. Hai quanto dissimili mi paiono dalli antichi padri loro, li quali e sin-golar virtù di cuore e disciplina militare ugualnemte monstramo havere."

كتالوج

(١٠) انظر (1562) Discrizione di Tutta l' Italia الطعام الصالح للكل ،الذى يلحق بالعمل انظر أسفله.

(١١) وتلقى بقوائم هجائية للمدن فيما بعد- مثلاً، ii. Phantas, Macaroneide, وعن فرنسا، فإن رابليه، الذى كان يعرف Macaroneide، هو مصدر كل النكات والإشارات الضمنية الحقودة من ذلك النوع المحلى.

هوامش الفصل السابع . القسم الرابع

(١) من الحقيقي أن كثيراً من الآداب المضمطة مملوءة بالأوصاف الدقيقة الموجهة. انظر، مثلاً، فى سيدونيوس أبولليناريوس Sidonius Apollinarius أوصاف ملك قوطى غربى 2، Epist., i، وعدو شخصى، Epist., 13، وفى قصائده أنماط القبائل الجرمانية المختلفة.

(٢) عن فيليبيو فيلانى، انظر أعلاه الفصل الخامس، القسم الرابع.

(٣) انظر. Parnasso Teatrale, Introd., p. vii (Lipsia, 1829).

(٤) والقراءة هنا بالتأكيد محرفة. والفقرة Ameto, p. 54, Venezia, 1856، هي كما يلي: "Del mezo de' quali non camuso naso in linea diretta discende, quanto ad aquilineo non essere dimanda il dovere."

(٥) "Due occhi ladri nel loro movimento" والعمل بأنجمعه ثرى بمثل هذه الأوصاف.

(٦) ولا يخبرنا كتاب الأغاني الساحر لجوستو دى كونتى Giusto de' Conti, La Bella Mano, (best ed. Florence, 1715) بمثل التفاصيل الكثيرة عن هذه اليد الشهيرة لحبيبتة متلما يخبرنا بوكاتشيو فى ستة فقرات من Ameto عن أيادى حورياته (نمفيات).

(٧) انظر Della Bellezza delle Donne فى المجلد الأول من Opere di Firenzuola Milan, 1802. وعن رأيه فى الجمال الجسدى كعلامة على جمال الروح، انظر أيضاً Cf. vol. ii, pp. 48-52، فى -ra gionamenti المتصدرة لرواياته. ومن بين الكثيرين الذين حافظوا على هذا المبدأ، جزئياً فى أسلوب الأقدمين، يمكننا أن نقبس واحداً هو كاستيليونى Castiglione, Il Cortigiano, lib. iv, fol. 176. كان هذا رأياً عاماً، وليس فقط رأى المحترف للمصورين. انظر أسفله.

(٨) وقد تكون هذه فرصة لكلمة عن عيون لوكريتسيا بورجيا، المأخوذة من دوبيتات شاعر بلاط فيرارى هو إيركولى سستروتزى Ercole Strozzi, (Strozzi Poetæ, fol. 85-88) فقوة وسلطان نظرتها موصوفة بطريقة لا يمكن تفسيرها إلا فى عهد فنى، ولا يمكن أن يُسمح بها الآن. ففى بعض الأوقات تحول الناظر إلى نار وفى بعض الأوقات إلى حجر. ومن ينظر إلى الشمس يصبح كفيفاً؛ ومن يشاهد ميدوسا Medusa يصبح حجراً، فاما من ينظر إلى محيا لوكريتسيا:

"Fit primo intuitu Oæcus et inde lapis"

وحتى كيوييد الرخامى النائم فى صالات قصرها يُقال إنه تكلس بنظرة محدقة منها:

"Lumine Borgiadi saxificatur Amor."

وقد يتنازع النقاد، إذا رغبوا، فيما إذا كان ما يسمى إيروس Eros إله الحب عند الإغريق لبراكتيليس Prax-iteles أو ذلك الخاص بميشيل أنجلو هو المقصود، حيث إنها كانت المملكة لكليهما.

ونفس النظرة ظهرت لشاعر آخر، هو مارتشيللو فيلوسينو Marcello Filosseno، ولكنها كانت لطيفة ونبيلة، "mansueto e altero" (Roscoe, Leo, X, ed. Bossi, vii, p. 306).

وتحدث المقارنة مع الصور المثالية للعهد العهيد (الفصل الثاني، القسم الأول، المجلد الأول). ونحن نقرأ عن طفل عمره عشر سنوات في (Orlandino (ii, str. 47) ما نصه: "ed ha capo romano".

(١٠) مشيراً إلى الحقيقة بأن مظهر الأصدغ يمكن أن يتغير تغييراً جذرياً بطريقة تنسيق الشعر، فإن فيرينزولا ينزل هجوماً كوميدياً على ازدهام الشعر بالزهور الذي يجعل الرأس تبدو كأنها هي قدر من القرنفل أوريغ عنزة على الصدغ. وهو، كقاعدة، حسن الاطلاع فيما يتعلق بالكاركاتير.

(١١) حول المثل الأعلى للمينسنجر Minnesänger، انظر فالكه Falke, Die deutsche Trachtenund Modenwelt, i, pp. 85 sqq..

هوامش الفصل الثامن . القسم الرابع

- (١) انظر الفصل الثاني، القسم الرابع عن دقة معناه عن الشكل.
- (٢) انظر الجحيم 7، xxi، Inferno؛ والمطهر 61، xiii، Purgatorio.
- (٣) لا يجب أن نأخذ هذا بجديّةٍ شديدة إذا قرأنا في بلاتينا Platina, Vitæ Pontiff., p. 310 أنه احتفظ في بلاطه بضرب من المهرج، وهو جريكو Grecco الفلورنسي، "hominem certe cuiusvis mores، linguam naturam، cum maximo omnium qui audiebant risu facile exprimentem."
- (٤) انظر Pii II Comment., viii، p. 391.
- (٥) ويجب التمييز بين نوعين من منازل البرجاس، تلك الخاصة بلورنزو في ١٤٦٨، وتلك الخاصة بجوليانو في ١٤٧٥ (وثالثة في ١٤٨١). انظر رويمونت، Reumont, Lorenzo dei Medici, i, 264 sqq., 267, note 1, 361; ii, 55,67 والمنازلة الأولى يتم تناولها في قصيدة لوكا بولتشي Luca Pulci, ed. Ciriffo Galvaneo di Luca Pulci Gentiluomo Fiorentino, con la Giostra del Magnifico Lorenzo de' Meici, pp. 75, 91 (Florence, 1572) والثانية في قصيدة لم تستكمل لأنجلو بوليتزيانو Angelo Poliziano, best ed. Carducci, Le Stanze, l' Orfeo e le Rime di M. A. P. (Florence, 1863). ووصف بوليتيان يتوقف فجأة عند شروع جوليانو في المنازلة. ويعطى بولتشي بياناً مفصلاً عن المقاتلين وطريقة القتال. ووصف لورنزو جيد بطريقة دقيقة (صفحة ٨٢).
- (٦) وما تسمى Caccia هذه مطبوعة في التعقيبات على عمل كاستيلوني قصيدة الرعاة Commentary Lettere del Conte B. Castiglione, ed. to Castiglione's Eclogue Pierantonio Serassi, ii, p.269 (Padua, 1771); printed by Carducci, Cacce in Rime dei Secoli XIV e XV (Bologna, 1896).
- (٧) انظر سرفنتيزي لجانوتزو من فلورنسا Serventese of Gianozzo of Florence (في الراجح ساكيتي، وهو أخو الروائي الفلورنسي الشهير) في تروكي Trucchi, Poesie Ital. Ined., ii, p. 99 أو الأفضل في كاربوتشي (انظر الهامش السابق)، صفحات ٥٩ وما بعدها. وكثير من الكلمات غير مفهومة وبمستعارة في الحقيقة، أو في الظاهر من لغات المرتزقة الأجانب. ووصف مكيافيللي لفلورنسا أثناء طاعون عام ١٥٢٧ ينتمي، إلى حد ما، إلى هذه الطبقة من الأعمال. وهي سلسلة من الصور المتكلمة الحية عن هذه الكارثة المخيفة.
- (٨) طبقاً لبوكاتشي Vita di Dante, p. 77 فإن دانتي كان المؤلف لتشيدين من أناشيد الرعاة، كتبها في الراجح باللاتينية. وأصالة وموثوقية هذه القصائد، مع ذلك، هي موضع التساؤل الشديد- و. ج. W. G.

وهي موجهة إلى يوهان دي فيرجيليس. Joh. De Virgiliis. انظر أيضاً فراتيتشيلي، Cf. Fraticelli, P. Carmina Minora, ed. Opp. Min. di Dante, i, 417. Rossetti, i. جايجر ل. Cf. L. Geiger, Petrarca, pp. 120-122 and 270, note 6, especially A. Hortis, Scritti Inediti di F. P. (Triest, 1874).

(٩) ويقدم بوكاتشيو في Ameto (أعلاه الفصل السابع، القسم الرابع) نوعاً من الديكاميرين الأسطورية، ويفتح في بعض الأحيان بطريقة مضحكة في أن يحول دون تناقض الشخصية. فأحدى حورياته كاثوليكية صالحة، يصوب المطارنة إليها نظرات من الحب غير المقدس في روما. وأخرى تتزوج. وفي Ninfa Fie-solano فإن الحورية منسولا Mensola، التي تجد نفسها حبلية، تلجأ لمشورة "حورية عجوز حكيمة".

(١٠) على وجه العموم كان الرخاء الاقتصادي للفلاحين الإيطاليين أكبر في ذلك الوقت عما كان عليه الفلاحون في أي مكان آخر في أوروبا. انظر أيضاً ساكيتي L. Pulci in Cf. Sacchetti, Nov. 88 and 222; the Beca de Dicamano (Villari, Machiavelli, i, 198, note 2).

(١١) ويقول باتيستا مانتوفانو (Ecl. viii) Battista Mantovano ما نصه: "Nullum est hominum genus aptius urbi" عن سكان مونتى بالدو Monte Baldo وقال كاسينا Val Cassina، الذين كانوا يستطيعون الانكباب على أي عمل يدوي. وبعض سكان الريف، كما هو معروف جيداً، لديهم امتيازات حتى في يومنا هذا فيما يتعلق ببعض الوظائف في المدن الكبرى.

(١٢) وربما كانت واحدة من أقوى الفقرات. Orlandino, cap. v, str. 54-58. ويقول فيسبازيانو بيستيتشي (Vesp. Bisticci (Comm. Sulla Vita di Giov. Manetti, p. 96) "Sono due ispezie di uomini difficili a supportare per la loro ignoranza; l' una sono i servi, la seconda i contadini"..

(١٣) في لومبارديا، في بداية القرن السادس عشر، كان النبلاء لا ينفرون من الرقص والمصارعة والقفز والتسابق مع الفلاحين. انظر A. Pandolfini Il Cotigkano, lib. ii, fol. 54. ويشكل أ. بانولفيني (L. B. Alberti) في Trattato del Governo della Famiglia, p. 86، مثلاً لصاحب الأرض الذي يعزى نفسه عن طمع وزيف مستأجره الفلاحين بتفكيره الطويل في أنه تعلم بهذه الطريقة أن يتحمل ويتعامل مع زملائه من المخلوقات.

(١٤) انظر جوفيانوس بونتانوس. Jov. Pontsn., De Fortitudine, lib. ii.

(١٥) والفلاحة الشهيرة من فالتيلينا Valtellina-وهي بونا لومباردا Bona Lombarda، زوجة قائد المرتزقة بييترو برونورو condottiere Pietro Brunoro معروفة لنا من جاكوبوس بروجومينسيس Ja-cobus Bergomensis ومن بورتشيلليوس. Porcellius, in Murat., xxv, col. 43.

(١٦) ونحن غير قادرين على أن نتناول بتفصيل أكثر حالة الفلاحين الإيطاليين بوجه عام، وبخاصة تفاصيل هذه الحالة في الأقاليم المختلفة. وينبغي أن تُجمع تفاصيل النسبة بين التملك الحر للأرض والأرض المستأجرة، والأعباء المحملة على كل منها بالمقارنة بتلك الأعباء في الوقت الحالي، من أعمال متخصصة – مثلاً Rob. Pöhlmann, Die Wirtschaftspolitik der Florentiner Renaissance und das Prinzip der Verkehrsfreiheit (Leipzig, 1878)، وأيضاً Sorbello, Il Commune Rurale (Bologna, 1910). وفي الأوقات العصيبة فإن أهل الريف كانوا عرضة لأن يقعوا في انتكاسات مروعة

من الهمجية (Archiv. Stor., xvi, i, pp. 451 sqq., ad a. 1440; Corio, fol. 259; Annales) فـ. بالمرغم من أنه لم يحدث شيء على هيئة حرب فلاحين عامة. وكانت الثورة قرب بياتشينزا Piacenza في ١٤٦٢ على شيء من الأهمية والتأثير. انظر أيضاً كوريو Cf. Corio, Storia di Milano, fol. 408; Annales Placent., in Murat., xx, col. 907; Sis- mondi, x, p. 138. وانظر القسم السادس، الفصل الأول.

(١٧) انظر F. Bapt. Mantuani Bucolica seu Adolescentia in Decem Eclogas divisa الذي تكرر طبعه - مثلاً، في ستراسبورج عام ١٥٠٤ وتاريخ التأليف موضح بالمقدمة، المكتوبة في ١٤٩٨، والتي منها يتضح أيضاً أن تشييدى الرعاة التاسع والعاشر أضيفا في تاريخ لاحق. وفي ترويسة النشيد العاشر توجد الكلمات "post religionis ingressum"؛ وفي ترويسة النشيد السابع "cum jam au- tor ad religionem aspiraret". ولا تقتصر الأناشيد قط على حياة الفلاحين، وفي الحقيقة، فإن اثنين منها فقط هي كذلك - السادس، "disceptatione rusticorum et civium"، والذي يتخذ فيه الكاتب جانب الريفين، والثامن، "de rusticorum religione". والأناشيد الأخرى تتحدث عن الحب والعلاقات بين الشعراء والرجال الأثرياء وعن التحول إلى الدين وعن العادات والسلوك في البلاط الروماني.

(١٨) انظر Poesie di Lorenzo Magnifico, i, pp. 37 sqq.. والباحثون الإيطاليون الأكثر حداثة، بالتباين مع رأى بوركهارت، أظهروا الاتجاه الهجائي لهذا العمل - ل. ج. L. G. والقصائد الرائعة التي تنتمي إلى عهد Minnesänger الجرمانى، والتي تحمل اسم نايتهارد فون روينتال Neithard von Reuenthal، تصور حياة الفلاح فقط من حيث اختيار الفارس أن يختلط بها لتسليته. ويرد الفلاحون على سخريه روينتال بأغاني خاصة بهم. انظر أيضاً كارل شرودر Cf. Karl Schroder, Die bösisch Dorfpoesie des deutschen Mittelalters, in Rich. Gosche, Jahrb. Für Literaturgesch., pp. 45-98, espacially 75 sqq. (1 vol., Berlin, 1875).

(١٩) انظر Poesie di Lorenzo Magnifico, ii, 149.

(٢٠) فى Deliciæ Postar. Ital. ، وفى أعمال بوليتيان ، Politian. الطبعة المنفصلة الأولى، فلورنسا، ١٤٩٢ . وتحتوى قصيدة روتشيللاى Rucellai التعليمية Le Api ، التي طبعت أول مرة فى ١٥١٩، وقصيدة ألامانى Alamanni, La Coltivazione (Paris, 1546) على شيء من مثل هذا القبيل.

(٢١) انظر Poesie di Lorenzo Magnifico, ii, 75. تحمل القصيدة فى طبعات أخرى عنوان La Bru- nella ، وطبقاً لكارديوتشى Carducci ، فإنها ليست من تأليف بوليتيان - ل. ج. L. G.

(٢٢) وينبثق تقليد اللهجات المختلفة وأساليب مختلف المناطق من نفس الميل. انظر أيضاً الفصل الرابع، القسم الثانى.

(٢٣) انظر Jo Pici Oratio de Hominis Dignitate والفقرة هى كما يلي: "Statuit tandem opti- mus opifex ut cui dari nihil proprium poterat commune esset quidquid privatum singulis fuerat. Igitur hominem accepit indiscretæ opus imaginis atque in mundi posito meditullio sic est allocutus: Nec certam sedem, nec propriam faciem, nec munus ullum peculiare tibi dedimus, O Adam, ut quam sedem, quam faciem, quae munera tute optaveris, ea pro voto pro tua sententia habeas et possideas. Definta Oæteris natura inter præscriptas a nobis leges coercetur, tu nullis augustiis

coercitus pro tuo arbitrio, in cuius manus te posui, tibi illam præfines. Medium te mundi posui ut circumspiceres inde commodius quid quid est in mundo. Nec te cælestem neque terrenum, neque mortalem neque immortalem fecimus, ut tui ipsius quasi arbitrius honorariusque plastes et fctor in quam malueris tute formam effingas. Poteris in inferiora quæ sunt bruta degenerare, poteris in superiora quæ sunt divina ex tui animi sententia regenerari. O summam dei patris liberalitatem, summam et admirandam hominis felicitatem. Cui datum id habere quod optat, id esse quod velit. Bruta simulatque nascuntur id securum afferunt, ut ait Lucilius, e bulga matris quod possessura sunt; supremi spiritus aut ab initio aut paulo mox id fuerunt quod sunt futuri in perpetuas ætemitates. Nascenti homini omnifaria semina et omnigenæ vitæ germina indidit pater; quæ quisque excoluerit illa adolescent et fructus suos ferent in illo. Si vegetalia planta fiet, si sensualia, obbrutescet, si rationalia, c leste evadet animal, si intellectualia, angelus erit et dei filius, et si nulla creaturarum sorte contentus in unitatis centrum suæ se receperit, unus cum deo spiritus factus in solitaria patris caligine qui est super omnia constitutus omnibus antestabit."

والخطبة تظهر لأول مرة في تعقيبات جو بيكوس Jo. Picus Commentationes of Jo. Picus بعنوان خاص؛ وترويسة "De Hominis Dignitate" أضيفت لاحقاً. وهو غير مناسب تماماً، حيث أن جزءاً من المحاضرة مخصص للدفاع عن فلسفة بيكو الغربية، ومديح القابalah اليهودية. وعن بيكو انظر أعلاه الفصل الثالث، القسم الثالث، وأسفله الفصل الرابع، القسم السادس. وقبل ذلك بكثير من مائتي سنة قال برونيئو لاتيني (Brunetto Latini (Il Tesoro, lib. I, cap. 13, ed. Chabaille, p. 20) ما نصه: Toutes choses dou ciel en aval sont faites pour l'ome; mais li hom a faiz pour lui meisme." (كل الأشياء في السماء العليا صنعت للإنسان، ولكن الإنسان عمل لنفسه فقط) والكلمات تبدو لمعاصر أنها تحتوي على كثير من الكبرياء البشري، وقد أضاف: "e por Dieu amer et servir" (ولله الحب والخدمات والحصول على السرور).

(٢٤) إشارة إلى سقوط إبليس والتابعين له.

هوامش الفصل الأول ، القسم الخامس

- (١) وكانت العادة المنتشرة بين نبلاء بيديمونت فى الإقامة فى قلاعهم تدهش الإيطاليين الآخرين بأنها نادرة. انظر بانديلو. Bandello,, ii, Nov., 12.
- (٢) وكانت تلك هى الحال قبل اختراع الطباعة بوقت طويل. وانتسب عدد كبير من المخطوطات ، ومن بينها أفضلها، إلى الحرفيين الفلورنسيين. ولولا مشعلة سافونارولا الكبيرة لبقى عدد أكبر منها.
- (٣) انظر دانتي. Danti, De Monarchia, lib. ii, cap. 3.
- (٤) انظر الفردوس Paradiso, xvi فى البداية.
- (٥) انظر دانتي Covivio، وتقريباً كل Trattato, iv، وفى مواضع أخرى. ويقول برونيتو لاتيني Brunetto Latini فى De ce la ver- " ما نصه: Il Tesoro, lib. i, p. ii, cap. 50, ed. Chabaille, p. 343 tui nasqui premierement la nobleté de gentil gent, non pas de ses ancetres" الفضيلة تخص النبلاء وليس أسلافهم ؛ ويحذر الناس lib. ii, p. ii, cap. 196, p.440 من أنهم قد يفقدون النبالة الحققة عن طريق التصرفات السيئة. ويوضح جاسبارى Gaspary, Geschichte der Ital. Literature, p. 518 أن جملة النبالة لا تعتمد على المولد، ولكن فقط على الفضيلة، كانت فى ذلك الوقت شيئاً مألوفاً مبتدلاً للشعراء ولنزاعات مدارس البيان. ويماثل بترارك فى Petrarch, De Rem. Utr. Fort., lib. i, dial. xvii يقول: "Verus nobillis non nascitur, sed fit".
- (٦) انظر Poggi Opera, Dial. De Nobilitate. ويقارع بلاتينا وجهة نظر أرسطو بجلاء فى B. Plati- na, De Vera Nobilitate (Opp., ed. Colon., 1573).
- (٧) وهذا الاحتقار للمولد النبيل شائع بين الإنسانيين. انظر الفقرات القاسية فى إينياس سيلفيوس Æneas Sylvius, Opera, pp. 84 (Hist. Bohem., cap. 2) and 640 (story of Lucretia and Eur- yalus قصة لوكريشيا ويوريالوس).
- (٨) وهذه هى الحالة فى العاصمة نفسها. انظر بانديلو Bandello, ii, Nov. 7؛ وانظر جوثيانوس بونتانوس Jov. Pontan., Antonius، حيث يرجع تاريخ اضمحلال قوة النبالة إلى مجى سلالة أسرة أراجون الحاكمة.
- (٩) وكان شيئاً عاماً فى جميع أنحاء إيطاليا أن مالك الأراضى الكبير كان يقف على قدم المساواة مع النبلاء. وإنه لمن التلق فحسب عندما يضيف ج. أ. كامبانوس J. A. Campanus إلى تصريح بيوس الثانى Commentarii, p. 1 أنه عندما كان طفلاً ساعد أبويه الفقيرين فى عملهم الريفى الشاق، التأكيد بأنه فعل ذلك فقط لتسلية الخاصة، وأن تلك كانت عادة النبلاء الشبان. Voigt, ii, 339.

- (١٠) عن تقدير النبالة في شمال إيطاليا، فإن بانديللو بتوبيخاته المتكررة عن *mésalliances*، يعتبر ذو أهمية. *Nov. 4, 26; iii, Nov. 60; also iv, Nov. 8.* والنبل الميلاني الذي هو في نفس الوقت تاجراً يعتبر حالة نادرة. *iii, Nov. 37.* وعن اشتراك النبلاء في الألعاب مع الفلاحين، انظر أعلاه.
- (١١) وأحكام ماكيفاللي القاسية في *Discorsi*, i, 55، تشير فقط إلى أولئك النبلاء الذين كانوا لا يزالون يحتفظون بحقوق إقطاعية، والذين كانوا عاطلين بكل ما في الكلمة من معنى وأشرار عابثون من الناحية السياسية. وقد قدم أجريباً من نيتيسهايم *Agrippa of Nettesheim*، الذي يدين بمعظم أفكاره الرائعة إلى حياته في إيطاليا، فصلاً عن النبالة والأمراء، *De Incert. et Vanit. Scient.*, cap. 80، والذي تتعدى المرارة فيه أي شيء يمكن مقابله في أي موضع آخر، ومرجعها إلى القلق الاجتماعي الذي كان سائداً في الشمال.
- (١٢) انظر ماسوتشيوي. *Massuccio*, Nov. 19 (ed. Settembrini, p. 220, Naples, 1874) وظهرت أول طبعة من الروايات في ١٤٧٦.
- (١٣) من جاكويو بيتي إلى كوسيمو الأول. *Jacobo Pitti to Cosimo I, Archiv. Stor.*, iv, ii, p. 99. وأدى الحكم الإسباني في شمال إيطاليا إلى نفس النتائج. ورواية بانديللو *Bandello*, ii, Nov. 40 يرجع تاريخها إلى هذه الفترة.
- (١٤) وعندما يُلْمَحُ فيسبازيويانو فيورنتينو في القرن الخامس عشر (صفحات ٥١٨، ٦٢٢) بأن الأثرياء لا ينبغي أن يحاولوا زيادة ثروتهم الموروثة، بل ينفقوا دخلهم السنوي بأجمعه، فإن ذلك يعني فقط، بمفهوم رجل فلورنسي، كبار ملاك الأراضي.
- (١٥) انظر فرانكو ساكيتي. *Franco Sacchetti*, Nov. 153. وانظر أيضاً. *Cf. Nov. 82 and 150.*
- (١٦) "Che la cavalleria è morta".
- (١٧) انظر بوجيوس *Poggius, De Nobilitate*, fol. 27. وانظر أعلاه الفصل الثالث، القسم الأول. ويجد إينياس سيلفيوس *Hist. Fried. III*, ed. Kollar, p. 294 نقيصة وعيباً في السهولة التي كان يمنح بها فريديريك لقب فارس في إيطاليا.
- (١٨) انظر فاساري *Vassary*, iii, 49 and note, *Vita di Dello Reumont*, Lorenzo dei روميونتي في عام ١٢٧٨، انظر *Medici*, ii, 444 sqq.. ويوجد عمل *Cermoniale della Repubblica Fiorentina nel far Cava-* *lieri e Ricever Oratori compilato de Francisco Filarete Araldo (Nozze)* (Pisa, 1884).
- (١٩) انظر سيناريجا *Senarega, De Rep. Gen.*, in *Murat.*, xxiv, col. 525. وفي زواج يومان أدورنوس *Joh. Adurnus* على ليونورا دي سانسفيرينو *Leonora di Sanseverino*، حدث الآتي: *certamina equestris in Sarzano edita sunt . . . proposita et data victoribus præmia. Lud multifformes in palatio celebrati a quibus tanquam a re nova pende-bat plebs et integros dies illis spectantibus impendebat.*
- (٢٠) من بتاراك *Epist. Senil.*, xi, 13 إلى أوجو ديستي *Ugo d'Este*. وفقرة أخرى في *Epist. Fam.* *lib. v, Ep. 6* في ١ ديسمبر ١٢٤٢، تصف الاشمزاز الذي شعر به عندما رأى فارساً يسقط في منازلة

البرجاس في نابولي- وعن الحقوق القانونية القديمة بالنسبة لمنازلة البرجاس في نابولي انظر الترجمة الإيطالية لفرانسيسكو كاستيليوني لرسائل بترارك. ii, p. 34 (Florence, 1864). ب. البرتي أيضاً خطر وعدم فائدة ومصروفات منازلات البرجاس. انظر. Della Famiglia, Opp. Volg., ii, 229.

(٢١) انظر. Nov. 64. وبالإشارة إلى هذه الممارسة يقال بجلاء في أورلاندينو (ii, str. 7) عن Orlandino منازلة برجاس في عهد شارلمان: "هنا لم يكن طباخون ومرمطونات، بل ملوك وأدواق ومركيزات هم الذين كانوا يتقاتلون".

(٢٢) وهذه واحدة من أقدم المحاكيات الساخرة للمنازلة. وقد مرت ستون عاماً قبل أن يقيم جاك كور Jacques C ur ، المواطن - الوزير للمالية في عهد شارل السابع، منازلة للحمير في فناء قصره في (بورج Bourges حوالي ١٤٥٠). وألغ هذه المحاكيات الساخرة - الأغنية الثانية من أورلاندينو والمقتبسة مسبقاً - لم يتم نشرها حتى ١٥٢٦.

(٢٣) انظر أيضاً شعر بوليتيان ولوكا بولتشي (الفصل الثامن، القسم الأول، هامش ٤) المقتبس سابقاً. بالإضافة إلى ذلك، ياول. جوفيويس Paul. Jovius, Vita Leonis X, lib. i. وماكيافيللي Storie Fior- ent., lib. ii. وياول. جوفيويس. Elogia, pp. 187 sqq. And 332 sqq. متحدثاً عن بيبيترو دي ميديتشي، الذي أهمل واجباته العامة من أجل هذه التسلييات، وعن فرانش. بورونيوس Franc. Bor- bonius ، الذي فقد حياته فيها؛ وفاساري Vasari, ix, 219, Vita de Granacci. وفي عمل بولتشي Morgante ، المكتوب تحت إشراف لورنزو، فإن لغة وتصرفات الفرسان كوميديية، ولكن ضرباتهم قوية ثابتة وعلمية. ويكتب بوجاردو Bojardo أيضاً لأولئك الذين يفهمون منازلات البرجاس وفن الحرب. انظر أيضاً الفصل الرابع، القسم الرابع. ونحن نقرأ في التاريخ الفلورنسي المبكر عن منازلة على شرف ملك فرنسا، حوالي ١٢٨٠، في عمل ليوناردو أريتينو. Hist. Flor., lib. xi, p. 222 (ed. Argent.). وتذكر المنازلات في فيرارا في عام ١٤٦٤ في Diario Ferrarese, in Murat., xxiv, col. 208 ؛ وفي البندقية انظر سانسوشينو Venezia, fol. 153 sqq. ؛ وفي بولونيا في ١٤٧٠ وما بعدها انظر بورسيليس Borsellis, Annal. Bonon., in Murat., xxiii, col. 898, 903, 906, 908, 911 حيث من اللافت للنظر أن يلاحظ الخليط الغريب من النزعة العاطفية المتعلقة بالاحتفال بالانتصارات الرومانية؛ فنقرأ في أحد المواضع "ut antiquitas Romana renovata vederetur" وفقد فيديريجو من أوربينو (الفصل الخامس، القسم الأول) عينه اليمنى في منازلة "ab ictu lanceæ" وعن المنازلة كما كانت تقام في دول الشمال، انظر أوليفيه دي لا مارش Olivier de la Marche, Mémoires, pas- sim, and especially cap. 8, 9, 14, 16. 18. 19. 21. etc..

في رسم فلورنسي من القرن الرابع عشر انظر. Rep. f. Kunstwiss (1899).

(٢٤) انظر بالد. كاستيليوني Bald. Castiglione, Il Cortigiano, lib. i, fol. 18.

هوامش الفصل الثاني ، القسم الخامس

(١) انظر باول. چوفينوس، Elogia، تحت "بتروس جرافينا" Petros Gravina و"ليكس. أخيلينوس Alex. Achillinus" و"بالت. كاستيليو" Balth. Castello، إلخ. صفحات ١٢٨ وما بعدها، ١١٢ وما بعدها ، ١٤٢ وما بعدها. وجعل ل. بروني L Bruni الرداء الأحمر، الذي يصل إلى الكاحل، شهيراً .
(٢) انظر Casa, Il Galateo, p. 78.

(٣) انظر عن هذه النقطة الكتب البندقية عن موضة الأزياء، وسانسافينو Venezia, fol. 150 sqq. ووثوب العروس في الخطبة - الأبيض مع الشعر المرسل بحرية على الأكتاف - هو ثوب فلورا الخاصة بتيتيان. وأسس "Proveditori alle pompe" في البندقية في ١٥١٤ ، انظر مقتطفات من قراراتهم في عمل أرمان باشيت (Armand Baschet, Souvenirs d'une Mission (Paris, 1857) وحظرت الأردية المشغولة بالذهب في البندقية في ١٤٨١، والتي كانت ترتديها فيما مضى حتى زوجات الخبازين؛ وأصبحت الآن يتم تزيينها "gemmis unionibus"، حتى إن "frugalissimus ornatus" أصبحت قيمتها أربعة آلاف فلوريناً ذهبياً. انظر م. أنت. سابيليتشي M. Ant. Sabellici, Epist., lib. iii to M. Anto. Barbavarus.

(٤) انظر چوفيانوس بونتانوس De Principe حيث يقول : Utinam autem non eo impudentie per- ventum esset, ut inter mercatorem et patricium nullum sit in vestitu ceteroque ornatu iescrimen. Sed hi tanta licentia reprehendi potest, coerceri non potest, quanquam mutari vestes sic quotidie videamus, ut quas quarto ante mense in deliciis habebamus, nunc repudiemus et tanquam veteramenta abjiciamus. Quodque tolerari vix potest, nullum fere vestimenti genus probatur, quod e Galliis non fuerit adductum, in quibus levia pleraque in pretio sunt, tametsi nostri persape homines modum illis et quasi formulam quandam prascrībant.*.

(٥) انظر، مثلاً، Diario Ferrarese, in Murat., xxiv, col. 297, 320, 376 sqq. ، والذي تم التحدث فيه عن آخر صيحة في الأزياء الجرمانية؛ ويقول مؤرخ الأحداث : "Che pareno buffoni tali porta-tori".

(٦) وهذه الفقرة المشوقة من عمل نادر جداً ربما يمكن أن تقتبس هنا. انظر أعلاه الفصل السادس، القسم الرابع، هامش ٨، والحادثة التاريخية المشار إليها هي غزو ميلانو على يد أنتونيو ليفا Antonio Leiva، قائد جيش شارل الخامس، في ١٥٢٢: "Olim splendidissime vestiebant Mediolanenses." Sed postquam Carolus Cæsar in eam urbem tetram et monstruosam bestiam im-misit, ita consumpti et exhausti sunt, ut vestimentorum splendorem omnium

maxime oderint et quemadmodum ante illa durissima Antoniana tempora nihil aliud fere cogitabant quam de mutandis vestibus, nunc alia cogitant ac in mente vesant. Non potuit tamen illa Leviana rabies tantum perdere, neque illa in exhausta deprædandi libidine tantum expilare, quin a re familiari adhuc belle parati fiant atque ita vestiant quemadmodum decere existimant. Et certe nisi illa Antonii Levæ studia egregios quosdam imitatores invenisset, meo quidem iudicio, nulli cederent. Neapolitani nimium exercent in vestitu sumptus. Genuensium vestitum perelegantem iudicio neque sagati sunt neque togati. Ferme oblitus eram Venetorum. Ii togati omnes. Decet quidem ille habitus adulta ætate homines, juvenes vero (si quid ego iudico) minime utuntur panno quem ipsi vulgo Venetum appellant, ita probe confecto ut perpetuo durare existimes, sæpissime vero eas vestes gestant nepotes, quas olim tritavi gestarunt. Noctu autem dum scortantur ac potant, Hispanicis palliolis utuntur. Ferrarienses ac Mantuani nihil tam diligenter curant, quam ut pileos habeant aureis quibusdam frustillis adornatos, atque nutanti capite incedunt seque quovis honore dignos existimant, Lucenses neque superbo, neque abjecto vestitu. Florentinorum habitus mihi quidem ridiculus videtur. Reliquos omitto, ne nimius sim." *شيرينوس Ugolinus*، في *De Illustratione Urbis Florentiæ*، عن بساطة الأيام الخوالي:

Lana erat in pretio, non concha aut coccus in usu."

non externis advecta Britannis"

(٧) انظر أيضاً الفقرات عن نفس الموضوع في فالكة Falke, *Die Deutsche Trachten und Moden-* welt (Leipzig, 1858).

(٨) عن نساء فلورنسا انظر المراجع الرئيسية في جيوفاني فيلاني *Giov. Villani*, x, 10 and 150 القواعد الخاصة باللبس، والغاؤها): وماتيو فيلاني *Matteo Villani*, i, 4، الحياة المتطرفة كنتيجة للطاعون. وفي الرسوم الشهير عن موضة الأزياء في عام ١٢٢٠، سمح فقط بالأشكال المشغولة على ملابس النساء، مع منع تلك التي ترسم بالألوان *dipinto* ويظهر أن طبيعة هذه الزخرفة كانت مبهمة. ويوجد في عمل بوكاتشيو *De Cas. Vir., lib. i, cap. 18, in mulieres قائمة* بفنون الزينة (الماكياج) التي تمارسها النساء.

(٩) والشعور المستعارة المصنوعة من الشعر الحقيقي كانت تسمى *capelli morti* وكان الرجال أيضاً يضعون الشعر المستعار، مثل جيانوتزو مانيتي، انظر *Vesp. Bist., Commentario*, p. 103؛ وعلى ذلك فنحن سنشرح هذه الفقرة الغامضة بعض الشيء. انظر مثلاً للأسنان الصناعية المصنوعة من العاج، والتي كان يضعها مطران إيطالي، ولو أنها كانت من أجل أن يستطيع النطق والكلام بوضوح، في أنسهيلم *Anshelm, Berner Chronik*, iv, p. 30 (1508). *الموضع المذكور* كانت: *Dentes casu sublato reformare ebores fuscato pigmentis gem- misque in albedinim revocare prestinam*."

- (١٠) انظر إنفيسُورا Infessura, in Eccard, Scriptorum, ii, col. 1874. وانظر أليجريتو Allegret-to, in Murat., xxiii, col. 823. وعن الكتاب عن سافونارولا انظر أسفله.
- (١١) سانسوفينو Venezia, fol. 152. حيث يقول : "Capilli biondissimi per fozza di sole." انظر أيضاً صفحة ٨٩، والأعمال النادرة التي اقتبسها إيريارتي Yriarte, Vie d'un Patricien de Venise, p. 56 (1874).
- (١٢) كما كان الحال في ألمانيا أيضاً. انظر. Poesie Satiriche, p. 119 (Milan, 1808). ومن هجاء برناردو جيامبوللاري Berm. Gaiambullari, Per prendere Moglie (pp. 107-126) ، يمكننا أن نكون فكرة عن كيمياء الزينة (المكياج)، التي كانت مؤسسة بصورة كبيرة على الخرافات والسحر.
- (١٣) ولم يدخر الشعراء وسعاً لإظهار قبح وخطر وسخافة هذه الممارسات. انظر أيضاً أريوستو Cf. Arios-to, Sat., iii, 202 sq.؛ وأريستينو Il Marescalco, atto ii, scena 5 وفقرات عديدة مختلفة في Ragionamenti : وجيامبوللاري (الموضع المذكور) : وفيل. بروالدوس الأسن في Carmina؛ وكذلك فيلبيلفو في هجائياته. Satires, iv, 2-5 sq. (Venice, 1502).
- (١٤) ويقدم تشينينو تشينيني Cennino Cennini, Trattato della Pittura, cap. 161 وصفة لتلوين الوجه، من الجلى أنها من أجل الأسرار الخفية أو الحفلات التنكرية، حيث إنه في cap 162 يحذر قراءه برزانة من تعميم استخدام مستحضرات التجميل وما شاكلها، التي كانت شائعة بصورة فريدة، حسبما يخبرنا، في توسكانيا.
- (١٥) انظر أيضاً Cf. La Nencia de Barberino, str. 20 and 40. ويعد المحب محبوبته بأن يحضر لها مستحضرات التجميل من المدينة (انظر عن هذا قصيدة لورنزو دي ميديتشي، أعلاه، الفصل الثامن، القسم الرابع).
- (١٦) انظر أنيولو باندولفيني Agnolo Pandolfini (L. A. Alberti), Trattato della Governo della Famiglia, p. 118. وهو يشجب هذه الممارسة بقوة شديدة.
- (١٧) انظر تريستان. كاراتشيولو Tristan. Caracciolo, in Murat., xxii, col. 87. وانظر بانديللو Bandello, ii, Nov. 47.
- (١٨) انظر cap. i إلى كوسيمو: "Quei cento scudi nuovi e profumati che l' altro di mi man- daste a donare". وبعض الأشياء التي يرجع تاريخها إلى تلك الفترة لم تفقد بعد رائحتها. وهل يمكن أن كلمة profumati استخدمت بصورة مجازية لتعني "وسيم"؟
- (١٩) انظر فيسبازيانو فيوررنتينو ص. ٤٥٢، في سيرة حياة نوناتو أتشياجولي Donato Acciajuoli, ص. ٦٢٥، في سيرة حياة نيكولو.
- (٢٠) انظر جيرالدي Hecatommithi, Introduz., Nov. 6. وبعض الملاحظات عن الجرمان في إيطاليا لن تكون خارج الموضوع. فعن الفزو الجرمانى، انظر الفصل العاشر، القسم الأول، هامش ٦٢؛ وعن الجرمان بوصفهم نساخاً وطبّاعين، انظر الفصل الثالث، القسم الثالث والهوامش؛ وعن السخرية من أندريان السادس بوصفه جرمانياً، انظر الفصل الرابع، القسم الثاني والهوامش. وكان الإيطاليون على وجه العموم يتخونون موقفاً عدائياً من الجرمان، وأظهروا بغضهم بواسطة السخرية. ويقول بوكاتشيو في الديكاميرون ا، Decamerone, viii, ما نصه : "Un Tedesco in soldo . . . pro della persona"

e assai leale a coloro ne' cui servigi si mettea; il che rade voltre suole de' Tedeschi avvenire". والقصة مقدمة على أنها مثال للبراعة والدهاء الجرمانى. والإنسانيون الإيطاليون يهاجمون بشدة البرابرة الجرمان، وبخاصة الذين، مثل بوجيو، قد شابهوا ألمانيا. انظر أيضاً فويجت Cf. Geiger, Beziehungen zwischen Voigt, Wiederbelebung, pp. 374 sqq. Deutschland und Italien Zeit des Humanismus, in Zeitscherer für deutsche Kultur-Janssen, Gesch. Der deuts- جانسن : وانظر أيضاً geschichte, pp. 104-124 (1875) chen Volkes, i, 262. وكان يوهان أنتونيو كاميانوس واحداً من المناهضين الرئيسيين للجرمان. انظر أعماله مطبوعات Mencken ، الذى ألقى محاضرة De Campani Odio in Germanos. واشتدت قوة بغض الجرمان عن طريق سلوك أدريان السادس، وأيضاً بطريقة أشد عن طريق سلوك فرج الجند أثناء نهب روما انظر جريجوروفوس، Gregorovius, viii, 548, note. ويختار بانديلو فى iii, Nov. 30 الرجل الألماني كنموذج للرجل القدر الأحمق (انظر 51، أئعن رجل ألماني آخر). وعندما يرغب إيطالى فى أن يمدح ألمانيا، مثل بتروس ألسيونوس فى إهدائه ديالوج De Exilio، إلى نيكولاوس شوميرج Nico-laus Schomberg, p. 9. فإنه يقول: "Itaque etsi in Misnensi clarissima Germaniæ provincia illustribus natalibus ortus es, tamen in Italiæ luce cognosceris."

نادر- مثلاً، عن السيدة الألمانية فى زمن ماريوس Marius, Cotigiano, iii, cap. 33.

ولابد من إضافة أن إيطالى عصر النهضة، مثل إغريق العهد العهيد، كانوا مملوئين بالبغض الشديد لجميع البرابرة الهمج. ويتحدث بوكاتشيو فى De Claris Mulieribus، فى المقال Carmenta، عن البربرية الألمانية والهمجية الفرنسية والبراعة الإنجليزية والخشونة الأسبانية.

(٢١) وياول. جوثيوس Elogia, p. 289، مع ذلك، لا يذكر التعليم الجرمانى، ولم يمكن أبداً إقناع ماكسيميليان، حتى على يد النساء الشهيرات، أن يغير ملبسه الداخلىة.

(٢٢) ويقول إينياس سيلفيوس (Vita Papporum, in Murat., iii, ii, col. 880). متحدثاً عن بوكاتشيو: "Pauca sunt mapalia eaque hospitia faciunt Theutonici; hoc hominum genus totam fere Italiam hospitalem facit; ubi non repereris hos, neque divensorium quaeras."

(٢٣) انظر فرانكو ساكيتى Nov. 21. وتفاخرت بادوا، حوالى ١٤٥٠، بخان أو نزل عظيم- "الثور" - مثل القصر، يحتوى على اسطبل مجهز لمائتين من الخيول. انظر ميشيل ساقونارولا in Murat., xxiv, col. 1175. وكان يوجد بفلورنسا، خارج باب سان جالو Porta S. Gallo، أكبر وأقخم الخانات والنزل المعروفة آنذاك، ولكنها كانت تستخدم فقط، كما يبدو، كمكان للتسوية لأهل المدينة. انظر فاركي Stor. Fi-orent., iii, p. 86. وفى عهد اسكندر السادس كان أفضل خان فى روما يملكه ألماني. انظر الملاحظات الرائعة المأخوذة من مخطوط بوركارديوس Burcardus فى جريجوروفوس، Gregorovius, vii, 361, note 2. انظر أيضاً المصدر السابق Cf. ibid, p. 93, notes 2 and 3.

(٢٤) انظر أيضاً، مثلاً، الفقرات فى سياستيان برانت Sebastian Brant's Narrenschiff، وفى يوميات إيراسموس Erasmus, Colloquies، وفى القصيدة اللاتينية لجروبيانوس Grobianus، وفى كتاب وطمساند ويمبفلينج Wimpfeling البيداغوجية عن السلوك على المائدة، حيث، بجانب وصف العادات السيئة، تُقدم قواعد السلوك الصحيح. انظر أيضاً Cf. Bumer, Anstand und Etikette nach den

C. انظر K. فيلر. Theorien der Humanisten, in N. Jahrb. f. d. klass. Altert., xiv (1904).
Weller, Deutsche Gedichte des Jahrhundert (Tübingen, 1875).

(٢٥) وتقليل شأن burle واضح من الامثلة المذكورة في رجل البلاط. Cortigiano, lib. ii, fol. 96. واحتفظت النكات العملية الفلورنسية بمكانتها بطريقة عنيدة. انظر. كيرمان. حكايات لاسكا (انتونيو فرانتشيسكو جراتزيني Lasca Ant. Franc. Grazini ولد ١٥٠٢، ومات ١٥٨٢)، التي ظهرت في فلورنسا في ١٥٥٠

(٢٦) عن ميلانو، انظر بانديلو. Nov. 9. وكانت توجد ستون عربية يجرها أربعة من الخيل، وعدد لا يحصى يجره اثنان؛ وكثير من العريات كانت مزينة بالنقوش ومذمبة بثناء وذات غطاء من الحرير. انظر أيضاً المصدر السابق 4. Cf. ibid., Nov. Sat, iii, 127. وأريوستو.

(٢٧) انظر بانديلو. Bandello, i, Nov. 3, iii, 42; iv, 25.

هوامش الفصل الثالث ، القسم الخامس

(١) انظر (De Vulgari Eloquentia, ed. Corbinelli (Paris, 1577), best ed. L. Bertalot (Frie- انظر drichsdorf, 1917) وطبقاً ليوكاتشيو, Vita di Dante, p. 77, فإنها كتبت قبل موته بفترة قصيرة جداً، ولكن الآن فإنه من الراجح جداً أنها تعود إلى ١٢٠٢-١٢٠٩، وهو يذكر في Convivio التغييرات السريعة والأخاذة التي حدثت في اللغة الإيطالية خلال فترة حياته.

(٢) انظر عن هذا الموضوع أبحاث ليوناردو أرتينو (Epist., ed. Mehus., ii, 62 sqq.; vi, 10) ويوجيو (Histoie Disceptativæ Convivales Tres, in the Opp., fol. 14 sqq.)، وهل في الأزمان الأبركر كانت لغة الشعب هي نفسها لغة العلماء. ويظل ليوناردو على رأيه النافي السالب؛ ويظل بوجيو على رأيه المؤيد الإيجابي ضد سلفه. انظر أيضاً الحجة المفصلة على يد ل. ب. ألبرتي في مقدمة Della Fa- miglia, iii عن ضرورة اللغة الإيطالية للعلاقات الاجتماعية.

(٣) والتقدم التدريجي الذي داومت عليه هذه اللهجة في العلاقات الأدبية والاجتماعية يمكن جدولتها بسهولة على يد عالم وطني من أهل البلاد. ويمكن أن يستبين إلى أي مدى في القرنين الخامس عشر والسادس عشر حافظت اللهجات المختلفة على مكانها، كلياً أو جزئياً، في المراسلات والوثائق الرسمية والأعمال التاريخية وفي الأدب بوجه عام. والعلاقة بين اللهجات وبين اللاتينية غير النقية تقريباً، والتي استخدمت كلغة رسمية، سيتم مناقشتها. فطرائق الحديث والنطق في مدن إيطاليا المختلفة يلاحظها لاندی Landi, Forcianæ Quastiones, fol. 7a. فيقول عن الأولى "Hetrusci vero quanquam cæteris excellent, effugere tamen non possunt, quin et ipsi ridiculi sint, aut saltem quin se mutuo lacerent؛ وفيما يتعلق بالنطق، فإن أهل سيينا ولوكا والفلورنسيين يُمدحون بوجه خاص؛ على أنه يقال عن الفلورنسيين: "Plus [jucunditatis] haberet si voces non ingurgitaret aut non ita palato lingua jungeretur".

(٤) وهكذا كان الشعور بأنها من عمل دانتي. De Vulgari Eloquentia, i, c. 17 and 18.

(٥) وكانت التوسكانية تُقرأ وتُكتب قبل هذا في بيديمونت - ولكن كانت القراءة والكتابة قليلة على أية حال.

(٦) وأيضاً كان موضع اللهجة في الاستخدام اليومي مفهوماً بوضوح. وتجراً جيوفيانو بونتانو بوجه خاص ليحذر أمير نابولي ضد استخدامها (Jov. Pontan. De Principe) وكان أفراد آل بوربون الأخيرين قليلي التدقيق بطريقة رديئة السمعة فيما يتعلق بهذا الصدد. وعن الأسلوب الذي تم به السخرية من كاردينال ميلاني كان يرغب في الاحتفاظ بلهجته الوطنية في روما، انظر بانديلو. ii, Nov. 31.

(٧) انظر بالذ. كاستيليوني Il Cortigiano, lib. i, fol. 27 sqq.. ونستطيع أن نستنتج طوال الديالوج رأى الكاتب الشخصى. والمعارضة لبترايك ويوكاتشيو غريبة جداً (ولم يتم ذكر دانتي إطلاقاً). ونحن نقرأ أن بوليتيان ولورنزو دى ميديتشى وغيرهما كانوا من التوسكان، وجديرون بالتقليد لأنهم، "e forse di non minor dottrina e guidizio".

(٨) وكان هناك، مع ذلك، حد لهذا. وأدخل الهجائيون شذرات من الإسبانية، وفولنجو من الفرنسية (تحت الاسم المستعار ليمرنو بيتوكو Limerno Pitocco فى أورلاندينو (Orlandino)، ولكن فقط على سبيل السخرية. ومن الحقائق الاستثنائية أن شارعاً فى ميلانو، كان يُطلق عليه فى زمن الفرنسيين (١٥٠٠-١٥١٢)، شارع بيل Rue Belle، أصبح الآن يسمى روجابيللا Rugabella. ولم يترك الحكم الإشباني الطويل أى تأثير فى اللغة، ونادراً ما ترك أسماء بعض حكام الولايات على الشوارع والمباني العامة. ولم يحدث إلا فى القرن الثامن عشر، بالإضافة إلى طرائق التفكير الفرنسية، أن كثيراً من الكلمات والجمل الفرنسية وجدت طريقها إلى اللغة الإيطالية. ولا يزال الحرص على صفاء اللغة فى زماننا مشغولاً بإزالتها.

(٩) انظر فيرينزولا Firenzuola, Opera, i، فى مقدمة الحديث عن الجمال الأنثوى، و ii؛ فى راجيونامنتى Ragionamenti، الذى يسبق الروايات.

(١٠) انظر بانديلو Bandello, Proemio, and Nov. 1 and 2 ويتناول لومباردى آخر، هو تيوفيلو فولنجو Teofilo Folengo المذكور أعلاه، المسألة كلها بسخرية.

(١١) يظهر أن مثل هذا المؤتمر قد عقد فى بولونيا فى نهاية عام ١٥٢٦، تحت رئاسة بيمبو. انظر رسالة كلاود. تولومى Claud. Tolomei, in Firenzuola, Opera, vol. ii, App., pp. 231 sqq.. ولم تكن هذه مسألة حرص على صفاء اللغة فقط، ولكن بالأحرى النزاع القديم بين اللومبارديين والتوسكانيين.

(١٢) ويشكو لويجي كورنارو حوالى عام ١٥٥٠ فى بداية عمله Trattato della Vita Sobria أن الرسميات والمجاملات الإسبانية، ومبدأ اللوثرية، والنهم والشهه أصبحت حديثاً تحرز تقدماً فى إيطاليا. واختفت حرية وسهولة الاختلاط الاجتماعى أمام التطرف فيما يتعلق بإكرام الضيوف وتسليتهم.

هوامش الفصل الرابع . القسم الخامس

(١) انظر فاسارى Vasari, xii, p. 9 and 11, Vita di Rustici. وعن "مدرسة الفضيحة" للفنانين المحتاجين، انظر Vita d'Aris totele, xi, 216 sqq.. وتعتبر الكابيتولى capitolu لماكيافيللى لادارة من طالبى المسرة والمتعة (Opere Minori, p. 407) كاريكاتيرات مضحكة لهذه التشريعات الاجتماعية. والوصف المعروف عن الاجتماع المسانى للفنانين فى روما فى عمل بينفينوتو تشيليني Benvenuto Cellini, i, cap. 30 هو وصف لا يضامى.

(٢) وهو ما لا بد أنه قد تم تناوله حوالى الساعة العاشرة أو الحادية عشرة. انظر بانديلو. ii, Nov. 10. alquant ministre di Ve- ويطلق براتو Prato, Archiv. Stor., iii, p. 309 على السيدات المهذبات " Cf. Luzio Renier, pp. 100-101, passim.. nere". انظر أيضاً لوتزيو رينير.

(٤) معلومات ترجمة ذاتية ويعرض رسائلها فى أ. فون رويمونت A. von Reumont's Briefe beiliger und gottes fürchtiger Italiener, pp. 22 sqq. (Freiburg, 1877).

(٥) الفقرات المهمة : Parte i, nov. 1, 3, 21, 30, 44; ii, 10, 34, 55; iii, 17, etc.. (٦) انظر أيضاً The Roscoe, Lorenzo de' Medici, iii, p. 140, and App. 17- Hawking Party وانظر روسكو- 19.

(٧) والعنوان Simposia غير دقيق؛ وينبغى أن يسمى "العودة من قطف العنب" The Return from the Vintage. ويقدم لورنزو، فى محاكاة ساخرة لجحيم دانتي، بياناً مسلياً للقائه فى فيا فاينزا Via Faenza مع أصدقائه الحميمين العائدين من الريف مترنحين تقريباً من السكر. وتوجد صورة كوميدية جداً فى الفصل الثامن لبيوفانو أريوتو Piovanno Arlotto ، الذى ينطلق ياحناً عن عطشه المفقود، متسلحاً باللحم الجاف وسمكة من الرنجة وقطعة من الجبن وسجقاً وأربع سردينات "e tutte si coccevan an del sudore".

(٨) عن كوسيمو روتشيللى Cosimo Ruccellai كمرکز لهذه الدائرة فى بداية القرن السادس عشر، انظر Arte della Guerra, lib. i. ماكيافيللى.

هوامش الفصل الخامس . القسم الخامس

(١) انظر Il Cortigiano, lib. ii, fol. 53.

(٢) يصف كاليوس كالكانيينيوس (Opere, p. 514) Caelius Calcagninus، تعليم وتربية شاب إيطالي نو حيثية حوالى عام ١٥٠٦ فى خطبة جنازة أنتونيو كوستابيلي Antonio Costabili، فيقول: أولاً، artes liberales et ingenuæ disciplinæ; tum adolescentia in iis exercitationibus acta, quæ ad rem militarem corpus et animum præmuniunt. Nunc gymnastæ [that is, the teachers of gymnastics] operam dare, luctari, excurrere, natate, equitare, venari, aucupari, ad palum et apud lanistam ictus inferre aut declinare, cæsim punctimve hostem ferire, hastam vibrare, sub armis hyemem juxta et æstatem traducere, lanceis occursare, veri ac communis Martis simulacra imitari." .
كاردانوس (De Prop. Vita, c. 7) ضمن ترميناته الرياضية القفز على الحصان الخشبي. انظر أيضاً رابليه Cf. Rabelais, Gargantua, i صفحات ٢٣ و ٢٤ عن التعليم بوجه عام، وصفحة ٣٥ عن فن الرياضة البدنية. وحتى بالنسبة للفيلولوجيين فإن مارسيليوس فيتشينيوس Marsilius Ficinus (Epist., iv, 171, Galeotto) يتطلب الرياضة البدنية، وماقيو فيجيو يتطلبها للصبيان (De Puerorum Educatione, lib. iii, c. 5).

(٣) انظر سانسوفينو Venezia, fol. 172 sqq. ويقال إنها نشأت من خلال التجديف حتى الاليدو Lido، حيث كانت تجرى ممارسة رياضة النشائية. وكان سباق القوارب الكبير فى عيد القديس بولس قد فرضه القانون من ١٣١٥ فصاعداً. وفى الأزمنة المبكرة كان هناك كثير من ركوب الخيل فى البندقية، قبل أن يتم رصف الشوارع وقبل أن تتحول الكبارى الخشبية المسطحة إلى كبار من الحجر المقنطر. ويصف بتاراك Epist. Seniles, ii, 2, p. 783 منازلة برجاس رائعة أقيمت فى ١٣٦٤ فى ميدان سان مارك، وكان لدى الودج ستينو Doge Steno، حوالى عام ١٤٠٠، إسطلبل رائع مثل أى أمير فى إيطاليا. ولكن ركوب الخيل فى المنطقة المجاورة للميدان كان محظوراً كقاعدة بعد عام ١٢٩١. وفى وقت آخر صار البنادقة معروفين بأنهم أسوأ راكبي الخيل. انظر أريوستو Sat., v, 208.

(٤) انظر عن هذا الموضوع Ueber den Einfluss der Renaissance auf die Entwicklung der Musik, by Bernhard Loos (Basel, 1875) الذى مع ذلك، لا يقدم عن هذه الفترة أكثر مما قدم هنا. وعن موقف دانتي بالنسبة للموسيقى، وعن الموسيقى بالنسبة لقصائد بتاراك ويوكاتشيو. انظر Poesie Musicali dei Secoli XIV, XV و Poesie Ital. Ined., ii, p. 139. وانظر أيضاً XVI tratte da Vari Codici per Cura di Antonio Cappelli (Bologna, 1868). والنظرين فى القرن الرابع عشر انظر فيليببو فيلانتي Vite, p. 46، وسكارديونيوس De Urb. Patav

Antiq., in Græv., Thesaur., vi, iii, col. 297. بلاط فيديريجو من أوربيينو في فيسبازيانو فيورينتينو صفحة ١٢٢ . وعن كنيسة صغيرة للأطفال (عشرة أطفال في سن من السادسة إلى الثامنة الذين كان يعلمهم فريديريجو في منزله، والذين كانوا يدرسون لهم الغناء) في بلاط هيركيوليس الأول، انظر. Diario Ferrarese, in Murat., xxiv, col. 359. وخارج إيطاليا كان لا يزال من غير المسموح أبداً للأشخاص ذوي المكانة أن يصبحوا موسيقيين؛ وحدث جدال ونزاع جدى حول هذا الموضوع في البلاط الفلمنكي لشارل الخامس الشاب. انظر هيويرت، ليود. Hubert. Leod., De vita Frid. II Palat., lib. iii. أما هنرى الثامن ملك إنجلترا فكان استثناء، وكذلك الإمبراطور الألماني ماكسيميليان، الذى كان يميل للموسيقى بالإضافة إلى جميع الفنون الأخرى. ويطلق عليه يوهان كيوسپينيان Joh. Cuspinian، فى ترجمته لحياة الإمبراطور، "Musices singu- laris amator، ويضيف قائلاً، "Quod vel hinc maxime patet, quod nostra ætate music- orum principes omnes, in omni genere musices omnibusque instrumentis in ejus curia, veluti in fertilissimo agro succreverant. Scriberem catalogum musicorum quos novi, nisi magnitudinem operis vererer." . جامعة فيينا. وقد أسهم تواجد النوق الموسيقى الشاب فرانثسيسكو سفورزا من ميلانو في الوصول إلى هذه النتيجة. انظر أشباخ (1877). Aschbach, Gesch. Der Wiener Universität, ii, 79 sqq.

ويمكن العثور على فقرة رائعة وشاملة عن الموسيقى فى الموضوع الذى لا يمكن أن نتوقعه، فى Macaro- neide, Phant. xx. وهو وصف كوميدى لرباعية، نرى منه أن الأغاني الإسبانية والفرنسية كان يتم التغنى بها كثيراً، وأن الموسيقى كان لها أعداؤها فعلاً (١٥٢٠)، وأن الكنيسة الصغيرة الخاصة لليو العاشر، والمؤلف الموسيقى، جوسكين دى برى Josquin des Près ، الذى ذُكرت أعماله الرئيسية، كانوا المدارات الرئيسية للحماس فى عالم موسيقى ذلك الزمن. والكاتب نفسه (قولنجو) يعرض فى أورلاندينو Orlandino (iii, 23, etc.) ، والذى نشره تحت اسم ليمرنو بيتوكو، فانتازيا موسيقية ذات صبغة عصرية جداً.

ويعمد بارت. فاتشيوس De Vir. Ill., p. 12 ، ليونارديوس جوستينيانوس Leonardus Justinianus بوصفه مؤلفاً موسيقياً أنتج أغنيات الحب فى شبابه والقطع الدينية فى شيخوخته. ويمجد ج. أ. كامبانوس J. A. Campanus (Epist., i, 4, ed. Mencken)، الموسيقى زاكاروس Zacarus فى تيرامو Te- ramo ، ويقول عنه، "Inventa pro oraculis habentur". انظر توماس من فورلى Thomas of For- li, "musicien du Pape" in Burchardi Diarium, pp. 62 sqq. (ed. Leibnitz).

(٥) انظر Leonis Vita Anonyma, in Roscoe, ed. Bossi, xii, p. 171. وانظر أيضاً Reges- EPalazzo Sciar- ta Leonis, No. 3315. وهل ربما هو عازف الثيولونية (الكمان) فى قصر شياراً EPalazzo Sciar- fa. ويتم مدح شخص ما اسمه جيوفان ماريا دا كورنيتو فى أورلاندينو، Orlandino, iii, 27 (Milan). Cf. Pastor, iv, 2, p. 173, note 7. انظر أيضاً باستور (1548).

(٦) انظر لوماتزو Lomazzo, Trattato dell' Arte della Pittura, etc., p. 347. ولا يؤيد النص، مع ذلك، البيان الأخير، الذى ربما يستقر على سوء فهم للجملة النهائية ، "Et insieme, vi si possono gratiosamente rappresentar convitti et simili abbellimenti, che il pittore leggendo i poeti e gli historici può trovare copiosamente et anco essendo ingenioso et ricco

d' invenzione pua per se stesso immaginaree". وعندما يتحدث عن القيثارة، فإنه يذكر ليوناردو دا فينشي والفونسو من (بوق) فيرارا. والمؤلف يدرج في عمله جميع المشهورين في ذلك العصر، ومن بينهم عدة يهود. ويمكن العثور على أكمل قائمة للموسيقيين المشهورين في القرن السادس عشر، مقسمين إلى جيل مبكر وجيل متأخر، في رابليه في مقدمة الكتاب الرابع New Prologue to the fourth book. وقد توج عازف كمان (فيرتوزو)، وهو الكفيف فرانثيسكو من فلورنسا (مات ١٣٩٠)، في البندقية بتاج من أوراق الغار بيد ملك قبرص.

(٧) انظر سانسوفينو Venezia, fol. 138 ونفس الناس بالطبع كانوا يجمعون كتب الموسيقى. وكلمات سانسوفينو هي: "è vera cosa che la musica ha la sua propria sede in questa città".

(٨) ويذكر فاساري الأكاديمية الفيلهارمونيكية Accademia de' Filarmonici بفيرونا في xi, 133، في سيرة حياة سانميكيلي Sanmichele. وكان لورنزو الفاخر في ذلك الحين (١٤٨٠) هو مركز مدرسة الهارمونية التي تتألف من خمسة عشر عضواً، من بينهم عازف الأرغن ومُصنِّع الشهير سكوارتشبالوبي Squarcialupi. انظر ديليكلون Delecluze, Florence et ses Vicissitudes, vol. ii, p. 256. ورويمونت Reumont, Lorenzo dei Medici, i, 177 sqq.; ii, 471-473. واشترك مارسيليو فيتشينو في هذه التدريبات، ويقدم في رسائله (Epist., i, 73; iii, 52; v, 15) قواعد جديدة بالملاحظة فيما يتعلق بالموسيقى. ويبدو أن لورنزو نقل شغفه بالموسيقى إلى ابنه ليو العاشر. وكان ابنه الأكبر بيترو موسيقياً أيضاً .

(٩) انظر Il Cortigiano, fol. 56 وانظر أيضاً Cf. fol. 41.

"Quatro viole da arco" وهو إنجاز عال، وباستثناء إيطاليا، ونادر بالنسبة للهواة.

(١١) انظر بانديلو i, Nov. 26، انظر أغنية أنتونيو بولونيا في بيت إبوليتا بينتيفوجليوز انظر أيضاً iii, 26، وفي تلك الأيام الرقيقة كان ذلك يسمى تدنيساً للمشاعر الشديدة التقديس. (انظر أيضاً الأغنية الأخيرة لبريتانيكوس Britannicus, Tacit., Annal., xiii, 15 ولا يسهل التمييز، من البيانات التي تركت لنا، بين إلقاء الشعر الذي يصاحبه العود أو الفيولا viola، وبين الغناء الحق.

(١٢) انظر سكارديونيوس، الموضوع المذكور.

هوامش الفصل السادس . القسم الخامس

(١) عن ترجمات حيوات النساء انظر أعلاه، الفصل الثالث، القسم الثاني، مامش ٢٥ . انظر أيضاً عمل أتيلىو هورتيس الممتاز Altilio Hortis, Le Donne Famose, descritte da Giovanni Boccacci (Trieste, 1877).

(٢) مثلاً، فى كاستيليونى، Castiglione, Il Cortigiano، وعلى نفس الأسلوب فرانتشيسكو ياريارو Fran- cesco Barbaro, De Re Uxoriam، وبوجيو Poggio, An Seni sit Uxor ducenda، والذى قيل فيه شر شديد عن النساء؛ وسخرية كودروس أورسيوس Cordus Urceus، وخاصة خطبته الرائعة An Uxor sit ducenda (Opera, fol. xvii-xxi, 1506)، وتهكمات كثير من كتاب الإبيجرامة. وينصح مارتشيلوس بالينجينوس (vol. i, p. 304) Marcellus Palingenius (lib. iv, pp. 275 sqq.; v, 466-585) : وكوسيلة لإخضاع الزوجات غير الطبيعات فإنه ينصح الرجال المتزوجين:

Tu verbera misce"

Tergaque nunc duro resonent pulsata bacillo."

أما الكتاب الإيطاليون الذين كانوا فى صف المرأة فهم بينيديتو دا تشيسينا Benedetto da Cesena, De Honore Mulierum (Venice, 1500) وداردانو Dardano, La Defesa della Donna (Venice, 1554), ice, وكان الدفاع عن أو الهجوم على النساء، والذى ساندته أمثلة من نساء شهيرات أو غير شهيرات فنازلأ حتى زمن الكاتب، قد تناوله اليهود، جزئياً باللغة الإيطالية وجزئياً بالعبرية ؛ وفيما يتعلق بالأدب اليهودى الأبرى والذى يرجع إلى القرن الثالث عشر فقد يمكننا أن نذكر أبراهام سارتيانو Abr. Sateano وإيليا جينأتزانو Elich Gen-nazzano، والأخير منهما دافع عن الأول ضد هجوم أبيجدور (Abigdor) وعن قصائدهما المخطوطة حوالى عام ١٥٠٠ انظر أيضاً شتاينشنايدر Cf. Steinschneider, Hebr. Bibliogr., vi, 48

(٣) الموجهة إلى أنيالى مالميجوتشى Annibale Maleguccio ، والتي يرقمونها فى بعض الأوقات الخامسة أو السادسة.

(٤) ولكن لم يكن هناك إعواز فى الأصوات الحث على تعليم مختلف البنات عنه للصبيان، واستنكار نشاط النساء فى أمور الثقافة - ل. ج. L. G.

(٥) وعندما قدمت الملكة المجرية بياتريس، وهى أميرة نابوليتانية، إلى قيينا فى ١٤٨٥ كانوا يوجهون إليها الحديث باللاتينية، و- arrexit diligētissime aures domina regina sæpe, cum placide au-dierat, subridendo (Aschbach, op. cit., ii, 10, note).

(٦) وكان نصيب النساء في الفنون التشكيلية ضئيلاً. وتستحق المثقفة إيسوتا نوجارولا Isotta Nogarola كلمة ذكر. وعن اتصالها مع جوارينو انظر روسميني Rosmini, ii, 67 sqq.; ومع بيوس الثاني انظر فويجت Voigt, iii, 515 sqq.

(٧) ومن وجهة النظر هذه فإنه يجب أن نحكم على حياة أليساندرا دي باردى Alessandra de' Bardi في فيسبازيانو فيورنتينو في ماي Mai, Spicileg. Rom., xi, pp. 593 sqq. والشيء بالشئ، ينكر، هو "laudator temporis acti" عظيم، ولا ينبغي أن ننسى أنه قبل مائة عام تقريباً مما يسميه الوقت البائد الجميل كتب بوكاتشيو الديكاميرون. وعن ثقافة وتعليم النساء الإيطاليات في ذلك الوقت انظر أيضاً الحقائق العديدة المقتبسة في جريجوروفوس Lucezia Borgia. وهناك كتالوج عن الكتب التي كانت تمتلكها لوكريتسيا في ١٥٠٢ و ١٥٠٢ (Gregorovius, ed. 3, i, 310; ii, 167)، التي ينبغي أن تعتبر مميزة للنساء الإيطاليات في ذلك الوقت. ونجد هناك كتاب صلوات يومية؛ وكتاباً صغيراً به الترانيم السبع المقدسة للتوبة وبعض الصلوات؛ وكتاباً من الرق به منمنمات ذهبية، عنوانه De Coppelle alla Spagnola؛ ورسائل كاثرتين من سبيننا المطبوعة؛ والرسائل الإنجيلية والأناجيل Epistles and Gos-pels المطبوعة بالإيطالية؛ وكتاباً دينياً بالإسبانية؛ ومجموعة مخطوطات من القصائد الغنائية الإسبانية، بالإضافة إلى أمثال دومينيكو لوبيز Dominico Lopez؛ وكتاباً مطبوعاً عنوانه Aquila Volante؛ وكتاب (Mirror of Faith) مرآة الإيمان) مطبوعاً بالإيطالية؛ وكتاباً إيطالياً مطبوعاً اسمه The Sup-lements of Chronicles؛ ودانتى مطبوعاً، مع تعقيب؛ وكتاباً إيطالياً عن الفلسفة؛ وأساطير القديسين بالإيطالية؛ وكتاباً قديماً عنوانه De Ventura؛ وكتاباً لوناتوس Donatus؛ وقصة حياة المسيح بالإسبانية؛ ومخطوطاً لبتراارك على ورق الرق. ولا يحتوي كتالوج ثان لعام ١٥١٦ على أية كتب علمانية غير دينية على الإطلاق.

(٨) من أنتونيوجالاتي، Epist. 3، إلى بونا سفورزا Bonna Sforza الشابة، عروس المستقبل لسيجيسموند من بولندا: "Incipe aliquid de viro sapere, quoniam ad imperandum viris nata es. . . . Ita fac, ut sapientibus viris placeas, ut te prudentes et graves viri admirentur, et vulgi et muliercularum studia et iudicia despicias," etc. رائعة في مجالات أخرى أيضاً Mai, Spicileg. Rom., viii, p. 532

(٩) وهي تسمى هكذا في Chron. Venetum, in Murat., xxiv, col. 121 sqq. ويطلق عليها إنها مشاكسة أو سليطة في بيان عن دفاعها البطولي، (ibid., col. 121). انظر أيضاً إنفيسورا Infisura, in Ecceard, Scriptorum, ii, col. 1981, and Archiv. Stor., App. II, p. 250, and Gregorovius, vii, 437, note 1.

(١٠) ويتحدث المؤرخون المعاصرون عنها أكثر مما يتحدثون عن الثقافة والفصاحة النسائية. انظر أيضاً رانك Cf. Ranke's Filippo Strozzi, in Historisch-biographische Studien, p. 371, note 2.

(١١) ويقول بانديللو، مع ذلك، (-pos. . . poichè ci manca la compagnia delle donne. . .) "L. G. . . siamo più liberamente parlare che quando siamo a la presenza loro."

(١٢) وهذا حق، في بعض الأوقات، ونعلم من Cortigiano, lib. iii, cap. 17 كيف كانت السيدات يتصرفن، بينما يتم الكشف عن مثل هذه الحكايات. ويظهر من الفقرة القوية، lib. ii, cap. 69، أن النساء اللاتي كن حاضرات أثناء دياالوجاته كن يعرفن كيف يتصرفن في حالة الحاجة. وما قيل عن نوناً دي بالاتزو Donna di Palazzoi، وهي نظير رجل البلاط - أنها يجب ألا تتجنب الرفقة ولا تستخدم لغة غير لائقة

هو غير محدد، حيث أنها كانت خادمة للأميرة أكثر منها رجل البلاط للأمير. انظر بانديلو. Nov. 44. وتقص بيانكا ديستي Bianca d'Este قصة الحب الرهيبة بين سلفها، نيقولو من فيرارا، وبين باريزينا Parisina. انظر بانديلو. i, Nov. 44؛ ولانداو Beitr. Z. Gesch. Der Ital. Nov., p. 102, note 32 (Vienna, 1875).

(١٢) انظر سانسوفينو Venezia, fol. 152 sqq. وكم كان الرحالة الإيطاليون يقدرون الاختلاط الأكثر حرية مع الفتيات في إنجلترا والأراضي الواطنة يظهره بانديلو في. ii, Nov. 44; iv, Nov. 27. وعن نساء البندقية والنساء الإيطاليات بوجه عام انظر عمل إيريارتي Yriarte, pp. 50 sqq..

(١٤) انظر باول. چوفيس De Rom. Piscibus, cap. 5: ويانديلو. iii, Nov. 42. ويقول أريتينو في Ra-gionamento del Zoppina, p. 327 عن محظية: 'إنها تعرف عن ظهر قلب جميع أعمال بتراك ويوكاتشيو، وكثيراً من القصائد الجميلة لفرجيل وهوراس وأوفيد وألف مؤلف آخر.'

(١٥) انظر بانديلو. ii, Nov. 51; iv, Nov. 16.

(١٦) انظر بانديلو. iv, Nov. 8.

(١٧) عن مثال خصيصي لهذا انظر جيرالدي. Giralddi, Hecatommithi, iv, Nov. 7.

(١٨) انظر إنفيسورا Infessura, in Eccard, Scriptorum, ii, col. 1997. والمحظيات هن المقصودات، وليس النساء المصونات. والعدد، بالمقارنة مع عدد سكان روما، كبير جداً، وربما كان ذلك بسبب بعض الأخطاء المكتبية. وطبقاً لجيرالدي، vi, 7، فإن البندقية كانت ثرية بطريقة استثنائية "di quella sorte di donne che cortigiane son dette" : انظر أيضاً إبيجرامه باسكوينوس Pasquinus (Gregoro- vius, viii, 279, note 2) ولكن روما لم تقف خلف البندقية. Giralddi, Introduz., Nov. 2. انظر أيضاً ملحوظة meretrices في روما (١٤٨٠) اللانثي تقابلن في كنيسة وتم سرقة جواهرهن وحليهن، in Burchardi Diarium, ed. Leibnitz, pp. 75-77, etc. Murat., xxii, 342 sqq. ويذكر لاندو روما وناپولي والبندقية بوصفها مقرات المحظيات cortigiane الرئيسية؛ وانظر. ibid. 286، حيث شهرة النساء في كيافيناً Chiavenna تفهم بطريقة تهكمية. ويعطى Quastiones For-cianæ, fol. 9 لنفس المؤلف معلومات مشوقة جداً عن الحب ومسرات الحب، وأسلوب ومركز النساء في المدن المختلفة بإيطاليا. ومن الناحية الأخرى، ويمدح إغناطيوس Egnatius, De Exemp. Ill. Vit., Venice, fol. 212b sqq. ويقول إن العاهرات يأتين سنويا من ألمانيا. ويقول كورن. أجر. Vidi' Com. Agr., De Van. Scientiæ, cap. 63 (Opp., ed. Lugd., ii 158) ما نصه: "Vidi ego nuper atque legi sub titulo 'Cortosanæ Italica lingua editum et Venetiis typis excusum de arte meretricia dialogum, utriusque Veneris omnium flagitiosissimum Ambr. Tra- et dignissimum, qui ipse cum autore suo ardeat.'". وفي Lettere versari (Epist., viii, 2 sqq.) على حبيبات نيقولو نيقولي "f mina fidelissima". وفي Lettere dei Principi, I, 108 (report of Negro, September 1, 1522)، توصف النساء الإغريقيات "donne Greche" بانهن "fonte di ogni cortesia et amorevolezza". وهناك سند ثقة عظيم، ويوجه خاص عن سينا، هو Hermaphroditus of Panormitatus. وتعدد "lenæ lupæque" فلورنسا 37، ii، ليس زائفاً؛ ويظهر هناك السطر:

"Annaque Theutonico tibi si dabit obvia cantu."

هوامش الفصل السابع . القسم الخامس

(١) وهل فعلاً تزوج هؤلاء الفرسان المرتحلون في الحقيقة ؟

(٢) انظر . Trattato del Governo della Famiglia. انظر أعلاه، الفصل الأول، القسم الثاني، هامش ٦ ، ومات بانولفيني عام ١٤٤٦؛ ول. ب. ألبرتي، الذي كتب العمل فعلاً، في ١٤٧٢ ، ويوضح فرانترز هاردر Franz Harder لي أن البحث كُتب بالإشارة إلى زينوفون Xenophone's Oconomi-cus ، وأنه بين القدماء المذكورين أعلاه في صفحة ١١٧ من طبعة تورين فإن زينوفون بالأخص يجب أن يُفهم. انظر بخاصة الفصول ٧-١٠ من Oconomicus- ل. ج. L. G.

(٣) ويحتاج تاريخ دقيق "للجلد" (أي الضرب بالسياط) بين الأجناس الجرمانية واللاتينية يتم تناوله بقوة سيكلوجية إلى مجلدات من الرسائل الإخبارية والمفاوضات. (وقد أجريت بداية متواضعة على يد ليشتينبيرج (Lichtenberg, Vermischte Schriften, v, 276-283) ومتى، وخلال أي نفوذ أو تأثير، أصبح الجلد ممارسة يومية في المنزل الألماني؟. ليس إلا بعد أن غنى فالتر : "Nieman kan mit gerten Kindes zuhr beherten".

وقد توقف الضرب في إيطاليا مبكراً؛ ويوصى مافيو فيجيو (مات ١٤٥٨) في De Educ. Liber., lib. I, c. 19 بالاعتدال في الجلد، ولكنه يضيف : "Codendos magis esse filios quam pestilentissimis blanditiis latandos." وفي وقت آخر لم يعد طفل في السابعة يُضرب بعد. ويضع رولاند الصغير المبدأ التالي Orlandino, cap. vii, str. 42

"Sol gli asini si ponno bastonare

Se una tal bestia fussi, patirei."

ويتحدث الإنسانيون الجرمان من عصر النهضة، مثل رودولف أجريكولا وإيراسموس، على نحو قاطع ضد الجلد، الذي كان معلمو المدارس القدامى ينظرون إليه كوسيلة لا غنى عنها للتعليم. وفي ترجمات حيوات Fahrenden Schüler عند نهاية القرن الخامس عشر (Platter's Lebensbeschreibung, ed. Fechter, Basel, 1840; Butzbach's Wanderbuch, ed. Becher, Regensburg, 1869) أمثلة صارخة على العقوبة الجسدية لهذا الزمن.

(٤) ولكن الذوق لم يكن عاماً. ويكتب ج. أ. كامبانوس (Epist., iv, 4) بقوة ضد حياة الريف. وهو يسلم بأن : "Ego si rusticus natus non essem, facile tangerer voluptate" : ولكن حيث أنه ولد فلاحاً، "quod tibi deliciæ, mihi satieta est".

(٥) انظر جيوفاني فيلاني Giovanni Villani, xi, 93، وهو خبيرنا الرئيسي عن بناء القللات قبل منتصف القرن الرابع عشر. وكانت القللات أجمل من بيوت المدينة، وبذل الفلورنسيون جهوداً كبيرة لجعلها كذلك، 'ondo erano tenuti matti.'.

(٦) انظر Trattato del Governo della Famiglia, pp. 84, 88 (Torino, 1829).

(٧) انظر أعلاه، القسم الرابع، الفصل الثاني. وكان يترارك يسمى "Sylvanus" بسبب كرهه للمدينة وحبه للريف. انظر Epist. Fam., ed. Fracassetti, ii, 87 sqq.. ووصف جوارينو لفيللا إلى جيانباتيستا كاندراتا Gianbattista Candrate, in Rosmini, ii, 13 sqq., 157 sqq. ويقول : "Sum enim deditior senectutis gratia De Vir. Ill., p. 106 رسالة إلى فاتشيوس : "rei rusticæ quam antea" .. وشبيرد - تونيللي، Maffeo Vegio De Lib. Shepherd-Tonelli, i, 255 and 261. وبالمثل مافيو شيجيو Maffeo Vegio De Lib. Educ., vi, 4 وب. بلاتينا B. Platina في بداية دياالوجه. وانظر أوصاف De Vera Nobilitate. وبلاتيان لبيوت عائلة ميديتشي الريفية في رويمونت. Reumont, Lorenzo dei Medici, ii, 73, 87. وعن الفارنيسينا Farnesina انظر جريجوروفويوس Gregorovius, viii, 114.

هوامش الفصل الثامن ، القسم الخامس

- (١) انظر أيضاً ي. بوركهارت. Cf. J. Burckhardt, *Geschichte der Renaissance in Italien*, pp. 320- 332 (Stuttgart, 1868).
- (٢) انظر أيضاً الفصل الرابع، القسم الرابع، حيث يستبين أن فخامة الاحتفالات كانت عائقاً للتطور الأعلى للدراما.
- (٣) بالمقارنة بمدن الشمال.
- (٤) ولم تبدأ إقامة الموكب في عيد القربان المسيحي في البندقية إلا عام ١٤٠٧؛ انظر تشيكيّتي، Cecchetti, *Venezia a Corte di Roma*, i, 108.
- (٥) كان في الاحتفالات التي أقيمت عندما تم تقليد فيسكونتي دوقاً لميلانو، في ١٣٩٥، انظر كوريو، Corio, fol. 274، بالرغم من روعتها، شئ من خشونة القروسطية، والعنصر الدرامي كان مفتقراً بالكامل. ولاحظ، أيضاً، عدم الأهمية النسبية للمواكب في باقيا خلال القرن الرابع عشر (Anonymus de Lau-) *dibus Papie*, in Murat., xi, col. 34 sqq).
- (٦) انظر جيوفاني فيلاني، Gio. Villani, viii, 70.
- (٧) انظر، مثلاً، إنفيسورا in Eckard, *Scriptores*, ii, col. 1896. وكوريو، Corio, fols. 417, 421.
- (٨) كان الديالوج في الأسرار الخفية من نوع "الجواب" (الأوكتاف) بوجه رئيسي، والمونولوج من نوع terzine. وعن الأسرار الخفية انظر ج. ل. كلاين، J. L. Klein, *Geschichte der Ital. Dramas*, i, 153 sqq..
- (٩) ولا حاجة بنا للإشارة إلى واقعية اللاهوتيين لإثبات ذلك. وحوالي عام ٩٧٠ أوصى الأسقف فيبولد من كامبراي Bishop Vibold of Cambray لرجال الدين التابعين له، بدلاً من الزهر، نوعاً من *béziqne* (وهو ضرب من لعب الورق) الروحاني، بالإضافة إلى ست وخمسين لعبة تجريدية يتم تمثيلها بعدد مسأو من المجموعات التوافقية من ورق اللعب. انظر. *Gesta Episcoporum Cameracensium*, in Mon. Germ., SS. vii, p. 433.
- (١٠) مثلاً، عندما وجد صوراً على الميتافورات (المجازات). وعند بوابة المطهر فإن درجة السلم المتوسطة المكسورة تعني ندماً من القلب *Purgatorio*, ix, 97، بالرغم من أن البلاطة عندما تكون مكسورة تفقد قيمتها كدرجة سلم (؟). وأيضاً مرة أخرى *Purgatorio*, xviii, 94، فإن العاطلين والمتبطلين عديمي الجدوى في هذه الدنيا عليهم أن يظهروا ندمهم وتوبتهم بالجرى في الآخرة، بالرغم من أن الجرى قد يعتبر رمزاً للفرار.

- (١١) انظر الجحيم 61, ix, Inferno؛ وانظر المطهر. Purgatorio, viii, 19. وبنقد بوخهامر Buchham-mer هذه القراءة لكل من الفقرتين- و. ج. W. G.
- (١٢) انظر Poesie Satiriche, pp. 70 sqq. (ed. Milan). وترجع إلى نهاية القرن الرابع عشر.
- (١٣) والأخيرة، مثلاً، في Venatio للكاردينال أدريانو دا كورنيتو (ستراسبورج، ١٥١٢؛ وقد تكرر طبعه كثيراً). وأسكانيو سفورزا هناك يُفترض أن يجد عزاء لسقوط بيته في متع المطاردة. انظر أعلاه، الفصل الحادي عشر، القسم الثالث.
- (١٤) والأدق، ١٤٥٤ انظر أوليفيه دي لا مارش. Olivier de la Marche, Mémoires, chap. 29.
- (١٥) وعن احتفالات فرنسية أخرى انظر، مثلاً، جوفينال دي أورسيسيس, Juvenal des Ursins Paris, (1614 دخول الملكة إيزابيللا)؛ وچان دي تروى Jean de Troyes, ad a. 1461, ad a. 1389 المتكرر طبعه (دخول لويس الحادي عشر). وهنا أيضاً نلتقي مع تماثيل حية وماكينات رفع الأجساد وما إلى ذلك؛ على أن الكل مفكك وغير مترابط، والمجازيات الرمزية غير مفهومة. واستمرت الاحتفالات في لشبونة في ١٤٥٢، التي أقيمت عند مغادرة إنفانتا إليونورا Infanta Eleonora، عروس الإمبراطور فريديريك الثالث، عدة أيام وكانت جديرة بالملاحظة لروعيتها وفخامتها. انظر فريهر- شتروف Freher- Nic. Lauckmann. Struve, Rer. German. Script., ii, fol. 51 - لاوكان.
- (١٦) وهي ميزة عظيمة لأولئك الشعراء والفنانين الذين كانوا يعرفون كيف يستخدمونها.
- (١٧) انظر أيضاً بارتول. جامبيا - Bartol. Gambia, Notizie intorno alle Opere di Feo Belca-ri (Milan, 1808) ويخاصة مقدمة العمل Le Rappresentazione de Feo Belcari ed altre di lui Poesie (Firenze, 1833). انظر مقدمة محب الكتب وجامعها ياكوب Jacob لطبعته لبائين. Pathelin (Paris, 1859) انظر أيضاً دانكونا - Cf. d' Ancona, Origini del Teatro Itali- ano, vols 1 and 2 (Turin, 1891).
- (١٨) من الحقيقي أن مسرحية أسرار خفية في سبيننا عن موضوع "مذبحة الأبرياء" - Massacre of the Innocents انتهت بمشهد أمسكت فيه الأمهات المنقطرات القلوب بشعور بعضهن. انظر ديلالا ثالي - Del-Feo Belcari la Valle, Lettere Sanesi, iii, p.53. وكان من أهم الأهداف الرئيسية لفيو بيلكارى - مات ١٤٨٤، الذى تكلمنا عنه آنفاً، أن يحرق الأسرار الخفية من هذه القطاعات.
- (١٩) انظر فرانكو ساكيتي Franco Sacchetti, Nov. 72.
- (٢٠) انظر فاسارى Vasari, iii, 232 sqq., Vita di Brunellesco; v, 36 sqq., Vita del Cecca. وانظر أيضاً Cf. v, 32, Vita di Don Bartolommeo.
- (٢١) انظر Archiv. Stor., App. II, p. 310. والسر الخفى لعيد البشارة في فيرارا، في مناسبة زفاف ألفونسو، مع الألعاب النارية والأجهزة الطائرة، وعن بيان عن تمثيل سوزاننا Suzanna ويوحنا المعمدان وأسطورة في منزل الكاردينال رياريو انظر كوريو، fol. 417. وعن السر الخفى لقنسطنطين الأكبر في قصر الجابوية في كرنفال ١٤٨٤ انظر چاك. فولاتيرونوس. in Murat., xxiii, col. 194. وكان الممثل الرئيسي جنوى ولد وتعلم في القسطنطينية.
- (٢٢) انظر جراتزيانى Graziani, Cronaca di Perugia, Archiv. Stor., xiv, p. 598. وعند الصلب تم إعداد تماثيل ووضع محل الممثل.

(٢٣) عن ذلك انظر جراتزياني، loc. cit., and Pii II Comment., lib. viii, pp. 383 and 386. شعر القرن الخامس عشر في بعض الأوقات نفس الخشونة. وتتبع أغنية canzone لأندريا دا باسو Andrea da Basso الأثار التفصيلية للتحلل والتعفن في جثة شقراء قاسية الفؤاد. وفي دراما رهبانية من القرن الثاني عشر وضع الملك هيروود على المسرح ومعه دود يأكل في جسده. Carmia Burana, pp. 80 sqq. وتقدم كثير من المسرحيات الدرامية الألمانية حوادث موازية.

(٢٤) انظر أليجريتو، Allegretto, Diari Sanesi, in Murat., xxii, col. 767.

(٢٥) انظر ماتاراتزو، Matarazzo, Archiv. Stor., xvi, ii, p. 36. والراهب كان قد قام سابقاً برحلة إلى روما لإجراء الدراسات اللازمة للاحتفال.

(٢٦) مقتطفات من Vergier d'Honneur, in Roscoe, Leo X, ed. Bossi, i, p. 20; iii, p. 263.

(٢٧) انظر Pii II Comment, lib. viii, pp. 382 sqq.. ويذكر بورسيلوس احتفال آخر رائع الجمال لعبد الجسد المسيحي "Corpus Domini" في Bursellis, Annal. Bonon., in Murat., xxiii, col. 911. لعام ١٤٩٢، وكانت التمثيلات من العهدين القديم والجديد.

(٢٨) وفي مثل هذه المناسبات نقراً، "Nulla di muro si potea vedere".

(٢٩) ونفس الشيء حقيقي بالنسبة لكثير من مثل هذه الأوصاف.

(٣٠) خمسة ملوك مع حاشية مسلحة، وهمجي يقاتل أسداً (أليفاً؟)؛ والأخير، ربما، يمثل تلميحاً لاسم البابا-سيلفيوس. وطبقاً لكروتشي Croce (Archiv. Stor. Napolet., xiv, 660) فلم يكن أسداً حقيقياً، ولكنه مصنوع من القش والخشب. - ل. ج. L. G.

(٣١) والأمثلة في عهد سيكتسوس الرابع، في چاك. فولاتيرانوس، Jac. Volaterranus, in Murat., xxiii, col. 135 ("bambardirum et sclopolorum crepitus"), 139. على عرش البابوية كان هناك كثير من صليات الأسلحة (أي إطلاق المدفعية دفعة واحدة). والألعاب النارية، وهي الاختراع الجميل الذي أنتجته إيطاليا، ينتمي، مثل الزينات الاحتفالية على وجه العموم، بالأحرى إلى تاريخ الفن أكثر منه إلى عملنا الحالي. وكذلك أيضاً الإنارة الرائعة التي نقرأ عنها مرتبطة بكثير من الاحتفالات، وتذكارات الصيد وزينات المائدة. (انظر الفصل الخامس، القسم الرابع، وأرتقاء يوليوس الثاني العرش البابوي تم الاحتفال به في البندقية بالإنارة لمدة ثلاثة أيام. انظر بروش Brosch, Julius, II, p. 325, note 17).

(٣٢) انظر أليجريتو، Allegretto, in Murat., xxiii, col. 772. انظر بالإضافة إلى ذلك col. 770، عن استقبال بيوس الثاني في ١٤٥٩، وتم تمثيل فردوس، وكورس من الملائكة وخرج منه ملاك وغنى للبابا، "in modo che il Papa si commosse a lagrime per gran tenerezza da si dolci parole".

(٣٣) انظر الأسناد الخبراء الثقة الذين تم الاقتباس منهم في فاغر، Favre, Mélanges d'Hist. Lit., i, 138؛ وكوريو، Corio, fol. 417 sqq.. وقائمة الطعام تملأ صفحتين مطبوعتين بخط صغير. ومن ضمن أطباق أخرى تم إنخال جبل، خطأ منه رجل حي، بدت عليه إمارات الدهشة لتواجده وسط فخامة الاحتفال؛ وتلا بعض الأشعار ثم اختفى، جريجوروثيوس 24، انظر إنفيسورا Infessura, in Eck-ard, Scriptores, ii, col. 1896; Strozii Poeti, fol. 193 sqq.. ويمكن هنا إضافة كلمة أو

كلمتين عن الأكل والشرب. فيشكو ليوناردو أريتينو Epist., lib. iii, Ep. 18 من أنه اضطر أن ينفق كثيراً على حفل زفافه وملابسه وما شاكل ذلك، حتى إنه في نفس اليوم عقّد زواجاً matrimonium ويُدّ ميراثاً patrimonium. ويصف إيرمولو باربارو Ermolau Barbaro ، في رسالة إلى بيترو كارا - Pie tro Cara ، فاتورة الطعام في حفل زفاف في تريفلوتزيو Trivulzio's Angeli Politiani Epist., lib. (iii) وقائمة اللحوم والمشروبات في ملحق عمل لاندى (Commentario أعلاه) لى مشوقة بصفة خاصة. فيتحدث لاندى عن المجهود الذى أمر ببذله فيها، مجمّعاً إياها من خمسمئة كاتب. والفقرة طويلة جداً بحيث لا يمكن اقتباسها (فنحن نقرأ هناك : "Li antropofagi furono i primi che mangias- Uter alteri gra- sero carne humana") . السؤال Opera, fol. 14 sqq., 1513 ، يقول "Uter alteri gra- sero carne humana". Uter alteri gra- sero carne humana. isne qui vocatus est ad convivium an qui vocatus vitu". ويكتب بلاتينا بحثاً De Arte Coquinaria ، يقال إنه طبع عدة مرات، واقتبس تحت عناوين عديدة، ولكنه، طبقاً لبيانه هو الخاص ، يحتوى تحذيرات ضد التطرف أكثر مما يحتوى تعليمات عن الفن الذى هو بصدده.

(٢٤) ويخبرنا فاسارى Vasari, ix, p. 37, Vita di Puntormo ، كيف أن طفلاً أثناء احتفال مثل هذا فى فلورنسا فى ١٥١٢ ، توفى من آثار الإجهاد- أو هل نقول من الطلاء بالذهب؟ وكان على الطفل المسكين أن يؤدى دور الملك الذهبى.

(٢٥) انظر فيل. بيروالدى Phil. Beroaldi, Nupti? Bentivolorum, in the Orationes Ph. B., c. 3, sqq.. ووصف الاحتفالات الأخرى فى هذا الزفاف رائع جداً.

(٢٦) انظر م. أنتون. سايبيليتشى M. Anton. Sabellici, Epist., lib. iii, fol. 17. وتصف بياتريس الاحتفال بنفسها فى رسائل لزوجها المغربى (Il Moro, نشرها إ. موتا E. Motta فى Giorn. Stor. Della Lett. Ital., vii, 386 sqq..

(٢٧) انظر أموريثى Amoretti, Memorie, etc., su Lionardo da Vinci, pp. 38 sqq..

(٢٨) ونستبين من إدخال الكواكب (غير الموصوفة بإيضاح كاف) فى استقبال عرائس الأذواق فى فيرارا، إلى أى مدى أثر علم التنجيم حتى على الاحتفالات فى هذا القرن. انظر Diario Ferrarese, in Murat., Archiv. Stor., ad a. 1473; col. 282, ad a., 1491. وكذلك، أيضاً، فى مانتوا، Archiv. Stor., App. II, p. 233.

(٢٩) ويذكر بوركهارت التاريخ على أنه ١٤٨٩، ولكن سولى (Solmi Archiv. Stor. Lomb., pp. 31, 76) يحدده بأنه ١٢ يناير ١٤٩٠، وفى صفحات ٨٠ وما بعدها يعطى، فيما يتعلق بهذا العيد، معلومة مجهولة حتى ذلك الوقت. - و. ج. W. G.

(٤٠) انظر Annale. Estens., in Murat., xx, col. 468 sqq.. والوصف غير واضح ومطبوع من نسخة غير صحيحة.

(٤١) ونحن نقرأ أن حبال الماكينات التى استخدمت لهذا الغرض كانت تصنع على غرار أكاليل الزهور.

(٤٢) بالدقة سفينة إيزيس، التى نزلت إلى الماء فى ه مارس كرمز يدل على أن الملاحه أعيد فتحها. وعن التماثلات فى الدين الجرمانى انظر جاك. جريم. Jack. Grimm, Deusche Mythologie.

(٤٣) انظر المطهر xxix صفحة ٤٢ حتى النهاية، و xxx فى البداية. وطبقاً للفصل الخامس، ص. ١١٥ ، 115 ، فإن العربة أفخم من عربة انتصار سكيبيو وأغسطس، وحتى الإله الشمس "Sun-god".

- (٤٤) انظر رانكه 2، ed. Ranke, *Gesch. Der Roman. und German. Vulker*, p. 95، وب. فيلاري P. Villari, *Savonarola*, ii, pp. 463 sqq. وشنيتر Schnitzer, *Savonarola*, ii, pp. 463 sqq.
- (٤٥) ويتناول فازيو ديلي أوبيرتي Fazio degli Uberti, *Dittamondo* (lib. ii, cap. 3) بخاصة "del modo del triumphare".
- (٤٦) انظر كوريو "dicendo tali cose essere superstitioni de' Re." Corio, fol. 401 وانظر أيضاً كانيولا Cf. Cagnola, *Archiv. Stor.*, iii, p. 127، الذي يقول أن الدوق رفض بسبب تواضعه.
- (٤٧) انظر أعلاه، الفصل السادس، القسم الثالث؛ وانظر أيضاً الفصل الثاني، القسم الأول، هامش ٩، انظر *Triumphus Alfonsi*, as appendix to the *Dicta et Facta of Panormita*, pp. 129-139، 256 sqq. (ed. 1538). وأظهر كومنيني Comneni الشهم كرهاً للاستعراض الزائد في مثل هذه المناسبات. انظر أيضاً Cf. *Cinnamus, Epitome Rer. Ab Comnenis Gestarum.*, i, 5; vi, 1.
- (٤٨) والمركز المخصص للحظ هو مميز لسذاجة naïveté عصر النهضة. وعند دخول ماسيميليانو سفورزا إلى ميلانو (١٥١٢) وقف الحظ كشكل رئيسي لقوس نصر "أعلى" الشهرة Fama، والأمل Speranza، والجرأة Audacia والتوبة Penitenza، وكلها ممثلة بأشخاص أحياء. انظر أيضاً براتو، Cf. Prato، *Archiv. Stor.*, iii, p. 305.
- (٤٩) ويظهر من دخول بورسو ديستي إلى ريجيو Reggio، الموصوف أعلاه (الفصل الثامن، القسم الخامس)، الانطباع الذي أحدثه انتصار ألفونسو في جميع أنحاء إيطاليا. وعن دخول سيزار بورجيا إلى روما في ١٥٠٠ انظر جريجوروفويس 439، vii.
- (٥٠) انظر براتو Prato، *Archiv. Stor.*, iii, p. 260 sqq. ويقول المؤلف بوضوح، "le quali cose da li triumfanti Romani se joliano anticamente usare".
- (٥١) انظر Her three capitoli in terzine, *Anecd. Lit.*, iv, 461 sqq.
- (٥٢) واللوحات القديمة للمناظر المماثلة ليست بالقطع نادرة، ولا شك أنها كثيراً ما تمثل الحفلات التكرية التي كانت تقام فعلاً. وسرعان ما اعتادت الطبقات الفنية على التريض في العريبات في كل مناسبة جلييلة عامة. ونحن نقرأ أن أنيبالي بينتيفوجليو، الابن الأكبر لحاكم بولونيا، عاد إلى القصر بعد أن رأس كحكم في التدريبات العسكرية النورية. "cum triumpho more romano." انظر بورسيليس، الموضوع المذكور، Borsellis, loc. cit., col. 909, ad a., 1490.
- (٥٣) والجنائزة الرائعة الخاصة بمالاتيستا باجليوني Malatesta Baglione، الذي تم دس السم له في بيروجيا في ١٤٢٧ (Graziani, *Archiv. Stor.*, xvi, i, p. 413)، تذكرنا بفخامة الجنائزات الإترورية. والفرسان الذين كانوا في ملابس الحداد، مع ذلك، والمظاهر الأخرى للطقوس، كانوا يطبقون عادات النبلاء في جميع أنحاء أوروبا. انظر، مثلاً، جنائزة برتران دو جيسلين Bertrand du Gueselin, in *Juvénal نو جيسلين* des Ursins, ad a. 1389. انظر أيضاً جرازاني، Graziani, loc. cit., p. 360.
- (٥٤) انظر فاساري Vasari, ix, p. 218، *Vita di Granacci*. وعن الانتصارات والمواكب في فلورنسا انظر رويمونت Reumont, *Lorenzo Medici*, ii, 433.
- (٥٥) انظر Mich. Cannesius, *Vita Pauli II*, in *Murat.*, iii, ii, col. 441 sqq.

- (٥٦) انظر توماسي. Tommasi, Vita de Cesare Borgia, p. 251. وانظر جريجوروفيفوس -Gregoro-vius, Rom., vii, 118 sqq..
- (٥٧) انظر فاساري. Vasari, ix, pp. 34 sqq., Vita di Puntormo. وهي فقرة مهمة جداً من نوعها.
- (٥٨) انظر فاساري. Vasari, viii, p. 264, Vita di Andrea del Sarto.
- (٥٩) انظر الليجريتو. Allegretto, in Murat., xxiii, col. 783. وكان يعتبر نذيراً سيئاً أن تكسر إحدى العجلات.
- (٦٠) انظر م. أنتون. سابيليتشي -M. Anton. Sabellici Epist., lib. iii, letter to M Anton. Barbav-arus.. وهو يقول: "Vetus est mos civitatis in illustrium hospitem adventu eam navim auro et purpura insternere."
- (٦١) انظر سانسوفينو. Sansovino, Venezia, fol. 151 sqq. وأسماء هذه المؤسسات هي باثوني Pavoni، وأكسيسسي Accessi، وإيتيرني Eterni، وريالي Reali، وسيمبيتيرني Sempiterni. ومن الراجع أن الأكاديميات كان منشأها في هذه النقابات.
- (٦٢) ١٢ أبريل ١٤٩٥، الاحتفال بالسلام مع البابا والإمبراطور. انظر أيضاً M. Anton. Sabellici. Cf. Epist., lib. v, fol. 28، الرسالة الأخيرة إلى م. أنتون. باربانافوس.
- (٦٣) "Terri globum socialibus signis circumquaque figuratum," and "quinis pegmatibus," quorum singula f deratorum regum, principumque suas habuere effigies et cum his ministros signaque in auro affabre calata."
- (٦٤) انظر انظر Eccard, Scriptores, ii, col. 1093, 2000; Mich. Cannesius, Vita Pauli II, in Murat., iii, ii, col. 1012; Platina, Vito Pontiff., p. 318; Jac. Volaterranus, in Murat., xxii, col. 163, 194; Paul. Jovius, Elogia, under "Juliano Casarino". أماكن أخرى، أيضاً، كانت هناك سباقات للنساء: Diario Ferrarese, in Murat., xxiv, col. 384: cf. Gregorovius, vi, 690 sqq..
- (٦٥) مرة واحدة في عهد اسكندر السادس من أكتوبر حتى الصوم الكبير. انظر توماسي، الموضوع المذكور، ص. ٢٢٢، عام ١٥٠٢ عن زواج لوكريتسا بورجيا.
- (٦٦) انظر بالوز. Baluz, Miscell. iv, 517 (cf. Gregorovius, vii, 288 sqq.).
- (٦٧) انظر Pii II Comment., lib. iv, p. 211.
- (٦٨) انظر نانتيپورتو. Nantiporto, in Murat., iii, ii, col. 1080. وقد رغبوا أن يشكروه عن سلّم عقده، ولكن وجدوا بوابات القصر مغلقة والفرق موزعة في جميع الأماكن المفتوحة.
- (٦٩) انظر. (Cosmopoli, 1750) "Tutti i trionfi, carri, mascherate, o canti carnascialeschi" وانظر ماكيافيللي. Opere Minori, p. 505: وفاساري حياة بييرو دي كوسيمو Vasari, vii, pp. 115 sqq., Vita di Piero di Cosimo الذي يرجع إليه جزء رئيسي في تطور هذه الاحتفالات. انظر أيضاً ب. لوس. Cf. B. Loos, pp. 12، ورويمونت. Cf. Reumont, Lorenzo dei Medici, ii, 443 sqq. حيث جمعت آراء الخبراء الثقات التي يتضح منها أن الكرنفال سريعاً ما أصبح مكبوحاً مقيداً. انظر أيضاً المصدر السابق. Cf. ibid., ii, p. 24.

هوامش الفصل الأول . القسم السادس

- (١) انظر Discorsi, lib. i, c, 12. وأيضاً c. 55. ويستشرى الفساد في إيطاليا أكثر من جميع الدول الأخرى؛ ثم يليها الفرنسيون والإسبان.
- (٢) انظر باول. چوفیوس. Paul. Jovius, Viri Illustres, Jo. Gal. Vicecomes. انظر أيضاً pp. 31 sqq. and notes.
- (٣) عن الجزء الذى ملأه الشعور بالشرف فى العالم العصرى انظر Prévost-Paradol, La France Nouvelle, liv. iii, chap. 2.
- (٤) انظر أيضاً ما قاله داروين فى حمرة الخجل فى Animals, وفى العلاقات بين الخزى والضمير.
- (٥) انظر فرانش. جويتشاردينى Franc. Guicciardini, Ricordi Politici e Civili, n. 118, Opere Inedite, vol. i).
- (٦) وأقرب نظير له هو ميرلينوس كوكاجوس Merlinus Coccajus تيوفيلو فولينجو، الذى عرف رابليه بالتاكيد عمله Opus Macaronicorum، ويقتبس منه أكثر من مرة 1. Pantagruel, liv. ii, chap. 7 at the end and chap. 7. ومن الممكن أن ميرلينوس كوكاجوس قد أعطى الإحساس الذى نتج عنه Gargantua. و Pantagruel
- (٧) انظر Gargantua, liv. i, chap 57.
- (٨) ويعنى، بالفطرة فى الوعى والشعور الأعلى، حيث أن رابليه، وهو ابن صاحب المنزل فى شينون Chinon، ليس لديه هنا دافع لتحديد أى امتياز خاص للنبلاء. والوعظ عن الإنجيل، الذى يتم التحدث عنه فى الوصف عند الدخول إلى الدير، قد يتلام بصورة سيئة مع بقية حياة النزلاء؛ وينبغى أن يفهم بمعنى سلبى، إنه يلمح إلى تحدى الكنيسة الرومانية.
- (٩) انظر مقتطفات من يومياته فى ديليكوز Delécluze, Florence et ses Vicissitudes, vol. 2.
- (١٠) انظر إنفيسورا Infessura, in Eccard, Scriptorum, ii, col. 1992. وعن فرانتشيسكيو تشيبو Franceschetto Cybe انظر أعلاه، الفصل العاشر، القسم الأول.
- (١١) هذا الرأى لستدال Stendhal (La Chartreuse de Parme, ed. Delahaye, p. 355) يبدو لى كأنما يستقر على ملاحظة سيكولوجية عميقة.
- (١٢) انظر جراتزيانى، Graziani, Cronaca di Perugia, لعام ١٤٢٧ (Archiv. Stor., xvi, i, p.) 415).

- (١٢) انظر جيرالدى . Hecatommilthi, i, Nov. 7.
- (١٤) انظر إنفيسورا . Infessura, in Eccard, Scriptores, ii, col. 1892, لعام ١٤٦٤ .
- (١٥) انظر أليجريتو . Allegretto, Diari Sanesi, in Murat., xxiii, col. 837. وكان أليجريتو نفسه حاضراً عندما تم أخذ القسم، ولم يكن لديه أى شك فى فاعليته.
- (١٦) ويسخر بولتشي من أولئك الذين يتركون الانتقام إلى الله 83 str. Pulci, Morgante, canto xxi, sqq., 104 sqq..
- (١٧) انظر جويتشاردينى . Guicciardini, Ricordi, loc. cit., n. 74.
- (١٨) وهكذا يصف كاردانوس Cardanus (De Propria Vita, cap. 13) نفسه بأنه شديد الانتقام، ولكنه أيضاً "verax, memor beneficiorum, amans justitiæ."
- (١٩) وحقيقى أنه عندما تثبت الحكم الإسباني بالكامل مبط عدد السكان إلى حد ما. ولو كانت هذه الحقيقة راجعة إلى الانحلال الأخلاقى للشعب لظهرت أبكر من ذلك.
- (٢٠) انظر جيرالدى . Hecatommilthi, iii, Nov. 2. وعلى نفس الخط . Cortigiano, lib. iii, cap. 57.
- (٢١) ومثال صادم للانتقام لأخ من بيروجيا فى ١٤٥٥ يوجد فى المونة التاريخية على يد جراتزيانى . Archiv. Stor., xvi, p. 629 فالشقيق يجبر الشهم على نزع عيني الأخت، ثم يضربه طارداً إياه من المكان. وحقيقى أن الأسرة كانت فرعاً من أسرة أودى Oddi، والحبيب مجرد صانع أهدية.
- (٢٢) انظر بانديلو . Bandello, i, Nov., 9 and 26. وفى بعض الأوقات كان كامن الاعتراف الخاص بالزوجة يرشى على يد الزوج ويفشى سر الخيانة.
- (٢٣) انظر أعلاه، الفصل الخامس، القسم الخامس، وهامش ، ١١
- (٢٤) كمثال، بانديلو . Bandello, i, Nov. 4.
- (٢٥) من الجدير بالملاحظة أن بوركهارت لا يورد أى ذكر لممارسة اللواط، الذى كان سائداً بكثرة فى إيطاليا عصر النهضة. وكان سان برناردينو يستشيط غضباً فى مواظه ضد هذه الرذيلة، كما فعل واعظو التوبة الآخرون. انظر شنيتزر .- Schnitzer, Savonarola, i, pp. 272 sqq. و. ج. W. G.
- (٢٦) ويقول النساء فى جيرالدى 10 Nov. Giraldu iii, : ما نصه : "Piaccia al Signore Iddio che non si ritrovi," عندما يقال لهن إن هذا الفعل قد يكلف القاتل رأسه.
- (٢٧) وهذه هى الحال، مثلاً، مع جيوفانى بونتانو Giovanni Pontano De Fortitudine, lib. ii وأبطاله الأسكولانيون Ascolans، الذين يقضون ليلتهم الأخيرة فى الغناء والرقص، والام الأبروتزية Abruzzi-an، التى تهلل لابنها فى طريقه إلى المقصلة، إلخ.، ينتمون إلى أسر من قطاع الطرق، ولكنه ينسى أن يذكر ذلك.
- (٢٨) انظر Diarium Parmense, in Murat., xxii, col. 330-349 passim ؛ والسوناتة 340 col. فى Cronica Gestorum in Partibus Lombar- تحت عنوان Muratori، التى نسخة الجديدة لوراتورى . (1904) sqq. 63 pp. diae et Reliquis Italie, ed. A. Bonazzi, pp. 63 sqq. و. ج. W. G.
- (٢٩) انظر . Diario Ferrarese, in Murat., xxiv, col. 312. ويتم تذكيرنا بالعصاة التى قادها قسيسى والتى أزجعت لبعض الوقت غرب لومبارديا قبل ١٨٢٧ .

- (٢٠) انظر ماسوتشيوي Massuccio, Nov. 29. وفي الواقع كان الرجل محظوظاً في حبه. amours.
- (٢١) إذا كان قد بدا كقرصان في الحرب بين فرعى أسرة أنجو لامتلاك نابولي فإنه قد يمكن أنه فعل ذلك كنصير سياسي، وهذا، طبقاً لأفكار ذلك الزمن، لا يدل ضمناً على أى انعدام في الشرف. ورئيس الأساقفة باولو فريجوسو Paolo Fregoso من جنوا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر قد سمع لنفسه في الراجح بحرية مثل هذه أو أكثر. والكتاب المعاصرون ومن أعقبوهم - مثلاً، أريتينو وبوجيو- يسجلون مثل هذه الأشياء الأسوأ عن يوحنا. انظر جريجوروفويس Gregorovius, vi, p. 600.
- (٢٢) انظر بوجيو Poggio, Faceti?, fol. 164.
- (٢٣) ويقول جوثيانوس بونتانوس في Jov. Pontan., Antonius, "Nec est quod Neapoli : ما نصه : quam hominis vita minoris vendatur". وحقيقي أنه يعتقد أن الأمر لم يكن كذلك تحت حكم أسرة أنجو. "scaim ab iis the Aragonese, accepimus." ويصف بينفينوتو تشيليني الحال حوالي ١٥٢٤ في 70, i.
- (٢٤) ولا يمكن تقديم برهان مطلق على هذا، ولكن قليل من حوادث القتل مسجلة، وخيال الكتاب الفلورنسيين في الفترة الأفضل غير مملوء بالشك فيهم.
- (٢٥) انظر عن هذه النقطة تقرير فيديلي Fedeli, in Alberti, Relazioni, serie ii, vol. i, pp. 353 sqq..
- (٢٦) وجمع م. بروش M. Brosch (Hist. Ztschr., Bd. 27, pp. 295 sqq.) من المحفوظات البندقية خمسة عروض، وافق عليها المجلس، لدس السم للسلطان (١٤٧١-١٥٠٤)، بالإضافة إلى دليل عن الخطة لاغتيال شارل الثامن (١٤٩٥) وعن الأمر الذي أُصدر إلى Proveditor في فاينزا لقتل سيزار بورجيا (١٥٠٤).
- (٢٧) ويضيف الدكتور جايجر نصوصاً ومراجع حديثة عديدة عن هذا الموضوع. وقد يمكن أن نلاحظ أن الشك في دس السم، الذي أعتقد الآن أنه كان بوجه عام على غير أساس، كثيراً ما كان يُعبر عنه في أجزاء معينة من إيطاليا فيما يتعلق بأى وفاة غير معروف سببها على الفور. - س. ج. ش. م. S. G. C. M.
- (٢٨) انظر إنفيسورا Infessura, in Eccard, Scriptorum, ii, col. 1956.
- (٢٩) انظر Chron. Venetum, in Murat., xxiv, col. 131. وفي الدول الشمالية كانت هناك أشياء أكثر روعة يتم الاعتقاد فيها فيما يتعلق بفن دس السم في إيطاليا. انظر جوفينال دي أورسينس Juvénal d'Orsins, ad a. 1382 (ed. Buchon, p. 336), عن مبضع داس السم الذي استخدمه شارل من بوراتزو؛ من نظر إليه بثبات لمدة مات.
- (٤٠) انظر بتر. كرينيتوس Petr. Crinitus, De Honesta Disciplina, lib. xviii, cap. 9.
- (٤١) انظر Pii II Comment., lib. xi, p. 562. وانظر يوهان أنتونيو كامبانوس Joh. Ant. Campanus, Vita Pii II, in Murat., iii, ii, col. 988.
- (٤٢) انظر فاساري Vasari, ix, 82, Vita di Rosso. وفي حالة الزيجات التعيسة فإنه من العسير القول ما إذا كان هناك أمثلة أكثر، حقيقية أو متخيلة، لدس السم. انظر أيضاً بانديللو Cf. Bandello, ii, Nov. 5 and 54 ; ii, nov. 40, وهو أكثر جدية. وفي نفس المدينة الواحدة في غرب لومبارديا، لم يذكر

اسمها، عاش اثنان ممن دسوا السم. وهناك حالة ذلك الزوج الذي فى رغبته لإقناع نفسه بصدق يأس زوجته، جعلها تشرب ما كانت تظن أنه سمًا، ولكنه كان فى الحقيقة ماء ملونًا، وبذلك تم الصلح بينهما. وفى عائلة كاردانوس وحدهما حدثت أربع حالات تسميم. De Propria Vita, cap. 30, 50. وحتى فى مآذبة أقيمت فى تنويج البابا اصطحب كل كاردينال من يحمل له كأسه، وجلب معه نبيذه الخاص، فى الراجع بسبب أنهم كانوا يعرفون بالتجربة أنه بدون ذلك فإنهم قد يقعون فى خطر أن يتم دس السم لهم. وهذا العرف كان عاماً فى روما، ويمارس ". sine injuria invitatis. انظر Blas Ortiz, Itinerar. Hadriani VI, in Baluz., Miscell., ed. Mansi, i, 380.

(٤٣) عن فنون السحر التى استخدمت ضد ليونيللو من فيرارا انظر Diario Ferrrese, in Murat., xxiv, col. 194 ad a. 445. وبينما كانت الجملة تُقرأ فى الميدان العام على المؤلف، فإن شخصاً اسمه بيناتو، وهو رجل شرير فى جميع المجالات الأخرى، سُمع صوت فى الهواء واهتزت الأرض، حتى إن كثيراً من الناس هربوا أو وقعوا على الأرض؛ وهذا حدث لأن بيناتو - havea chiamato e scongiurato il dia- ". volo. وما يقول جويتشاردينى ا lib., عن القنون الشريرة التى مارسها لوبوفيكو إيل مورو ضد ابن أخيه جيانجالياتزو يستقر على مسئوليته الخاصة. وعن السحر انظر أسفله، الفصل الرابع.

(٤٤) وكان يمكن وضع إيزيلينو دا رومانو أولاً إلا أنه بالأحرى تصرف تحت نفوذ وتأثير الدوافع والأوهام التنجيمية.

(٤٥) انظر Giornali Napoletani, in Murat., xxi, col. 1092, ad a. 1425. وطبقاً للسرد فإن هذا الفعل يبدو أنه ارتكب بسبب مجرد لذة القسوة. وحقيقى أن براتشيو Bracio كان لا يؤمن بالله ولا بالقدسين، وكان يحتقر ويهمل جميع تعاليم وطقوس الكنيسة.

(٤٦) انظر Pii II Comment, lib. vii, p. 338.

(٤٧) انظر جوشيانوس بونتانوس Jov. Pontan., De Immanitate, cap. 17 ، حيث يحكى كيف أن مالانيسا جعل ابنته حاملاً- وهكذا.

(٤٨) انظر فاركي Varchi, Stor. Fiorent., عند النهاية. (عندما نشر العمل بدون أن يحذف منه ما يعتبر ماساً بالفضيلة، كما فى طبعة ميلانو).

هوامش الفصل الثاني ، القسم السادس

- (١) وحول تلك النقطة اختلف الإحساس حسب المكان والناس. وسادت النهضة فى الأوقات والمدن حيث كان الميل إلى الاستمتاع بالحياة محسوساً بحماسة بكل معنى الكلمة. والاكنتاب العام لأرواح الرجال المفكرين لم يبدأ فى الظهور إلا فى زمن السيادة الأجنبية فى القرن السادس عشر.
- (٢) وما يصطلح على تسميته روح الإصلاح الدينى المضاد تطور فى إسبانيا قبل حركة الإصلاح الدينى نفسها، بوجه رئيسى من خلال المراقبة الحادة وإعادة التنظيم الجزئية للكنيسة فى عهد فرديناند وإيزابيلا. والخير الثقة عن هذا الموضوع هو جوميز، Gomez, Life of Cardinal Ximenes, im Rob. Bel-lus, Rer. Hispan. Scriptoros (3 vols, 1581).
- (٣) ويجب ملاحظة أن الروائين وكُتّاب المقطوعات الهجائية نادراً ما نكروا الأساقفة، بالرغم من أنهم، تحت أسماء مختلفة، قد هاجمهم مثل الباقين. وهم يفعلون ذلك، مع ذلك- مثلاً، فى بانديللو ii, nov. 45 ؛ ولكنه فى 40، ii، يصف أسقفًا فاضلاً. ويقدم جيوفيانو بوتتانو فى Charon شبح أسقف مترف يمشى كالبطة.
- (٤) انظر "Foscolo, Discorso sul Testo del "Decamerone," Ma dei preti in digaità niuno poteva far motto senza pericolo; onde ogni frate fu l' irco delle iniquita d' Israele," etc.. ويهدى تيموثيوس مافيوس Timotheus Maffeus كتاباً ضد الرهبان إلى البابا نيقولا الخامس؛ انظر فاتشيوس Facius, De Vir. III., p. 24. وهناك فقرات شديدة بوجه خاص ضد الرهبان ورجال الدين فى عمل بالينجينوس السابق ذكره. Palingenius, iv, 289. v, 184 sqq., 586 sqq.
- (٥) ويمهد بانديللو 1, Nov. ii، بالنص على أن رذيلة الجشع والبخل تعد مخزية أكثر بالنسبة للقسس من أى طبقة أخرى من الرجال، لأنهم ليس لديهم أسر يعولونها. وعلى هذا الأساس فهو يبرر الهجوم المخزى على دير على يد جنديين أو اثنين من قطاع الطرق بأوامر من سيد شاب، والذي فيه سرقت شاة من القسيس العجوز البخيل المصاب بالنقرس. وتوضح قصة من هذا النوع الأفكار التى كان يعيش ويتصرف بها الناس أكثر من جميع الخطب والمقاتلات فى العالم.
- (٦) ويقول جيوفانى فيلانى iii، 29، هذا بوضوح بعد ذلك بقرن من الزمان.
- (٧) انظر L'Ordine. فى الراجع أن المقصود هو اللوحة التى تحمل النقش "L. H. S."
- (٨) وهو يضيف "Nov., 10, ed. Settembrini, p. 132: "وفى seggi- أى النوادي التى كان النبلاء النابوليتانيون مقسمين إليها. والتنافس بين الطبقتين كثيراً ما يتم السخرية منه- مثلاً بانديللو. iii, Nov. 14.
- (٩) انظر Nov., 6, ed. Settembrini, p. 83، حيث يلاحظ أنه فى فهرست عام ١٥٦٤ (وهو قائمة بالكتب المنوعة قراعتها على الكاثوليك من قبل السلطات الكنسية)، يذكر كتاب، Matrimonio delli Preti e delle Monache.

(١٠) ولطلب ما يعقب ذلك انظر جوف، بونتان. Jov. Pontan., De Sermone, lib. ii, vap. 17. وبانديلو Nov. 32. أو كان غضب وثورة الأخ فرانتيسكوس، الذي حاول أن يؤثر على الملك ويقنعه برؤيا عن القديس كاتالوس، شديداً لفشله، وكان الحديث عن ذلك عاماً، "ut Italia ferme omnis ipse in primis Romanus pontifex de tabul? hujus fuerit inventione sollicitus atque anxius."

(١١) إسكندر السادس ويوليوس الثاني، اللذين لم تبد إجراءاتهم القاسية، مع ذلك، إلى السفراء البنادقة جوستينياني Giustiniani وسوديريني Soderini إلا وسيلة لابتراز المال. انظر أيضاً Cf. M. Brosch, Hist. Ztschr., Bd. 37.

(١٢) انظر بانورميتا Panormita, De Dictis et Factis Alfonsi, lib. ii. وإينياس سيلفيوس في تعقيبه عليها Opp., p. 79, ed. 1651، يخبرنا عن الكشف عن مدعٍ للصيام، الذي قيل إنه لم يذق الطعام لمدة أربعة أيام.

(١٣) ولهذا السبب تم فضحهم على الملأ في المنطقة المحيطة بالبلاط. انظر جوف. بونتان. Jov. Pontan., An- tonius and Charon. ولإحدى القصص هي نفسها المذكورة في ماسوتشيو. Massuccio, Nov. 2.

(١٤) انظر عن مثال واحد الأغنية الثامنة من Macaroneide.

(١٥) وتظهر القصة في فاساري- انظر صفحة ١٢٠، Vita di Sandro Botticelli أن محاكم التفتيش كانت في بعض الأوقات تعامل بطريقة هزلية. وحقيقي أن vicario المذكور هنا قد كان نائب رئيس الأساقفة بدلاً من رئيس محكمة التفتيش.

(١٦) انظر بورسيليس Busellis, Ann. Bonon., un Murat., xxiii, col. 886; Cf. 896. ومات مالفيتزي Malvezzi في ١٤٦٨؛ وورث ابن أخيه مصالحه his beneficium.

(١٧) انظر الفصل السابع، القسم الأول. وكان رئيساً لدير الرهبان في فاللومبروزا Vallombrosa والفقرة، التي قدمنا منها ترجمة متحررة، يمكن العثور عليها في Opere, vol. ii, p. 209، في الرواية العاشرة. انظر وصفاً جذاباً للحياة الناعمة للكارثوسيين Carthusians في Commentario d' Italia, fol. 32 sqq.، والمقتبسة في الفصل السادس، القسم الرابع.

(١٨) كان بيوس الثاني، لأسباب متعلقة بالسلوك القويم، يؤيد إلغاء عزوبة رجال الدين. وكانت إحدى الجمل المفضلة لديه هي "Sacredotibus magna ratione sublatus nuptias majori restituendas vi-deri." انظر بلاتينا Platina, Vita Pontiff., p. 311 وليس بلاتينا، مع ذلك، جديراً بالثقة تماماً. - و. ج. W. G.

(١٩) انظر Ricordi, n. 28, in the Opere Ined., vol. i.

(٢٠) انظر Ricordi, n. i, 123, 125.

(٢١) انظر Orlandino, cap. vi, str. 40 sqq.; cap. vii, str. 57; cap. viii, str. 3 sqq., especially 75.

(٢٢) انظر Diario Ferrarese, in Murat., xxiv, col. 362.

(٢٣) وكان معه مترجم ألماني وآخر سلافوني. والقديس برنارد كان عليه أن يستخدم نفس الوسيلة عندما وعظ في أرض الراين.

(٢٤) وقنع كابيسترانو، مثلاً، برسم علامة الصليب على الآلاف من المرضى الذين جُلبوا له، ويمباركتهم باسم الثالث وأستاذه القديس برناردينو، ويعدّها شفى بعضهم بطريقة ليست غير طبيعية. وتضع المدونة التاريخية من مدينة برتشينا هذا الأمر على الوجه التالي: إنه يصنع معجزات جيدة، ورغم ذلك ليست بالكثرة التى سمعنا بها. Murat., xxi.

(٢٥) وكذلك، مثلاً، بوجيو Poggio, De Avaritia, in the Opera, fol.2. ويقول كان الأمر سهلاً معهم، حيث إنهم قالوا نفس الشيء فى كل مدينة، وأرسلوا الناس إلى بيوتهم أكثر غباوة مما جاءوا. يتحدث بوجيو فى مكان آخر Epist., ed. Tonelli, i, 281 عن ألبرت من سارتيانو بوصفه doctus و perhu-manus. ويدافع فيليفلو عن برناردينو دا سيينا وشخص اسمه نيكولاس، فى الراجع من موقف معارضة ضد بوجيو، 5, 3, vi; Sat., ii, 3. وكان فيليفلو يتراسل مع ألبرت من سارتيانو. وهو يمدح أيضاً روبرتو دا ليتشى Roberto da Lecce فى بعض المجالات، ولكنه يلوّمه لأنه لا يستخدم إيماءات وتعبيرات ملائمة، ولأنه يبدو تعسفاً عندما يجب أن يبدو فرحاً، ولأنه يبكى كثيراً جداً وبذلك يؤذى أذان وأنواق سامعيه. انظر فيليفلو. Filelfo, Epist., fol. 96b (Venet., 1502).

(٢٦) انظر فرانكو ساكيتى Nov. 73. وكان الوعاظ الذين يفشلون يصبحون موضوع التهكم فى جميع الروايات.

(٢٧) انظر القصة الشهيرة فى النيكاميرين Decamerone, vi, Nov. 10.

(٢٨) وفى تلك الحالة أخذت المواعظ لونهاً جديداً. انظر مالبيبيرو Malipiero, Ann. Venet., Archiv. Stor., vii, i, p. 18; Chron. Venetum, in Murat., xxiv, col. 114; Storia Breciana, in Murat., xxi, col. 898. وأعطيت صكوك الغفران بوفرة لأولئك الذين اشتركوا فى أو أسهموا بأموالهم فى الحملة الصليبية.

(٢٩) انظر Storia Breciana, in Murat., xxi, col. 865 sqq.. وفى اليوم الأول حضر ١٠.٠٠٠ شخص، منهم ٢٠٠٠ من الغرباء.

(٣٠) انظر أليجريتو Diari Sanesi, in Murat., xxiii, col. 819 sqq. من ١٣ إلى ١٨ يوليو ١٤٤٦)؛ وكان الوعاظ هو بييترو ديل أوسيرفانزا دى سان فرانتشيسكو Pietro dell' Osservanza di S. Francesco.

(٣١) ويقول إنفيسورا (in Ekcard, Scriptorum, ii, col. 1874, Infessura, ما نصه : "Canti, brevi, e sorti." والأول قد يشير إلى كتب الأغاني، التى فى الواقع كانت تحرق على يد سافونارولا. ولكن جراتزيانى Chron. Di Perugia, Archiv. Stor., xvi, i, p. 314 يقول فى مناسبة مماثلة، breve, incanti, عندما يجب بدون شك أن نقرأ brevi e incanti. وربما كان نفس التصحيح أو التتبع مرغوباً عند إنفيسورا [والطبعة النقدية لتوماسيني تقرأها على أنها -canti و. ج. W. G.] الذى يشير sorti الخاص به إلى إحدى أدوات الخرافة، ربما أوراق لعب لرؤية المستقبل. وبالمثل بعد إدخال المجموعات المطبوعة من جميع النسخ التى أمكن الحصول عليها من مارشال Martial ، التى كان عندئذ تحرق. انظر بانديللو iii, Nov. 10.

(٣٢) انظر ترجمة حياته الجديدة بالملاحظة فى فيسبازيانو فيورنتينو، صفحات ٢٤٤ وما بعدها، وتلك على يد إينياس سيلفيوس De Vir. Ill., p. 24. وفى الأخيرة نقرأ: "Is quoque in tabella pictum"

nomen Jesus deferebat, hominibusque adorandum ostendebat multumque suadebat ante ostia domorum hoc nomen depingi.^{٥٠}

(٢٣) انظر الليجريتو Allegretto, loc. cit., col. 823. وأثار واعظ الجمهور ضد القضاة (إذا لم نقرأ giudei بدلاً من giudici ، وعلى ذلك نجوا بالكاد من الحرق داخل منازلهم. والحزب المعارض هدد حياة الواعظ رداً على ذلك.

(٢٤) انظر إنفيسورا، بالموضع المذكور. ويبدو كأننا هناك غلطة في النسخ في تاريخ موت الساحرة. ويحكي في فاساري Vita di Parri Spinelli, 148, iii, كيف أن نفس القديس تسبب في أن تقلع أشجار غابة ذات سمعة سيئة قرب أريتزو. ولا شك أنه كثيراً ما لم تمتد حماسة الشامعين للتوبة إلى أكثر من مثل هذه التضحيات الخارجية.

(٢٥) ونحن نقرأ في Storia Bresciana, in Murat., xxi, 876 ما نصه: Pareva che l' aria si fenesse..

(٢٦) انظر جاك. فولاتيرانوس Jac. Volaterranus, in Murat., xxiii, col. 166 sqq.. ولم يتم القول بدقة أنه تدخل في هذا الثور، ولكنه لا يمكن الشك في أنه فعل ذلك. ومرة (١٤٤٥)، فور أن غادر چاكويو ديلا ماركا بيروجيا بعد نجاح فوق العادة، اندلعت معركة ثارية vendetta مريعة في عائلة رانييري. انظر أيضاً جراتزياني، الموضع المذكور، صفحات ٥٦٥ وما بعدها. وقد يمكننا هنا أن نعلق أن بيروجيا كان يزورها أولئك الوعاظ بكثرة جديرة بالملاحظة؛ انظر أيضاً صفحات ٥٩٧، ٦٢٦، ٦٢٦، ٦٢٧، ٦٤٧.

(٢٧) وأدخل كايبيسترانو خمسين جندياً بعد موعظة واحدة. Storia Bresciana, loc. cit. جراتزياني، الموضع المذكور، صفحات ٥٦٥ وما بعدها. وقد حدث، عندما كان إينياس سيلفيوس (De Vir. III., p. 25) شاباً، أنه كان متأثراً مرة بإحدى مواعظ القديس برناردينو لدرجة أنه كان على وشك الدخول في طبقته. ونحن نقرأ في جراتزياني عن متحول عن الدين ترك الطبقة؛ وتزوج، "che fu magiore ribaldo, che non era prima".

(٢٨) ويظهر من العراك حول دم المسيح، الذي قيل إنه سقط من فوق الصليب على الأرض (١٤٦٢)، أنه لم يكن هناك إغواز في النزاع بين وعاظ طبقة الأبرقانتين Observantine وبين منافسيهم الدومينيكيين. انظر فويجت، Voigt, Enea Silvio, iii, 591 sqq.. وينتقد بيوس الثاني الأخ فرا چاكويو ديلا ماركا، الذي لم يذعن إلى رئيس محكمة التفتيش الدومينيكاني، وذلك في بيانه التفصيلي، Comment., lib. xi, p. 511) بما نصه: "Pauperiem pati, et famem et sitim et corporis cruciatum et mortem pro Christ nomine nonnulli pessuant; jacturam nominis vel minimam ferre recusant tanquam sua deficiente fama Dei quoque gloria creat."

(٢٩) وترددت سمعتهم، حتى في ذلك الحين بين طرفي نقيض. وينبغي تمييزهم من الرهبان النساك. ولم يكن الخط الفاصل واضحاً دائماً فيما يتعلق بهذا. فإن السبوليتانيين Spoletans، الذين كانوا يرتحلون دائماً لصنع المعجزات، اتخذوا القديس أنتوني والقديس بولس راعين لهم، والأخير بسبب الثعابين التي كانوا يحملونها معهم. ونحن نقرأ عن النقود التي كانوا يحصلون عليها من الفلاحين حتى في القرن الثالث عشر

عن طريق نوع من الاستحضار الدينى للأرواح. وكانت خيلهم مدرية على الانحناء عند سماع اسم القديس أنتوني. وتظاهروا بجمع المال للمستشفيات 7. Nov. Bandello, iii, Nov. 18; Massuccio, Nov. 18; ويجعلهم فيرينزولا فى Asino d' Oro يلعبون دور القسس الشحاذين فى أبوليوس Apuleius.

(٤٠) انظر براتو Prato, Archiv. Stor., iii, p. 352; ويوريجوتزو Burigozzo, المصدر السابق, صفحات ٤٢١ وما بعدها.

(٤١) انظر أليجريتو .Allegretto, in Murat., xxii, col. 856 sqq.. وكان الاقتباس هو: "Ecce venio cito et velociter. Estore parati."

(٤٢) انظر ماتيو فيلاني Matteo Villani, viii, cap. 2 sqq.. وقد وعظ أولاً ضد الطغيان بصفة عامة, ثم, عندما حاول البيت الحاكم بيكاريا قتله, بدأ فى الوعظ لتغيير الحكومة والدستور, وأرغم عائلة بيكاريا على الفرار من بافيا (١٢٥٧). انظر بترايك Petrarch, Epist. Fam., xix, 18. وأ. هورتيس A. Hor-tis, Scritta Inediti di F. P., pp. 174-181.

(٤٣) وكان البيت الحاكم فى بعض الأوقات فى اللحظات الحرجة يستخدم خدمات الرهبان لحض الناس على الولاء. وعن حادثة من هذا النوع فى فيررارا انظر سانويو Sanudo (in Murat., xxii, col. 1218). وكان واعظ من بولونيا يذكر الناس بالمساعدات التى تلقوها من بيت إيسى, وبالمصير الذى ينتظرهم على أيدي البنادقة المنتصرين.

(٤٤) انظر براتو Prato, Archiv. Stor., iii, p. 251. ويذكر بوريجوتزو فى Burigozzo, ibid., pp. 443, 449, 485; ad a. 1523, 1526, 1529. وعاطفاً ضد الفرنسيين متعصبين ظهروا بعد طرد الفرنسيين.

(٤٥) انظر چاك. بيتى Jac. Pitti, Stor. Fiorent., lib. ii, p. 112.

(٤٦) انظر بيرينس Perrens, Jérôme Savonarola, 2 vols. وربما هو أكثر عمل تصنيفى وچاد من جميع الأعمال عن الموضوع. انظر ب. فيلاري P. Villari, La Storia di Girol. Savonarola 2 vols., 8vo, Firenze, Lemonnier). ووجهة النظر التى تبناها الكاتب الأخير تختلف جذريا عن تلك الموجودة فى النص. انظر أيضاً Cf. Protest. Realenzyklopædie, xxiv, p. 451. وكذلك ج. شنيتزر, Cf. Ranke, J. Schnitzer, Savonarola (2 vols., Munich, 1924). انظر أيضاً رانك, Cf. Genaz, Historisch-biographische Studien, pp. 181-358 (Leipzig, 1878). انظر فيلاني Villani, i, 57 sqq.; ii, 343 sqq.; ورويمونت Reumont, Lor. Dei Medici., ii, 522-526, 533 sqq..

(٤٧) مواعظ عن حاجى Haggai : نهاية الموعظة رقم ٦

(٤٨) وربما كان سافونارولا هو الرجل الوحيد الذى كان يستطيع جعل المدن الخاضعة حرة وحافظ على وحدة توسكانيا. ولكنه لم يبد أبداً أنه فكر فى فعل ذلك. وقد أبغض بيزا مثل أى فلورنسى صميم.

(٤٩) تناقض جدير بالملاحظة بالنسبة إلى أهل سبيينا, الذين فى ١٤٨٣ كرسوا مدينتهم بمهابة إلى السيدة العذراء. انظر أليجريتو Allegretto, in Murat., xxiii, col. 815.

(٥٠) وهو يقول عن "impium astrologi"، ما نصه : "non è da disputar [con loro] altrimenti che col fuoco."

(٥١) ويدافع شنيتر (Schnitzer (Savonarola, i, pp. 271 sqq.) عن جماعات الأطفال المنظمة ويعتقد أن العقوبات كانت مبالغاً فيها جداً. وكانت المعركة تنور بصفة رئيسية حول اللواط والمقامرة المنتشرين في فلورنسا. - و. ج. W. G.

(٥٢) انظر فيلاري عن هذه النقطة.

(٥٣) انظر الفقرة في الموعظة الرابعة عشرة حول حزقيال، في بيرينس. Perrens, op. cit., i, 30, note.

(٥٤) المعنونة De Rusticorum Religione. انظر أعلاه، الفصل الثامن، القسم الرابع.

(٥٥) انظر فرانكو ساكيتي Nov. 109، حيث يوجد المزيد من نفس النوع.

(٥٦) ويهتف بابت. مانتوان. Bapt. Mantuan., De Sacris Diebus, lib. ii.

"Ista superstitio, ducens a Manibus ortum

Tartareis, sancta de religione facessat

Christigenum! vivis epulas date, sacra sepultis."

وقبل ذلك بقرن من الزمان، عندما دخل جيش يوحنا الثاني والعشرين المناطق المتاخمة ليهاجم الجيبيليين، كانت الذريعة هي بصراحة. erezia and idolatria أما مدينة ريكاناتي Recanati، التي استسلمت طواعية، فإنها أحرقت رغم ذلك، لأن الأوثان كانت تُعبد هناك - وفي الواقع كانتنقام لأولئك الذين قتلهم المادنون. انظر جيوفاني فيلاني. Giov. Villani, ix, 139, 141. وفي عهد بيوس الثاني نقرأ عن شخص عنيد كان يعبد الشمس، ولد في أوريينو. انظر إينياس سيلفيوس Opera, p. 289; Hist. Rer. Ubique Gestar., c. 12. وما حدث في المجلس في روما في عهد ليو العاشر كان رائعاً أكثر والأصح أنه في فترة الخلو بين وفاة هادريان تولى وليو. يونيو ١٥٢٢، جريجوروفيس، 388، viii ومن أجل إيقاف الطاعون تم ذبح ثور بمهابة بمصاحبة جميع الطقوس الوثنية. انظر باول. جوفيس. Hist., xxi, 8.

(٥٧) انظر سايبيليكو De Situ Venetæ Urbis وهو يذكر أسماء القديسين، على نمط كثير من الفيلولوجيين، بدون إضافة sanctus أو divus، ولكنه يتحدث مكرراً عن آثار القديسين المختلفة، وبندرة محترمة جداً، وحتى يباهي بأنه قبيل كثيراً منهم.

(٥٨) انظر. De Laudibus Patavii, in Murat., xxiv, col. 1149-1151.

(٥٩) انظر براتو. Prato, Archiv. Stor., iii, pp. 408 sqq. وبالرغم من أنه ليس مفكراً حراً، فإنه يحتج ضد الرابطة العلية.

(٦٠) انظر. Pii II Comment., lib. viii, pp. 352 sqq. حيث النص: Verbatur Pontifex, ne in honore tanti apostoli diminute agere videretur," etc..

(٦١) انظر جاك. فولاتيرونوس. in Murat., xxiii, col. 187. واعتذر البابا على أساس خدمات لويس العظيمة للكنيسة، واتباعاً لمثل البابوات الآخرين - مثلاً، القديس جريجوري، الذين فعلوا نفس الشيء.

واستطاع لويس أن يبدي إخلاصه للأثر، ولكنه مات مع ذلك. ونسيت سراديب الموتى في هذا الوقت، ومع ذلك فإنه حتى سافونارولا loc. cit., col. 1150 يقول عن روما : *Velut ager Acedama Sanctorum habita est.*

(٦٢) انظر بورسيليس Annal. Bonon., in Murat., xxiii, col. 905. وكان هذا واحداً من الأشراف الرومانيين الستة عشر، وهو بارتول. ديلا فولتا Bartol. Della Volta الذي مات في ١٤٨٥ أو ١٤٨٦

(٦٣) انظر فاسارى Vasari, iii, 111 sqq., note, Vita di Ghiberti والتفسير المذكور أعلاه عن ندم الفلورنسيين هو، مع ذلك، في تلك الحالة غير مجرب، كما بيّن ساور، Sauer, Lit. Rundschau, No. 9, 1911. ج. W. G.

(٦٤) انظر ماتيو فيلاني. iii, 15 and 16.

(٦٥) وينبغي علينا أن نميز أيضاً بين العبادة الإيطالية لأجساد القديسين التاريخيين في الأزمان الحديثة وبين الممارسة الشمالية الخاصة بجمع عظام وأثار العهد العهيد المقدسة. ومثل هذه البقايا كانت تحفظ بكثرة وافرة في اللاتيران، الذي يمثل أهمية خاصة بالنسبة للحجاج من أجل هذا السبب. على أنه على قبور القديس دومينيك والقديس أنتولى من بادوا استقر، ليس فقط حالة التقديس الورع، بل فخامة الزمن التاريخي.

(٦٦) والحكم الجدير بالملاحظة في *De Sacris Diebus* ، وهو عمله في سنواته المتأخرة، يشير إلى كل من الفن المقدس والدنس *lib. i* ويوجد لدى اليهود، كما يقول، سبب وجيه لحظر كل الصور المحفورة، وإلا فإنهم كانوا سيرجعون إلى عبادة الأوثان أو الشيطان كالذول التي حولهم:

"Nunc autem, postquam pinitus natura Satanum

Cognita, et antiqua sine majestate relicta est,

Nulla ferunt nobis statuæ discrimina, nullos

Fert pictura dolos; jam sunt innoxia signa;

Sunt modo virtutum testes monimenta que laudum

Marmora, et æternæ decora immortalia famæ."

(٦٧) ويشكو بائيسا مانتوفانو في *De Sacris Diebus, lib. v* من بعض *nebulones* الذين لا يعتقدون في أصالة الدم المقدس في مانتوا. ونفس النقد الذي يتساءل عن "هبة قنسطنطين" *The Donation of Constantine* كان أيضاً عدائياً، بالرغم من كونه بطريقة غير مباشرة، ضد الاعتقاد في آثار القديسين.

(٦٨) وعلى وجه خاص الصلاة الشهيرة للقديس برنارد، القديس 1 *Paradiso, xxxiii* حيث النص: "Vergine madre, figlia del tuo figlio."

(٦٩) وربما قد نضيف بيوس الثاني، الذي كانت أغنية الرعاة الخاصة به عن العذراء مطبوعة في *Opera, p. 964* ، والذي منذ شبابه يعتقد أنه تحت حمايتها الخاصة. انظر جاك. كاردي. باييس. *Jac. Card. Pa-piens., De Morte Pii, Opp., p. 656.*

(٧٠) أى، فى الوقت الذى كان فيه سيكستوس الرابع متحمساً إلى "الحبل بلا دنس" - Immaculate Conception. انظر Extravag. Commun., lib. iii, tit. xii. وأساساً، عيد تقديم العذراء فى المعبد Presentation of the Virgin in the Temple ، وأعياد القديسة آن والقديس يوسف. انظر تريتهم Trithem., Ann. Hirsang., ii, p. 518.

(٧١) والأغاني القليلة الباردة لفيثوريا Vittoria عن السيدة العذراء مليئة بالمعلومات فى هذا الصدد (85 n. sqq., ed. P. Visconti, Rome, 1840).

(٧٢) انظر بابت. مانتوان. De Sacris Diebus, lib. v. ويوجه خاص الخطبة عن بيكو الأصغر، التى تم إعدادها لمجلس اللاتيران، فى روسكو. Roscoe, Leo X, ed. Bossi, viii, p. 115. انظر أيضاً Cf. p. 137, note 4.

(٧٣) انظر Monach. Paduani Chron., lib. iii, at the beginning, in Murat., xiv. ونحن نقرأ "Invasit primitus Perusinos, Romanos postmodum, deinde fere Italizae populos universos." Guil. Ventura (Fragmenta de Gestis Astensium, in Mon. Hist. Patr. SS., tom. iii, col. 701) الذين يضربون أنفسهم بالسياط) "Admirabilis Lombardorum commotio" ؛ وخرج النساك من صوامعهم ودعوا المدن للتوبة.

(٧٤) انظر ج. فيلانتي G. Villani, viii, 122; xi, 23. والأولين لم يكونوا يُستقبلون فى فلورنسا، والأخيرين كانوا يلقون التكريم على أكبر وجه.

(٧٥) انظر كوريو Corio, fol. 281. ويذكر ليوناردو أريتينو Hist. Flor., lib. xii, at the beginning dealbati من جبال الالب إلى لوكا وفلورنسا وأبعد من ذلك أيضاً.

(٧٦) وأصبحت رحلات الحج إلى الأماكن البعيدة نادرة جداً فعلاً. ورحلات أمراء بيت إيسى إلى القدس وسانت ياجو St. Jago وفيينا تعدد فى Murat., xxiv, col. 182, 187, 190, 279. وانظر ماكيا فيلى Stor. Fiorent., lib. v. عن رحلة حج رينالو ألبيتزي Rinaldo Albizzi إلى الأراضى المقدسة. وهنا أيضاً الرغبة فى الشهرة هى الدافع. ويقول كاتب المدونة التاريخية جيوف. كافالكانتى Giov. Cavalcanti (Ist. Fiorentina, 1838, ii, 478, ed. Polidori) عن ليوناردو فيسكوبالدى Leonardo Fescobaldi ، الذى أراد الذهاب مع مرافق (حوالى ١٤٠٠) إلى الضريح المقدس: "Sti-rono di eternarsi nella mente degli uomini futuri."

(٧٧) انظر بورسيليس Bursellis, Annal. Bonon., in Murat., xxiii, col. 890.

(٧٨) انظر أليجريتو in Murat., xxiii, col. 855 sqq.. وشاع إن السماء أمطرت دماً خارج البوابة. وتدافع الجميع، إلا أن "gli uomini di giudizio non lo credono."

(٧٩) انظر بوريجوتزو Burigozzo, Archiv. Stor., iii, 486. وعن البؤس الذى ساد عندئذ فى لومبارديا فان جالياتزو كابيللو Galeazzo Capello (De Rebus nuper in Italia Gestis) هو أفضل خبير ثقة فى هذا الموضوع. ولم تقاس ميلانو أقل ممن روما فى النهب لعام ، ١٥٢٧ .

(٨٠) وقد سميت أيضاً "arca del testimonio"، وحكى الناس كيف أنها كانت conzado constructed con gran misterio."

(٨١) انظر . Diario Ferrarese, in Murat., xxiv, col. 317, 322, 323, 326, 386, 401.

(٨٢) ويقول المدونة التاريخية: "Ad uno santo homo o santa donna" وحُظر على الرجال المتزوجين الاحتفاظ بالمحظيات.

(٨٣) وكانت الموعظة موجهة خصيصاً لهم؛ وبعدها تم تعميم يدوى، "ma non di quelli" ، ويضيف كاتب الحولية ، "che erano stati a udire la predica."

(٨٤) ويقول كاتب الحولية: Per buono rispetto a lui noto e perchè sempre è buono a star bene con Iddio, "La cagione perchè sia fatto et si" : "habbia a fare non s'intende, basta che ogni bene è bene."

(٨٥) ليس من الممكن إنها كانت الأخت كولومبا، لأنها ماتت فى ٢٠ مايو ، ١٥٠٦ ومن الراجح أنها كانت لوسيا دا نارنى - Lucia di Nami. ج. L. G.

(٨٦) وهو يسمى "Messo del Candellieri del Duca" والأمر برمته كان بالطبع مقصوداً أن يبدو من عمل البلاط فقط، وليس من عمل أى سلطة كنسية.

هوامش الفصل الثالث . القسم السادس

(١) انظر الاقتباس من بيكو Pico's Discourse on the Dignity of Man ، أعلاه الفصل الثامن، القسم الرابع.

(٢) ناهيك عن الحقيقة أن تسامحاً أو عدم اهتمام مماثل لم يكن غير شائع بين العرب أنفسهم.

(٣) وهكذا في الديكاميرون. والسلطين كانوا بدون أسماء في ماسوكيو : Massuccio, Nov. 46, 48 واحدًا سماه "Rè di Fes" ، وآخر "Rè di Tunis" ويمدح بوكاتشيو في ، Commento di Dante, i, 293 صلاح الدين، وفي "Dittamondo of Fazio degli Uberti, ii, 25 ، تقرأ ، "il buono Sladin". وعن التحالف البندقى مع سلطان مصر في ١٢٠٢ انظر ج. هانوتو G. Hanotaux in the Revue Historique, iv, pp. 74-102 (1877). وبالطبع كان هناك هجوم كثير على الإسلام. وعن المرأة التركية التي عمدت أولاً في البندقية ثم مرة أخرى في روما انظر تشيكيثي Cecchetti, i, 487.

(٤) انظر (Philelphi Epistolæ, fol. 90b sqq. (Venet., 1502).

(٥) انظر الديكاميرون Decamerone, i, Nov. 3. وكان بوكاتشيو أول من ذكر الدين المسيحي، الأمر الذي لم يفعله الآخرون. وانظر توبلر (Tobler, Li di dou Vrai Aniel (Leipzig, 1871) عن خبير ثقة فرنسي قديم من القرن الثالث عشر. وعن القصة العبرية عن أبراهام. أبولافيا Abr. Abulafia ولد في إسبانيا في ١٢٤١، ثم أتى إلى إيطاليا حوالي ١٢٩٠، مؤملاً في تحويل البابا إلى اليهودية ، والتي فيها يدعى كل من خادمين الاحتفاظ بالجوهرة المغفونة من أجل الابن، انظر شتاينشنايدر، Steinschneider, Polem. Und Apol. Lit. der Arab. Sprache, pp. 319 and 360. ومن هذه وغيرها من المصادر نستنتج أن القصة أصلاً كانت أقل تحديداً عما بحورتنا الآن، (في أبولافيا، مثلاً، فإنها تستخدم بطريقة جدلية ضد المسيحيين)، وأن مذهب المساواة بين الأديان الثلاثة هو إضافة متأخرة. انظر أيضاً رويتر Cf. Reuter, Gesch. Der Relig. Aufklärung im M. A., iii, 302 sqq., 390 Berlin, 1877).

(٦) De Tribus Impostoribus ، اسم عمل منسوب إلى فريديريك الثاني من ضمن أناس كثيرين غيره، والذي لا يطابق أبداً التوقعات التي أثارها العنوان. والطبعة الأخيرة هي على يد فيلر Weller, Heil-bronn, 1876. ويوجد نزاع حول كل من جنسية المؤلف وتاريخ التأليف. انظر رويتر، الموضوع المذكور، 273-302.

(٧) مع ذلك، في فم الشيطان أستاروت Cf. str. Astarotte, canto xxv, str. 231 sqq.. انظر أيضاً 141 sq.

(٨) انظر Canto xxviii, str. 38 sqq.

(٩) انظر canto xviii, str. 112 to the end.

(١٠) ويمس بولتشي، ولو بسرعة، فكرة مماثلة في عمله Prince Chiaristante الأمير كياريسانتي canto (١٢) الذي لا يصدق شيئاً ويتسبب لنفسه ولزوجته في أن يعبدا. ويتم تذكيرنا بسيجيسمونو مالاتستا (الفصل السادس، القسم الثالث).

(١١) وعمله عرف أول ما عرف على يد بوجيو.

(١٢) انظر جيوف. فيلاني. iv, 29; ci, 46. ويظهر الاسم مبكراً منذ ١١٥٠ في الدول الشمالية، ولكن فقط بالمعنى التقليدي. ويتم تحديده على يد ويليام من ماليسبوري 1840, ed. London, 1840, iii, 237, بما نصه: Epicureorum . . . qui opinantur animam corpore solutam in ærem evanescere, in auras effluere."

(١٣) انظر الجدل في الكتاب الثالث للوكرتيوس. Lucretius. واستخدم الاسم "الإبيقوري" Epicurean فيما بعد كمرادف للمفكر الحر. ويتحدث لورنزو فاللا Opp., 795 sqq. كما يلي عن إبيقور: "Quis eo parciior, quis contentior, quis modestior, et quidem in nullo philosophorum omnium minus invenio fuisse vitiorum, plurimique honesti viri cum Græcorum, tum Romanorum, Epicurei fuerunt." وكان فاللا يدافع عن نفسه أمام بوجينيوس الرابع ضد هجوم الراهب أنتونيو دا بيتونتو Antonio da Bitonto وآخرين.

(١٤) انظر Inferno, vii, 67-69.

(١٥) وهذا التفسير لبروكهارت عن "حظ دانتى" Dante's Fortune يتم مناقشته بشدة. انظر أيضاً ف. بوفيو. Cf. F. d' Ovdio, Dante e la Magia in the Nuova Antologia, third series, vol. 41, pp. 193-226; Doren, Die Fortuna im Mittelalter und in der Re-naissance, Vorträge der Bibl. Warburg, 1922-23, i, pp. 98 sqq.-

(١٦) انظر المظهر. Purgatorio, xvi, 63. وقارن نظرية تأثير الكواكب في Convivio وحتى الشيطان أستاروت Astarotte في بولتشي Morgante, xxv, st. 150. يشهد على حرية الإرادة البشرية وعدالة الله.

(١٧) وهذا حقيقي، مع ذلك، بوجه خاص بالإشارة إلى الخير الثقة عن الإنجيل وأباء الكنيسة. - ل. ج. L. G. (١٨) انظر أيضاً فويجت Cf. Voigt, Wiederbelebung, 165-170. [ويبدو، مع ذلك، على الأرجح أنه بدأ ترجمته بناء على مبادرة خاصة منه] انظر أيضاً Cf. Luiso, Riv. Delle Bibliot., vols. 8-10.- و. ج. W. G.

(١٩) انظر فيسبازيانو فيورينتينو Vespas. Fiorent., pp. 26, 320, 435, 626, 651; Murat., xx, col. 532.

(٢٠) في مقدمة بلاتينا عن حياة المسيح يُضرب المثل بالنفوذ والتأثير الذي لعصر النهضة بطريقة غريبة Vito Papparum, at the beginning وهو يقول إن المسيح وصل بالكامل إلى nobilitas الأفلاطونية ذات الأربعة أوجه حسب his genus فيما نصه: "quem enim ex gentilibus habemus qui gloria et nomine cum David et Salomone, quique sapientia et doctrina cum Christo ipso conferri merito debeat et possite". مثل العهد اليهودية، مثل العهد العهيد الكلاسيكي، على فرضية مسيحية. وسعى بيكو وبييترو بشدة أن يُظهرا أن المذهب المسيحي كان مؤدناً به في التلمود والكتابات اليهودية الأخرى.

(٢١) عن بومبوناتزو Pomponazzo انظر الأعمال الخاصة؛ من ضمنها ريتز Ritter, Geschichte der Philosophie, Bd. ix.

(٢٢) انظر باول. جوثيوس. Paul. Jovius, Elog. Lit., p. 90. وكان جاليوتوس مارتوس Galeottus Martius، مع ذلك، مجبراً أن يتخلى علناً عن معتقده. ورسالته إلى لورنزو (في ١٧ مايو ١٤٧٨) التي يتوسل فيها إليه أن يتشفع لدى البابا "satis enim p narum dedi" Mala- gola, Codro Urceo, p. 433.

(٢٣) انظر Codri Urcei Opera ، مع ترجمة حياته على يد بارت. بيانكينى Bart. Bianchini : وفى محاضراته الفيلولوجية، صفحات ٦٥، ١٥١، ٢٧٨، إلخ.

(٢٤) ويقول فى إحدى المناسبات، فى In Laudem Christi:

"Ph bum alii vates musasque Jovemque sequuntur,

At mihi pro vero nomine Christus erit."

وهو يهاجم أيضاً (fol. xb) البوهيميين Bohemians. ويدافع بوجيو عن هوس Huss وجيروم Jerome من براغ فى رسالته الشهيرة إلى ليوناردو أريتينو، ويضعهم فى مصاف موشوس سكاغولا Mucius Scaevola وسقراط Socrates.

(٢٥) "Audi virgo ea qui tibi mentis compos et ex animo dicam. Si forte cum ad ultimu- ni vito finem pervenero supplex accedam ad te spem oratum, ne me audias neve inter tuos accipias oro; cum infernis diis in æternum vitam degere decrevi."

(٢٦) "-Animum meum sru anmam" وهو تميّز عن طريقه اعتادات الفلسفة وقتذاك أن تترك اللاموت.

(٢٧) انظر بلاتينا Platina, Vitæ Pontiff., p. 311 ، فيما نصه : "Christianam fidem si miraculis non esset confirmata, honestate sua recipi debuisse." كل ما يعزوه بلاتينا إلى الباباوات هو، فى الحقيقة، موثوق به.

(٢٨) التمهيد فى Historia Ferdinandi I (Hist. Ztschr., Bd. xxxiii, p. 61) and Antid. In Pogg., lib. iv, Opp., pp. 256 sqq.. ويقول بونتانوس De Sermone, i, 18 أن فاللا لم يتردد فى dicere "profiterique palam habere se quoque in Christum spicula." مع ذلك، صديقاً لأعداء فاللا فى نابولى.

(٢٩) وبخاصة عندما كان الرهبان يرتجلونهم فى المنبر. على أن المعجزات القديمة والمعترف بها لم تظلّ بغير هجوم. فبان فيرينزولا (Opere, vol. ii, p. 208, in the tenth novel) Firenzuola يسخر من الفرنسييسكان فى نوفارا، الذين أراوا إنفاق المال الذى اختلسوه فى إضافة كنيسة صغيرة إلى كنيستهم، "dove fusse dipinta quella bella storia, quando S. Francesco predicava agli uccelli nel deserto; e quando ei fece la santa zuppa, e che l' agnolo Gabriello gli portò i zoccoli."

(٣٠) ويمكن العثور على بعض الحقائق عنه فى بابت. مانتوان. Bapt. Mantuam., De Patientia, lib. iii, vap. 13.

(٣١) انظر بورسيليس Bursellis, Annal. Bonon., in Murat., xxiii, col. 915.

(٣٢) وإلى أى مدى ذهب هذه الأقوال المجدفة بينها جيسلر Giesger Kirchengeschichte, ii, iv, 154, Anm. الذى اقتبس كثيراً من الأمثلة المدهشة.

(٢٣) انظر ثرويت Voigt, Enea Silvio, iii, 581. ومن غير المعلوم ماذا حدث للأسقف بيترو من أراندا، الذي (١٥٠٠) أنكر ألوهية المسيح ووجود الجحيم والمطهر، وشجب صكوك الغفران بوصفها أداة وحيداً للبايات اخترعت لمصلحتهم الخصوصية. وعنه انظر (Burchardi Diarium, pp. 63 sqq. ed. Leibnitz).

(٢٤) انظر جوف. بونتان. Cf. Opp., 1, 792-921. و انظر أيضاً، Cf. Opp., ii, 286.

(٢٥) انظر إينياس سيلفيوس Opera, p. 611.

(٢٦) انظر Poggius, De Miseris Humanæ Conditionis.

(٢٧) انظر كاراتشيولو, Caracciolo, De Varietate Fortunæ, in Murat., xxii, وهي واحدة من أقيم الكتابات عن فترة ثرية يمثل هذه الأعمال. وعن الحظ Fortune في الممتلكات العامة انظر الفصل الثامن، القسم الخامس.

(٢٨) انظر Leonis X Vita Anonyma, in Roscoe, ed. Bossi, xii, p. 153.

(٢٩) انظر بورسيليس Annal. Bonon., in Murat., xxiii, col. 909. حيث ما نصه: "Monimentum hoc conditum a Joanne Bentivolo secundo patrie rectore, cui virtus et fortuna cuncta qui optari possunt bona affatim præstiterunt." وما يزال من غير المؤكد تماماً هل كان هذا النقش من الخارج، ومرئى لكل الناس، أم، مثل آخر مذكور قبل ذلك مباشرة، مخفياً على أحد أحجار الأساس. وفي الحالة الأخيرة توجد فكرة جديدة متضمنة. وبهذا النقش السرى، الذى ربما يكون كاتب المنونة التاريخية هو الوحيد الذى عرفه، فإن الحظ يُربط بطريقة سحرية بالمبنى.

طبقاً لكلمات المنونة التاريخية، فإن النقش لا يمكن أن يوجد على حوائط البرج حديث البناء. والبقعة الدقيقة غير مؤكدة. - ل. ج. L. G.

(٤٠) "Quod nimium gentilitatis amatores essemus." وذهبت الوثنية، على الأقل في مظاهرها الخارجية، بالتأكيد بعيداً جداً. والنقوش التى اكتشفت مؤخراً فى سرايب الموتى تظهر أن أعضاء الأكاديمية وصفوا أنفسهم بأنهم sacerdotes، وأطلقوا على يومونيوس لايتوس اسم pontifex maximus؛ والأخير وجه الحديث إلى بلاتينا باسم pater sanctissimus. انظر جريجوروفثيوس، vii, 578.

(٤١) بينما ميزت الفنون التشكيلية على كل حال بين الملائكة و putti، واستخدموا الأولين فى جميع الأغراض الجديدة. وفى Annal. Estens., in Murat., xx, col 468. فإن amorino يسمى بسذاجة instar Cupidinis angellus. انظر أيضاً الخطبة التى ألقيت أمام ليو العاشر (١٥٢١)، والتي تُذكر فيها الفقرة: "Quare et te non jam Juppiter, sed Virgo Capitolina Dei parens quæ hujus urbis et collis reliquis præsidis, Romamque et Capitolium sutaris."

جريجوروفثيوس. viii, 294.

(٤٢) انظر ديلا ثالا. Lettere Sanesi, iii, 18.

(٤٣) انظر ماكروب. Macrobius, Saturnal., iii, 9. ويغير شك فإن الكاهن لم يغفل الإيماءات المفروضة هناك. انظر أيضاً جريجوروفثيوس Cf. Gregorovius, viii, 268. عن بيمبو. وعن الوثنية السائدة فى روما انظر أيضاً رانك، Ranke, P?pste, i, 73 sqq. وانظر أيضاً جريجوروفثيوس Cf. Gregorovius, viii, 268.

هوامش الفصل الرابع ، القسم السادس

- (١) انظر. Monachus Paduan., lib. ii, in Urstisius, Scriptores, i, pp. 598, 599, 602,607. وكان لدى آخر أفراد آل فيسكونتي أيضاً عدد من هؤلاء الرجال في خدمته (Cf. Decembrio, in Mu- rat., xx, col. 1027) ؛ ولم يشرع في أي أمر بدون مشورتهم. ومن ضمنهم يهودى اسمه هيلياس He- lias. وقد خاطبه جاسبارينو دا بارزيتزي Gasparino da Barzizzi ذات مرة : "Magna vi astro- rum fortuna tuas res regel" (G. B., Opera, ed. Furietto, p. 38).
- (٢) مثلاً، فلورنسا، حيث شغل بوناتو Bonatto المنصب لفترة طويلة. انظر أيضاً ماتيو فيلاني Matteo Villani, xi, 3. حيث من الواضح أن المقصود هو منجم المدينة.
- (٣) انظر ليبرى Libri, Histoire des Sciences Mathématiques, ii, 52, 193. وفى بولونيا يقال إن كرسي الأستاذية هذا تواجد فى ، ١١٢٥ . انظر أيضاً قائمة الاساتذة فى بافيا، فى كوريو Corio, fol. 290. وعن كرسي الأستاذية فى السابينزا Sapienza فى عهد ليو العاشر انظر روسكو Roscoe, Leo X, ed. Bossi, v, p. 283. وكانت المدن التالية تعد مراكز علم التنجيم - ميلانو وجامعتها فى بافيا وبولونيا ومانتوا.
- (٤) ويشدد ج. أ. كامبانوس على قيمة وأهمية التنجيم، ويختتم بالكلمات : "Quamquam Augustinus sanctissimus ille vir quidem ac doctissimus, sed fortassis ad fidem religionemque propensior negat quicquam vel boni vel mali astrorum necessitate contingere." "Oratio initio studii Perugie habita"- cf. Opera (Rome, 1495).
- (٥) وفى حوالى ١٢٦٠ أجبر البابا اسكندر الرابع كاردينالاً (ومنجماً خجولاً) اسمه بيانكو على التنبؤ بعدد من النبوءات السياسية. انظر جيوف. فيلاني. 81, vi.
- (٦) انظر De Dictis, etc., Alfonsi, Opera, p. 493. وكان يعتقد إنها تعنى "pulchrius quam utile". انظر بلاتينا Vito Pontiff., p. 310. وعن سيكستوس الرابع انظر أيضاً جاك. فولاتيرانوس Cf. Jac. Volaterranus, in Murat., xxiii, col. 173, 186. وكان يحدد الساعات عن طريق الكواكب planetarii، للمقابلات والاستقبالات وما مائلها. ويذكر بيوس الثانى فى Europa, c. 49. أن بابتيستا بلاسيوس Baptista Blasius، وهو فلكى من كريمونا، تنبأ بمحنات وسوء حظ القديس فوسكارو tanquam praevidisset.
- (٧) انظر بروش Brosch, Julius II, pp. 97 and 323 (Gotha, 1878).
- (٨) ويتحدث ب. فاليريانو. P. Valeriano, De Infel. Lit. (pp. 318-324). عن فر. فريولى Fr. Friuli. الذى كتب خريطة بروج ليو، و "abditissima quæque anteactæ, otatis et uni ipsi cognita"

principi explicuerat quæque incumberent quæque futura essent ad unguem ut eventus postmodum comprobavit, in singulos fere dies prædixerat."

(٩) انظر راتكه Popste, i, 247.

(١٠) انظر فيسبازيانو فيورينتينو، صفحة ٦٦٠ (وقارن ص ٣٤١). وانظر المصدر السابق ص. ١٢١، حيث يتم ذكر باجولو آخر بوصفه القائم بالعمليات الرياضية الحسابية ومنجم البلاط الخاص بفيديريجو من مونتيفيلترو. ومن الغريب بمكان أنه كان ألمانياً.

(١١) انظر فيرميكوس ماتيرنوس Firmicus Maternus, Matheseos Libri VIII ، عند نهاية الكتاب الثاني.

(١٢) فى بانديلو iii, Nov. 60 ، يعترف منجم أليساندرو بينتيفوجليو فى ميلانو بأنه شيطان مسكين أمام جميع الحضور.

(١٣) وكان فى مثل هذه اللحظة من الحل والتصميم أن لوبوفيكو إيل مورو أمر بصنع صليب وعليه هذا النقش، وهو موجود الآن فى كنيسة الدير فى كور. Chur. وذات مرة قال سيكستوس الرابع أيضاً إنه سيحاول إذا كان المثل صحيحاً. وعن هذا القول للمُنجم بتوليمايوس Ptolemæus، الذى اعتبره ب. فازيو B. Fazio إنه على شاكلة أقوال فيرجيل Virgilian، انظر لور. فاللا Laur. Valla, Opera, p. 461.

(١٤) أدخل والد بيبرو كابوني Piero Capponi ، وهو نفسه كان منجماً، ابنه فى نفس المهنة خوفاً من أن يصاب بالجرح الخطير فى الرأس الذى كان يتهدده (Vita di P. Capponi, Archiv. Stor., iv, ii, p. 15) وكان الطبيب والمُنجم بيبيرليوني من سيوليتو Pierleoni of Spoleto ، الذى كان يعتقد أنه سيموت غرقاً، يتجنب بالتبعية جميع الأماكن المائية، ورفض مراكز مرموقة قُدمت إليه للعمل فى البندقية ويانوا (Paul. Jovius, Wlog. Liter., pp. 67 sqq.) وفى النهاية رمى نفسه فى الماء يأساً عندما اتهموه بالمشاركة فى قتل لورتزو، ومات غرقاً فعلاً. وقيل لهير. أليوتوس Hier. Aliottus أن يحترس فى عامه الثانى والستين، حيث أن حياته ستكون معرضة للخطر آنذاك. فعاش فى حيلة شديدة، وابتعد عن الأطباء، ومر العام بسلام (H. A., Opuscula, ii, 72; Arezzo, 1769). وكتب صديق (Epist., lib. 17) إلى مارسيليو فيتشينو Marsilio Ficino ، الذى كان يحتقر التنجيم (Opp., p. 772) ، يقول له : "Proterea me memini a duobus vestrorum astrologis audivisse, te ex quadam siderum positione antiquas revocaturum philosophorum sententias."

(١٥) وعن أمثلة فى حياة لوبوفيكو إيل مورو انظر سيناريجا Senarega, in Murat., xxiv, col. 518, 524؛ وبينيديكتوس Benedictus, in Eckard, ii, col. 1623. ومع هذا فإن والده، فرانتشيسكو سفورزا العظيم، كان يحتقر التنجيم، وجده چياكومو لم يتبع على أية حال تحذيراته. انظر كوريو Corio fol. 321, 413.

(١٦) وعن الحقائق المكتسبة منا انظر (Ann. Foroliv., in Murat., xxii, col 233 sqq. (Cf. col. 150). وسعى ليون باتيستا ألبرتى لأن يعطى معنى روحياً لمراسم وضع الأساس. انظر Opere Volgari, tom. Filippo Villani, Vite and Della Vita e delle Opere di Guido Bonati, Astrologo e Astronomo del Secolo Decimoterzo, raccolte da R. Boncompagni (Rome, 1851). وعن بوناتو انظر فيليببو فيلاني Filippino Villani, Vite and Della Vita e delle Opere di Guido Bonati, Astrologo e Astronomo del Secolo Decimoterzo, raccolte da R. Boncompagni (Rome, 1851). وتكرر طبعه عدة مرات.

- (١٧) فى خريطة بروج البناء الثانى لفلورنسا (انظر جيوف. فيلاني 1، iii، فى عهد شارل الاعظم) والبناء الأول للبندية (انظر أعلاه، الفصل السابع، القسم الأول) ربما خلط تقليد قديم مع شعر القرون الوسطى.
- (١٨) عن واحدة من هذه الانتصارات انظر الفقرات الرائعة المقتبسة من بوناتو فى شتاينشنايدر-Steinschneider، Cf. neider, in the Ztschr. d. D. Morg. Ges., xxv, p. 416. وبناتو انظر المصدر السابق. ibid., xviii, 120 sqq..
- (١٩) انظر Ann. Forolivi., pp. 235-238؛ وفيليبو فيلاني Filippo Villani, Vite؛ وماكيا فيلى Stor. Fiorent., lib. i. وعندما ظهرت مجموعة النجوم التى تؤذن بالنصر صعد بوناتو ومعه كتابه وإسطرلابه إلى برج القديس ميركوريالى S. Mercuriale فوق الميدان piazza، وعندما حانت اللحظة المناسبة أعطى الإشارة لدق الجرس الكبير. ومع هذا فإنه كان مُسلماً بأنه كان كثيراً ما يتعد عن التنبؤ الصحيح، ولم يتنبأ لا بوقاته ولا قدر مونتيفيلترو. وقد قتله اللصوص ليس بعيداً عن تشيسينا Cesena، فى طريق عودته إلى فورلى من باريس ومن الجامعات الإيطالية التى كان يحاضر فيها. وكمتبني بحالة الجو فإن واحداً من بنى وطنه تفوق عليه وجعله موضع السخرية.
- (٢٠) انظر ماتيو فيلاني 3، xi، Matteo Villani؛ وانظر أعلاه الفصل الرابع، القسم السادس.
- (٢١) انظر جوف. بونتان. i. i. Jov. Pontan., De Fortitudine, lib. i. وانظر أعلاه هامش ١٥، عن الاستثناء المشرف الذى قام به أول آل سفورزا.
- (٢٢) انظر باول. جوفيس Paul. Jovius, Elog. تحت "Livianus" صفحة ٢١٩.
- (٢٣) الذى يحكى القصة بنفسه. انظر بينيديكتوس Benedictus, in Eccard, ii, col. 1617.
- (٢٤) وفى هذا المعنى ينبغي أن نفهم كلمات چاك. ناردي Jac. Nardi, Vita d' Ant. Giacomini, p. 66. وكانت نفس المحاضرات تشترك فى الموضوعات عن الملابس وأدوات المنزل. وفى حفل استقبال لوكريتسيا بورجيا فى فيرارا كان على ظهر بغل نوقة أورينو غطاء مزركش للسرّج من المخمل الأسود مزين بأشكال تنجيمية من الذهب. انظر Archiv. Stor., App. II, p. 305.
- (٢٥) انظر إينياس سيلفيوس فى الفقرات المقتبسة أعلاه، الفصل الرابع، القسم السادس؛ وانظر أيضاً Cf. Opp, 481.
- (٢٦) انظر أزاريو Azario فى كوريو Azario, in Corio, fol. 258.
- (٢٧) ومن المحتمل أن اعتبارات من هذا النوع أثرت على المنجّمين الأتراك الذين نصحوا السلطان بايزيد الأول، بعد معركة نيكوبوليس Nicopolis، بأن يوافق على فدية چون من برجانيا، لأنه من أجله سيراق كثير من الدم المسيحى. ولم يكن من العسير التنبؤ بالمسار الذى ستأخذه الحرب الأهلية الفرنسية. انظر Juvénal des Ursins, ad a. Magn. Chron. Belgicum, p. 358، وجوفينال دى أورسينس. 1396.
- (٢٨) انظر بينيديكتوس in Eccard, ii, col. 1579. ويقال عن ملك فيررانتى فى ١٤٩٢ إنه ليفقد عرشه "sine cruore sed sola fama" الأمر الذى حدث بالفعل.
- (٢٩) انظر أيضاً شتاينشنايدر Cf. Steinschneider, Apokalypsen mit polemischer Tendenz, D. M. G. Z., xxviii, 627 sqq.; xxix, 261.

- (٢٠) انظر بايت. مانتوان. Bapt. Mantuan., De Patientia, lib. iii, cap. 12.
- (٢١) انظر جيوف. فيلاني Gio. Villani, x, 39, 40. ووجدت أسباب أخرى أيضاً— مثلاً، الغيرة من زملانه. ودرّس بوناتو نفس الشيء، وشرح معجزة الحب الإلهي في القديس فرانسيس بوصف كونها تأثير الكوكب مارس (المرخ). انظر أيضاً جو. بيكوس Jo. Picus, Adversus Astrologos, ii, 5.
- (٢٢) وصورها ميريئو في بداية القرن الخامس عشر. وطبقاً لكارديونيوس فإنه كان مقدراً لها -ad indicandum nascentium naturas per gradus et numeros"- طريقة أكثر شعبية في التعليم عما يمكن الآن أن نتصوره. لقد كان التنجيم "على باب كل الناس." "à la portée de tout le monde"
- (٢٣) ويقول في (Orationes, fol. 35, In Nuptias) عن التنجيم: "hæc efficit ut homines parum a Diis distare videantur." وهناك متحمس آخر من نفس الوقت هو جو. جارتزونيوس Jo. Garzonius, De Dignitate Urbis Bononie, in Murat., xxi, col. 1163.
- (٢٤) انظر بترارك Petrarch, Epist. Seniles, iii, 1 (p.765), ومواضع أخرى. والرسالة موضوع الحديث كتبت إلى بوكاتشيو. وعن هجوم بترارك العنيف ضد المنجمين انظر جايغر Geiger, Petrarca, pp. 87-91 and 267, n. 11. بالرغم من أنه يشجب التنجيم بالفاظ جارحة، فإنه مع ذلك أطلق على ماينو دي ماينيري Mayno de' Mayneri اسم "المنجم العظيم"، وصديقه الحميم، وفاخر بالنبوة التي قيلت في شبابه، أن شيئاً عظيماً سينتج منه (Epist. Sen., iii; Cf. Rajna, Giorn. Stor., x, 101 sqq.).
- (٢٥) ويسخر فرانكو ساكيتي Franco Sacchetti, (Nov. 151), من ادعاءاتهم للحكمة.
- (٢٦) انظر جيوف. فيلاني Gio. Villani, iii, x, 39. وفي مواضع أخرى فإنه يظهر كأنما هو مؤمن مخلص بالتنجيم. x, 120; xii, 40.
- (٢٧) في الفقرة 3, xi
- (٢٨) انظر جيوف. فيلاني Gio Villani, xi, 2; xii, 4.
- (٢٩) ويذكر مؤلف Annales Placentini (in Murat., xx, col. 931), وهو نفس ألبيرتو دا ريفالتا Alberto da Rivalta المذكور في الفصل السابع، القسم الثالث، اشترك في هذا الجدل والنزاع. والفقرة رائعة في مجالات أخرى، لأنها تحتوى الرأي الشعبى فيما يختص بالتسع مذنبات المعروفة، ولونهم ومنشأهم وأهميتهم. انظر أيضاً جيوف. فيلاني Gio. Villani, xi, 67. وهو يتحدث عن مذنب بوصفه نذيراً بأحداث عظيمة ومروعة بصفة عامة.
- (٤٠) انظر باول. جوفويوس Paul. Jovius, Vita Leonis X, lib. iii, حيث يظهر أن ليو نفسه كان مؤمناً على الأقل بالهواجس والإحساسات الداخلية وما ماثلها؛ انظر أعلاه الفصل الرابع، القسم السادس. [ويعلن جايغر أن هذا التقرير عن باول. جوفويوس وهم وخرافة. -ج. ج. W. G.]
- (٤١) انظر جو. بيكوس ميراند Jo. Picus Mirand., Adversus Astrologos, lib. xii (1495).
- (٤٢) طبقاً لباول. جوفويوس (Elog. Lit., pp. 76 sqq., under Jo. Picus) فإن النتيجة التي حققها كانت "ut subtilium disciplinarum professores a scribendo deterruisse videatur."

(٤٣) انظر. De Rebus C?lestibus, lib. xiv (Opp., iii, 1963-2591) وفي الكتاب الثاني عشر، المهدي إلى باولو كورتيزي، فإنه لا يعترف بتفنيذات الأخير عن التنجيم. انظر، Aegidius, Opp., ii, 1455-1514 وكان بوتتانو قد أهدى عمله الصغير De Luna (Opp., iii, 2529) إلى نفس الناسك إيجيديو (من فيتربو؟).

(٤٤) عن الفقرة الأخيرة انظر ص ، ١٤٨٦ ، والفارق بين بوتتانو ويكو يُقدم كالتالي على يد فرانت. بوديريوكوس Franc. Pudericus، وهو واحد من المحاورين في الديالوج (ص. ١٤٩٦) : "Plintanus non ut Johannes Picus in disciplinam ipsam armis equisque, quod dicitur, irrupit, cum illam tueatur, ut cognitu maxime dignam ac pene divinam, sed astrologos quosdam, ut parum cautos minimeque prudentes insectetur et rideat."

(٤٥) في سانت ماريا ديل بويولو S. Maria del Popolo في روما. وتذكرنا الملائكة بنظرية دانتى في بداية Convivio.

(٤٦) وكانت تلك هي الحال مع أنتونيو جالاتيو، الذي، في رسالة إلى فرديناند الكاثوليكي Mai, Spicileg. Rom., vol. viii, p. 226, ad a. 1510، يندد بالتنجيم بعنف، وفي رسالة أخرى إلى كونت بوتيزا ibid., p. 539 يستنتج من النجوم أن الأتراك سيهاجمون رودس في نفس العام.

(٤٧) انظر ريكوردى Ricordi, loc. cit., n. 57.

(٤٨) وتذكر كثير من الأمثلة عن مثل هذه الخرافات في حالة آخر أفراد آل فيسكونتي على يد ديسميريو De- cembrio (in Murat., xx, col. 1016 sqq.). ويقول أوداكسيوس Odaxius في خطبته عند دفن جيويوبالو Guidoaldo (Bembi Opere, i, 598 sqq.) أن الآلهة أعلنت قرب موته عن طريق الصواعق والهزات الأرضية وعلامات وعجائب أخرى.

(٤٩) انظر فاركي Varchi, Stor. Fiorent., lib. iv (p. 174). والتنبؤات والهواجس كانت وقتذاك منتشرة في فلورنسا كما كانت في القدس أثناء الحصار. انظر أيضاً. Cf. ibid., iii, 143, 195; iv, 43, 177.

(٥٠) انظر ماتاراتو Matarazzo, Archiv. Stor., xvi, ii, p. 208.

(٥١) انظر براتو Prato, Archiv. Stor., iii, 324، لعام ، ١٥١٤ .

(٥٢) انظر براتو الموضوع المذكور عن المادونا ديل أربوري Madonna dell' Arbore في كاتدرائية ميلانو، وماذا صنعت في ، ١٥١٥ ، وهو يسجل أيضاً اكتشاف تنين ميت عريض مثل الحصان في حفريات كنيسة صغيرة للدفن قرب سان نازارو. وأخذت الرأس إلى قصر تريفولزي Trivulzi، الذي كانت الكنيسة الصغيرة قد بنيت له.

(٥٣) "Et fuit mirabile quod illico pluvia dessavit." انظر Diar. Parmense, in Murat., xxii, col. 280. والمؤلف يشترك في البغض الشعبي للمرابين. انظر أيضاً. Cf. col. 371.

(٥٤) انظر Conjuratōnis Pactianæ Commentarius Loren- zo. وكان بوليتيان بصفة عامة معارضاً للتنجيم. وبالطبع كان القديسون قادرين على جعل المطر يتوقف. انظر أيضاً إينياس سيلفيوس في ترجمة حياة برناردينو دا سينا De Vir. Ill., p. 25 حيث يقول: "jussit in virtute Jesu nubem abire, quo facto solutis absque pluvia nubibus, prior serenitas rediit."

(٥٥) انظر بوجيو Facetie, fol. 167, 174, 179, 180. ويذكر إينياس سيلفيوس (De Europa, c. 53) 54, Opera, pp. 451, 455 أعاجيب ومعجزات قد تكون قد حدثت فعلاً، مثل المعارك بين الحيوانات والظهورات الغريبة في السماء، ويذكرها بوصفها غرائب بوجه رئيسي، حتى عندما يضيف النتائج المعزوة إليها. وبالمثل أنتونيو فيراري (Antonio Ferrari (il Galateo), De Situ lapygiæ, p. 121 مع الشرح: "Et hæ, ut puto, species erant earum rerum quæ longe aberant atque ab eo loco in quo species visæ sunt minime poterant."

(٥٦) انظر بوجيو Facetiæ, fol. 160. انظر أيضاً بوسانياس Pausanias, ix, 20.

(٥٧) انظر فاركي Varchi, iii, 195. قرر شخصان مشتبّه فيهما الفرار في ١٥٢٩، لأنها فتحة الإنيادة على الكتاب الثالث صفحة ٤٤، انظر أيضاً رابليه Pantagruel, iii, 10.

(٥٨) وقد يمكن فهم خيالات العلماء، مثل splendor و spiritus لكاردانوس و daemon familiaris لوالده على ما هي عليه. انظر أيضاً كاردانوس Cf. De Propria Vita, cap. 4, 38, 47. وكان هو نفسه معارضاً للسحر cap. 39 وعن الهواجس والأشباح التي قابلها انظر cap. 37 and 41. وعن الربع من الأشباح الذي كان يحس به آخر أفراد آل فيسكونتي. انظر ديسمبريو Decembrio, in Murat., xx, col. 1016.

(٥٩) "Molte fiato i morti guastano le creature." انظر بانديللو Bandello, ii, Nov. 1. ونحن نقرأ Galateo, p. 177 أن الأشباح animæ الخاصة بالرجال الأشرار تقوم من القبر، وتظهر لأصدقائهم ومعارفهم، "animalibus vexi, pueros sugere ac necare, deinde in sepulcra reverti."

(٦٠) انظر Galateo, loc. cit... ونقرأ أيضاً (ص. ١١٩) عن السراب Fata Morgana وبعض الظهورات الماثلة.

(٦١) انظر بانديللو Bandello, iii, Nov. 20. وحقيقي أن الشبح كان مجرد عاشق يرغب في إفزاع ساكن القصر، الذي كان أيضاً زوج السيدة المعشوقة. والعاشق وشركاؤه كانوا يلبسون مثل الشياطين؛ وواحد منهم، الذي كان يستطيع تقليد صيحات مختلف الحيوانات، استدعى من مكان بعيد.

(٦٢) انظر جراتزياني Graziani, Archiv. Stor., xvi, i, p. 640, ad a. 1467. ومات الوصي من الخوف.

(٦٣) انظر Balth. Castilionii Carmina, ed. P. A. Serssi, ii, pp. 294 sqq.; Prosopopeja Lud. Pici.

(٦٤) وألكساندرى أب ألكساندرو Alexandri ab Alexandro, Dierum Genialium, lib. vi (Colon., 1539) هو خبير ثقة من الطراز الأول في هذه الموضوعات، وأكثر من ذلك عندما يكون المؤلف، وهو صديق ليونتانوس وعضو في أكاديميته، وهو يؤكد أن ما يسجله إما حدث له أو وصله عن طريق شهود موثوق فيهم بدقة. انظر Lib. vi, cap. 19: رجلين من الأشرار وراهب يهاجمهم الشياطين، الذين يتعرفون عليهم من شكل أقدامهم، ويهربون، جزئياً عن طريق القوة، وجزئياً عن طريق رسم علامة الصليب. Lib. vi, cap. 21: خادم، زج به في السجن على يد أمير قاس بتهمة بسيطة، يستعدى الشيطان، فيخرج من السجن بمعجزة ويعود مرة ثانية، ويوزر العالم الآخر في تلك الأثناء، ويجعل الأمير يرى يده وقد حرقتها نيران الجحيم، ويخبره على لسان روح مغادرة بعض الأسرار التي وصلت الأخير،

ويجبره أن يترك جانباً قسوته، ثم يموت سريعاً من آثار الفزع. Lib. ii, c. 19; iii, 15; v, 23: أشباح لأصدقاء غادروا الدنيا، وشيخ القديس كاتالدوس وأشباح مخلوقات غير معروفة في روما وأريترزو ونابولي. Lib. ii, 22; iii, 8: ظهورات للجن والحوريات في نابولي وإسبانيا والبيولينيز؛ وفي الحالة الأخيرة يكفلها تيودور جازا وجورج من طرابيزوند.

(٦٥) انظر جيوفيللاني Gio. Villani, xi, 2. وقد أخذها من رئيس دير رهبان فاللومبروزا، الذي أوصلها له الناسك.

(٦٦) وجهة نظر أخرى عن الشياطين قدمها جيمستوس بليثو Gemisthos Pletho، الذي لم يبق من عمله الفيلسوف العظيم ol vò oæ الآن إلا شذرات ed. Alexander, Paris, 1858، كان في الراجح معروفاً بالكامل لإيطالي القرن الخامس عشر، إما عن طريق النسخ أو العرف، وأثر بدون شك تأثيراً كبيراً على الثقافة الفلسفية والسياسية والدينية لذلك الوقت. وطبقاً له فإن الأبالسة، الذين ينتمون إلى المرتبة الثالثة من الآلهة، يُحفظون من كل خطأ، وقادرون على اتباع خطوات الآلهة الذين يقفون أعلى منهم؛ وهم أرواح تجلب للرجال الأشياء الحسنة التي تأتي لهم من زيوس من خلال الآلهة الأخرى في الطبقة؛ وهم يطهرون الإنسان ويسهرون عليه، ويرقعون ويقفون قلبه. انظر أيضاً فريتز شولتز Cf. Fritz Schultze, Gesch. Der Philosophie der Renaissance (Jena, 1874).

(٦٧) ومع ذلك فقليل فقط تبقى من المعجائب المعزوة لها. وانظر عن التحول الأخير في الراجح لإنسان إلى حمار، في القرن الحادي عشر في عهد ليو العاشر، وويليام من ماليسبورى William of Malmesbury, ii, 171.

(٦٨) وكانت تلك في الراجح هي حال النساء المسوسات، اللاتي في ١٥١٢ في فيرارا وفي أماكن أخرى كان السادة اللومبارديين الممتازين يستشيروهن فيما يتعلق بأحداث المستقبل. وكانت تدعى روجينا Rodo-gina. انظر رابليه Rabelais, Pantagruel, iv, 58.

(٦٩) انظر جوف. بونتان. Jov. Pontan., Antonius.

(٧٠) وكما كان الاعتقاد في الساحرات منتشرًا عندئذ يستبين من حقيقة أنه في ١٤٨٣ قدم بوليتيان -pralec- "in priora Aristotelis Analytica cui titulus Lamia" tio والترجمة الإيطالية على يد (إيزيدور ديل لونجو Isidore del Lungo، فلورنسا، ١٨٦٤). انظر أيضاً رومونت Cf. Reumont, Lorenzo dei Medici, ii, 75-77. وكانت فيسولي Fiesole. طبقاً لهذا، بمعنى ما، عشاً للساحرات.

(٧١) انظر جراتزياني Graziani, Archiv. Stor., xvi, i, p. 565, ad a. 1445، متحدثاً عن ساحرة في نوتشيرا قدمت فقط نصف المبلغ، وبذلك تم حرقها. وكان القانون موجهاً إلى مثل أولئك الأشخاص الذين "facciono le fature overo venefitie overo encantatione d' immunde spirite a nuocere," loc. cit., note 1, 2.

(٧٢) انظر Umbria، إقرأ Umbra، صفحة ٢٢٥، Lib. i, Ep. 46, Opera, pp. 531 sqq.. ويدلاً من lacum إقرأ locum.

(٧٣) وهو يدعوها فيما بعد: "Medicus Ducis Saxonie, homo tum dives tum potens."

(٧٤) في القرن الرابع عشر كان يوجد نوع من بوابة الجحيم قرب أنسيديونيا Ansedonia، في توسكانيا. وكانت كهفاً، به آثار أقدام لرجال وحيوانات في الرمال، التي كلما طمسوها تظهر مرة أخرى في اليوم التالي. انظر أوبيرتي Uberti, Il Dittamondo, lib. iii, cap. 9.

(٧٥) انظر Pii II Comment., lib. i, p. 10.

(٧٦) انظر بينف، تشيليني. Benv. Cellini, lib. i, cap. 65.

(٧٧) انظر L'Italia Liberata da' Goti, canto xiv. وقد يكون هناك شك هل ترسيتو نفسه كان يعتقد في إمكانية وصفه، أو هل لم يكن بالأحرى رومانسياً. ونفس الشك مسموح به في حالة نموذجة المحتمل، وهو لو كان Lucan الكتاب الرابع، الذي يمثل الساحر التيساليني Thessalian الذي يستحضر روح جثة أمام سيكستوس بومبيوس. Sextus Pompeius.

(٧٨) انظر Septimo Decretal., lib. v, tit. xii. ويبدأ "Summis desiderantes affectibus," etc. وينكر باستور iii, pp. 250 sqq. بعد تفكير دقيق أن إنوست أنخل اضطهاد الساحرات مع القرار. W. G. وقد يمكن أن أعلق هنا أن تفكيراً شاملاً في الموضوع أقتنعني أنه لم يكن هناك في تلك الحالة أي أساس للاعتقاد في استمرار العقائد الوثنية. ولكي نقتنع أنفسنا بأن خيال الرهبان الشحاذين كان مسئولاً وحده عن هذا الخداع ينبغي أن ندرس، في مذكرات جاك دو كليرك Jacques du Clerc، المحاكمة المزعومة للولدانيين Waldenses في أرأس Arras في ١٤٥٩، وقد أدخل قرن من المحاكمات والاضطهادات الخيال الشعبي إلى تلك الحالة التي جعلت فنون السحر مقبولة كأمر واقع وأعدت إنتاج نفسها بالطبع.

(٧٩) التي أصدرها إسكندر السادس وإيو العاشر وأندريان السادس.

(٨٠) ويضرب به المثل كقولة الساحرات- مثلاً، Orlandino, i, 12.

(٨١) مثلاً، بانديلو iii, Nov. 29 and 52، ويراو. Archiv. Stor., iii, 409. وينكر بورسيليس Bursel- lis, Annal. Bonon., in Murat., xxiii, col. 897، إدانة رئيس دير للرهبان في ١٤٦٨، كان يدبر بيت دعارة شعبية: "cives Bononienses coire faciebat cum domonibus in specie puel- larum." وقد قرابين إلى الأبالسة. انظر حالة مثيلة في بروكوب. Procop., Hist. Arcana, c. 12. حيث يزود بيت دعارة حقيقي بانتظام عفريت يطرد الزوار الآخرين خارج الأبواب. والجالايتو Galateo ص. ١١٦ يؤكد وجود الاعتقاد في الساحرات: "volare per longinquas regiones, choreas per paludes dicere et dæmonibus congregi, ingredi, et egredi per clausa ostia et foramina."

(٨٢) عن الجهاز الكريه في مطابخ الساحرات انظر Macaroneide, Phant. xvi and xxi، حيث يتم وصف كل خطوات العمل.

(٨٣) في Ragionamento del Zoppino. وهو يرى أن العاهرات كن يتعلمن فنهن من بعض النساء اليهوديات، اللاتي يمتلكن الشر. malie والفقرة التالية جديرة بالملاحظة. فيقول بيمبو في ترجمة حياة جويدواليو Opera, i, 614 ما نصه: "Guid. constat sive corporis et naturæ vitio, seu quod vulgo creditum est, actibus magicis ab Octaviano patruo propter regni cupiditatem impeditum, quarum omnino ille artium expeditissimus habebatur, nulla cum femina coire unquam in tota vita potuisse, nec unquam fuisse ad rem uxori-am idoneum."

(٨٤) انظر فاركى. Varchi, Stor. Fiorent., ii, p. 153.

(٨٥) ويقدم لاندی معلومات غربية فى Commentario, fol. 36a and 37a ، حول ساحرين، صقلی ويهودی؛ ونقرأ عن المرايات المسحورة، وعن رأس - موت تتحدث، وعن الطيور التى تُوقَف فجأة أثناء طيرانها.

(٨٦) ويتم التشديد على هذا التحفظ. انظر. Corn. Agrippa, De Occulta Philosophia, cap. 39.

(٨٧) انظر. Septimo Decretal. loc. cit.

(٨٨) انظر. Zodiacus Vito, xii, 363-539 (cf. x, 393 sqq.).

(٨٩) انظر. Ibid., ix, 291 sqq..

(٩٠) انظر. Ibid., ix, 770 sqq..

(٩١) والطراز الأسطوري الساحر بين شعراء ذلك الزمان كان مالاجيجى Malagigi. ويقدم بولتشى عندما يتحدث عنه (Morgante, canto xxiv, 106 sqq.) وجهة نظره النظرية فى الأبالسة وتأثير السحر. ومن العسير القول إلى أى مدى كان جاداً. انظر أيضاً. Cf. canto xxi.

(٩٢) وكان بوليديوروس فيرجيلیوس Polydorus Virgilius إيطاليًا بالمولد، ولكن عمله De Prodigiiis يتناول بصفة رئيسية الخرافة فى إنجلترا، حيث أمضى حياته. وعندما تحدث عن بصيرة الأبالسة، فإنه يشير بطريقة غربية إلى نهب روما فى ١٥٢٧ .

(٩٣) ومع ذلك فإن القتل ليس هو الغاية، وربما لم يكن، أبداً، الوسيلة. ولم يكن لوحش مثل جيل دى ريتز Gilles de Retz حوالى ١٤٤٠، الذى قدم أكثر من مئة طفل قرابين إلى الأبالسة، مثيل ولو من بعيد فى إيطاليا.

(٩٤) انظر بحث روث Roth, Ueber den Zauberer Virgilius, in Pfeiffer's Germania, iv وكومباريتى، فرجيل فى القرون الوسطى. Comparetti's Virgil in The Middle Ages. وقد يمكن تفسير أن فيرجيل بدأ يأخذ مكان telestæ الأقدم جزئياً عن طريق حقيقة أن الزيارات المتكررة إلى قبره حتى فى عهد الإمبراطورية أدهشت الخيال الشعبى.

(٩٥) انظر أوبيرتى. Uberti, Dittamondo, lib. iii, cap. 4.

(٩٦) ولطلب ما يعقب ذلك انظر چيو. فيلانى. Gio. Villani, i, 42, 60; ii, 1,; iii, 1; v, 38; xi, 1. وهو نفسه لم يكن يصدق مثل هذه الخرافات اللحدة. وانظر أيضاً دانتى، الجحيم. Cf. Dante, Inferno, xiii, 146.

(٩٧) وطبقاً لشذرة قدمت فى بالوز. Baluz., Miscell., ix, 119 ، فإن أهل بيروجيا تعاركوا فى الأزمان القديمة مع أهل رافنا. "et milites marmoreum qui juxta Ravennam se continue volvebat ad solem usurpaverunt et ad eorum civitatem virtuosissime transtulerunt." وعن الأساطير الفلورنسية المذكورة هنا انظر دافيدسون Davidsohn, Gesch. v. Florenz., i, App. P. 122، وفيلارى Villari, I Prieni Due Secole, i, pp. 63 sqq..

(٩٨) والاعتقاد المحلى عن الموضوع قُدم فى Annal. Foroliv., in Murat., xxii, col. 207, 238 وبطريقة أشمل فى فيل. فيلانى. Fil. Villani, Vite, p. 43.

(٩٩) انظر بلاتينا Platina, Vitæ Pontiff., p. 320 ، حيث ما نصه : "Veteres potius hac in re quam Petrum, Anacleum, et Linum imitatus."

(١٠٠) وهو الذى من اليسير إدراكه، مثلاً، فى سوجيرىوس Sugerius, De Consecratione Ecclesiae (Duchesne, Scriptorum, iv, 355), and in Chron. Petershusanum, i, 13 and 16.

(١٠١) انظر أيضاً Cf. the Calandra of Bibbiena.

(١٠٢) انظر بانديلو Nov. 52. فيليانو Fr. Filelfo (Epist. Venet., lib. 34, fol. 240 sqq.) يهاجم السحر بعنف. وهو يخلو بطريقة محتملة من الخرافة Sat., iv, 4, ولكنه يعتقد فى "التأثير الشرير" mali effectus لأحد المذنبات Epist., fol. 246b.

(١٠٣) انظر بانديلو Nov. 29. iii ويتطلب الساحر وعداً بالسرية يقوى عن طريق أقسام جليبة، فى تلك الحالة عن طريق قسم على المذبح الأعلى لكنيسة القديس بيترونيو S. Petronio فى بولونيا، فى وقت عندما لم يكن هناك أحد آخر فى الكنيسة. وهناك كم كبير من السحر فى Macaroneide, Phant. xviii.

(١٠٤) انظر بينف. تشيليني Benv. Cellini, i, cap. 64.

(١٠٥) انظر فاسارى Vasari, viii, 143, Vita di Andrea da Fiesole. وكان هذا هو سيلفيو كوسيني Silvio Cosini, الذى أيضاً سُمى إلى الوصفة السحرية وحماقات أخرى.

(١٠٦) انظر أوبريتى Uberti, Dittamondo, iii, cap. 1. وفى مسيرة أنكونا قام بزيارة سكارايوتو Scariotto, وهو المكان المفترض لميلاد يوداس Judas, ويلاحظ: "لا ينبغي أن أمر فوق جبل بيلاتوس، والبحيرة الخاصة به، حيث طوال الصيف يتغير الحراس بانتظام. لأن من يفهم السحر يأتى إلى أعلى هنا ليتمكن لكتبه أن تكسر للأغراض النبيلة، وبذلك، كما يقول أهل المكان، ستهب عاصفة عظيمة." (وكان تكريس الكتب، كما قلنا، الفصل الرابع، القسم السادس، هو احتفال خاص، متميز عن البقية). وفى القرن السادس عشر كان صعود جبل بيلاتوس بقرب لوسيرن محظوراً "بواسطة" lib und guot. كما يسجل دييولد شيلينج Diebold Schilling. وكان من المعتقد أنه فى البحيرة على الجبل يرقد شبح هو روح بيلاطس. وكلما صعد الناس الجبل أو رموا أى شىء فى البحيرة هبت الزوابع.

(١٠٧) انظر De Obsedione Tiphematium, 1474 (Rer. Ital. Script. ex Florent. Codicibus, tom. ii).

(١٠٨) وهذه الخرافة، التى كانت واسعة الانتشار بين الجند (حوالى ١٥٢٠)، يتم السخرية منها على يد ليميرنو بيتوكو فى Orlandino, v, 60.

(١٠٩) انظر باول. چوفىوس Paul. Jovius, Elog. Lit., p. 106, under "Cocles," Barth. Coclitis, Chiromantie et Physiognomie Anaphrasis (Bologna, 1523). وأهمهم هو كاردانوس فى Metoposcopia, lib. 13.

(١١٠) والذى يتحدث هنا هو الجامع المتحمس للصور الشخصية.

(١١١) من النجوم، لأن جواريكوس لم يكن يعرف علم الفراسة. وعن قدره هو نفسه كان عليه أن يرجع إلى تنبؤات كوكلى Cocle, لأن والده أغفل أن يرسم تخطيط بروجيه. فى الحقيقة، كانت العقوبة التى عاناها جواريكوس أقل شدة من تلك الموصوفة فى النص. انظر أيضاً Cf. Ronchini, Atti e Memorie, Napoli, vii. أيضاً L. G. Percopo 1895. ج. ج. Gabotto 1892 وبيركويو.

- (١١٢) انظر. Paul. Jovius, loc. cit., pp. 100 sqq., under Tibertus.
- (١١٣) والحقائق الأساسية فيما يتعلق بهذه الأفرع الجانبية للرجم بالغيب يقدمها كورن. أجرييا. Com. Agrippa, De Occulta Philosophia, cap. 57.
- (١١٤) انظر. Libri, Histoire des Sciences Mathématiques, ii, 122.
- (١١٥) "Novi nihil narro, mos est publicus" (Remed. Utr. Fort., p. 93) ، هي واحدة من الفقرات المفعمة بالحياة في هذا الكتاب، وكتبت. "ab irato"
- (١١٦) الفقرة الرئيسية في Trithem., Ann. Hirsaug., ii, 286 sqq..
- (١١٧) "Neque enim desunt," Paul. Jovius, Elog. Lit., p. 150, under "Pomp. Gauri-cus"; Cf. ibid., p. 130, under "Aurel. Augurellus," Macaroneide, Phant. xii.

هوامش الفصل الخامس ، القسم السادس

(١) عند كتابة تاريخ عدم الاعتقاد الإيطالي قد يكون من الضروري أن نشير إلى ما يسمى فلسفة ابن رشد التي كانت سائدة بإيطاليا وبخاصة في البندقية حوالي منتصف القرن الرابع عشر. وقد عارضها بوكاتشيو وبتاراك في رسائل مختلفة، والأخير عن طريق عمله *De Sui Ipsius et Aliorum Ignoran-* lia. وبالرغم من أن معارضة بتاراك قد زادت عن طريق سوء الفهم والمبالغة، فإنه كان مع ذلك مقتنعاً تمام الاقتناع بأن الفلاسفة الرشديين سخروا من ، ورفضوا الدين المسيحي.

(٢) انظر أريوستو Ariosto, Sonetto, 34: "Non credere sopra il tetto.". والشاعر يستخدم كلمات موظف رسمي كان قد أصدر قراراً ضده في أمر من أمور العقارات.

(٣) وقد يمكننا هنا مرة أخرى أن نشير إلى جيميستوس بليتون Gemisthos Plethon ، الذي كان لتجاهله للمسيحية تأثير عام على الإيطاليين، وخاصة على الفلورنسيين من تلك الفترة.

(٤) انظر *Narrazione del Caso del Boscoli*, Archiv. Stor., i, 273 sqq.. وكانت الجملة السارية هي "non aver fede". وانظر أيضاً Cf. Vasari, vii, 122, Vita di Piero di Cosimo.

(٥) انظر Jov. Pontan., Charon, Opp., ii, 1128-1195.

(٦) انظر Faustini Terdicei Triumphus Stultitiæ, lib. ii.

(٧) مثلاً، بوربونى موروسيني Borbone Morosini حوالي ١٤٦٠؛ وانظر أيضاً Cf., Sansovino, Vne- zia, lib. xiii, p. 243. وقد كتب "de immortalite animæ ad mentem Aristotelis" وأشار

بومبونىوس لايتوس، كوسيلة لتحقيق إطلاق سبيله من السجن، إلى حقيقة أنه قد كتب رسالة رسمية عن لأخلاقية الروح. انظر الدفاع الجدير بالملاحظة في جريجوروفويس 580 sqq. vii، وانظر، من الناحية الأخرى، سخرية بولنشى من هذا الاعتقاد في سوناتة، اقتبسها جاليوتى Galeotti, Archiv. Stor. Ital., postscript, ix, 49 sqq..

(٨) انظر Vespas. Fiorent., p. 260.

(٩) انظر Orationes Philelphi, fol. 18.

(١٠) انظر Septimo Decretal., lib. v, tit. iii, cap. 8.

(١١) انظر Ariosto, Orlando, vii, 61. وتم السخرية منها فى Orlandino, iv, 67 and 68. ويستخدم كارييتو Cariteo، وهو عضو فى الأكاديمية النابوليتانية الخاصة ببونتانوس، فكرة التواجد السابق للروح من أجل تعجيد بيت أراجون. Roscoe, Leo X, ed. Bossi, ii, 288.

Cf. Lucan, Pharsalia, ix, at Orelli, ad Cic., De Republ., lib. vi. انظر أيضاً لوكان (١٢)
the beginning.

Petrarch, Epist. Fam., iv 3; iv, 6. انظر بترارك (١٣)

"Che agli uomini fortissimi : هذه الفقرة الرائعة هي كما يلي: انظر Fil. Villani, Vite, p. 15. (١٤)
poichè hanno vinto le mostruose faliche della terra, debitamente sieno date le
stelle."

Inferno, iv 24 sqq. Cf. Purgatorio, vii, 28; xxii, 100. انظر (١٥)

Niccolò dell' Arca: وهذه الجنة الوثنية يتم الإشارة إليها في النقش على قبر الفنان نيقولو ديل أركا (١٦)
"Nunc te Praxiteles, Phidias, Polycletus adorant
Miranturque tuas, o Nicolæ, manus."

Bursellis, Ann. Bonon., in Murat., xxiii, col. 912. في بورسيليس

Actius. في عمله المتأخر (١٧)

Cardanus, De Vita Propria, cap. 13 : "Non p nitere ullius rei quam voluntarie انظر (١٨)
"effecerim, etiam quæ male cessisset"

Discorsi, li, cap. 2. انظر (١٩)

Del Governo della Famiglia, p. 114. انظر (٢٠)

Co- انظر أيضاً القصيدة الغنائية القصيرة على يد م. أنتونيو فلامينييو M. Antonio Flaminio في (٢١)
ryciana انظر الفصل العاشر، القسم الثالث

"Dii quibus tam Corycius venusta
Signa, tam dives posuit sacellum,
Ulla si vestros animos poirum
Gratia tangit,
Vos jocos risusque senis faceti
Sospites sevate diu: senectam
Vos date et semper viridem et Falemo
Usque madentem.
At simul longo satiatua ævo
Liquerit terras, dapibus Deorum
Lætus intersit, potiore mutans
Nectare Bacchum."

- (٢٢) انظر. Firenzuola, Opere, iv, pp. 147 sqq.
- (٢٣) انظر. Nic. Valori, Vita di Lorenzo, passim.. وعن النصيحة لابنه، الكاردينال جيوفاني، انظر Roscoe's Lorenzo de' Medici. والملاحق لروسكو. Fabroni, Laurentius, note 178
- (٢٤) انظر Deliciae Jo, Pici, Vita, auct. Jo Franc. Pico. For his Deprecatio ad Deum see Poetarum Italorum.
- (٢٥) انظر Orazione, Roscoe, Leo X, ed Bossi, viii, 120 ("Magno Dio per la cui costante legge"); hymn ("oda il sacro inno tutta la natura") in Fabroni, Laurentius, Adnot. 9; L'Altercazione, in the Poesie di Lor. Magn., i, 265. والقصائد الأخرى المذكورة هنا مقتبسة فى نفس المجموعة. [ويبين بوناردى Bonardi (Giorn. Stor., xxxiii, pp. 77-82 أن ثلاثة على الأقل من هذه الترانيم هى ترجمات لأخرى أقدم. و. ج. W. G.]
- (٢٦) إذا كان بولتشي فى عمله مورجانتى Morgante كان بنى طريقة جاداً مع الدين، فإنه كذلك فى can- to xvi, str. 6. وهذا القول المثنوى من الوثنية الجميلة أنتيا Antea ربما يكون هو أبسط تعبير عن طريقة التفكير السائدة فى دائرة لورنزو، والتي تشكل كلمات العفريت أستاروت (Astarotte المقتبس أعلاه، الفصل الثالث، القسم السادس) بمعنى معين التكملة لتلك النبوة.

المشروع القومي للترجمة

المشروع القومي للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التي حققتها مشروعات الترجمة التي سبقته في مصر والعالم العربي ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

- ١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .
- ٢- التوازن بين المعارف الإنسانية في المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .
- ٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .
- ٤- ترجمة الأصول المعرفية التي أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعي في الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التي تضع القارئ في القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .
- ٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .
- ٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومي للترجمة

أحمد برويش	جون كوين	اللغة العليا	١-١
أحمد فؤاد بلبع	ك. مادهو بانيكار	الوثنية والإسلام (١٥)	١-٢
شوقي جلال	جورج جيمس	التراث المسروق	١-٣
أحمد الحضري	انجا كاريتينكرفا	كيف تتم كتابة السيناريو	١-٤
محمد علاء الدين منصور	إسماعيل فصيح	ثريا في غيبوبة	١-٥
سعد مصلوح ووفاء كامل فايد	ميلكا إيفيتش	اتجاهات البحث اللساني	١-٦
يوسف الأنطكي	لوسيان غولدمان	العلوم الإنسانية والفلسفة	١-٧
مصطفى ماهر	ماكس فريش	مشعلو الحرائق	١-٨
محمود محمد عاشور	أندرو. س. جودي	التغيرات البيئية	١-٩
محمد معتصم وعبد الجليل الأزدي وعمر طي	جيرار جينيت	خطاب الحكاية	١-١٠
هناء عبد الفتاح	فيسوفا شيمبوريسكا	مختارات شعرية	١-١١
أحمد محمود	ديفيد براونستون وأيرين فرائك	طريق الحرير	١-١٢
عبد الوهاب غلوب	روبرتسن سميت	ديانة الساميين	١-١٣
حسن المودن	جان بيلمان نويل	التحليل النفسي للأدب	١-١٤
أشرف رفيق عفيفي	إيوارد لوسى سميت	الحركات الفنية منذ ١٩٤٥	١-١٥
يشرلفد أحمد عثمان	مارتن برنال	أثنية السوداء (ج١)	١-١٦
محمد مصطفى بدوي	فيليب لاركين	مختارات شعرية	١-١٧
طلعت شاهين	مختارات	الشعر السائلي في أمريكا اللاتينية	١-١٨
نعيم عطية	جورج سفيريس	الأعمال الشعرية الكاملة	١-١٩
يعنى طريف الخولي وبدوي عبد الفتاح	ج. ج. كراوثر	قصة العلم	١-٢٠
ماجدة العناني	صمد بهرنجي	خوخة وألف خوخة وقصص أخرى	١-٢١
سيد أحمد على الناصري	جون أنتيس	مذكرات رحالة عن المصريين	١-٢٢
سعيد توفيق	هانز جيورج جادامر	تجلي الجميل	١-٢٣
بكر عباس	باتريك بارنر	ظلال المستقبل	١-٢٤
إبراهيم النسوقى شتا	مولانا جلال الدين الرومي	مثنوى	١-٢٥
أحمد محمد حسين هيكل	محمد حسين هيكل	دين مصر العام	١-٢٦
بإشراف: جابر عصفور	مجموعة من المؤلفين	التنوع البشري الخلاق	١-٢٧
منى أبو سنة	جون لوك	رسالة في التسامح	١-٢٨
بدر الديب	جيمس ب. كارس	الموت والوجود	١-٢٩
أحمد فؤاد بلبع	ك. مادهو بانيكار	الوثنية والإسلام (٢٥)	١-٣٠
عبد الستار الطوجي وعبد الوهاب غلوب	جان سوفاجيه - كلود كاين	مصادر دراسة التاريخ الإسلامي	١-٣١
مصطفى إبراهيم فهمي	ديفيد روب	الانقراض	١-٣٢
أحمد فؤاد بلبع	أ. ج. هويكنز	التاريخ الاقتصادي لأفريقيا الغربية	١-٣٣
حصاة إبراهيم المنيف	روجر آن	الرواية العربية	١-٣٤
خليل كلفت	بول ب. ديكسون	الأسطورة والحدائق	١-٣٥
حياة جاسم محمد	والاس مارتن	نظريات السرد الحديثة	١-٣٦

جمال عبد الرحيم	بريجيت شيفر	راحة سيوة وموسيقاها	٣٧-
أنور مغيث	ألن تورين	نقد الحدائق	٣٨-
منيرة كروان	بيتر والكوت	الحسد والإغريق	٣٩-
محمد عيد إبراهيم	آن سكستون	قصائد حب	٤٠-
عاطف أحمد وإبراهيم فتحي ومحمود ماجد	بيتر جران	ما بعد المركزية الأوروبية	٤١-
أحمد محمود	بنجامين باربر	عالم ماك	٤٢-
المهدى أخريف	أركتافير پاث	اللهب المزبوج	٤٣-
مارلين تادرس	ألدوس هكسلى	بعد عدة أصياف	٤٤-
أحمد محمود	روبرت دينيا وجون فاين	التراث المغنور	٤٥-
محمود السيد على	بابلو نيرودا	عشرون قصيدة حب	٤٦-
مجاهد عبد المنعم مجاهد	رينيه ويليك	تاريخ النقد الأدبي الحديث (ج١)	٤٧-
ماهر جورجياتى	فرانسوا بوما	حضارة مصر الفرعونية	٤٨-
عبد الوهاب علوب	ه . ت . نوريس	الإسلام فى البلقان	٤٩-
محمد براءة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى	جمال الدين بن الشيخ	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	٥٠-
محمد أبو العطا	داريو بيانوبيا وخ. م. بينياليستى	مسار الرواية الإسبانية أمريكية	٥١-
لطفي فطيم وعادل دمرداش	ب. نوفاليس وس. روجسيفيتز وروجر بيل	العلاج النفسى التدميى	٥٢-
مرسى سعد الدين	أ . ف . ألنجتون	الدراما والتعليم	٥٣-
محسن مصيلحي	ج . مايكل والتون	المفهوم الإغريقى للمسرح	٥٤-
على يوسف على	جون بولكنجهوم	ما وراء العلم	٥٥-
محمود على مكى	فديريكو غرسية لوركا	الأعمال الشعرية الكاملة (ج١)	٥٦-
محمود السيد و ماهر البطوطى	فديريكو غرسية لوركا	الأعمال الشعرية الكاملة (ج٢)	٥٧-
محمد أبو العطا	فديريكو غرسية لوركا	مسرحيتان	٥٨-
السيد السيد سهيم	كارلوس مونيث	المحبرة (مسرحية)	٥٩-
صبرى محمد عبد الفنى	جوهانز إيبين	التصميم والشكل	٦٠-
باشراف : محمد الجوهري	شارلوت سيمور - سميت	موسوعة علم الإنسان	٦١-
محمد خير البقاعى	رولان بارت	لذة النص	٦٢-
مجاهد عبد المنعم مجاهد	رينيه ويليك	تاريخ النقد الأدبي الحديث (ج٢)	٦٣-
رمسيس عوض	ألان وود	برتراند راسل (سيرة حياة)	٦٤-
رمسيس عوض	برتراند راسل	فى مدح الكسل ومقالات أخرى	٦٥-
عبد اللطيف عبد الحليم	أنطونيو جالا	خمس مسرحيات أندلسية	٦٦-
المهدى أخريف	فرناندو بيسوا	مختارات شعرية	٦٧-
أشرف الصباغ	فالتين راسبوتين	نتاشا العجوز وقصص أخرى	٦٨-
أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى	عبد الرشيد إبراهيم	العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	٦٩-
عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد	أوخينيو تشانج رودريجت	ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	٧٠-
حسين محمود	داريو فو	السيدة لا تصلح إلا للرمى	٧١-
فؤاد مجلى	ت . س . إليوت	السياسى العجوز	٧٢-
حسن ناظم وعلى حاكم	جين ب . تومكينز	نقد استجابة القارئ	٧٣-
حسن بيومى	ل . ا . سيمينوفا	صلاح الدين والمماليك فى مصر	٧٤-

أحمد درويش	أندريه موروا	٧٥- فن التراجم والسير الذاتية
عبد المقصود عبد الكريم	مجموعة من المؤلفين	٧٦- چاك لاكلان وإغواء التحليل النفسى
مجاهد عبد المنعم مجاهد	رينيه ويليك	٧٧- تاريخ النقد الأدبى الحديث (ج٢)
أحمد محمود ونورا أمين	رونالد روبرتسون	٧٨- العولة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية
سعید الفانمى وناصر حلاوى	بوريس أوسبينسكى	٧٩- شعرية التأليف
مكارم الفمرى	الكسندر بوشكين	٨٠- بوشكين عند «نافورة الدموع»
محمد طارق الشرقاوى	بندكت أندرسن	٨١- الجماعات المتخيلة
محمود السيد على	ميجيل دى أونامونو	٨٢- مسرح ميجيل
خالد المعالى	غوتفريد بن	٨٣- مختارات شعرية
عبد الحميد شحبة	مجموعة من المؤلفين	٨٤- موسوعة الأدب والنقد (ج١)
عبد الرازق بركات	صلاح زكى أقطاى	٨٥- منصور الحلاج (مسرحية)
أحمد فتحى يوسف شتا	جمال مير صانقى	٨٦- طول الليل (رواية)
ماجدة الفناني	جلال آل أحمد	٨٧- نون والقلم (رواية)
إبراهيم الدسوقى شتا	جلال آل أحمد	٨٨- الابتلاء بالتغرب
أحمد زايد ومحمد محيى الدين	أنتونى جيننز	٨٩- الطريق الثالث
محمد إبراهيم مبروك	بورخيس وأخرون	٩٠- رسم السيف وقصص أخرى
محمد هناء عبد الفتاح	باريرا لاسوتسكا - يشوتباك	٩١- المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق
نادية جمال الدين	كارلوس ميجيل	٩٢- لسابلو هشامين المسرح الإسباني المعاصر
عبد الوهاب علوب	مايك فينرستون وسكوت لاش	٩٣- محادثات العولة
قوزية العشماوى	صمويل بيكيت	٩٤- مسرحيتا الحب الأول والصحبة
سرى محمد عبد اللطيف	أنطونيو بويرو بايخو	٩٥- مختارات من المسرح الإسباني
إيوار الخراط	نخبة	٩٦- ثلاث زنبقات وردة وقصص أخرى
يشير السباعى	فرنان برودل	٩٧- هوية فرنسا (مج١)
أشرف الصباغ	مجموعة من المؤلفين	٩٨- الهم الإنساني والابتزاز الصهيونى
إبراهيم قنديل	ديفيد روينسون	٩٩- تاريخ السينما العالمية (١٨٩٥-١٩٨٠)
إبراهيم فتحى	بول هيرست وجراهام تومبسون	١٠٠- مساطة العولة
رشيد بنحو	بيرنار فاليط	١٠١- النص الروائى: تقنيات ومناهج
عز الدين الكتانى الإدريسى	عبد الكبير الخطيبى	١٠٢- السياسة والتسامح
محمد بنيس	عبد الوهاب المؤذب	١٠٣- قبر ابن عربى يليه آباء (شعر)
عبد الغفار مكارى	برتولت بريشت	١٠٤- أوبرا ماهوجنى (مسرحية)
عبد العزيز شبيل	چيرارچينيت	١٠٥- مدخل إلى النص الجامع
أشرف على دعور	ماريا خيسوس روبييرامتى	١٠٦- الأدب الأندلسى
محمد عبد الله الجعيدى	نخبة من الشعراء	١٠٧- صرة الفنان فى الشعر الأمريكى اللاتينى المعاصر
محمود على مكى	مجموعة من المؤلفين	١٠٨- ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى
هاشم أحمد محمد	چون بولوك وعادل درويش	١٠٩- حروب المياه
منى قطان	حسنة بيجوم	١١٠- النساء فى العالم النامى
ريهام حسين إبراهيم	فرانسس هيدسون	١١١- المرأة والجريمة
إكرام يوسف	أولين علوى ماكليود	١١٢- الاحتجاج الهادئ

- ١١٢- راية التمرد سادى پلانت
١١٤- مسرحيتا حصاد كرنجى وسكان المستنقع وول شوينكا
١١٥- غرفة تخص المرأة وحده فرجينيا وولف
١١٦- امرأة مختلفة (مدية شفيع) سينثيا نلسون
١١٧- المرأة والجنوسة فى الإسلام ليلى أحمد
١١٨- النهضة النسائية فى مصر بث بارون
١١٩- النساء والأسرة وقرابين الطلاق فى التاريخ الإسلامى أميرة الأزهرى سنبل
١٢٠- الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط ليلى أبو لغد
١٢١- الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية فاطمة موسى
١٢٢- نظام العبودية القديم والنموذج المثالى للإنسان جوزيف فوجت
١٢٣- الإمبراطورية العثمانية وعلاقتها بالولاية أنيتل ألكسندرو فنابولينا
١٢٤- الفجر الكانوب: أوهام الرسامة العالمية جون جراى
١٢٥- التحليل الموسيقي سيدرك ثورپ ديفى
١٢٦- فعل القراءة فوولفانج إيسر
١٢٧- إرهاب (مسرحية) صفاء فتحي
١٢٨- الأدب المقارن سوزان باسنيت
١٢٩- الرواية الإسبانية المعاصرة ماريا نولورس أسيس جاروت
١٣٠- الشرق يصعد ثانية أندريه جوندرا فرانك
١٣١- مصر القيمة: التاريخ الاجتماعى مجموعة من المؤلفين
١٣٢- ثقافة العولمة مايك فيذرستون
١٣٣- الخوف من المرايا (رواية) طارق على
١٣٤- تشريح حضارة بارى ج. كيمب
١٣٥- المختار من نقد ت. س. إليوت ت. س. إليوت
١٣٦- فلاحو الباشا كينيث كونو
١٣٧- مذكرات ضابط فى العملة الفرنسية على مصر جوزيف مارى مواريه
١٣٨- عالم التليفزيون بين الجمال والعنف أندريه جلوكسمان
١٣٩- باريسفالى (مسرحية) ريتشارد فاچنر
١٤٠- حيث تلتقى الأنهار هوربرت ميسن
١٤١- اثنتا عشرة مسرحية يونانية مجموعة من المؤلفين
١٤٢- الإسكندرية: تاريخ ودليل أ. م. فورستر
١٤٣- قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى ديرك لايدر
١٤٤- صاحبة اللوكاندة (مسرحية) كارلو جولوننى
١٤٥- موت أرتيميو كروث (رواية) كارلوس فوينتس
١٤٦- الورقة الحمراء (رواية) ميجيل دى ليبس
١٤٧- مسرحيتان تانكريد نورست
١٤٨- القصة القصيرة: النظرية والتقنية إنريكي أندرسون إمبرت
١٤٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأونيس عاطف فضل
١٥٠- التجربة الإغريقية روبرت ج. ليمان
- أحمد حسان
نسيم مجلى
سنية رمضان
نهاد أحمد سالم
منى إبراهيم وهالة كمال
ليس النقاش
بإشراف: روف عباس
مجموعة من المترجمين
محمد الجندي وإيزابيل كمال
منيرة كروان
أنور محمد إبراهيم
أحمد فؤاد بليغ
سمحة الخولى
عيد الوهاب علوب
بشير السباعى
أميرة حسن نويرة
محمد أبو العطا وأخرون
شوقى جلال
لويس بقطر
عيد الوهاب علوب
طلعت الشايب
أحمد محمود
ماهر شفيق فريد
سحر توفيق
كاميليا صحى
وجيه سمعان عيد المسيح
مصطفى ماهر
أمل الجبورى
نعيم عطية
حسن بيومى
عدلى السمري
سلامة محمد سليمان
أحمد حسان
على عبدالرؤف البعبى
عبدالغفار مكابى
على إبراهيم منوفى
أسامة إيسير
منيرة كروان

- ١٥١- هوية فرنسا (مج ٢ ، ج١) فرنان برودل
١٥٢- عدالة الهنود وتخصص أخرى مجموعة من المؤلفين
١٥٣- غرام الفرائعة فيولين فانويك
١٥٤- مدرسة فرانكفورت فيل سليتر
١٥٥- الشعر الأمريكي المعاصر نخبة من الشعراء
١٥٦- المدارس الجمالية الكبرى جى أنبال ولان وأوديت فيرمو
١٥٧- خسرو وشيرين النظامى الكتجوى
١٥٨- هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢) فرنان برودل
١٥٩- الأيديولوجية ديفيد هوكس
١٦٠- آلة الطبيعة بول إيرليش
١٦١- مسرحيتان من المسرح الإسباني أليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا
١٦٢- تاريخ الكنيسة يوحنا الأسيوى
١٦٣- موسوعة علم الاجتماع (ج ١) جوردون مارشال
١٦٤- شامبوليون (حياة من نور) جان لاكوتير
١٦٥- حكايات الثعلب (تخصص أطفال) أ.ن. أفاناسيفا
١٦٦- العلاقات بين المثبتين والظلمتين في إسرائيل يشعياهو ليفمان
١٦٧- في عالم طاغور رابندرناث طاغور
١٦٨- دراسات في الأدب والثقافة مجموعة من المؤلفين
١٦٩- إبداعات أدبية مجموعة من المؤلفين
١٧٠- الطريق (رواية) ميغيل دليبيس
١٧١- وضع حد (رواية) فرانك بيجو
١٧٢- حجر الشمس (شعر) نخبة
١٧٣- معنى الجمال ولتر ت. ستيس
١٧٤- صناعة الثقافة السوداء إيليس كاشمور
١٧٥- التلفزيون في الحياة اليومية لورينزو فيلشس
١٧٦- نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية توم تيتنبرج
١٧٧- أنطون تشيخوف هنرى تروايا
١٧٨- مختارات من الشعر اليوناني الحديث نخبة من الشعراء
١٧٩- حكايات أيسوب (قصص أطفال) أيسوب
١٨٠- قصة جاويد (رواية) إسماعيل فصيح
١٨١- القديس الأمريكي من الثلاثينات إلى الثمانينات فنسنت ب. ليتش
١٨٢- العنف والنبوة (شعر) و.ب. بيتس
١٨٣- جان كوكو على شاشة السينما رينيه جيلسون
١٨٤- القاهرة: حاملة لا تنام هانز إيندورفر
١٨٥- أسفار العهد القديم في التاريخ توماس تومسن
١٨٦- معجم مصطلحات هيجل ميخائيل إنود
١٨٧- الأرض (رواية) بزرج علوى
١٨٨- موت الأدب ألقين كرنان
- بشير السباعي
محمد محمد الخطابي
فاطمة عبدالله محمود
خليل كلفت
أحمد مرسى
مى التلمساني
عبدالعزیز بقوش
بشير السباعي
إبراهيم فتحي
حسين بيومي
زيدان عبدالحميد زيدان
صلاح عبدالعزیز محجوب
بإشراف: محمد الجومري
نبيل سعد
سهير المصادفة
محمد محمود أبوغدير
شكرى محمد عياد
شكرى محمد عياد
شكرى محمد عياد
بسام ياسين رشيد
هدى حسين
محمد محمد الخطابي
إمام عبد الفتاح إمام
أحمد محمود
وجيه سمعان عبد المسيح
جلال البنا
حصه إبراهيم المنيف
محمد حمدي إبراهيم
إمام عبد الفتاح إمام
سليم عبد الأمير حمدان
محمد يحيى
ياسين طه حافظ
فتحي العشري
دسوقي سعيد
عبد الوهاب طوب
إمام عبد الفتاح إمام
محمد علاء الدين منصور
بدر الديب

- ١٨٩- السيرة والبعيرة مقالات في بلاغة النقد المعاصر بول دي مان
- ١٩٠- محاورات كونفوشيوس كونفوشيوس
- ١٩١- الكلام وأسماط وقصص أخرى الحاج أبو بكر إمام وآخرون
- ١٩٢- سياحت نامه إبراهيم بك (ج١) زين العابدين المراغي
- ١٩٣- عامل المنجم (رواية) بيتر أبراهامز
- ١٩٤- مختارات من النقد الانجلو-أمريكي الصيغ مجموعة من النقاد
- ١٩٥- شتاء ٨٤ (رواية) إسماعيل فصيح
- ١٩٦- المهلة الأخيرة (رواية) فالنتين راسيوتين
- ١٩٧- سيرة الفاروق شمس العلماء شبلى النعماني
- ١٩٨- الاتصال الجماهيري إدوين إمري وآخرون
- ١٩٩- تاريخ يهود مصر في الفترة العثمانية يعقوب لاندان
- ٢٠٠- ضحايا التنمية: المقاومة والبدائل جيرمي سيبروك
- ٢٠١- الجانب الديني للفلسفة جوزايا رويس
- ٢٠٢- تاريخ النقد الأدبي الحديث (ج٢) رينيه ويليك
- ٢٠٣- الشعر والشاعرية أطفاف حسين حالي
- ٢٠٤- تاريخ نقد العهد القديم زلمان شانزار
- ٢٠٥- الجينات والشعوب واللغات لويجي لوقا كافاللي - سفورزا
- ٢٠٦- الهولوية تصنع علماءً جديداً جيمس جلايك
- ٢٠٧- ليل أفريقي (رواية) رامون خوتاسنديز
- ٢٠٨- شخصية العربي في المسرح الإسرائيلي دان أوربان
- ٢٠٩- السرد والمسرح مجموعة من المؤلفين
- ٢١٠- مثنويات حكيم سناني (شعر) سناني الفزنوي
- ٢١١- فرديناند نوسوسير جوناثان كلر
- ٢١٢- قصص الأمير مرزيان على لسان الحيوان مرزيان بن رستم بن شروين
- ٢١٣- مصر منذ قدم ناهليون حتى رحيل عبد الناصر ريمون فلاور
- ٢١٤- قواعد جديدة للمنهج في علم الاجتماع أنتوني جيندز
- ٢١٥- سياحت نامه إبراهيم بك (ج٢) زين العابدين المراغي
- ٢١٦- جوانب أخرى من حياتهم مجموعة من المؤلفين
- ٢١٧- مسرحيتان طليعيتان صمويل بيكيت وهارولد بينتر
- ٢١٨- لعبة الحجلة (رواية) خوليو كورتاثان
- ٢١٩- بقايا اليوم (رواية) كانزو إيشجورو
- ٢٢٠- الهولوية في الكون باري باركر
- ٢٢١- شعرية كفاقي جريجوري جوزدانسيس
- ٢٢٢- فرانز كافكا رونالد جراي
- ٢٢٣- العلم في مجتمع حر باول فيرابند
- ٢٢٤- دمار يوغسلافيا برانكا ماجاس
- ٢٢٥- حكاية غريق (رواية) جابرييل جارشيا ماركيت
- ٢٢٦- أرض المساء وقصائد أخرى ديفيد هربت لورانس
- سعيد الغامسي
- محسن سيد فرجاني
- مصطفى حجازي السيد
- محمود علاوي
- محمد عبد الواحد محمد
- ماهر شفيق فريد
- محمد علاء الدين منصور
- أشرف الصباغ
- جلال السعيد الحفناوي
- إبراهيم سلامة إبراهيم
- جمال أحمد الرفاعي وأحمد عبد اللطيف حماد
- فخزي لبيب
- أحمد الأنصاري
- مجاهد عبد المنعم مجاهد
- جلال السعيد الحفناوي
- أحمد هودي
- أحمد مستجير
- علي يوسف علي
- محمد أبو العطا
- محمد أحمد صالح
- أشرف الصباغ
- يوسف عبد الفتاح فرج
- محمود حمدي عبد الفتاح
- يوسف عبد الفتاح فرج
- سيد أحمد علي الناصري
- محمد محيي الدين
- محمود علاوي
- أشرف الصباغ
- نادية البنهاوي
- علي إبراهيم منوفي
- طلعت الشايب
- علي يوسف علي
- رفعت سلام
- نسيم مجلي
- السيد محمد نقادي
- منى عبد الظاهر إبراهيم
- السيد عبد الظاهر السيد
- طاهر محمد علي البربري

- ٢٢٧- المسرح الإسباني في القرن السابع عشر خوسيه ماريَا ديث بوركي
٢٢٨- علم الجمالية وعلم اجتماع الفن جانيت وولف
٢٢٩- مازق البطل الوحيد نورمان كيجان
٢٣٠- عن الذباب والقتران والبشر فرانسواز جاكوب
٢٣١- الدرافيل أو الجيل الجديد (مسرحية) خايمي سالوم بيدال
٢٣٢- ما بعد المعلومات توم ستونير
٢٣٣- فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربي آرثر هيرمان
٢٣٤- الإسلام في السودان ج. سينسر تريمنجهام
٢٣٥- ديوان شمس تبريزي (ج١) مولانا جلال الدين الرومي
٢٣٦- الولاية ميشيل شوكيفيتش
٢٣٧- مصر أرض الوادي رويين فيدين
٢٣٨- العولة والتحرير تقرير لمنظمة الانكثاد
٢٣٩- العربي في الأدب الإسرائيلي جيل راماز - رايوخ
٢٤٠- الإسلام والغرب وإمكانية الحوار كاي حافظ
٢٤١- في انتظار البرابرة (رواية) ج. م. كوتزي
٢٤٢- سبعة أنماط من الفوضى وليام إميسون
٢٤٣- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١) ليفي بروفنسال
٢٤٤- الغليان (رواية) لورا إسكييل
٢٤٥- نساء مقاتلات إليزابيتا أنيس وآخرون
٢٤٦- مختارات قصصية جابرييل جارتيا ماركيث
٢٤٧- الثقافة الجماهيرية والحداثة في مصر والتر أرميرست
٢٤٨- حقول عدن الخضراء (مسرحية) أنطونيو جالا
٢٤٩- لغة التمزق (شعر) دراجو شتامبوك
٢٥٠- علم اجتماع العلوم دومنيك فينك
٢٥١- موسوعة علم الاجتماع (ج٢) جورون مارشال
٢٥٢- رائدات الحركة النسوية المصرية مارجو بدران
٢٥٣- تاريخ مصر الفاطمية ل. أ. سيمينوفا
٢٥٤- أقدم لك: الفلسفة ديف روينسون وجودي جروفز
٢٥٥- أقدم لك: أفلاطون ديف روينسون وجودي جروفز
٢٥٦- أقدم لك: نيكارت ديف روينسون وكريس جارات
٢٥٧- تاريخ الفلسفة الحديثة وليم كلى رايت
٢٥٨- الفجر سير أنجوس فريزر
٢٥٩- مختارات من الشعر الأرمني عبر العصور نخبة
٢٦٠- موسوعة علم الاجتماع (ج٢) جورون مارشال
٢٦١- رحلة في فكر زكي نجيب محمود زكي نجيب محمود
٢٦٢- مدينة المعجزات (رواية) إدواربو مندوتا
٢٦٣- الكشف عن حافة الزمن جون جرين
٢٦٤- إبداعات شعرية مترجمة هوراس وشلي
- السيد عبدالظاهر عبدالله
ماري تيريز عبدالمنيع وخالد حسن
أمير إبراهيم العمري
مصطفى إبراهيم فهمي
جمال عبدالرحمن
مصطفى إبراهيم فهمي
طلعت الشايب
فؤاد محمد عكود
إبراهيم الدسوقي شتا
أحمد الطيب
عنايات حسين طلعت
ياسر محمد جادالله وعربي مديولى أحمد
نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
صلاح محبوب إدريس
ابتسام عبدالله
صبرى محمد حسن
باشرف: صلاح فضل
نادية جمال الدين محمد
توفيق على منصور
على إبراهيم منوفى
محمد طارق الشرقاوى
عبداللطيف عبداللطيم
رقت سلام
ماجدة محسن أبانة
باشرف: محمد الجوهري
على بدران
حسن بيومي
إمام عبد الفتاح إمام
إمام عبد الفتاح إمام
إمام عبد الفتاح إمام
محمود سيد أحمد
عبادة كحيله
فاروجان كانانجيان
باشرف: محمد الجوهري
إمام عبد الفتاح إمام
محمد أبو العطا
على يوسف على
لويس عوض

- ٢٦٥- روايات مترجمة أوسكار وايلد وصمويل جونسون
٢٦٦- مدير المدرسة (رواية) جلال آل أحمد
٢٦٧- فن الرواية ميلان كونديرا
٢٦٨- ديوان شمس تبريزي (ج٢) مولانا جلال الدين الرومي
٢٦٩- وسط الجزيرة العربية وشرقها (ج١) وليم جيفور بالجريف
٢٧٠- وسط الجزير العربية وشرقها (ج٢) وليم جيفور بالجريف
٢٧١- الحضارة الغربية: الفكرة والتاريخ توماس سى. باترسون
٢٧٢- الأديرة الأثرية فى مصر سى. سى. والترز
٢٧٣- الأصول الاجتماعية والتقاليد لعركة مراهب فى مصر جوان كول
٢٧٤- السيدة باربارا (رواية) رومولو جاييجوس
٢٧٥- د. س. إيليد شاعرًا وناقًا وكاتبًا مسرحيًا... مجموعة من النقاد
٢٧٦- فنون السينما مجموعة من المؤلفين
٢٧٧- الجينات والصراع من أجل الحياة براين فورد
٢٧٨- البدايات إسحاق عظيموف
٢٧٩- الحرب الباردة الثقافية ف.س. سوندرز
٢٨٠- الأم والنصيب وقصص أخرى بريم شند وآخرون
٢٨١- الفربوس الأعلى (رواية) عبد الحلیم شرر
٢٨٢- طبيعة العلم غير الطبيعية لويس وولبرت
٢٨٣- السهل يحترق وقصص أخرى خوان رولفو
٢٨٤- هرقل مجنوناً (مسرحية) يوريبنديس
٢٨٥- رحلة خواجه حسن نظامى الدهلوى حسن نظامى الدهلوى
٢٨٦- سياحت نامه إبراهيم بك (ج٢) زين العابدين المراغى
٢٨٧- الثقافة والعولة والنظام العالمى أنتونى كنج
٢٨٨- الفن الروائى ديفيد لودج
٢٨٩- ديوان منوچهرى الدامغانى أبو نجم أحمد بن قوص
٢٩٠- علم اللغة والترجمة جودج موانان
٢٩١- تاريخ المسرح الإسمائى فى القرن العشرين (ج١) فرانثسكو رويس رامون
٢٩٢- تاريخ المسرح الإسمائى فى القرن العشرين (ج٢) فرانثسكو رويس رامون
٢٩٣- مقدمة للادب العربى روجر آلن
٢٩٤- فن الشعر بوالو
٢٩٥- سلطان الأسطورة جوزيف كاميل وييل موريز
٢٩٦- مكبث (مسرحية) وليم شكسبير
٢٩٧- فن النحو بين اليونانية والسريانية ديونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوازى
٢٩٨- مناساة العبيد وقصص أخرى نخبة
٢٩٩- ثورة فى التكنولوجيا الحيوية جين ماركس
٣٠٠- اسطورة بومبوس فى الامين الإنشيزى والفرنسى (ج١) لويس عوض
٣٠١- اسطورة بومبوس فى الامين الإنشيزى والفرنسى (ج٢) لويس عوض
٣٠٢- أقدم لك: فنجنشتين جون هيتون وجودى جروفز
- لويس عوض
عادل عبدالمنعم على
بدر الدين عربكى
إبراهيم الدسوقى شتا
صبرى محمد حسن
صبرى محمد حسن
شوقى جلال
إبراهيم سلامة إبراهيم
عنان الشهاوى
محمود على مكى
ماهر شفيق فريد
عبدالقادر التمسانى
أحمد فوزى
ظريف عبدالله
طلعت الشايب
سمير عبدالحميد إبراهيم
جلال الحفناوى
سمير حتا صادق
على عبد الرزاق اليمى
أحمد عثمان
سمير عبد الحميد إبراهيم
محمود على
محمد يحيى وآخرون
ماهر البطوطى
محمد نور الدين عبدالمنعم
أحمد زكريا إبراهيم
السيد عبد الظاهر
السيد عبد الظاهر
مجدى توفيق وآخرون
رجاء ياقوت
بدر الديب
محمد مصطفى بنوى
ماجدة محمد أنور
مصطفى حجازى السيد
هاشم أحمد محمد
جمال الجزيرى وبهاء جاهين وإيزابيل كمال
جمال الجزيرى و محمد الجندى
إمام عبد الفتاح إمام

إمام عبد الفتاح إمام	جين هوب ويورن فان لون	أقدم لك: بوذا	٢٠٢
إمام عبد الفتاح إمام	ريوس	أقدم لك: ماركس	٢٠٤
صلاح عبد الصبور	كروزيو مالبارته	الجلد (رواية)	٢٠٥
نبيل سعد	جان فرانسوا ليوتار	الحماسة: النقد الكانطى للتاريخ	٢٠٦
محمود مكي	ديفيد بابينو وهوارد سلينا	أقدم لك: الشعور	٢٠٧
ممدوح عبد المنعم	ستيف جونز وبورين فان لو	أقدم لك: علم الوراثة	٢٠٨
جمال الجزيري	أنجوس جيلاتي وأوسكار زاريت	أقدم لك: الذهن والمخ	٢٠٩
محيى الدين مزيد	ماجى هايد ومايكل ماكجنس	أقدم لك: يونج	٢١٠
فاطمة إسماعيل	ر.ج. كولنجود	مقال فى المنهج الفلسفى	٢١١
أسعد حلم	وليم ديبويس	روح الشعب الأسود	٢١٢
محمد عبدالله الجعدي	خاير بيان	أمثال فلسطينية (شعر)	٢١٣
هويدا السباعى	جانيس مينيك	مارسيل دوشامب: الفن كعدم	٢١٤
كاميليا صبحى	ميشيل بروندينو والطاهر لبيب	جرامشى فى العالم العربى	٢١٥
نسيم مجلى	أى، ف. ستون	محاكمة سقراط	٢١٦
أشرف الصباغ	س. شير لايومفا- س. زنيكين	بلاغد	٢١٧
أشرف الصباغ	مجموعة من المؤلفين	الاب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	٢١٨
حسام نايل	جايترى اسبيفاك وكريستوفر نوريس	صور دريدا	٢١٩
محمد علاء الدين منصور	مؤلف مجهول	لمعة السراج لحضرة التاج	٢٢٠
بإشراف: صلاح فضل	ليفى برو فنسال	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ١)	٢٢١
خالد مقلح حمزة	ديليو يوجين كلينبارد	وجهات نظر حبية فى تاريخ الفن الفرنسى	٢٢٢
هانم محمد فوزى	تراث يونانى قديم	فن الساتورا	٢٢٣
محمود علاوى	أشرف أسدى	اللعب بالنار (رواية)	٢٢٤
كرستين يوسف	فيليب بوسان	عالم الآثار (رواية)	٢٢٥
حسن صقر	يورجين هابرماس	المعرفة والمصلحة	٢٢٦
توفيق على منصور	نخبة	مختارات شعرية مترجمة (ج ١)	٢٢٧
عبد العزيز بقوش	نور الدين عبد الرحمن الجامى	يوسف وزليخا (شعر)	٢٢٨
محمد عيد إبراهيم	تد هيوز	رسائل عيد الميلاد (شعر)	٢٢٩
سامى صلاح	مارفن شبرد	كل شىء عن التمثيل الصامت	٢٣٠
سامية نياح	ستيفن جراى	عندما جاء السردين وقصص أخرى	٢٣١
على إبراهيم منوفى	نخبة	شهر العسل وقصص أخرى	٢٣٢
بكر عباس	نبيل مطر	الإسلام فى بريطانيا من ١٥٥٨-١٦٨٥	٢٣٣
مصطفى إبراهيم فهمى	آرثر كلارك	لقطات من المستقبل	٢٣٤
فتحي العشرى	ناتالى ساروت	عصر الشك: دراسات عن الرواية	٢٣٥
حسن صابر	نصوص مصرية قديمة	متون الأهرام	٢٣٦
أحمد الأنصارى	جوزايا رويس	فلسفة الولاء	٢٣٧
جلال الحفناوى	نخبة	نظرات حائرة وقصص أخرى	٢٣٨
محمد علاء الدين منصور	إيوارد براون	تاريخ الأدب فى إيران (ج ٢)	٢٣٩
فخرى لبيب	بيرش بيربروجلو	اضطراب فى الشرق الأوسط	٢٤٠

حسن حلمي	راينز ماريا رلكه	قصائد من رلكه (شعر)	٢٤١-
عبد العزيز بقوش	نور الدين عبدالرحمن الجامي	سلامان وأبسال (شعر)	٢٤٢-
سمير عبد ربه	نادين جورديمر	العالم البرجوازي الزائل (رواية)	٢٤٣-
سمير عبد ربه	بيتر بالانجيرو	الموت في الشمس (رواية)	٢٤٤-
يوسف عبد الفتاح فرج	بونه ندائى	الركض خلف الزمان (شعر)	٢٤٥-
جمال الجزيري	رشاد رشدى	سحر مصر	٢٤٦-
بكر الحلو	جان كوكتو	الصبية الطائشون (رواية)	٢٤٧-
عبدالله أحمد إبراهيم	محمد فؤاد كويريلى	التمصرة الأولون في الأدب التركي (ج١)	٢٤٨-
أحمد عمر شاهين	آرثر والدهورن وآخرون	دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	٢٤٩-
عطية شحاتة	مجموعة من المؤلفين	بانوراما الحياة السياحية	٢٥٠-
أحمد الانصاري	جوزايا روس	مبادئ المنطق	٢٥١-
نعيم عطية	قسطنطين كفافيس	قصائد من كفافيس	٢٥٢-
على إبراهيم منوفى	باسيليو بابون مالونانو	الفن الإسلامي في الأندلس: الزخرفة الهندسية	٢٥٣-
على إبراهيم منوفى	باسيليو بابون مالونانو	الفن الإسلامي في الأندلس: الزخرفة النباتية	٢٥٤-
محمود علوى	حجت مرتجى	التيارات السياسية في إيران المعاصرة	٢٥٥-
بدر الرفاعي	بول سالم	الميراث المر	٢٥٦-
عمر الفاروق عمر	تيموثى فريك وبيتر غاندى	متون هرمس	٢٥٧-
مصطفى حجازى السيد	نخبة	أمثال الهوسا العامية	٢٥٨-
حبيب الشارونى	أفلاطون	محاورة پارمنيدس	٢٥٩-
ليلى الشربيني	أندريه جاكوب ونويلا باركان	أنثروبولوجيا اللغة	٢٦٠-
عاطف معتمد وأمال شاور	ألان جرينجر	التصحر: التهديد والمجابهة	٢٦١-
سيد أحمد فتح الله	هاينرش شوبول	تلميذ بابنبرج (رواية)	٢٦٢-
صبرى محمد حسن	ريتشارد جيبسون	حركات التحرير الأفريقية	٢٦٣-
نجلاء أبو عجاج	إسماعيل سراج الدين	حداثة شكسبير	٢٦٤-
محمد أحمد حمد	شارل بودليير	سام باريس (شعر)	٢٦٥-
مصطفى محمود محمد	كلاريسا بنكولا	نساء يركضن مع الذئاب	٢٦٦-
البراق عبدالهادى رضا	مجموعة من المؤلفين	القلم الجريء	٢٦٧-
عابد خزندار	جيرالد برنس	المصطلح السردى: معجم مصطلحات	٢٦٨-
فوزية العشماوى	فوزية العشماوى	المرأة في أدب نجيب محفوظ	٢٦٩-
فاطمة عبدالله محمود	كليلا لويت	الفن والحياة في مصر الفرعونية	٢٧٠-
عبدالله أحمد إبراهيم	محمد فؤاد كويريلى	التمصرة الأولون في الأدب التركي (ج٢)	٢٧١-
وحيد السعيد عبدالحميد	وانغ مينغ	عاش الشباب (رواية)	٢٧٢-
على إبراهيم منوفى	أومبرتو إيكو	كيف تعد رسالة دكتوراه	٢٧٣-
حمادة إبراهيم	أندريه شديد	اليوم السادس (رواية)	٢٧٤-
خالد أبو اليزيد	ميلان كونديرا	الخلود (رواية)	٢٧٥-
إيوار الخراط	جان أنوى وآخرون	الفضب وأحلام السنين (مسرحيات)	٢٧٦-
محمد علاء الدين منصور	إيوارد براون	تاريخ الأدب في إيران (ج٤)	٢٧٧-
يوسف عبدالفتاح فرج	محمد إقبال	المسافر (شعر)	٢٧٨-

جمال عبدالرحمن	سنيل بات	٢٧٩- ملك في الحقيقة (رواية)
شيرين عبدالسلام	جوتتر جراس	٢٨٠- حديث عن الضسارة
رانيا إبراهيم يوسف	ر. ل. تراسك	٢٨١- أساسيات اللغة
أحمد محمد نادي	بهاء الدين محمد إسفنديار	٢٨٢- تاريخ طبرستان
سمير عبدالحميد إبراهيم	محمد إقبال	٢٨٣- هدية الحجاز (شعر)
إيزابيل كمال	سوزان إنجيل	٢٨٤- القصص التي يحكيها الأطفال
يوسف عبدالفتاح فرج	محمد علي بهزادراد	٢٨٥- مشترى العشق (رواية)
ريهام حسين إبراهيم	جانيت تود	٢٨٦- دفاعاً عن التاريخ الأدبي النسوي
بهاء جاهين	چون دن	٢٨٧- أغنيات وسوناتات (شعر)
محمد علاء الدين منصور	سعدى الشيرازي	٢٨٨- مواظ سعدى الشيرازي (شعر)
سمير عبدالحميد إبراهيم	نخبة	٢٨٩- تفاهم وقصص أخرى
عثمان مصطفى عثمان	إم. في. روبرتس	٢٩٠- الأرشيفات والمدن الكبرى
منى الدروبي	مايف بينشى	٢٩١- الحافلة الليكسية (رواية)
عبداللطيف عبدالحميد	فرناندو دي لاجرانجا	٢٩٢- مقامات ورسائل أندلسية
زينب محمود الخضيرى	ندوة لويس ماسينيون	٢٩٣- فى قلب الشرق
هاشم أحمد محمد	بول ديفيز	٢٩٤- القربى الأربع الأساسية فى الكون
سليم عبد الأمير حمدان	إسماعيل فصيح	٢٩٥- أيام سيواوش (رواية)
محمود علوى	تقى نجارى راد	٢٩٦- السافاك
إمام عبدالفتاح إمام	لورانس جين وكيتى شين	٢٩٧- أقدم لك: نيتشه
إمام عبدالفتاح إمام	فيليب تودى وهوارد ريد	٢٩٨- أقدم لك: سارتر
إمام عبدالفتاح إمام	ديفيد ميروفتش والآن كوركس	٢٩٩- أقدم لك: كامى
باهر الجوهري	ميشائيل إنده	٤٠٠- مومو (رواية)
ممنوح عبد المنعم	زياولن ساردر وآخرون	٤٠١- أقدم لك: علم الرياضيات
ممنوح عبدالمنعم	ج. ب. ماك إيفوى وأوسكار زاريت	٤٠٢- أقدم لك: ستيفن هوكينج
عماد حسن بكر	تومور شتورم وجوتفرد كولر	٤٠٣- ربة المطر والملابس تصنع الناس (روايتان)
ظبية خميس	ديفيد إبرام	٤٠٤- تعويذة الحسى
حمادة إبراهيم	أنثريه جيند	٤٠٥- إيزابيل (رواية)
جمال عبد الرحمن	مانويلا مانتاناريس	٤٠٦- المستعمرون الإسبان فى القرن ١٩
طلعت شاهين	مجموعة من المؤلفين	٤٠٧- الأدب الإسباني المعاصر بأفلام كتابه
عنان الشهاري	جوان فوتشركنج	٤٠٨- معجم تاريخ مصر
إلهامى عمارة	برتراند راسل	٤٠٩- انتصار السعادة
الزواوى بوفرة	كارل بوير	٤١٠- خلاصة القرن
أحمد مستجير	جينيغر أكرمان	٤١١- همس من الماضى
ياشرف: صلاح فضل	ليفى برونسال	٤١٢- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ٣)
محمد البخارى	ناظم حكمت	٤١٣- أغنيات المنفى (شعر)
أمل الصبان	باسكال كازانوفيا	٤١٤- الجمهورية العالمية للأداب
أحمد كامل عبدالرحيم	فريدريش نورينمات	٤١٥- صورة كوكب (مسرحية)
محمد مصطفى بدوى	أ. أ. رتشاردز	٤١٦- مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر

- ٤١٧- تاريخ النقد الأبوي الحديث (جه) رينيه ويليك
٤١٨- سياسات الزمر الحاكمة في مصر العشانية جين هاثواي
٤١٩- العصر الذهبي للإسكندرية جون مارلو
٤٢٠- مكرو ميغاس (قصة فلسفية) فولتير
٤٢١- الولاء والقيادة في المجتمع الإسلامي الأول روى متحدة
٤٢٢- رحلة لاستكشاف أفريقيا (ج١) ثلاثة من الرحالة
٤٢٣- إسرارات الرجل الطيف نخبة
٤٢٤- لوائح الحق ولوامع العشق (شعر) نور الدين عبدالرحمن الجامي
٤٢٥- من طاووس إلى فرح محمود طلوعى
٤٢٦- الخفافيش وقمصم أخرى نخبة
٤٢٧- بانديراس الطاغية (رواية) باي إنكلان
٤٢٨- الخزانة الخفية محمد هوتك بن داود خان
٤٢٩- أقدم لك: هيجل ليود سينسر وأندرجى كروز
٤٣٠- أقدم لك: كانط كرستوفر وانت وأندرجى كليوفسكى
٤٣١- أقدم لك: فوكو كريس هوروكس ويوردان جفتيك
٤٣٢- أقدم لك: ماكياقاللى باتريك كيرى وأوسكار زاريت
٤٣٣- أقدم لك: جويس ديفيد نوريس وكارل فلتنت
٤٣٤- أقدم لك: الرومانسية بونكان هيث وچودى يورهام
٤٣٥- توجهات ما بعد الحدائة نيكولاس زيربرج
٤٣٦- تاريخ الفلسفة (مج١) فردريك كويستون
٤٣٧- رحلة هندی في بلاد الشرق العربي شبلى النعمانى
٤٣٨- بطلات وضحايا إيمان ضياء الدين بيبرس
٤٣٩- موت المرابى (رواية) صدر الدين عيني
٤٤٠- قواعد اللهجات العربية الحديثة كرستن بروستاد
٤٤١- رب الأشياء الصغيرة (رواية) أرونداثى روى
٤٤٢- حتشيسوت: المرأة الفرعونية فوزية أسعد
٤٤٣- اللغة العربية: تاريخها ومستوياتها وتأثيرها كيس فرستيغ
٤٤٤- أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة لاوريت سيجورنه
٤٤٥- حول وزن الشعر پرويز نائل خانلرى
٤٤٦- التحالف الأسود ألكسندر كوكيرن وجيفرى سانت كلير
٤٤٧- أقدم لك: نظرية الكم ج. پ. ماك إيقرى وأوسكار زاريت
٤٤٨- أقدم لك: علم نفس التطور ديلان إيفانز وأوسكار زاريت
٤٤٩- أقدم لك: الحركة النسوية نخبة
٤٥٠- أقدم لك: ما بعد الحركة النسوية صوفيا فوكا وريبيكا رايت
٤٥١- أقدم لك: الفلسفة الشرقية ريتشارد أوزيودن ويودن فان لون
٤٥٢- أقدم لك: لينين والثورة الروسية ريتشارد إبيجيانزى وأوسكار زاريت
٤٥٣- القاهرة: إقامة مدينة حديثة جان لوك أرنو
٤٥٤- خمسون عاماً من السينما الفرنسية رينيه بريدال
مجاهد عبدالمنعم مجاهد
عبد الرحمن الشيخ
نسيم مجلى
الطيب بن رجب
أشرف كيلانى
عبدالله عبدالرازق إبراهيم
وحيد النقاش
محمد علاء الدين منصور
محمود علاوى
محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
ثريا شلبى
محمد أمان صافى
إمام عبدالفتاح إمام
إمام عبدالفتاح إمام
إمام عبدالفتاح إمام
إمام عبدالفتاح إمام
حمدى الجابرى
عصام حجازى
ناجى رشوان
إمام عبدالفتاح إمام
جلال الحفناوى
عايدة سيف النولة
محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
محمد طارق الشراوى
فخرى لبيب
ماهر جويجاتى
محمد طارق الشراوى
صالح علمانى
محمد محمد يونس
أحمد محمود
ممنوح عبدالمنعم
ممنوح عبدالمنعم
جمال الجزيرى
جمال الجزيرى
إمام عبد الفتاح إمام
محى الدين مزيد
حليم طوسون وقواد الدهان
سوزان خليل

محمود سيد أحمد	فردريك كويلستون	٤٥٥- تاريخ الفلسفة الحديثة (مج ٥)
هويدا عزت محمد	مريم جعفرى	٤٥٦- لا تنسنى (رواية)
إمام عبدالفتاح إمام	سوزان مولر أوكين	٤٥٧- النساء فى الفكر السياسى الغربى
جمال عبد الرحمن	مرثييس غارثيا أرينال	٤٥٨- الموريسكيون الأندلسيون
جلال البنا	توم تيتنبرج	٤٥٩- نحر مفهوم لانتصايات الموارد الطبيعية
إمام عبدالفتاح إمام	ستوارت هود وليتزا جانستز	٤٦٠- أقدم لك: الفاشية والنازية
إمام عبدالفتاح إمام	داريان ليدر وجودى جروفز	٤٦١- أقدم لك: لكان
عبدالرشيد الصادق محمودى	عبدالرشيد الصادق محمودى	٤٦٢- طه حسين من الأزهري إلى السوريين
كمال السيد	ويليام بلوم	٤٦٣- الدولة المارقة
حصه إبراهيم المنيف	مايكل بارنتى	٤٦٤- ديمقراطية للغة
جمال الرفاعى	لويس جنزبيرج	٤٦٥- قصص اليهود
فاطمة عبد الله	فيولين فانويك	٤٦٦- حكايات حب ويطولات فرعونية
ربيع وهبة	ستيفين ديلو	٤٦٧- التفكير السياسى والنظرة السياسية
أحمد الأنصارى	جوزايا رويس	٤٦٨- روح الفلسفة الحديثة
مجدى عبدالرازق	نصوص حبشية قديمة	٤٦٩- جلال الملوك
محمد السيد التنة	جارى م. بيرزنسكى وآخرون	٤٧٠- الأراضى والجودة البيئية
عبد الله عبد الرزاق إبراهيم	ثلاثة من الرحالة	٤٧١- رحلة لاستكشاف أفريقيا (ج ٢)
سليمان العطار	ميجيل دى ثريانتس سابيدرا	٤٧٢- دون كيخوتى (القسم الأول)
سليمان العطار	ميجيل دى ثريانتس سابيدرا	٤٧٣- دون كيخوتى (القسم الثانى)
سهام عبدالسلام	بام موريس	٤٧٤- الأدب والنسوية
عادل هلال عثانى	فرجينيا داتيلسون	٤٧٥- صوت مصر: أم كلثوم
سحر توفيق	ماريلين بوث	٤٧٦- أرض الحباب بعيدة: بيرم التونسى
أشرف كيلانى	هيلدا هوخام	٤٧٧- تاريخ الصين منذ ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين
عبد العزيز حمدى	ليوشيه شنج و لى شى نونج	٤٧٨- الصين والولايات المتحدة
عبد العزيز حمدى	لاي شه	٤٧٩- المقهى (مسرحية)
عبد العزيز حمدى	كو مو روا	٤٨٠- تساي ون جى (مسرحية)
رضوان السيد	روى متحدة	٤٨١- برده النبى
فاطمة عبد الله	روبير جاك تيو	٤٨٢- موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية
أحمد الشامى	سارة چامبل	٤٨٣- النسوية وما بعد النسوية
رشيد بنحدو	هانسن روبييرت يابوس	٤٨٤- جمالية التلقى
سمير عبدالحميد إبراهيم	نذير أحمد الدهلوى	٤٨٥- التوبة (رواية)
عبدالحليم عبدالغنى رجب	يان أسمن	٤٨٦- الذاكرة الحضارية
سمير عبدالحميد إبراهيم	رفيع الدين المراد أبادى	٤٨٧- الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية
سمير عبدالحميد إبراهيم	نخبة	٤٨٨- الحب الذى كان وقصائد أخرى
محمود رجب	إدموند هُسرل	٤٨٩- هُسرل: الفلسفة علماً دقيقاً
عبد الوهاب علوب	محمد قادري	٤٩٠- أسمار البيفاه
سمير عبد ربه	نخبة	٤٩١- نصوص قصصية من روائع الأدب الأترقى
محمد رفعت عواد	جى فارجيت	٤٩٢- محمد على مؤسس مصر الحديثة

- ٤٩٣- خطابات إلى طالب الصوتيات هارولد بالمر
٤٩٤- كتاب الموتى: الخروج في النهار نصوص مصرية قديمة
٤٩٥- اللويبي إدوارد تيفان
٤٩٦- الحكم والسياسة في أفريقيا (ج١) إكوادو بانولى
٤٩٧- الطمانية والنوع والنولة في الشرق الأوسط نادية العلى
٤٩٨- النساء والنوع في الشرق الأوسط الحديث جوديث تاكر ومارجريت مريودز
٤٩٩- تقاطعات: الأمة والمجتمع والنوع مجموعة من المؤلفين
٥٠٠- في مفلوتى: دراسة في السيرة الثانية العربية تيتز رويكى
٥٠١- تاريخ النساء في الغرب (ج١) آرثر جولد هامر
٥٠٢- أصوات بديلة مجموعة من المؤلفين
٥٠٣- مختارات من الشعر الفارسي الحديث نخبة من الشعراء
٥٠٤- كتابات أساسية (ج١) مارتن هايدجر
٥٠٥- كتابات أساسية (ج٢) مارتن هايدجر
٥٠٦- ربما كان قديساً (رواية) أن تيلر
٥٠٧- سيدة الماضى الجميل (مسرحية) بيتر شيفر
٥٠٨- المولوية بعد جلال الدين الرومى عبدالباقى جليبارلى
٥٠٩- الفخر والإحسان في مصر سلاطين المماليك آدم صبرة
٥١٠- الأرملة الماكرة (مسرحية) كارلو جولدوني
٥١١- كوكب مرعق (رواية) أن تيلر
٥١٢- كتابة النقد السينمائي تيموشى كوريجان
٥١٣- العلم الجسور تيد أنتون
٥١٤- مدخل إلى النظرية الأنثوية چونثان كولر
٥١٥- من التقليد إلى ما بعد الحدائة فدوى مالطى دوجلاس
٥١٦- إرادة الإنسان في علاج الإدمان أنرولك واشنطنون وديونا باوندى
٥١٧- نقش على الماء وقصص أخرى نخبة
٥١٨- استكشاف الأرض والكون إسحق عظيموف
٥١٩- محاضرات في المثالية الحديثة جوزايا رويس
٥٢٠- الولوج الفرنسى بمصر من العلم إلى المشروع أحمد يوسف
٥٢١- قاموس تراجم مصر الحديثة آرثر جولد سميث
٥٢٢- إسبانيا في تاريخها أميركو كاسترو
٥٢٣- الفن الطليطلى الإسلامى والمذجن باسيليو بابون مالدونادو
٥٢٤- الملك لير (مسرحية) وليم شكسبير
٥٢٥- موسم صيد في بيروت وقصص أخرى دنيس جونسون
٥٢٦- أقدم لك: السياسة البيئية ستيفن كرول ووليم رانكين
٥٢٧- أقدم لك: كافكا ديفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب
٥٢٨- أقدم لك: تروتسكى والماركسية طارق على وفيل إيفانز
٥٢٩- بدائع العلامة إقبال في شعره الأردى محمد إقبال
٥٣٠- مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية رينيه جينو
محمد صالح الضالع
شريف الصيفى
حسن عبد ربه المصرى
مجموعة من المترجمين
مصطفى رياض
أحمد على بدوى
فيصل بن خضراء
طلعت الشايب
سحر فراج
هالة كمال
محمد نور الدين عبدالمنعم
إسماعيل المصدق
إسماعيل المصدق
عبدالحميد فهمى الجمال
شوقى فهمى
عبدالله أحمد إبراهيم
قاسم عبده قاسم
عبدالرازق عيد
عبدالحميد فهمى الجمال
جمال عبد الناصر
مصطفى إبراهيم فهمى
مصطفى بيومى عبد السلام
فدوى مالطى دوجلاس
صبرى محمد حسن
سمير عبد الحميد إبراهيم
هاشم أحمد محمد
أحمد الأنصارى
أمل الصبان
عبدالوهاب بكر
على إبراهيم منوفى
على إبراهيم منوفى
محمد مصطفى بدوى
نادية رفعت
محيى الدين مزيد
جمال الجزيرى
جمال الجزيرى
حازم محفوظ وحسين نجيب المصرى
عمر الفاروق عمر

صفاة فتحي	چاك دريدا	٥٢١- ما الذى حدثَ فى محدثِنا ١١ سبتمبر؟
بشير السباعى	هنرى لورنس	٥٢٢- المغامِرُ والمستشرق
محمد طارق الشرقاوى	سوزان جاس	٥٢٣- تعلمُ اللغة الثانية
حمادة إبراهيم	سيڤرين لايا	٥٢٤- الإسلاميون الجزائريون
عبدالعزیز بقوش	نظامى الكتجوى	٥٢٥- مخزن الأسرار (شعر)
شوقى جلال	صمويل منتجتون ولورانس هاريزون	٥٢٦- الثقافات وقيم التقدم
عبدالفار مكاوى	نخبة	٥٢٧- للحب والحرية (شعر)
محمد الحديدى	كيت دانيلز	٥٢٨- النفس والأخر فى قصص يوسف الشارونى
محسن مصيلحي	كاريل تشرشل	٥٢٩- خمس مسرحيات قصيرة
رؤف عباس	السير رونالد ستورس	٥٤٠- توجهات بريطانية - شرقية
مروة رزق	خوان خوسيه مياس	٥٤١- هى تخيل وهلوس أخرى
نعيم عطية	نخبة	٥٤٢- قصص مختارة من الأدب اليونانى الحديث
وفاء عبدالقادر	باتريك بروجان وكريس جرات	٥٤٣- أقدم لك: السياسة الأمريكية
حمدى الجابرى	روبرت هنشل وأخرون	٥٤٤- أقدم لك: ميلانى كلاين
عزت عامر	فرانسيس كريك	٥٤٥- يا له من سباق محوم
توفيق على منصور	ت. ب. وايزمان	٥٤٦- ريموس
جمال الجزيرى	فيليب تودى وأن كورس	٥٤٧- أقدم لك: بارت
حمدى الجابرى	ريتشارد أوزيرن ويورن فان لون	٥٤٨- أقدم لك: علم الاجتماع
جمال الجزيرى	بول كويلى ولينا جانز	٥٤٩- أقدم لك: علم العلامات
حمدى الجابرى	نيك جروم وييرو	٥٥٠- أقدم لك: شكسبير
سمحة الخولى	سايمون ماندى	٥٥١- الموسيقى والعملية
على عبد الرؤف البمبى	ميجيل دى ثرانتس	٥٥٢- قصص مثالية
رجاء ياقوت	دانيال لوفرس	٥٥٣- منخل للشعر الفرنسى الحديث والمعاصر
عبدالسميع عمر زين الدين	عفاف لطفى السيد مارسوه	٥٥٤- مصر فى عهد محمد على
أنور محمد إبراهيم ومحمد نصرالدين الجبالي	أنا تولى أوتكين	٥٥٥- الإستراتيجية الأمريكية للقرن العاشر والعشرين
حمدى الجابرى	كريس هوروكس وزودان جيفتك	٥٥٦- أقدم لك: جان بودريار
إمام عبدالفتاح إمام	ستوارت هود وجراهام كرولى	٥٥٧- أقدم لك: الماركيز دى ساد
إمام عبدالفتاح إمام	زيودين ساردارويورين فان لون	٥٥٨- أقدم لك: الدراسات الثقافية
عبدالحى أحمد سالم	تشا تشاجى	٥٥٩- الماس الزائف (رواية)
جلال السعيد الحفناوى	محمد إقبال	٥٦٠- صلصلة الجرس (شعر)
جلال السعيد الحفناوى	محمد إقبال	٥٦١- جناح جبريل (شعر)
عزت عامر	كارل ساجان	٥٦٢- بلايين وبلايين
صبرى محمدى التهامى	خاڤينتو بينابينتى	٥٦٣- ورود الخريف (مسرحية)
صبرى محمدى التهامى	خاڤينتو بينابينتى	٥٦٤- عش الغريب (مسرحية)
أحمد عبدالحميد أحمد	ديبورا ج. جيرنر	٥٦٥- الشرق الأوسط المعاصر
على السيد على	موريس بيشوب	٥٦٦- تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى
إبراهيم سلامة إبراهيم	مايكل رايس	٥٦٧- الوطن المقتضب
عبد السلام حيدر	عبد السلام حيدر	٥٦٨- الأصولى فى الرواية

ثائر ديب	هومي بابا	موقع الثقافة	٥٦٩-
يوسف الشارونى	سير رويرت هاى	دول الخليج الفارسى	٥٧٠-
السيد عبد الظاهر	إيميليا دى ثوليتا	تاريخ النقد الإشباني المعاصر	٥٧١-
كمال السيد	برونو أليوا	الطب فى زمن الفراغة	٥٧٢-
جمال الجزيرى	ريتشارد ابيجانانس وأسكار زارتي	أقدم لك: فرويد	٥٧٣-
علاء الدين السباعى	حسن بيرنيا	مصر القديمة فى عيون الإيرانيين	٥٧٤-
أحمد محمود	نجير وودز	الاقتصاد السياسى للعولة	٥٧٥-
ناهد العشرى محمد	أمريكو كاسترو	فكر ثريانتس	٥٧٦-
محمد قدرى عمارة	كارلو كولودى	مغامرات بينوكيو	٥٧٧-
محمد إبراهيم وعصام عبد الزوف	أيهى ميزوكوشى	الجماليات عند كيتس ومنت	٥٧٨-
محيى الدين مزيد	جون ماهر وجودى جرونز	أقدم لك: تشومسكى	٥٧٩-
بإشراف: محمد قحى عبدالهادى	جون فيزر ويول سيترجز	دائرة المعارف الدولية (مج ١)	٥٨٠-
سليم عبد الأمير حمدان	ماريو بونز	الحقى يموتون (رواية)	٥٨١-
سليم عبد الأمير حمدان	هوشنك كلشيرى	مرايا على الذات (رواية)	٥٨٢-
سليم عبد الأمير حمدان	أحمد محمود	الجيران (رواية)	٥٨٣-
سليم عبد الأمير حمدان	محمود دولت آبادى	سفر (رواية)	٥٨٤-
سليم عبد الأمير حمدان	هوشنك كلشيرى	الأمير احتجاج (رواية)	٥٨٥-
سهام عبد السلام	ليزيث مالكوس ووى أرمز	السينما العربية والأفريقية	٥٨٦-
عبدالعزیز حمدي	مجموعة من المؤلفين	تاريخ تطور الفكر الصينى	٥٨٧-
ماهر جويجاتى	أنيس كابلول	أمنحوتب الثالث	٥٨٨-
عبدالله عبدالرازق إبراهيم	فيلكس دييوا	تمبكت الحبيبة (رواية)	٥٨٩-
محمود مهدي عبدالله	نخبة	أساطير من المورثات الشعبية الفنلندية	٥٩٠-
على عبدالنواب على وصلاح رمضان السيد	هوراتيوس	الشاعر والمفكر	٥٩١-
مجدى عبدالحافظ وعلى كورخان	محمد صبرى السورىونى	الثورة المصرية (ج١)	٥٩٢-
بكر الحلو	بول فاليرى	قصائد ساحرة	٥٩٣-
أمانى قوزى	سوزانا تامارو	القلب السمين (قصة أطفال)	٥٩٤-
مجموعة من المترجمين	إكوادو بانولى	الحكم والسياسة فى أفريقيا (ج٢)	٥٩٥-
إيهاب عبدالرحيم محمد	روبرت ديجارليه وآخرون	الصحة العقلية فى العالم	٥٩٦-
جمال عبدالرحمن	خوليو كاروياروخا	مسلمو غرناطة	٥٩٧-
بيومى على قنديل	دونالد ريدفورد	مصر وكنعان وإسرائيل	٥٩٨-
محمود علاوى	هرداد مهران	فلسفة الشرق	٥٩٩-
مدحت طه	برنارد لويس	الإسلام فى التاريخ	٦٠٠-
أيمن بكر وسمر الشيشكى	ريان فوت	التسوية والمواطنة	٦٠١-
إيمان عبدالعزيز	جيمس وليامز	ليوتار: نحو فلسفة ما بعد حداثة	٦٠٢-
وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسى	أرثر أيزنبرجر	النقد الثقافى	٦٠٣-
توفيق على منصور	باتريك ل. أبوت	الكوارث الطبيعية (مج ١)	٦٠٤-
مصطفى إبراهيم فهمى	إرنست زيبروسكى (الصغير)	مخاطر كوكبنا المضطرب	٦٠٥-
محمود إبراهيم السعدنى	ريتشارد هاريس	قصة البردى اليونانى فى مصر	٦٠٦-

- ٦٠٧- قلب الجزيرة العربية (ج١) هارى سينت فيليبى
٦٠٨- قلب الجزيرة العربية (ج٢) هارى سينت فيليبى
٦٠٩- الانتخاب الثقافى أجنز فوج
٦١٠- العمارة المنجثة رفائيل لويث جوثمان
٦١١- النقد والأيدولوجية تيرى إيجلتون
٦١٢- رسالة النفسية فضل الله بن حامد الحسينى
٦١٣- السياحة والسياسة كولن مايكل هول
٦١٤- بيت الأقصر الكبير (رواية) فوزية أسعد
٦١٥- مرض الأحمد التى رعت من بغداد من ١٢٧٧ إلى ١٢٩٩ أليس بسيريرنى
٦١٦- أساطير بيضاء رويرت يانج
٦١٧- الفولكلور والبحر هوراس بيك
٦١٨- نحو مفهوم لاقتصاديات الصحة تشارلز فيلبس
٦١٩- مفاتيح أورشليم القدس ريمون أسنة أنبولى
٦٢٠- السلام الصليبى توماس ماستنك
٦٢١- النبوة المعبر الحضارى وليم ى. أنمز
٦٢٢- أشعار من عالم اسمه الصين أى تشينغ
٦٢٣- نوانر جحا الإيرانى سعيد قانعى
٦٢٤- أزمة العالم الحديث رينيه جينو
٦٢٥- الجرح السرى جان جينيه
٦٢٦- مختارات شعرية مترجمة (ج٢) نخبة
٦٢٧- حكايات إيرانية نخبة
٦٢٨- أصل الأنواع تشارلس داروين
٦٢٩- قرن آخر من الهيمنة الأمريكية نيقولاس جويات
٦٣٠- سيرتى الذاتية أحمد بللو
٦٣١- مختارات من الشعر الأفريقى المعاصر نخبة
٦٣٢- المسلمون واليهود فى مملكة فالنسيا نولورس برامون
٦٣٣- الحب وفنونه (شعر) نخبة
٦٣٤- مكتبة الإسكندرية روى ماكرويد واسماعيل سراج الدين
٦٣٥- التثبيت والتكيف فى مصر جودة عبد الخالق
٦٣٦- حج يولنده جناب شهاب الدين
٦٣٧- مصر الخديوية ف. رويرت هنتر
٦٣٨- الديمقراطية والشعر رويرت بن ورين
٦٣٩- فندق الأرق (شعر) تشارلز سيميك
٦٤٠- أكسيد الاميرة أناكومينا
٦٤١- برتراندرسل (مختارات) برتراندرسل
٦٤٢- أقدم لك: داروين والتطور جوناثان ميلر ويورين فان لون
٦٤٣- سفرتامه حجاز (شعر) عبد الماجد الدرايبادى
٦٤٤- العلوم عند المسلمين هوارد دتيرنز
- صبرى محمد حسن
صبرى محمد حسن
شوقى جلال
على إبراهيم منوقى
فخرى صالح
محمد محمد يونس
محمد فريد حجاب
منى قطان
محمد رفعت عواد
أحمد محمود
أحمد محمود
جلال البنا
عايدة الباجورى
بشير السباعى
فؤاد عكرد
أمير نبيه وعبدالرحمن حجازى
يوسف عبدالفتاح
عمر الفاروق عمر
محمد برادة
توفيق على منصور
عبدالوهاب علوب
مجدى محمود المليجى
عزة الخميسى
صبرى محمد حسن
يأشراف: حسن طلب
رانيا محمد
حمادة إبراهيم
مصطفى البهنسارى
سمير كريم
سامية محمد جلال
بدر الرفاعى
فؤاد عبد المطلب
أحمد شافعى
حسن حبشى
محمد قدرى عمارة
ممنوح عبد المنعم
سمير عبدالحميد إبراهيم
فتح الله الشيخ

عبد الوهاب علوب	تشارلز كجلى ويوجين ويتكوف	السياة التاريخية الأمريكية ومسابرها الداخلية	٦٤٥-
عبد الوهاب علوب	سپهر ذبيح	قصة الثورة الإيرانية	٦٤٦-
فتحى العشرى	جون نينييه	رسائل من مصر	٦٤٧-
خليل كلفت	بياتريث سارلو	بورخيس	٦٤٨-
سحر يوسف	جى دى موياسان	الخوف وقصص خرافية أخرى	٦٤٩-
عبد الوهاب علوب	روجر أرين	الولة والسلطة والسياسة فى الشرق الأوسط	٦٥٠-
أمل الصبان	وثائق قديمة	ديليسيس الذى لا تعرفه	٦٥١-
حسن نصر الدين	كلود ترونكر	آلهة مصر القديمة	٦٥٢-
سمير جريس	إيريش كستتر	مدرسة الطغاة (مسرحية)	٦٥٣-
عبد الرحمن الخميسى	نصوص قديمة	أساطير شعبية من أوزبكستان (ج١)	٦٥٤-
حليم طوسون ومحمود ماهر طه	إيزابيل فرانكو	أساطير وآلهة	٦٥٥-
ممنوح البستاوى	ألفونسو ساسترى	خبز الشعب والأرض الحمراء (مسرحيان)	٦٥٦-
خالد عباس	مرثيديس غارثيا أرنال	محاكم التفتيش والموريسكيون	٦٥٧-
صبرى التهامى	خوان رامون خيمينيث	حوارات مع خوان رامون خيمينيث	٦٥٨-
عبد اللطيف عبد الحليم	نخبة	قصائد من إسبانيا وأمريكا اللاتينية	٦٥٩-
هاشم أحمد محمد	ريتشارد فايفيلد	نافذة على أحدث العلوم	٦٦٠-
صبرى التهامى	نخبة	روائع أندلسية إسلامية	٦٦١-
صبرى التهامى	داسو سالدييار	رحلة إلى الجنور	٦٦٢-
أحمد شافعى	ليوسيل كليفتون	امرأة عادية	٦٦٣-
عصام زكريا	ستيفن كوهان وأنا راي هارك	الرجل على الشاشة	٦٦٤-
هاشم أحمد محمد	بول دافيز	عوالم أخرى	٦٦٥-
جمال عبد التاسر ويمحت الجبار وجمال جاد الرب	ولفجانج اتش كليمن	تطور الصورة الشعرية عند شكسبير	٦٦٦-
على ليلة	ألن جولندر	الأزمة القائمة لعلم الاجتماع الغربى	٦٦٧-
ليلى الجبالى	فريدريك جيمسون وماساو ميوشى	ثقافات العولة	٦٦٨-
نسيم مجلى	وول شوينكا	ثلاث مسرحيات	٦٦٩-
ماهر البطوطى	جوستاف أدولفو بكر	أشعار جوستاف أدولفو	٦٧٠-
على عبدالأمير صالح	جيمس بولنوين	قل لى كم مضى على رحيل القطار؟	٦٧١-
إبتهاال سالم	نخبة	مختارات من الشعر الفرنسى للأطفال	٦٧٢-
جلال الحفناوى	محمد إقبال	ضرب الكليم (شعر)	٦٧٣-
محمد علاه الدين منصور	آية الله العظمى الخمينى	ديوان الإمام الخمينى	٦٧٤-
باشراف: محمود إبراهيم السعدنى	مارتن برنال	أثينا السوداء (ج٢، ج١)	٦٧٥-
باشراف: محمود إبراهيم السعدنى	مارتن برنال	أثينا السوداء (ج٢، ج١)	٦٧٦-
أحمد كمال الدين حلمى	إنوارد جرانتفيل براون	تاريخ الأدب فى إيران (ج١ ، ج١)	٦٧٧-
أحمد كمال الدين حلمى	إنوارد جرانتفيل براون	تاريخ الأدب فى إيران (ج١ ، ج٢)	٦٧٨-
توفيق على منصور	وليام شكسبير	مختارات شعرية مترجمة (ج٢)	٦٧٩-
سمير عبد ربه	وول شوينكا	سنوات الطفولة (رواية)	٦٨٠-
أحمد الشيمى	ستانلى فش	هل يوجد نص فى هذا الفصل؟	٦٨١-
صبرى محمد حسن	بن أوكرى	نجوم حظر التجوال الجديد (رواية)	٦٨٢-

صبرى محمد حسن	ت. م. ألوكو	سكين واحد لكل رجل (رواية)	٦٨٢-
رزق أحمد بهنسى	أوراثيرو كيروجا	الأعمال القصصية الكاملة (أنا كنا) (ج١)	٦٨٤-
رزق أحمد بهنسى	أوراثيرو كيروجا	الأعمال القصصية الكاملة (المصراع) (ج٢)	٦٨٥-
سحر توفيق	ماكسين هونج كنجستون	امراة محاربة (رواية)	٦٨٦-
ماجدة العناني	قتانة حاج سيد جوادى	محبوبة (رواية)	٦٨٧-
فتح الله الشيخ وأحمد السماحى	فيليب م. دوير وريتشارد أ. موار	الانفجارات الثلاثة العظمى	٦٨٨-
هناء عبد الفتاح	تابوش روجيفيتش	الملف (مسرحية)	٦٨٩-
رمسيس عوض	(مختارات)	محاكم التفتيش فى فرنسا	٦٩٠-
رمسيس عوض	(مختارات)	ألبرت أينشتين: حياته وغرامياته	٦٩١-
حمدى الجابرى	ريتشارد أبيجانسى وأوسكار زاريت	أقدم لك: الوجودية	٦٩٢-
جمال الجزيرى	حانيم برشيت وآخرون	أقدم لك: القتل الجماعى (المحرقة)	٦٩٣-
حمدى الجابرى	جيف كوليزر وبيل مايلين	أقدم لك: بريدا	٦٩٤-
إمام عبدالفتاح إمام	ديف روينسون وجودى جروية	أقدم لك: رسل	٦٩٥-
إمام عبدالفتاح إمام	ديف روينسون وأوسكار زاريت	أقدم لك: روسو	٦٩٦-
إمام عبدالفتاح إمام	روبرت ودفين وجودى جروفس	أقدم لك: أرسطو	٦٩٧-
إمام عبدالفتاح إمام	ليود سينسر وأندريجى كروز	أقدم لك: عصر التنوير	٦٩٨-
جمال الجزيرى	إيفان وارد وأوسكار زاريت	أقدم لك: التحليل النفسى	٦٩٩-
بسمة عبدالرحمن	ماريو فرجاش	الكاتب وواقعه	٧٠٠-
منى البرنس	وليم رود فيفيان	الذاكرة والحدادة	٧٠١-
محمود علاوى	أحمد وكيليان	الأمثال الفارسية	٧٠٢-
أمين الشواربى	إيوارد جرانفيل براون	تاريخ الأدب فى إيران (ج٢)	٧٠٣-
محمد علاء الدين منصور وآخرون	مولانا جلال الدين الرومى	فيه ما فيه	٧٠٤-
عبدالحميد منكور	الإمام الفزالى	فضل الأنام من رسائل حجة الإسلام	٧٠٥-
عزت عامر	جونسون ف. يان	الشفرة الوراثية وكتاب التحولات	٧٠٦-
وفاء عبدالقادر	هوارد كاليجل وآخرون	أقدم لك: فالتر بنيامين	٧٠٧-
روف عباس	دونالد مالكولم ريد	فراغة من؟	٧٠٨-
عادل نجيب بشرى	ألفريد أدلر	معنى الحياة	٧٠٩-
دعاء محمد الخطيب	يان هاتشباى وجوموران إليس	الأطفال والتكنولوجيا والثقافة	٧١٠-
هناء عبد الفتاح	ميرزا محمد هادى رسوا	درة التاج	٧١١-
سليمان البستانى	هوميروس	ميراث الترجمة: الإلياذة (ج١)	٧١٢-
سليمان البستانى	هوميروس	ميراث الترجمة: الإلياذة (ج٢)	٧١٣-
حنا صاوه	لامنيه	ميراث الترجمة: حديث القلوب	٧١٤-
نخبة من المترجمين	مجموعة من المؤلفين	جامعة كل المعارف (ج١)	٧١٥-
نخبة من المترجمين	مجموعة من المؤلفين	جامعة كل المعارف (ج٢)	٧١٦-
نخبة من المترجمين	مجموعة من المؤلفين	جامعة كل المعارف (ج٣)	٧١٧-
نخبة من المترجمين	مجموعة من المؤلفين	جامعة كل المعارف (ج٤)	٧١٨-
نخبة من المترجمين	مجموعة من المؤلفين	جامعة كل المعارف (ج٥)	٧١٩-
نخبة من المترجمين	مجموعة من المؤلفين	جامعة كل المعارف (ج٦)	٧٢٠-

مصطفى لبيب عبد الفتى	هـ. أ. ولفسون	٧٢١- فلسفة المتكلمين فى الإسلام (مج ١)
الصفصافى أحمد القطورى	يشار كمال	٧٢٢- الصفيحة وتخصص أخرى
أحمد ثابت	إفرايم تيمنى	٧٢٣- تحديات ما بعد الصهيونية
عبد الريس	بول روينسون	٧٢٤- اليسار الفرويدى
مى مقلد	جون فيتكس	٧٢٥- الاضطراب النفسى
مروة محمد إبراهيم	غيرمو غوثالبيس بوستو	٧٢٦- المديسكيون فى المغرب
وحيد السعيد	باچين	٧٢٧- حلم البحر (رواية)
أميرة جمعة	موريس أليه	٧٢٨- العولة: تدمير العمالة والنمر
هويدا عزت	صادق زيباكالام	٧٢٩- الثورة الإسلامية فى إيران
عزت عامر	أن جاتى	٧٣٠- حكايات من السهول الأفريقية
محمد قدرى عمارة	مجموعة من المؤلفين	٧٣١- النوع: الفكر والأش بين التميز والاختلاف
سمير جريس	إنجو شولتسه	٧٣٢- قصص بسيطة (رواية)
محمد، مصطفى بدوى	وليم شيكسبير	٧٣٣- مأساة عطيل (مسرحية)
أمل الصبان	أحمد يوسف	٧٣٤- بونابرت فى الشرق الإسلامى
محمود محمد مكى	مايكل كويرسون	٧٣٥- فن السيرة فى العربية
شعبان مكافى	هوارد زن	٧٣٦- التاريخ الشعبى للولايات المتحدة (ج١)
توفيق على منصور	باتريك ل. أبوت	٧٣٧- الكوارث الطبيعية (مج ٢)
محمد عواد	جيرار دى جودج	٧٣٨- مشق من مسرما قبل التاريخ إلى العرة الملوكية
محمد عواد	جيرار دى جودج	٧٣٩- مشق من الإمبراطورية المشابهة حتى العرة الملوكية
مرفت ياقوت	بارى هندس	٧٤٠- خطابات السلطة
أحمد هيكل	برنارد لويس	٧٤١- الإسلام وأزمة العصر
رزق بهنسى	خوسيه لاکواندا	٧٤٢- أرض حارة
شوقى جلال	روبرت أونجر	٧٤٣- الثقافة: منظور داروينى
سمير عبد الحميد	محمد إقبال	٧٤٤- ديوان الأسرار والرموز (شعر)
محمد أبو زيد	بيك النبلبى	٧٤٥- المآثر السلطانية
حسن النعيمى	جوزيف أ. شومبيتر	٧٤٦- تاريخ التحليل الاقتصادى (مج ١)
إيمان عبد العزيز	تريفور وايتوك	٧٤٧- الاستعارة فى لغة السينما
سمير كريم	فرانسيس بويل	٧٤٨- تدمير النظام العالمى
باتسى جمال الدين	ل.ج. كالفيه	٧٤٩- إيكلوجيا لغات العالم
ياشرف: أحمد عثمان	هوميروس	٧٥٠- الإلياذة
علاء السباعى	نخبة	٧٥١- الإسراء والمعراج فى تراث الشعر الفارسى
نمر عارودى	جمال قارصلى	٧٥٢- ألمانيا بين عقدة الذنب والخوف
محسن يوسف	إسماعيل سراج الدين وآخرون	٧٥٣- التنمية والقيم
عبد السلام حيدر	أنا مارى شيميل	٧٥٤- الشرق والغرب
على إبراهيم منوفى	أندرو ب. ديبكى	٧٥٥- تاريخ الشعر الإسباني خلال القرن العشرين
خالد محمد عباس	إنريكي خاربييل بونتيلا	٧٥٦- ذات العيون الساحرة
أمال الروبى	باتريشيا كرون	٧٥٧- تجارة مكة
عاطف عبد الحميد	بروس روينز	٧٥٨- الإحساس بالعولة

- ٧٥٩- النثر الأردى مولوى سيد محمد
- ٧٦٠- الدين والتصور الشعبى للكون السيد الأسود
- ٧٦١- جيوب مثقلة بالحجارة (رواية) فيرجينيا وولف
- ٧٦٢- المسلم عدواً و صديقاً ماريا سوليداد
- ٧٦٣- الحياة فى مصر أنريكو بيا
- ٧٦٤- ديوان غالب الدهلوى (شعر غزل) غالب الدهلوى
- ٧٦٥- ديوان خواجة الدهلوى (شعر تصوف) خواجة الدهلوى
- ٧٦٦- الشرق المتخيل تييرى هنتش
- ٧٦٧- الغرب المتخيل نسيب سمير الحسينى
- ٧٦٨- حوار الثقافات محمود فهمى حجازى
- ٧٦٩- أدباء احياء فريدريك هتمان
- ٧٧٠- السيدة بيرفيكتا بينيتو بيريث جالدوس
- ٧٧١- السيد سيجوننو سومبرا ريكاردو جويرالديس
- ٧٧٢- بريخت ما بعد الحدائة إليزابيث رايت
- ٧٧٣- دائرة المعارف النولية (ج٢) جون فيزد ويول ستيرجز
- ٧٧٤- الديسوتراطة الامريكية: التاريخ والمرتزمات مجموعة من المؤلفين
- ٧٧٥- مرآة العروس نذير أحمد الدهلوى
- ٧٧٦- منظومة مصيبت نامه (مج١) فريد الدين العطار
- ٧٧٧- الانفجار الأعظم جيمس !. ليدسى
- ٧٧٨- صفوة المديح مولانا محمد أحمد ورضا القادري
- ٧٧٩- خيوط العنكبوت وقصص أخرى نخبة
- ٧٨٠- من أرب الرسائل الهندية حجاز : ١٩٢٠ غلام رسول مهر
- ٧٨١- الطريق من بكين هدى بدران
- ٧٨٢- المسرح المسكون مارفن كارلسون
- ٧٨٣- العولة والرعاية الإنسانية فيك جورج ويول ويلدنج
- ٧٨٤- الإسائة للطفل ديفيد أ. وولف
- ٧٨٥- تأملات عن تطور نكاه الإنسان كارل ساجان
- ٧٨٦- المذبذبة (رواية) مارجريت أتوود
- ٧٨٧- العودة من فلسطين جوزيه بوفيه
- ٧٨٨- سر الأهرامات ميروسلاف فرنز
- ٧٨٩- الانتظار (رواية) هاجين
- ٧٩٠- الفرانكفونية العربية مونيك بونتو
- ٧٩١- العطور ومعامل العطور فى مصر القديمة محمد الشيمى
- ٧٩٢- دراسات حول النفس القسيرة لإيريس بمسرفة منى ميخائيل
- ٧٩٣- ثلاث رؤى للمستقبل جون جريفيس
- ٧٩٤- التاريخ الشعبى للولايات المتحدة (ج٢) هوارد زن
- ٧٩٥- مختارات من الشعر الإيبانى (جدا) نخبة
- ٧٩٦- أفاق جديدة فى دراسة اللغة والذهن نعوم تشومسكى
- جلال الحفناوى
- السيد الأسود
- فاطمة ناعوت
- عبدالعال صالح
- نجوى عمر
- حازم محفوظ
- حازم محفوظ
- غازى برو وخليلى أحمد خليل
- غازى برو
- محمود فهمى حجازى
- رندا النشار وضياء زاهر
- صبرى التهامى
- صبرى التهامى
- محسن مصيلحى
- بإشراف: محمد فتحى عبدالهادى
- حسن عيد ربه المصرى
- جلال الحفناوى
- محمد محمد يونس
- عزت عامر
- حازم محفوظ
- سمير عبدالحميد إبراهيم وسارة تاكاهاشى
- سمير عيد الحميد إبراهيم
- نبيلة بدران
- جمال عبد المقصود
- طلعت السروجى
- جمعة سيد يوسف
- سمير حنا صادق
- سحر توفيق
- إيناس صادق
- خالد أبو اليزيد البلتاجى
- منى الدرورى
- جيهان العيسوى
- ماهر جورجاتى
- منى إبراهيم
- رعى وصفى
- شعبان مكارى
- على عبد الروف البمبى
- حمزة المزينى

طلعت شاهين	نخبة	الرؤية في ليلة معتمة (شعر)	٧٩٧-
سميرة أبو الحسن	كاترين جيلدرد ودافيد جيلدرد	الإرشاد النفسي للأطفال	٧٩٨-
عبد الحميد فهمي الجمال	آن تيلر	سلم السنوات	٧٩٩-
عبد الجواد توفيق	ميشيل ماكارشي	قضايا في علم اللغة التطبيقي	٨٠٠-
بإشراف: محسن يوسف	تقرير دولي	نحو مستقبل أفضل	٨٠١-
شرين محمود الرفاعي	ماريا سوليداد	مسلمو غرناطة في الآداب الأوروبية	٨٠٢-
عزة الخميسي	توماس باترسون	التغير والتنمية في القرن العشرين	٨٠٢-
درويش الحلوجي	دانيل هيرفيه-ليجييه وچان بول ويلام	سوسيولوجيا الدين	٨٠٤-
طاهر البربري	كارو إيشيجورد	من لا عزاء لهم (رواية)	٨٠٥-
محمود ماجد	ماجدة بركة	الطبقة العليا المتوسطة	٨٠٦-
خيري دومة	ميريام كوك	يحي حقي: تشريح مفكر مصري	٨٠٧-
أحمد محمود	ديفيد دابلو ليش	الشرق الأوسط والولايات المتحدة	٨٠٨-
محمود سيد أحمد	ليو شتراوس وجوزيف كروبسي	تاريخ الفلسفة السياسية (ج١)	٨٠٩-
محمود سيد أحمد	ليو شتراوس وجوزيف كروبسي	تاريخ الفلسفة السياسية (ج٢)	٨١٠-
حسن النعيمي	جوزيف أ. شومبيتر	تاريخ التحليل الاقتصادي (مج٢)	٨١١-
فريد الزاهي	ميشيل مالفيزولي	نثر العالم: الصبر والأسلوب في الحياة الاجتماعية	٨١٢-
نورا أمين	آني إرنو	لم أخرج من ليلى (رواية)	٨١٢-
أمال الروبي	ناقنتال لويس	الحياة اليومية في مصر الرومانية	٨١٤-
مصطفى ليبي عبد الغني	هـ. أ. ولفسون	فلسفة المتكلمين (مج٢)	٨١٥-
بدر الدين عرويدي	فيليب روجيه	العدو الأمريكي	٨١٦-
محمد لطفي جمعة	أقلاطون	مائدة أقلاطون: كلام في الحب	٨١٧-
ناصر أحمد ويانسى جمال الدين	أندريه ريمون	الحرفيين والتجار في القرن ١٨ (ج١)	٨١٨-
ناصر أحمد ويانسى جمال الدين	أندريه ريمون	الحرفيين والتجار في القرن ١٨ (ج٢)	٨١٩-
طانيوس أفندي	وليم شكسبير	ميرات الترجمة: عملت (مسرحية)	٨٢٠-
عبد العزيز بقوش	نور الدين عبد الرحمن الجامي	هفت بيكر (شعر)	٨٢١-
محمد نور الدين عبد المنعم	نخبة	فن الرباعي (شعر)	٨٢٢-
أحمد شافعي	نخبة	وجه أمريكا الأسود (شعر)	٨٢٣-
ربيع مفتاح	دافيد برتش	لغة الدراما	٨٢٤-
عبد العزيز توفيق جاويد	ياكوب يوكهارت	ميرات الترجمة: عصر النهضة في إيطاليا (ج١)	٨٢٥-
عبد العزيز توفيق جاويد	ياكوب يوكهارت	ميرات الترجمة: عصر النهضة في إيطاليا (ج٢)	٨٢٦-

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٤٨٣٧ / ٢٠٠٥



حضارة عصر النهضة في إيطاليا ٢

لسنا أصحاب أهداف الحكمة الأبدية، فإنها تخرج عن
طوقنا. ويؤدى بنا هذا الادعاء (الهيغلى) الجريء المتعلق
بخطة عالمية إلى المغالطات. لأنه ينطلق عن قضايا
مغلوبة...

على أننا مع ذلك سنبدأ من النقطة الواحدة المفتوحة
أمامنا، وهي المركز الأبدى لجميع الأشياء: الإنسان في
معاناته، وكفاحه، وفعله وشأنه الآن وكما كان وكما
سيكون إلى أبد الأبدين.

ياكوب بوركهارت

مقدمة تأملات في التاريخ

بهذه الكلمات صدرت الطبعة الأمريكية لكتاب "حضارة عصر النهضة
في إيطاليا". ولم يكن ياكوب بوركهارت يتكهن بأن هذه الدراسة التي قدمها
بتواضع شديد وأسمائها بالمقالة، ستصبح التفسير القاطع لحقبة عظيمة
في التاريخ. ولم يكن ليتخيل أن كل مؤرخ ذى شأن لعصر النهضة سوف يحاول
أن يشحذ أو يمحو الصورة التي خلقها بوركهارت. ولذا ينذر أن يكون لأى
عمل تاريخى هذا الأثر المستمر الذى أحدثه بوركهارت بكتابه "حضارة عصر
النهضة في إيطاليا".